من مخطوطات دير المحرق العامر

ميامر
القديس إغريغوريوس
الناطق بالإلهيات

الجزء الأول

إعداد
راهب من دير المحرق

تقديم
نيافة الأنبا ساويرس
أسقف ورئيس دير السيدة العذراء بالمحرق

تقديم

يُخْرِجُ مِنْ كَنْزِهِ جُدُداً وَعُتَقَاءَ

(مت ١٣ : ٥٢)

كتاب ميامر القديس إغريغوريوس الثاؤلوغس " الناطق بالإلهيات" هو مخطوط قيم من مخطوطات دير السيدة العذراء المحرق، به موضوعات كثيرة لاهوتية وعقائدية وأخلاقية وحكم وإرشادات ومدح قديسين وتفسير آيات كتابية ....

وقد قام أحد الآباء الرهبان بإعداده، لذلك نحن نسر بصدور هذا الكتاب الثمين الذي بين يديك أيها القارئ العزيز ليكون لك عوناً في شرح إيمانك وعقيدتك الأرثوذكسية ويفيدك في حياتك العملية، لأن أقوال الآباء وكتاباتهم هى حجة يرجع إليها ويعول عليها، ونأمل أن يحوز إعجابكم .

الرب الإله قادر أن يستخدم هذه الكلمات لمجد اسمه القدوس، وبنيان كنيسته المؤسسة على صخر الإيمان، بصلوات وبركة صاحب الغبطة والقداسة البابا شنودة الثالث، أطال الله حياته ممتعاً بالصحة والسلام.

ساويرس
أسقف ورئيس
دير السيدة العذراء المحرق

مقدمة

يعتبر الآباء أن تكريم القديسين في الكنيسة وتمجيدهم ليس بمثابة مكافئة لهم، وإنما باعتبارهم الأيقونات الكاملة للمسيح بإيمانهم ومحبتهم وسيرتهم العطرة، لهذا يكرمون في الكنيسة [كأصدقاء الله، وأيادي الله] إذ بهم يتمم أعماله في الكنيسة .

يقول القديس إغريغوريوس " إن ذكر القديسين هو في ذاته بركة وتقديس وأمر عظيم للحث على الفضيلة"، ويقول مارإسحق السرياني أن سيرة القديسين تكون كالغروس المثمرة وأن أخبارهم شهية في مسامع الودعاء .

فالقديسون اشتعلوا بالروح القدس وحفظوا نعمته متوقدة وأعطوه فرصة ليعمل فيهم دون أن يعوقوه، ومن ثم اقتنوا فرح الخلاص ونالوا الشركة الإلهية والبصيرة الحية بالنعمة المعطاة لهم من الله، لذا تقدسوا واستنارت عقولهم وقدموا لله خدمة مرضية بحياتهم وأقوالهم فنالوا ملكوتاً لا يتزعزع، وبعد نياحتهم يقومون بأعمال محبة كشفعاء ومعاونين وممهدين لطريق إخوتهم الذين في العالم إلى الخلاص إذ هم سحابة الشهود المحيطة بنا، وهم دليل أرضيّ يشير إلى الكنيسة السمائية، وهم جسر الكنيسة الأرضية المنظور الذي به تتحد مع الكنيسة العليا .

فتكريم القديسين يُظهر أن حياة القداسة ممكنة للذين يتجاوبون مع عمل النعمة الإلهية، وتكريم القديسين لا يعني أنهم يوقرون بعيداً عن عظمة شخص المسيح وأعماله، بل بالحرى كل تكريم يقدم لهم إنما هو أصلاً موجه لشخص ربنا يسوع المسيح " لأن من يكرمهم يكرم المسيح ومن يحتقرهم يحتقره" (لو ١٠: ١،١٦تس ٤: ٨)، وعجيب هو الله في قديسيه (مز ١١٦: ١٥)، وهم قيام حول عرش الله ويتبعون الخروف حيثما ذهب (رؤ١٤: ٤).

فلذلك أيقونات القديسين هى انعكاسات لصورة المسيح المغروسة في الإنسان الجديد، فنحن حينما نكرم القديسين فنحن نكرم الفضيلة بل نكرم

المسيح معطي الفضيلة كما قال القديس إغريغوريوس في مديحه للقديس أثناسيوس الرسوليّ، لذلك نحن نكرم القديس إغريغوريوس الآن ونخرج سيرته وميامره من مخطوطات دير السيدة العذراء المحرق العامر ليستفيد بها الجميع وليشفع فينا أمام عرش النعمة .

فبعد أن قمنا بنشر بعض المخطوطات مثل تفسير سفر المزامير في ثلاثة أجزاء، والموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي لابن المكين في أربعة أجزاء، واعترافات الآباء، بدأنا بإعداد هذا المخطوط الثمين ميامر القديس إغريغوريوس الثاؤلوغس ولكبر حجمه قسمناه إلى جزئين فالجزء الأول يحتوي على خمسة عشر ميمراً، وقد قمنا بإضافة ترجمة لحياة المؤلف والتعريف بشخصيته ومقدمة وتقديم لأبينا الأسقف نيافة الأنبا ساويرس .

ويتكون الجزء الأول من الآتي :-

ميامر (*) على الميلاد والغطاس والفصح والأحد الجديد والعنصرة "يوم الخمسين" والابن واللاهوت والحث على عدم تأخير المعمودية ومحبة المساكين والفضيلة وحسن التريث في المفاوضات ...

فلنطلب من ربنا يسوع المسيح شهوة قلبي غير المدرك الذي لا أريد معه شيئاً على الأرض أن يجعل هذا الكتاب سبب بركة لكل من يقرأه بشفاعة أم النور العذراء مريم شفيعة ديرنا العامر وصلوات فيلسوف عصره معلم الجيل قداسة **البابا المعظم الأنبا شنودة الثالث** وشريكه في الخدمة الرسولية أبينا المحبوب الطوباويّ **نيافة الأنبا ساويرس** أسقف ورئيس دير السيدة العذراء المحرق، ولإلهنا كل مجد وكرامة من الآن وإلى الأبد آمين.

راهب من دير المحرق

(*) الميمر: عظة، موعظة، قصيدة تقرأ ولا تنشد وهى تعليمية قصصية)

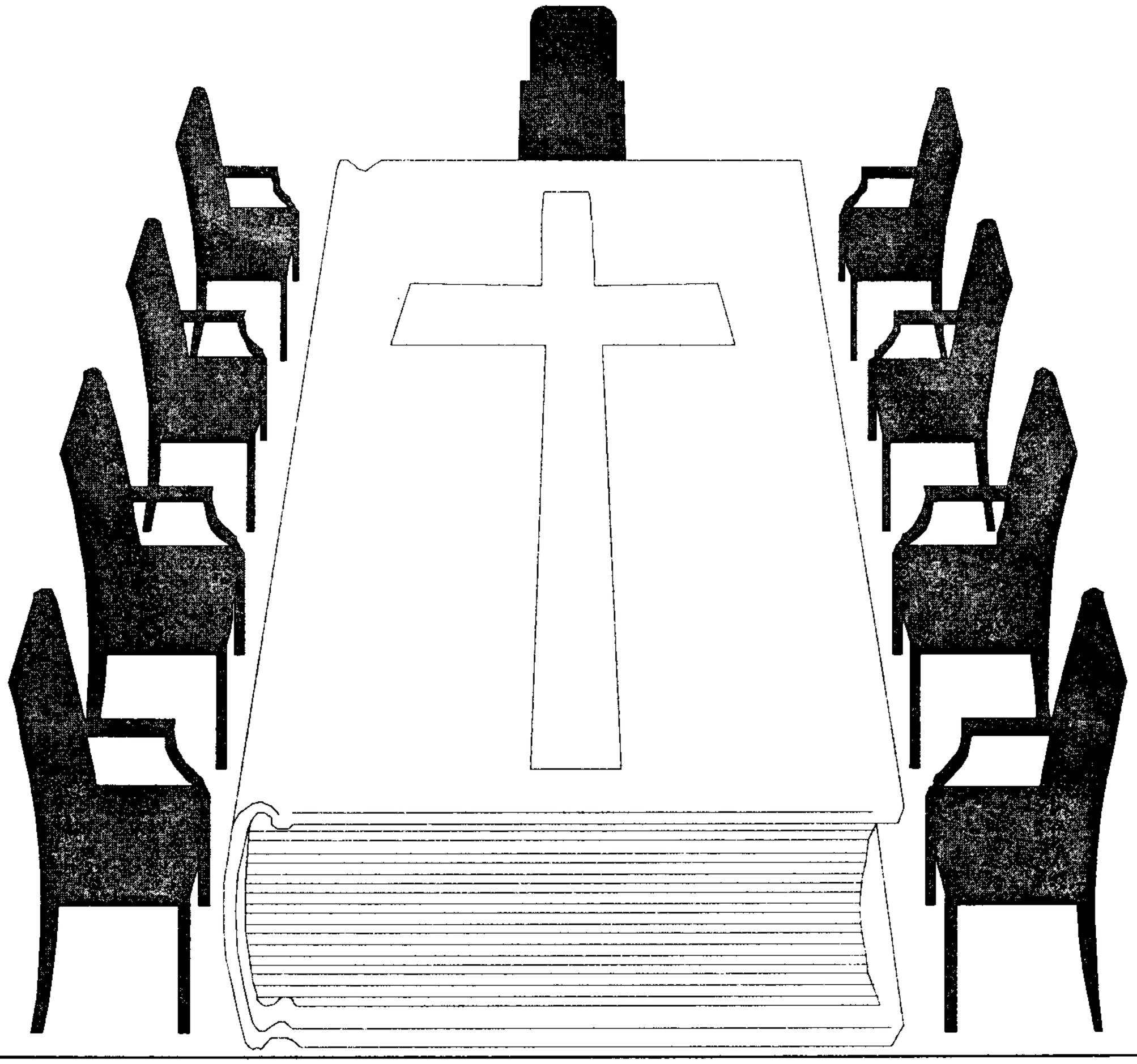

يوجد رجاء لأعظم خاطي يقرأ الكتاب المقدس

ويوجد خطر على أعظم قديس يهمل قراءة الكتاب المقدس

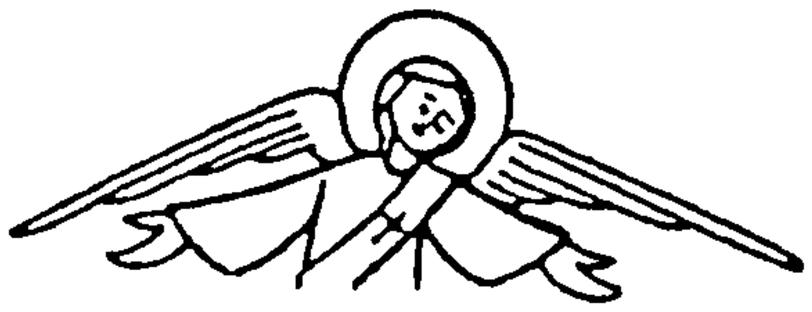

حياة القديس

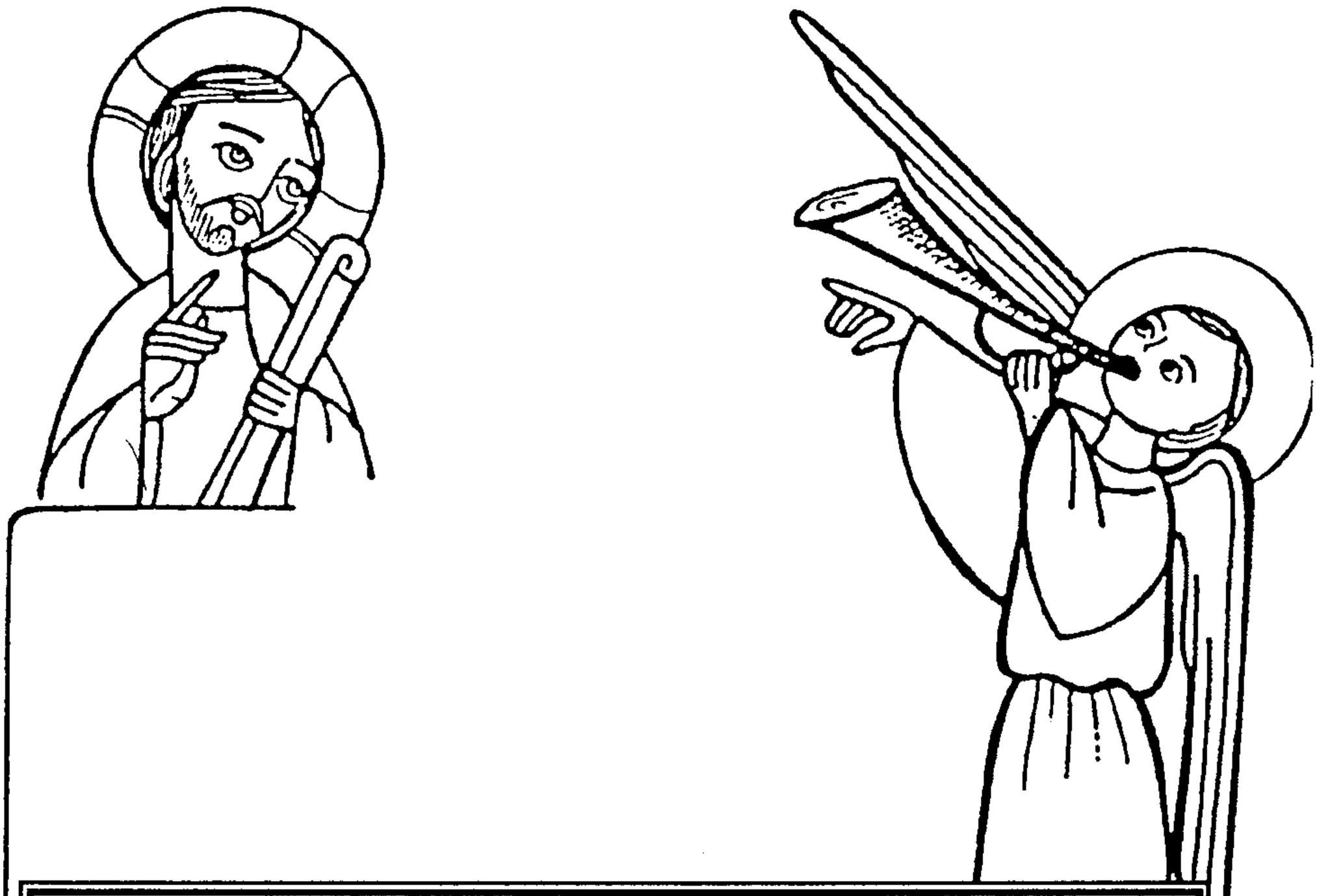

حياة القديس إغريغوريوس
حياة القديس إغريغوريوس

النزينزي "الناطق بالالهيات"
النزينزي "الناطق بالالهيات"

حياة القديس إغريغوريوس النزينزي
'الناطق بالإلهيات'

القديس إغريغوريوس النزينزي الملقب بالثيؤلوغوس " إي الناطق بالإلهيات" هو أحد ثلاثة آباء عظام يعرفون بالآباء الكبّادوك، وهم القديس باسيليوس الكبير وأخوه القديس إغريغوريوس أسقف نيصص و القديس إغريغوريوس النزينزي الذي نحن بصدده الآن، وقد عاش الثلاثة في عصر واحد وإقليم واحد وهو كبادوكيا بأسيا الصغرى (تركيا حالياً)، وكان لهم دور فعال بعد القديس أثناسيوس الرسوليّ في مقاومة الأريوسية.

موطنه

ولد القديس إغريغوريوس سنة ٣٢٩م في قرية صغيرة تدعى أرينز التابعة لمدينة نزينزا، من أم عظيمة تدعى نونا التي جذبت زوجها إغريغوريوس الثريّ والقاضي من البدعة التي كان يتبعها إلى الإيمان المستقيم ونال العماد حوالي سنة ٣٢٩م، وذلك قبل سيامته أسقفاً على مدينة نزينزا بأربع سنوات، وعاش في الأسقفية ٤٥ عاماً، ولكنه في سنة ٣٦٢م، حدث انشقاق في الكنيسة أدى إلى تورط إغريغوريوس الأب في توقيع بيان ريميني، وكان لا يخلو من آراء أريوسية فعمل إغريغوريوس الابن على اقناع أبيه وارجاعه إلى الإيمان المستقيم، وبذلك عاد السلام إلى الكنيسة.

القديسة نونا أمه

كانت القديسة نونا أم القديس تصلي إلى الله أن يعطيها ابناً فتقدمه إلى الله مثل حنة أم صموئيل النبي، لأنه كان لها بنت واحدة تدعى غورغينا، فاستجاب الله طلبها وأعطاها أبناً، فسمته باسم أبيه إغريغوريوس، ثم رزقها بابن آخر وأسمته كيساريوس .

نما القديس إغريغوريوس في حضن أم تقية تعلّم منها الحياة المسيحية الحقة، وفي أوائل حياته رأى رؤيا، فتاتين عذراويتين في لباس محتشم إحداهما تدعى العفة والأخرى تدعى القناعة، وكل منهما تدعوه وتحثه إلى الصعود إليها والالتصاق بها... ثم غابتا عن عينيه إلى السماء، ومنذ ذلك الحين أحب إغريغوريوس حياة البتولية وفاضت عظاته ومقالاته بالحديث عنها دون أن ينكر قدسية حياة الزيجة .

تعليمه

توجّه بعد ذلك إلى قيصرية الكبادوك، ليتأدب بعلومها وهناك تعرف بالقديس باسيليوس الكبير، وصارت بينهما صداقة حميمة، ثم ذهب إلى قيصرية فلسطين ليتعلم الخطابة، وبعدها الإسكندرية، حيث كان القديس أثناسيوس الرسوليّ، قد حاز على كرامة سامية في الكنيسة، وتقابل مع ديديموس الضرير الذي كان مديراً للمدرسة اللاهوتية هناك، وأخيراً توجه إلى أثينا وهناك أكمل علوم الخطابة والبلاغة والأدب الإغريقيّ والفلسفة والطبيعة والشعر، والتقى في أثينا مرة أخرى بصديقه القديس باسيليوس وصارا كما يقول هو نفسه [نفساً واحدة في جسدين]، وقد كتب عن تقابله مع القديس باسيليوس في أثينا بعد عشرين سنة قائلاً: [بينما كنت أبحث عن البلاغة، وجدت السعادة، وكأن ما حدث لشاول قد حدث لي، فبينما كان يفتش عن حمير أبيه، إذ به يلاقي عرش المُلك، ويربح شيئاً أعظم مما كان يفتش عليه].

أرادت مدرسة أثينا استبقاءه مع القديس باسيليوس لتدريس الآداب، ولكنهما كانا قد مالا إلى تكريس حياتهما لخدمة الرب .

تقابل في أثينا مع الأمير جوليان الذي صار فيما بعد يوليانوس الجاحد، حيث كان يدرس هناك في ذلك الوقت، وأراد أن يلتصق بالقديس إغريغوريوس ، ولكن القديس لفظه لأن أخلاقه لا تتفق معه، حتى قال عنه [ما أشرس هذا الوحش الذي تربيه المملكة الرومانية في حضنها، وبعد أن صار يوليانوس امبراطوراً أراد أن يستميل إغريغوريوس إليه ولكن لم يفلح، ولكنه نجح في كسب أخيه كيساريوس وعينه كطبيب امبراطوري، فكتب القديس إغريغوريوس إلى أخيه يحثه ليترك هذا الذئب الخاطف، وبالفعل تركه كيساريوس ومكث في أثينا .

معموديته

بعد أن عاد إغريغوريوس من أثينا، نال سر المعمودية حسب العادة في بلاده، التي كانت تأخر المعمودية إلى سن الثلاثين، ثم اندفع في حياة نسكية شديدة، ثم التحق بعد ذلك بالقديس باسيليوس الكبير، ليعيش معه الخلوة والتأمل في المكان الذي أنشأه في إقليم بنطس .

سيامته

سامه والده كاهنا ليساعده في خدمة كنيسة نزينزا بدون رضاه، ولكنه بعد فترة رجع إلى صديقه باسيليوس في بنطس، ثم بعد فترة قصيرة نزل لنزينزا سنة٣٦٢م، لكبر سن والده ولوفاة أخيه كيساريوس .

رسم باسيليوس على قيصرية سنة ٣٧٠م، وأراد أن يرسم إغريغوريوس أسقفاً فرسمه على قرية تدعى سازيم سنة ٣٧٢م، ولكنه لم يستمر فيها لكثرة المشاكل بها الخارجة عن إرادته... فعاد إلى خدمة أبيه الشيخ وشعبه نزينزا، وبعد وفاة أبيه رجع إلى الوحدة مرة أخرى .

نقله إلى القسطنطينية ليرعى شعبها

وبعد وفاة القديس باسيليوس سنة ٣٧٩م، نقل القديس إغريغوريوس إلى القسطنطينية، ليرعى شعبها الذي أتعبه الأريوسيون، فأقام كنيسة باسم أنسطاسيا (إي القيامة)، وبدأ يعلم فيها حتى جذب الشعب جميعه، وزاد على ذلك بعد أن تولى الإمبراطور ثيئودوسيوس سنة ٣٨٠م، فقلع الأسقف الأريوسيّ مع كهنته، وسلم الكنيسة للقديس إغريغوريوس .

رئاسته لمجمع القسطنطينة الثاني

في سنة ٣٨١م دعاه الإمبراطور ثيئودوسيوس لحضور المجمع الثاني بالقسطنطينية، فرأس المجمع بعد نياحة ملاتيوس أسقف أنطاكية، وعندما وصل أساقفة مصر ومقدونية احتجوا على هذا الاختيار الذي تبعاً للقانون رقم ١٥ لمجمع نيقية، لا يمكن نقل أسقف من إيبارشية إلى أخرى، وحيث إن إغريغوريوس سيم على سازيما فلا يجوز تثبيته على القسطنطينية، فاستجاب إغريغوريوس واستقال من القسطنطينية وذهب إلى بلده من أجل سلام الكنيسة .

كتاباته ونياحته

وتوفيَّ سنة ٣٩٠م بعد أن وضع لنا خطباً وميامر كثيرة، ننشر منها ٢٩ ميمراً والميمر الثلاثون قيل فيه بعد نياحته من مخطوطة بمكتبة دير السيدة العذراء المحرق العامر برقم ١١/ ١٩ أو ٦٥ لاهوت ولكبر حجم المخطوط قسمناه إلى جزئين وهذا هو الجزء الأول .

صلوات هذا القديس العظيم تكون مع جميعنا آمين .

إعداد راهب

من دير المحرق العامر

الحكيم يتأمل فضائل غيره ليقتنيها

والجاهل يتأمل رزائل غيره ويدينه عليها

(الدرجي)

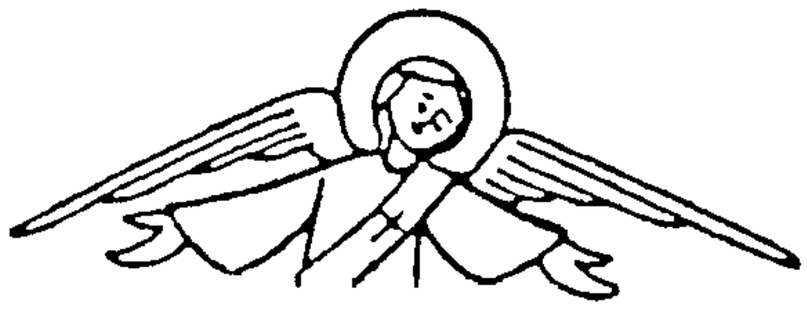

الميمر الأول

ميمر كتبه إلى اللبان

بسم الآب والابن والروح القدس
إله واحد له المجد دائماً آمين

نبتدئ بعون الله وتأييده وتسبحته وتمجيده بنقل ميامر وأقوال ومدائح، من أقوال أبينا القديس إغريغوريوس الثاؤلوغس صلواته تحفظنا، يتلوهما مديحة قيلت فيه بعد نياحته، عدتهم ثلاثون .

الميمر الأول
كتبه إلى الليان

والسبب في ذلك أن القديس إغريغوريوس كان له مدة قد صمت لا يتكلم بميمر ولا بغيره، فلما تولى هذا الليان تعديل الخراج في الكبادوك، وقد كانت بينه وبين إغريغوريوس معرفة قديمة لأنهما كانا يتعلمان جميعاً في المكتب، سأل إغريغوريوس أن يتكلم فيؤلف ميمراً يشتمل على شيء من الوعظ فامتنع عليه .

فقال له أنا أعلم أن الإحسان إلى الرعية منك ببال، فإن أردتني أن أحسن إليهم في الثبت الذي أثبته، والتعديل الذي أعدله، فقدم الكلام وأجبني إلى ما سألتك إياه .

فتكلم بهذا الميمر وعنونه بهذا العنوان، وابتدأ فيه بذكر اغتصابه على رأيه فيما كان أزمعه من الصمت قال :

ما هذا الاغتصاب الذي لا نزال من المودة نغتصبه دائماً .

ما هي حكمتي ومعرفتي التي في كل محفل نحارب من أجلها .

أما أنا فإذا نظرت إلى نفسي، وميزتها من سائر الجهات، لم أجد ولا واحدةً، ما خلا شيئاً واحداً، فإني أعرفه في نفسي، وعساه أن لا يكون رديئاً، وإن كان قوم يسمونه مهانة، وذلك أني أثرت أن أموت في كل وقت للعالم، وأعيش للمسيح الحياة المكتومة (١كو ٢ : ٧) ، وأكون تاجراً خطيراً قد اشتريت بجميع ما معي الجوهرة الكريمة (مت ١٣ : ٤٦) ، ودفعت الأشياء السائلة (الفانية) المنسحبة، بدل الأشياء السمائية الثابتة، وهذه أعظم التجارات وأثبتها لذوي العقول، وإن لم يكن ذلك، فاصبر على هذا، وهو أن أنزل عن الكراسيّ لمؤثريها، وأكون أنا صبياً وتلميذاً في سائر عمري إلى أن أقذف المالح من القول، بالمشروب منه، فهذا شيء فليكن واحداً من فلسفتي، أو مهانتي، بل أول الأشياء .

وثانيها أيضاً فهو عظيم جداً، وذلك ما أمكنني أن أضبط بالكلام كلام الكثيرين، ولا تيسر أن أمنع من المذهب المتمكن الآن من كل واحد في إصابتهم، وإيثارهم أن يعلموا أو يتكلموا بكلام الروح، بلا روح، فرأيت أن أسلك طريقة أخرى هي حسب ما أقنع نفسي، أفضل من تلك، وأقل نصباً، وذلك أن أودب الكل وأقودهم إلى الصمت، بالمثال الأول في السكوت، فإن كانوا يرون فينا شيئاً عظيماً فليستحوا من الجلالة، وأن كانوا يرون شيئاً صغيراً أو بمقدار ما أستحقه، فيروا في الانحطاط، المساواة بالرفيق، والمساوي لهم في الحال، فهذا هو الرأي في سكوتي، وهذا سر إمساكي .

والآن فما حالي واحد من ههنا، وآخر من هناك، يجذبانني ويدفعانني ويتخاصمان على عنائي وتعبي، ويطالبانني أن أتكلم، كمطالبة دين لابد منه، ويحثاني أكثر مني لنفسي، وكلهم فأحكم مني ويعرفون زيادةً على وقت الكلام، ووقت الصمت، ويقولون أنهم لا يفرحون إلى أن يقدحوني بالعنت، مثل الحجر بالحديد، فيخرجوا من شرارة صغيرة، ناراً يشعلونها للكلام كثيرة، وفيهم قوم يعدون بأجل من هذا، ويبذلون على الكلام جوائز عظيمة، أولها أن يحسنوا إلى نفوسهم، ويقربوها لله، ولنا من أجل الكلام، وبعد ذلك أن يحسنوا في الثبت إلى هذه الجماعة كلها التي هي لي ونصيبي، إذا كان لي ما هو لوالدي، أعني رعيتي التي سأظلمهم جداً، إن لم

أؤثر الإحسان إليهم من سائر الجهات، وأحسن من هذا أن الذي كنا سنصلحه بعد تعب شديد بالكلام، ها هوذا نوعد به مجازاة على الكلام .

فيالها من خصومة جميلة، يحاولون أن يغلبوني فيها، ويالها من زيادة ممدوحة، أما ترون مقدار فعل سكوتي، أنه لقد جعل كلامي نفسه مشوقاً، وأشد ما كان مرموقاً .

أما ترون ثمرة إعراضي عن المجد، فياليته يكون للكلام منفعة، بمقدار منفعة السكوت، فإذا كان الآن هذا هو الرأي وقد غلبتم الذي لا يُغلب، ونصبتم راية الظفر على فلسفتي، فهاتِ نتكلم لكم شيئاً أفضل من السكوت، وأتكلم بما ليس هو ليناً، ولا ناعماً، ولا من المؤلفات اللذيذة عند كثيرين، ولما كنت بالذي أقابل هكذا لعشاقي إذا تكلمت، بل أتكلم بكلام جزل موجز مقنع، وبما عساكم أن تكونوا به أفضل مما كنتم عليه، وتنتقلوا من الجسد إلى الروح وترفعوا أفكاركم كفافاً .

يا بني البشر حتى متى تثقلون قلوبكم (مز ٤ : ٢) ، وأي وقت أقدم لكم هذه المقدمة من كلام داود العظيم الصوت، "حَتَّى مَتَى تُحِبُّونَ الْبَاطِلَ وَتَبْتَغُونَ الْكَذِبَ" (مز ٤ : ٢) ، وتتوهمون هذا العالم شيئاً عظيماً، والنعيم فيه، وهو المجيد الصغير والمقدرة الذليلة، وحسن الحال المكذوب عليه، وما ليس هو للذين هو لهم بأكثر منه للذين يتمنونه، ولا لهؤلاء بأفضل منه لمن لا يتمناه، كأنه غبار تخطفه الزوابع فتنقله من مكان إلى مكان ومن قوم إلى قوم، أو مثل الدخان الذي ينحل، أو كالمنام الذي يلعب، أو مثل الفي (الظل) الذي لا يضبط، لأنه إذا غاب عسر أن يترجاه من ليس هو مقتنيه، ولا إذا حضر كان موثوقاً به لأصحابه .

أما تنظر إلى السماء من فوق، أما نصحوا، أما ننظف من القذاء عيوننا، أما نعرف أيما هو الغنى الحقيقي، والبهاء الصادق، وأين هي المرتبة الغير منتقلة، والسعادة التي ليست لها غاية، والخير الذي ليس بغريب، ولا يتزعزع ولا يتغير، ولا تدخل حيلة عليه، أما ترون أن نقتني ما هذا سبيله، بتعب وعرق جبين إن عرض أن نحتاج إليه، ألا ترون متى احتجن إلى التنعم ههنا، نجعل تنعمنا الرجاء لهذه الأشياء المذكورة .

أما نعرف الشهداء القديسين، الذين اقتسموا المسكونة، كأنهم لها رباطات مشتركة وهؤلاء الذين لهم هذا الجمع، من أجل من صبروا على الجراحات، والرباطات، والعقوبات، ولهيب النار وحد السيف، ووحشية

الوحوش، والظمأ والجوع، والإنهواء نحو الهوة، واختطاف الأموال، وتساقط الأعضاء، وآخر كل هذا الموت الذي قبلوه بشهوة، وكانوا يجاهدون، وكان الذي يجري عليهم يجري على أجساد غيرهم، حتى يكون ماذا، وحتى يرتوون ماذا، وذلك معروف، وإن كنا عنه ممسكين .

أما سبيلنا على مثل هذا الرجاء، أن نكشف نفوسنا لمعطي الجوائز وصاحب الميزان، ونصاف (ونصطف ضد) الغشوم المر، الذي لم يزل قديماً وحديثاً يطلب نفوسنا أعني عدونا، الذي لا نراه، ومناصبنا الذي لا نشاهده .

الجهاد الروحي

أما نقاتل مثل أولئك، ونتشجع، ونقتل في هذا العالم، كانا في جلبة جامعة للمجاهدين، وإن كانت حدة الشدائد لا تقدم الراحة إلينا، فنجعل جهادنا وصراعنا في كل يوم ووقت، حتى نصل إلى مثل التاجات التي وصل أولئك إليها، أو قربت منها .

أما أنا فإني أأمر كل رجل وامرأة، وشيخ وشاب، وبدويّ وحضريّ، وعاميّ وخاصيّ، وغنيّ وفقير بالجهاد، لأن الجهاد قد يستدعي كل أحد أن يتجرد بنشاط ولا يلين ولا يتراخى، ولا يضجع ولا يتوانى، ولا يضيع الوقت الذي يعسر عليه الوصول إلى مثله، لأن هذا وقت العمل، والمستأنف وقت المجازاة، قوموا ننصرف من ههنا، قد سمعتم المخلص يقول (يو ١٤: ٣١) ، ولم يأخذ في ذلك الوقت التلاميذ، من موضع اليهودية إلى غيره بأكثر من أخذه لمن بعدهم من ههنا، واجتذابه إياهم إلى ذاته، بعد ارتفاعه بحسب ما وعد به .

فهلموا نتبع السيد الصالح، لنهرب من شهوات العالم، نهرب من العالم المضل نفسه، وصاحب العالم .

هلموا نصير محضاً لخالقنا، ونكرم الصورة، ونخجل من الدعوة وننقل الحياة، فلِمَا نجعل نفوسنا ذليلة، وقد كونت عالية، لِمَ نتشبث بالأشياء التي تبصر وحدها .

فليقدم كل واحد منا بحسب طاقته

كل واحد منا بحسب طاقته فليقدم لله في كل وقت، وعلى كل صورة، من تصاريف الزمان وشدائده، بمقدار طاقته، وما صار إليه من نعمته، حتى يملأ تلك المنازل التي هناك، بسائر ما نستعمله من أنواع الفضيلة ومقاديرها، في المخازن الإلهية، ويكون ما نحصده بمقدار ما زرعناه، ويكون ما نوعيه في الأباتيق (المخازن) الإلهية بمقدار ما استغللناه .

فليقدم الواحد مالاً والآخر إذ لا يكون له شيء، نيه وحدها، وغيرهُ إحمادها، وآخر عملاً ممدوحاً، وغيرهُ علماً صائباً، وواحد كلاماً في وقت، وآخر صمتاً يقوم مقام كلامه، وواحد تعليماً لا خطأ فيه، وسيرة لا تخالف تعاليمه، وآخر استماعاً مجيباً، وانقياداً حسناً، وواحد باكورية طاهرة تفصله بالكلية من العالم، وآخر زواجاً عفيفاً، لا يبعده من الله جملة، وواحد صوماً لا يشوبه عجب، وآخر تمتعاً لا يعتريه إسراف، وواحد ملازمة الصلوات والتسابيح الروحانية، وآخر العناية بالمطالبين، وإسعاف المساكين.

وليقدم الكل الدموع والطهارة والصعود والزيادة على ما تقدم من فضيلة .

فأن نعم القربان ما كان ساذجاً (نقياً) من الأخلاق، والضحك إذا عدل، والغيظ إذا قمع، والنظر إذا أدب، والعقل إذا لم يفسح له في الضلال، إذا كان ليس شيء مما يقدم مستصغراً ولو أنه أصغر الأشياء، ولو أنه من أبعدها من رتبة الاستحقاق، فلن ينتهي الأمر فيما نقدم له، إلى ما هو بالكلية لا يقبله، ولا يحمده، فإن كان يرى أن يزن بالعدل في القضاء، رحمته، وهو يقبل غرس بولس بحسب بولس، ويقبل سقي أبولس، وفلسي الأرملة، ويقبل مع ذلك من العشار تواضعه، ومن منسى إقراره .

موسي لما نصب الخيمة التي هي مثال السمائيات، قدم كل واحد ما رسم له، ومنهم من قدم ما لم يرسم له، فمنهم من قدم ذهباً، ومنهم فضة، ومنهم حجارة ثمينة للمزرة، ومن النسوة من قدمن ارجواناً مفتولاً،

وأخريات قرمزاً مغزولاً، وقوم بريفيراً، وآخرون جلود كباش محمرة، ومن النساء أيضاً من قدم شعر ماعز وهو من أدنى الأشياء، لإله الخيمة، وبعد ذلك ما أمكن كل واحد وواحدة، إلا أن جماعتهم قدموا، ولم يبق أحد لم يقدم شيئاً، ولو كان من أفقر الناس .

كذلك سبيلنا نحن أن نقدم في خباء الله، الذي هو هذه الكنيسة، التي الرب نصبها، ولم ينصبها بشر، وبناها بأنواع من جمال الفضيلة، ويكون ما يقدمه الواحد صغيراً والآخر كبيراً، من حيث يتساوى في التقدمة نفسها ونتركب نحن عملاً تاماً، ومسكناً للمسيح، وهيكلاً، ونتألف بصناعة الروح، فإنا لن نقدم شيئاً بمقدار ما أخذناه، ولو قدمنا كل شيء، لأن الوجود لنا من الله، والمعرفة به فمنه، والذي نقدمه أيضاً فهو من عنده .

وأحسن من هذا وأشد فضلاً، أن الذي نقدمه لا بعدل بحسب مقداره، بل بحسب قوة الذي يقدمه ونيته، يعطي الله المجازاة، فلا تنتظر يا صاح، أن تصير صالحاً، بل كن قد صرت، ولا لأنك قصرت عن الواجب تترك الكل، بل عجل بما يسمح، وأنو فيما بعد، وسل في الأخير أن يصفح لك عنه، من أجل قلة الإمكان، فإنه قد قيل " وَلا يَحْضُرُوا أَمَامَ الرَّبِّ فَارِغِينَ" (تث ١٦ : ١٦) .

ولا يكونن أحد خلواً، ولا من ثمرة صفراً، لا تكون نفس عقيمة، ولا من توليد الفضيلة عديمة، ليقرب كل واحد لله ما يحويه، ومما يخصه، الخاطئ التوبة، الحسن الاحضار والمداومة، الشاب النسك، الشيب العقل، الغني البذل، الفقير الشكر، ذو السلطان ترك التجبر، المستخرج (صاحب الخراج) الرفق .

وصايا للكهنة

يا كهنة البسوا البر، بل أقول ما هو أصدق من هذا، لنلبس نحن لئلا نبدد غنم الصيرة (الحظيرة)، ولا نفسدها لأن الراعي الصالح عنها بذل نفسه، وهو العارف بما يخصه، والمعروف من قبل الذين يخصونه، راعي رعيته بأسمائها، ومدخلها ومخرجها، من الكفر إلى الإيمان، ومن هذه الحياة إلى هناك من الراحة .

ولنحذر أن تبتديء الدينونة منا على ما جاء في الوعيد، ولا نأخذ من يد الرب الخطايا مضاعفة، إذا ما نحن لم ندخل، ومنعنا القادرين من الدخول .

وصايا للرعية

يا غنم لا ترعوا الرعاة، ولا تتجاوزوا حدودكم، وعليها كونوا متوقفين، فحسبكم أن ارتعيتم حسناً، ولا تدينوا الحكام، ولا تضعوا نواميس، على واضعي النواميس، فأن الله ليس بإله تشويش وقلة نظام، بل إله السلام والتآلف (١كو١٤ : ٣٣) .

فلا يكونن أحد رأساً وهو لا يمكنه أن يكون يداً أو رجلاً، أو شيئاً آخر من أحسن الأعضاء، إلا بجهد وصعوبة، بل ليلبث كل واحد في الرتبة التي إليها انتدب، وإليها اجتذب (١كو ٧ : ٢٤) ، وإن كان مستحقاً لما فوقها فأن نُصيِّرهُ عليها، يكون له الفضل أكثر من مطالبته بما لم يأخذه من غيرها، ولا يكون الواحد قد اتسع له في أمن من العطب، أن يكون تائقاً إلى رئاسة يشوبها خطر، ولا ينقض ناموس الخضوع الذي يضبط السمائيات، ويمسك الأرضيات ولا يجعل كثرة الرئاسة عدماً للرئاسة .

يا أولى الكلام لا تثقوا جداً بالكلام، ولا تتحكموا فضلاً وأكثر مما يقتضيه الكلام، ولا تؤثروا الغلبة الرديئة في كل شيء، بل اصبروا على الانهزام من حيث ينبغي في بعض الأحوال، أعطوا الكلمة للكلمة، واجعلوا الأدب سلاحاً للبر، لا سلاحاً للموت .

وصايا للجند

يا معشر الجند اقنعوا برسومكم، ولا تزيدوا على ما أنتم به مأمورين، هذا يرسمه لكم يوحنا معنا، منادي الصدق العظيم الصوت السابق للكلمة (لو ٣ : ١٤) ، وما الذي تعنيه بقوله الرسوم، فبيِّن أن ذلك الجراية الملكية، وما هو لكم من الهبات الناموسية، فأما الفضلة على ذلك فمن من، أما أنا فإني أتناقل عن ذكرها، كراهية لذكر مذكروها، إلا أنكم

عارفون بما سترته، وإن اشفقت فكتمته، فادفعوا ما لقيصر لقيصر، وإلى الله ما لله، إلى أحدهم الخراج، وإلى الآخر الخوف .

وصايا لسائر المسيحيين

لكم أقول يا معشر المسميين بالسيرة النصرانية، وأني إذا قلت الخوف، إنما أمنع به الشره، وعساكم تقولون فماذا نربح نحن كثيراً، فأقول لكم أنه لعظيم وأعظم من كل شيء عظيم، وإن رأيتم فليكن ذلك، وأنا فيه مسافر، وهو الرجاء الصالح، والتقدم في المدينة العليا، لا في المدينة الصغيرة، التي هي في المدن دنيئة جداً، ورئاستها، وإذا ما قلت قولاً مقتصداً فيها إكرام مني لها بحسب ما هي الوطن، لم يكن شيئاً جليلاً بهياً شريفاً، فهناك سبيلنا أن نكون أولين، وإلى البهاء هناك واصلين حتى نستريح في أحضان إبراهيم، عوضاً عن التحنن الذي نستعمله في هذا المكان .

فهلموا نحكم حكماً عدلاً، ونستنقذ الفقير والمسكين ونرحم الأرملة واليتيم، ونفتدي المطالبين بالقتل، وأقول ما هو أيسر من هذا، لا نقتل نحن، لا نغفل عن الطالبين إلينا، ولا من فتات موائدنا، ولا نتجاوز القريح الذي هو طريح على أبوابنا، لا نتنعم وآخرون مضرورين، لا نحقر المشارك لنا في العبودية، لا يا إخوتي وأصدقائي، لا نصير من حسب الغنيّ، حتى لا نتألم في اللهيب، ولا نفصل في الهوة عن الأبرار، ولا نحتاج إلى ألعازر المسكين أن يبرد بطرف أنملته ألسنتنا الملتهبة، فلا نصل إلى ذلك .

بل سبيلنا أن نكون صالحين متحننين، متعطفين، ونتشبه في الخير بسيدنا، الذي يطلع شمسه على الأخيار والأشرار، ويساوي في غيثه بين الأبرار والفجار، ولا نرضى لنفوسنا أن نستغني من فقر قوم آخرين، ولا نصل إلى هذا المقدار البعيد، من المساواة الإلهية، ولا نخلط أموالنا بدموع غيرنا وهي تأكلها كما يأكل الصدأ ويفقدها كما قال الكتاب (يع ٥ : ٣) .

وإن كنا شريهين زيادة على الفضل فها هنا زيادة ربح، من حيث ينبغي، و ذلك أن نعطي ههنا قليلاً، ونأخذ هناك كثيراً، هذا القول مني

مشترك للجماعة، ليست هذه الوصية لمن في الحضرة وحده، بل ولغيره، إذا كان ذلك أدوية مشتركة لعلة متشابه .

وأما أنت فأحصنا إحصاء عدلاً إذ كنت لأحوالنا كاتباً، واكتب لأقوالي وحدها بنشاط، إذ كان ليس فيها طائل غير يسير من الربح، أو ما يتنعم به سماع، أو يحصل به بعض الالتذاذ، بل اكتب شعبي ببر وتفضل، وإن لم تستح في هذا من شيء آخر، فاستحي من الوقت والصورة، لأن المسيح المخلص في وقت إحصاء ولد، يقول الكتاب خرج الأمر من قيصر أوغسطس بإحصاء المسكونة فأحصيت، وطلع يوسف إلى بيت لحم مع خطيبته مريم ليكتتب، لأنه كان من بيت داود وقبيلته (لو ٢ : ٤) ، وحينئذ ولد المخلص، وعجباً أن باري الكل وسيدهم، في محلة حقيرة، ومنزل خسيس .

فلنتشبه بتواضع إلهنا

فسبيلنا أن نفزع من هذا السر، ونستحي من التدبير، ونقدم شيئاً في مثل هذا الحين، لأن الملائكة الآن جذلون، والرعاة نيرون، الكوكب الآن من المشرق إلى الضوء الساطع العظيم يتقدم، لأن المجوس يخرون ساجدين يحملون الهدايا والقرابين، عند معرفتهم بملك العالمين، واستدلالهم حسناً بالكوكب، على رب السمائيين، لأن هيرودس يسرع ويقتل الأطفال، وبسبب المعتق يذبح من كان عتيداً أن يصل إلى الاعتاق .

ولكننا نحن فلنكن مع الساجدين، ونقرب للذي تناقص بسببنا إلى أن انحط إلى رتبة ما هو جسم، لأن الذهب واللبان والمر، أحدهم بحسب ما هو إله، والآخر بحسب ما هو ملك، والثالث بحسب ما ذاق ميتة لأجل حياتنا، بل قرباناً سرياً، وفوق ما يظهر، وما هذه سبيله من القربان .

ألا نأخذ نحن شيئاً، ولا نطلق للغنيّ أن يتمرد على الفقير، ولا نظلم الخلق بالاختلاف، فإنك مع المسيح تكتب، مع المسيح تعدل، مع الرأس تميز، ومع النطق تحسب، والمسيح في هذا الوقت يولد لك، وهو الإله، وصار إنساناً، وتقلب مع البشر، فما الذي أراد بذلك، أما أنا فأقول أنه أراد أن يعظ المؤمنين، على مثل هذه الحال، لأن الله يدخل في الكبار من

العملات، وحتى يخجل من يحصي في ذلك الوقت لابس الجسم ولابس البشر، وحتى يعزينا في العبودية، ويرسم لنا الطاعة .

وليس هذا أيضاً مما يطرح، أدى هو أيضاً الجزية، وليس عن نفسه وحدها، بل عنه وعن بطرس أكبر التلاميذ، لأنه صار من أجلنا إنساناً، وتصور صورة العبد، وعن سيئاتنا سيق إلى الموت، هذا فعل المخلص القادر أن يتحنن بإرادته وحدها، بحسب ما هو إله، لأنه بكلمة وأمر خلق الكل، وأعظم ما أتانا به وأدخله علينا التحنن والمساواة .

فماذا ترون أنتم يا معشر تلاميذ المسيح، الوديع المحب للبشر، الذي خدمنا هكذا بنفسه، أفما نتشبه بتحنن سيدنا، أما نصير صالحين ومتعطفين على رفقائنا، حتى يكون لنا السيد كذلك، ويكيل لنا بحسب ما نكيل، أما ساوى نفوسنا بالمؤانسة والرفق حسب الأحرار أن يخدموا ويعبدوا، وأن يكون الفرق بين جبلة واحدة، أن يكون بعضنا مالكاً وبعضنا مملوكاً، ورئيساً ومرؤوساً، ومن يقسط ومن يقسط عليه، وقوماً يتسع لهم أن يظلموا ويسيئوا، وآخرين في ألا يسئ إليهم، يضلون هذا وصورتهم واحدة، ورتبتهم متساوية، وهم وراث حياة واحدة، وعن جميعهم مات المسيح بالسوية، حسب هذا عن الأحرار، فلا يثقلن النير، وما أوردته الخطية الأولى من العقوبة، يا ليته هلك الشر وأصله القديم، والشرير الذي يزرع الزوان ونحن نيام .

أول الشر التهاون بالخير

ويحرص أن يكون أول الشر التهاون بالخير، كما أن أصل الظلمة انصراف الضوء، هذا فعل شجرة المعصية، والمذاقة المرة، والأفعوان الحسود، لما جعل المعاش من عرق الجبين، من ههنا أنا عريان بليد وشجبت، وقد عرفت عريتي، ولبست من أديم وشاحاً، وسقطت من الفردوس، وعدت إلى الأرض التي منها أخذت وحصل لي بدل النعيم خصلة واحدة لا غيرها، وهي أن أعرف شري، وأحس به، وحكم عليَّ بحزن دائم، جزاء عن لذة حقيرة، وصار فيما بيني وبين من صادقني صداقة رديئة، حرب شديدة، لأنه اختطفني إليه بغرور المذاقة، فهذه على

الشر جوائزى، ومن ههنا صارت الولادة بتعب، والحياة بنصب، وآخرها الانحلال إلى العطب .

هذا هو أصل الحاجة، والحاجة تولد الطلب، والطلب يقود إلى السرف، والسرف يقود إلى الحروب، والحروب تحوج إلى جمع الأموال والاستخراجات .

فهذه الجبايات أشد ما حكم به من نتائج الحكم علينا، والواصل إلى هذه الغايات، فما سبيلنا نحن أن نزيد في هذه الدينونة، إذ كنا تحت مثلها من حكومة، ولا نصير أشراراً على قوم آخرين، لأن الله يطالبنا أن نتعطف بعضنا على بعض، وإن كان هو المعاقب لنا، فثم ثبت آخر وكاتب غيرنا .

وصايا إلى الليان

إن كنت سمعت سفر الحياة، وصحيفة الذين يتخلصون، فهناك سنكتب جميعاً، بل قد تقدمنا فكتبنا كل واحد بحسب مذهبه، حيث ليس ثروة تزيد على غيرها، ولا فقير يأتي بنقص، ولا محاباة، ولا عداوة، ولا شيء غير ذلك مما يشوب الحق، إذ كنا قد كتبنا بيد الرب جميعاً، وستفتح لنا صحيفة في يوم البيان، هناك الصغير والكبير، والعبد مع المولى، قول سليمان أقول : والملك مع الملوك والكاتب والمكتوب، والنور من ههنا وما كان مكروها من هناك، وأنا ماسك عن ذكره إلا أنا بالجملة بحسب ما نكتب، فهذا الثبت الذي تصلحه عن نفسك، إذ صرت لنا صالحاً، وعلينا متفضلاً، فماذا نقول في ذلك، وماذا تكتب، يا أفضل الأصدقاء، وأنفس الرفقاء، المشارك لنا عند المؤدبين، والمخالط في العلوم مع عصابة المتعلمين .

وإن كان الله قد جعلنا الآن في القسم الأعلى، بأن نعلمكم ما هذا معناه، وأنتم من أهل السلطان، وإن قلت أن قسمنا الأعلى، فإنما أقوله تثاقلاً عن أن أقول أنه أثقل، يا تربية البلد الأمين وسلالة الجنس الكريم، ونسل الوالدين الأطهار، وعرق الأولاد الأبرار، كيف ومتى تحمد كلامي، وهل قد أقنعك بما أقوله، أو تحتاج أن أطنب أكثر من هذا، فأن ذلك ما أظنه، بل سبيلي أن أعلم علماً حسناً، أن كلامي قد ملكك منذ قديم، وأن لم أثق في ذلك

بشيء آخر، فإني لوأثق بصناعة العلم، الكلام الذي لا يزال يقودك إلى الصالحات، أما مبتدئاً وأما مقتفياً، إذ كان الحكماء بهذا يتفضلون عن العوام.

إلا أنني سأزيد على ما تكلمت به شيئاً يسيراً، وهو أنك قد دفعت إليَّ مهما دفعته ثواباً على كلامي، وكلامي فيدفع إليك هؤلاء الفقراء، الجماعة العابرة طائفة الكهنة، وعصابة الفلاسفة، الذين لا يمسكهم رباط، ولا يملكهم حال، لا يملكون شيئاً غير أجسادهم، ولا هذه أيضاً بالكلية، ليس عندهم شيء لقيصر، بل جميع ما لهم لله، التسابيح، الصلوات، الأسهار، الدموع، القنية التي تحوى الموت للعالم، العيش للمسيح، إذلال الجسم، اجتذاب النفس من الجسد، فإذا أنت أشفقت على هؤلاء وقدمتهم لله بطهارة، وهم خدام اللاهوت، وأصحاب سره الناظرون السمائيات، القرابين عن سائر جنسنا، عمدة الدين، وتيجان الأمانة، الجواهر الكريمة، حجارة الهيكل، الذي أسه ورأس زاويته المسيح، الذي هو تمام الكنيسة الشريف، فإنك تحسن النظر لنفسك ولجماعتنا، وإني لا ادعو لك أن تفوز من جهتنا بهذه الثروة، أكثر من الاثراء بخزاين الذهب والفضة، التي هي الآن موجودة، وبعد حين مفقودة، فهذا القربان الذي قربه كلامي، وإن كان بدون الأمنية، فليس بدون المكنة .

فادفعوا أنتم إليَّ ما هو أجل مما قدمته لكم، أعني الطاعة والقبول حتى يصير لكم مع غيره ما تؤملون، ولن ينقص حاجتكم بعد هذا، من جهتي إلى شيء من الكلام، وينظر بعضكم إلى بعض نظراً بحرص على المودة، ويقود إلى الأفعال الحسنة، وتنالون هناك موضعاً في الثبت الذي ذكرناه صالحاً يحوي تحتاً ويشتمل على لطف بكم، وتقربوا من ملك الكل، ويكون عملكم ما هو وحده عملاً للمكتوبين هناك، في خدمة الله، بالتسبحة الواحدة للآب والابن والروح القدس وتنظروا إلى مجد اللاهوت، وترفعوا بهاه وقدسه، لأن له المجد والكرامة والسجود إلى دهر الداهرين آمين .

«خَافُوا اللّٰهَ وَأَعْطُوهُ مَجْداً، لأَنَّهُ قَدْ جَاءَتْ سَاعَةُ دَيْنُونَتِهِ. وَاسْجُدُوا لِصَانِعِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَالْبَحْرِ وَيَنَابِيعِ الْمِيَاهِ».

(رؤ ١٤ : ٧)

الميمر الثاني

على الميلاد المقدس

على الميلاد المقدس

الذي هو ظهور الاله

الذي هو ظهور الإله

الميمر الثاني
على الميلاد المقدس
الذي هو ظهور الإله

المسيح ولد فسبحوا، المسيح من السموات تلقوا، المسيح على الأرض فارتفعوا، سبحوا الرب يا معشر الأرض، ولكى أجمع الأمرين جميعاً (أي بلسان الأرض والسماء) أقول :

لتجذل السموات وتفرح الأرض لأجل من هو سماوي ثم صار أرضياً، المسيح من جسد فافرحوا بجزع وجذل، أما الجزع فمن أجل الخطية، وأما الجذل فمن أجل الرجاء.

المسيح من بكر فكن أبكاراً يا نسوة حتى تكن للمسيح والدات .

من لا يسجد لمن هو منذ الابتداء .

من لا يسبح لمن هو بعد الانتهاء .

ها هى الظلمة من الرأس تنحل، ها هو الضوء من الرأس يبتديء، ها مصر دفعه ثانية بالظلمة تعاقب، وإسرائيل أيضاً يستضيء بعمود النور، الشعب الجالس في ظلمة الجهل، فلينظر إلى ضوء المعرفة العظيم .

قد انصرف ما كان عتيقاً، وحدث ما صار به الكل جديداً، الحرف ينصرف، والروح تنفسح، الخيالات تزول والحق يبدو .

ملشيصاداق ها هو يتحقق، لأن الذي كان بلا أم قد صار بلا أب، كان بلا أم في الأول وصار بلا أب في الثاني، وانتقضت نواميس الطبيعة، المسيح يأمر أن يمتليء العالم الأعلى فلا تقاومه .

يا معشر الأمم صفقوا بأيديكم، فإنه قد ولد لنا صبي ودفع إلينا ولد، رئاسته على عاتقه، لأنه يحمل الصليب وعليه يرتفع، يدعى اسمه المخبّر برأي الآب العظيم .

فليصرخ يوحنا أصلحوا طريق البر، وأصرخ أنا وأظهر قوة هذا اليوم، ها هو من ليس له جسد يتجسد، الكلمة نزل على الأرض، الذي لا يُبْصَر يُرى، الذي لا يُحَسْ لُمس، الذي لا يحيط به زمان يبتديء، ابن الله يصير ابن بشر، يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْساً وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ (عب٣ : ٨).

اليهود فليفتتنوا أو يرتبكوا، الحنفاء (الوثنيون) فليضحكوا، والهراطقة فليعضوا ألسنتهم، فإنهم سيؤمنون إذا ما رأوه إلى السماء صاعداً، وإلا فإذا رأوه منهُ آتياً وكديان جالساً، إلا أن هذا فيما بعد .

عيد الظهور الإلهيّ

والعيد هو الآن عندنا ظهور الله أو ميلاده، إذ كان قد يقال الأمر أن جميعاً، كاسمين موضوعين لشئ واحد، لأنه قد ظهر الإله بميلاد البشر.

فأحد الأمرين كان من قديم موجوداً، دائم الوجود، فوق كل علة ونطق، لأنها لم تكن كلمة أخرى أعلى من الكلمة .

والآخر فتكونه من أجلنا فيما بعد، ليكون الذي أعطانا الوجود هو الذي يهب لنا حسن الوجود، لما زللنا لموضع الشر من حسن الوجود، رأى أن يعيدنا إليه بتجسده .

فاسم الظهور ثاؤفانيا واسم الميلاد جنيثيا، فهذا هو عيدنا، فهو الذي نعيده، اليوم قدوم الله إلى البشر، لكى نصير نحن إلى الله ونعود، فإنه أخص في القول، حتى يطرح الإنسان العتيق ويلبس الجديد، وكما متنا بآدم كذلك نعيش مع المسيح ونولد مع المسيح، ونصلب وندفن ونقوم معه، إذ كان سبيلي أن انعكس انعكاساً محموداً، أو كما جائت من الخيرات المحزنات، كذلك من المحزنات نعود إلى الصالحات، لأنه حيث كثرت الخطية، هناك صار الفضل للنعمة، وإن كانت المذاقة جلبت عليَّ الدينونة، فآلام المسيح أولى أن تذكيني وتبررني .

مظاهر العيد

فسبيلنا أن نعيد لا احتفالياً بل إلهياً، ولا عالمياً بل فوق العالم، ولا بحسب أحوالنا، بل هو بحسب أحوال من هو لنا، لا بل من هو سيدنا، لا من حيث المرض بل من حيث المداواة، لا من جهة الجبلة، بل من جهة إصلاح الجبلة .

فإن قلت كيف يكون هذا، قلت لا تزين الدهاليز والنوافذ، لا تزين الأسواق، لا تمتع العيون، لا تطرب الأذن، لا تحنث المشم، لا تفسد المذاق، لا تنعم اللمس بتسهيل الطرف إلى الشر، والمداخل إلى الخطية، لا تطرف بالملابس اللينة الناعمة، التي أنفسها لا غنى فيه، ولا تستعمل بريق الأحجار، ونور الذهب، وحكمة الأصباغ، التي تزيف الجمال الطبيعيّ، وتشوه الصورة، لا تستعمل السكر والملاهي، التي هى سبب الأهواء والفسوق، لأن تعاليم الأشرار شر، وعلة الخبيث من البذور خبيثة .

فلا تنصرف إلى مآثر الطعام ولا تنصب الاخبية للبطون، فجميع ذلك إنما لتهشيم وتفتيت .

ولا تقدم من الشراب ما طابت رائحته، ومن الطعام ما وفت صنعته، ومن الطيب ما جلت قدرته، ولا نلزم البر والبحر أن يحملا إلينا رغوتها وأزبادها، فإني أنا هكذا أرى إذا كرم التنعيم، ألا يطلب الواحد أن يزيد عن الآخر في الإصراف، فإنه اسراف عندي استبقاء كل فاضل يزيد على مقدار الحاجة، وقوم آخرون جياع، وهم ونحن من طينة واحدة ومزاج واحد .

بل سبيلنا أن نترك هذا ومشاكله للحنفاء وأعيادهم وبزخهم ومحاريقهم، لأنهم إنما يسمون آلهة الذين يفرحون بالذبائح وبالقيثار، ويعيدون للآلهة بما يوافق بطونهم، فهم مزوقون أردياء ومنذرون لشياطين أردياء، وهم أصحاب سر الذين هم مصوروهم ودعاتهم .

جوهر العيد

فأما نحن الذي مسجودنا كلمة، فإن وجب أن نتنعم بشيء، فسبيل نعيمنا أن يكون بنطق وناموس إلهيّ، وأحاديث آخرى، والأخبار الذي منها هذا العيد، ليكون النعيم خاصاً بنا، وغير بعيد ممن دعانا، ولنتكلم في أي شئ كانت مرتبتنا الأولى وبأي شيء سقطتنا المتوسطة، وبأي شئ هى إقالتنا الأخيرة، وماذا هو نعيم الفردوس المحسود عليه، وأي شئ كان الإبعاد والشقاء الذي كان، وما هى الأعواد، وما هى المذاقة، ومن أين هو تحنن الله علينا، وفى أي شئ عمق تدبيره فينا، حتى إني أنا نلت عند سقطتي ما لم أكن نلته عند قيامتي، أعني بذلك أن الإله حل بالبشر، وخالط الجسد، بواسطة العقل وصار كالمذنب، وهو برئ من الذنب، ليعالج برحمته ذنوبي، ففي هذا يجب أن نتكلم ويكون عيدنا .

فإنك لن تجحد أن تعيد هذا الميلاد، ولو حضرك كل ما وصفته من الجموع والتباهي، وما كان عادة أهل البدع والخرافات والوسواس والأمور البطالة، فأما من شار العقل الصحيح، القبول لهذا العيد .

للمسيح ميلادان من الآب ومن العذراء

ومتى سمعت بمولود من امرأة عذراء، من أسباب التأليد الجسدانيّ، فلا تخزى منه، فليس شئ يخالط الإله غير طاهر، بل يجب أن تفتخر وتقتبل إذ كان طاهراً من أوساخنا، كالشمس التي لا يلتصق بها شيء من الأوساخ .

ولتكن عبادتك للمسيح على مولدين، أما الأول فبرئ من الجسد بثبات، وأما التالي فطاهر من الأدناس إذ كان بلا شهوة، التي منها تكون الأمور القذرة، واضحك أنت أيها السامع، بالذين يضحكون بالأمور الفاخرة النقية .

فترون ذلك، فإنى اليوم قد صرت داعيكم، وأنا الذي قدّم لكم، يا معشر ندماى الصالحين، الكلام في هذه الأشياء والمحاورة، وأكرمكم

بحسب القوة الطاقة إكراماً تاماً كاملاً واسعاً، حتى تعلموا كيف يمكن الغريب أن يغذي القريب، وساكن القرى كيف يفتخر على أهل المدن، وينعم أهل النعيم من لا نعمة له، والبهيين بسعة الحال الفقير الذي لا قناء له، وأنا أبتدئ من ههنا، فطهروا لي العقل والسمع والفكر يا معشر المتنعمين بهذا، لأن الكلام إلهيّ وفى الله، لتنصرفوا متنعمين بالنعيم الحقيقيّ، الذي لا خلاف فيه، وليكن الكلام في ذلك كاملاً وموجزاً حتى لا يؤذى بنقصانه، ولا يبغض بزيادته على الشبع .

الله لم يزل، دائماً هو هو ويكون بل هو أبداً، لأنه كان ويكون إنما هو فصول من الزمان عندنا، ومن هذه الطبيعة الفانية، وأما هو فأزلي أبداً، وبهذا الاسم سمَّى نفسه لما ناجى موسى على الجبل، لأنه أخذ الأزلية كلها في ذاته، وحوى الوجود، فلا ابتداء لذلك عنده، ولا وقوف بعده .

فهو كله كأنه لجة جوهر ما، غير محدود، وغير متناه، يزيد على كل فكر في زمان وطبيعة، بتخيل بحسبه في العقل وحده، ونتخيله خفيّاً مقتصداً جداً، ليس مما بحسبه بل مما يقرب منه، من حيث يجتمع خيال من شئ، بعد خيال من آخر، فيصير الجميع إلى شبه الحق الواحد .

يهرب من قبل أن يدرك وينفذ من قبل أن يفهم، وإنما ينير صفوتنا إذا ما تنتفئت بحسب سرعة البرق إذا ما هى للناظر أومضت، ولم يكن للمتأمل يثبت ذلك عندي ليجتذب إلى ذاته بما فيه من شيء يدرك، لأن ما كان بالكلية لا يدرك فهو لا يؤمل ولا يحاول وبما فيه مما لا يدرك يعظم الاعجاب به، وإذا عجب به كثر الاشتياق إليه، وإذا اشتاق ظهر، وإذا أظهر جعل المطهرين بصورة المتألهين، فإذا صاروا كذلك ناجاهم مناجاة المختصين به .

ولقد يجترى الكلام على ما هو من هذا أجزل، بقولنا أنه إله يتحد بإلهه، يعرفه الذين يتحد بهم، بحسب معرفته هو، بما يعرفه منهم، أن اللاهوت لا تكاد تستقصى، وأن المعرفة بها لعسرة جداً، والذي يدرك منها بالكلية فإنما هو السرمدية .

وإن ظن أحد أنها من طبيعة بسيطة أو أنها كلها لا تدرك فما هى، هل هى من طبيعة مفردة، ولكن سبيلنا أن نطلب وذلك أن ليس البسيط لها طبيعة كما أن المركبين ليس التركيب لهم أيضاً ذاتاً .

فإذا أنت نظرت إلى السرمديّ من جهتين وهما جهة الابتداء وجهة الانتهاء، وجدت ما زاد عليها ولم يكن فيهما هو السرمديّ، وإذا نظر العقل إلى العمق الأعلى المتقدم ولم يكن له ما يقف عنده، وتعلق بما يتخيله في الله مما يجده ههنا من عدم الغاية والبعد عن الخروج، فهو يسميه ما لا ابتداء له، وإذا نظر إلى ما بعد، سماه غير مائت وعديماً للاضمحلال، وإذا جمع الكل قال دهرياً، لأن الدهر ليس بزمان ولا جزء ما من زمان ولا هو معدود، بل ما كان لنا نحن من الزمان معدودة بحركة الشمس، مثله الأزليين هو الدهر وهو الممتد مع الموجودين كأنه شيء يشبه حركة الزمان ومداه، فهذا هو الذي يمكنني أن أتفلسفه الآن في الله، لأن الوقت لا يحتمل زيادة على ذلك الموضع .

اللّه واحد مثلث الأقانيم

إن الذي أمامنا ليس هو الكلام في اللاهوت، بل في التدبير، وأنا إذا ذكرت الله فإنما أذكر الآب والابن والروح القدس، حيث لا تزيد اللاهوتية أكثر من هذا، وإلا أدخلنا جمع آلهة عليها، ولا تنضم أيضاً دون هذا وإلاّ حكمنا على اللاهوت بالفقر والنقص، ولا نرى رأي اليهود في وحدانية الرئاسة ولا رأي الوثنيين في كثرتها إذ كان الشر في كليهما سواء، وإن كان ذلك في ضدين موجود، أو كذلك قدوس قدوس قدوس الذي كانت السارافيم تعطيه، قد كانت تمجد فيه بثلاثة تقديسات تجتمع إلى ربوبية ولاهوت واحد، بحسب ما تفلسف فيه آخر قبلنا في النهاية من الجودة والرفعة، ولما لم يقنع الخير الأول الحركة في ذات علمه، بل وجب عنده أن يمتد جوده ويتطرق أفضاله ليكثر ذوو إحسانه، وكان ذلك غاية الكرم، ابتدأ ففكر في القوات الملائكية وكانت فكرته فعلاً منجزاً بالكلمة تاماً وبالروح متمماً، فجعلت حينئذٍ نور تأتيه للنور الأول خادمة إن شئت سميتها أرواحاً عقلية، أو نار غير هيولية ولا جسدية، أو طبيعة أخرى لذلك مشاكله بعد أن يكون ما نعتقده قريباً مما ذكرناه، إلا أنني أرى فيها أن أقول أنها لا تتحرك إلى الشر وأن حركتها إلى الخير وحده لأنها بالله تطيف ومنه تأخذ النور أولياً .

طبيعة الملائكة

فأما ما كان ههنا فإنما هو من النور الثاني، فيطالبني ألا أعتقد فيها هذا الاعتقاد، ولا أقول أنها لا تتحرك إلى الشر، بل حركتها إليه تعسروا، ويمنعني الذي كان كوكباً عند نوره فصار ظلمة عند تمرده ونشوزه، يسمى بذلك هو والقوات التي مرقت معه، فصنعت الشر وابتلتا به من بعدها من الخير، فهكذا صار له العالم العقليّ، وهذا السبب في كونه بحسب ما رأيته من الفلسفة، لما ميزت الكبار بالحقير من القول، فلما تمت الأوائل وحسنت عنده فكر في عالم ثان هيوليّ مبصر وهو المركب والممتزج من الشمال والأرض وما بينهما ممزوجاً من حسن طبيعة كل واحد فيه، وأحسن من ذلك ائتلافهما واتفاقهما وجمال واحد بعد آخر، ويشبه أجزأه إلى كله حتى تم منه عالم واحد، يبين بذلك أنه قادر أن يخلق من الطبيعة التي تخصه وتقرب منه، طبيعة أخرى تنافيه وتعرب عنه، لأن الأخص باللاهوت الطبائع العقلية، التي يدركها العقل وحده، والغريبة منه بالكلية، إلا إنني تحت الحس، والأبعد من هذه ما كانت بلا نفوس بالكلية، وليست ذوات حركة .

إلا أنه لعل واحداً من محبي العيد الحادين مزاجاً، سيقول لي مالنا ولهذا من القول، اغمز مهرك عند العطفة، واذكر لنا ما يليق بالعيد، وتفلسف فيما نحن جلوس اليوم لأجله، وسأفعل ذلك وإن كنت ابتدأت بيسير من النظام فإنما دعاني إلى ذلك الشوق وتأليف الكلام .

خلقة الإنسان وسقوطه

كان العقل والحس منفصلين واحد دون صاحبه، داخل حديهما واقفين، وبعظمة كلمة باريهما في ذاتهما مخبرين، وبعزته خادمين صامتين، وبقدرته منذرين مبينين، لأنه لم يكن فيما بينهما مزاج، ولا من ضدين اختلاط، تدل على الحكمة العظمى وتبدي عن غاية الهمة في الطبائع الكبرى، ولا كانت ثروة الجود كله مشهورة ولا معروفة، فلما رأت الكلمة

الخالقة أن تظهر ذلك، وتجعل حيواناً واحداً من كليهما أعني من الطبيعة الناطقة والطبيعة الظاهرة، خلق الإنسان واحد من الهيوليّ التي كانت من قبل مكونة جسماً ومن ذاته حياة نفخها فيه، وذلك ما نعتقده نفسا ناطقة، وصورة الله ونصبهُ كعالم ثانٍ صغير على الأرض كبيراً، وجعله ملكاً آخر ساجداً مخلوطاً، من الخليقة الظاهرة ناظراً ، وبالمعقول خبيراً ملكاً على الأرض، مملوكاً من فوق، أرضياً وسمائياً ، ومن حيث لا يموت أزلياً وقتياً مرئياً ومعقولاً واسطة فيما بين عظمة وذلة، هو روح وهو لحم، الروح من أجل النعمة، واللحم من أجل العظمة، ليبقى أحدهما فيحمد المحسن، ويألم الآخر فيتذكر ويتأدب، ويعرف مقدار ما صار إليه من كرامة الجلالة، فهو حيوان من ههنا مدبر، وإلى غير ما ههنا منتقل، وآخر السر أنه بمصيره إلى الباري يتأله .

فإلى هذا يؤديني ضوء الحق المعتدل ههنا إلى أن أعرف بها نور الله ، وانفعل له انفعالاً يكون لذاتي أهلاً فأنه سيحلني بعد هذا ثم يربطني رباطاً أشف من الأول وأرفع، ثم ترك هذا الإنسان في الفردوس ، وهذا الفردوس هو أي الأشياء التي كانت فردوساً بحسب ما كان قديماً، وكرمه بسلطان الاستطاعة ليكون الخير لمن يختاره، ليس بدونه، لمن تقدم فوزعه وجعله فلاحاً على غروس لا تموت، وعسى هذه الغروس أن تكون الأفكار الإلهية، ما كان منهما بسيطاً ساذجاً وما كان تاماً كاملاً، وكان بما فيه من ساذج وحياة غير مصنعة عرياناً، ولكل غطاء وستره عديماً، لأن بهذه الصورة وجب أن يكون من كان قديماً، وأعطاه ناموساً جعله عمدة لاستطاعته، والناموس فكان وصية بما سبيله أن يتناوله، وما لا يجوز له أن يقربه، الذي هو عود المعرفة، لم يغرس في الأول غرساً ردياً، ولا منع منه حسداً أو شحاً، فليحذر المعاندون لله، أن يرسلوا إلى ما هناك ألسنتهم، وأن يتشبهوا بالأرقم (الحية)، بل قد كان العود جيداً، إذا أخذ في وقته، لأن العود إنما كان علماً، كما أرَى في علمي هذا، فكان أخذه صواباً للذين قد كملت أخلاقهم .

فأما من كانت أفكارهم ساذجة وشهواتهم نهمة، فليست محاولته لهم محمودة، كما أن الغذاء الغليظ التام غير موافق للطيفي الأجسام، المحتاجين بعد إلى الرضاع واللبن .

فلما أدخل حسد الشيطان وتمكنت الأذية من المرأة التي وصلت إليها لموضع دعتها ولينها، فقدمتها لموضع تمكنها، واستحكام الانقياد لها .

فوا أسفي مما آل إليَّ من ضعفي، فأن ضعفي هو ضعف جدي، لأنه نسي الوصية التي دفعت إليه، فانهزم من المذاقة التي كانت مرة ونفي وأبعد من شجرة الحياة ، ومن الفردوس ومن الله معاً ، من أجل هذا الشر، ولبس الأغشية الجلدية، التي عساها أن تكون اللحم الغليظ المائت الصلب، وكان أول ما عرفه من الأشياء خزي نفسه، واستتر من الله، وصار من ههنا رائحة الموت بعينه، لتنقطع به الخطية، ولا يكون الشر غير مائت، فمن هذا الموضع صارت العقوبة تعطى على البشرية، وعلى هذه الصورة فيما أرَى أن يكون من الله العقاب .

فلما جرى عليه بأشياء كبيرة التأديب، مجازاة في القديم على خطايا مختلفة، كانت جرثومة الشر أنبتتها، على أسباب تقدمت، وأزمان اختلفت بأنواع عرفت منها قولاً وناموساً، وما أورده الأنبياء وتضمنه من إحسان ووعيد، وجراحات ومياه وحريق وحروب وغلبة وانهزام، وآيات من السموات، وآيات من الهواء، من البر والبحر، من الرحال من المدن، من انتقال الأمم فجأة، وتغير الأحوال، وكان الأدب في ذلك أجمع أن نقمع الشر وصار بآخره يحتاج إلى دواء، أقوى مما تقدم من الأدوية الأخرى، لأمراض أشد من الأولى، وهى القتل الفجور، الخنث بالرجال، عبادة الأوثان التي هى أعظم الشرور وأشدها، بنقلها السجود من الخالق إلى الخليقة .

فداء الإنسان

لما كان هذا كله يحتاج إلى معونة جليلة، وإلى صلة جزيلة، هى كلمة الله بعينها التي قبل الدهور، ولا ترى ولا تحيط بها الأذهان، ولا جسم لها من الأجسام، التي هى أول من أول، نور من نور، معين الحياة وينبوع عدم الموت، صورة الأصل القديم الذي لا يتحرك، والرسم الذي لا يزور، حد الآب ونطقه، فصار إلى صورته ولبس لحماً من أجل الجسد، وأخذ نفس ناطقة من أجل نفسي الهافيه، وطهر الشبه بشبهه، وتكون كل تكوينات البشرية، سوى ما كان فيها من خطية، وولدته البكر النقية، بعد أن تطهرت

بالروح نفساً وجسماً، إذ كان من الواجب أن كرمت الولادة وتقدمت البتولية بالكرامة، فقدم إلهاً مع ما أخذه ولبسه، واحد من اثنين مختلفين وهما الجسم والروح، فأحدهما الإله والآخر تأله .

فياله من اتحاد جديد، ورابطة عجيبة، بها الأزليّ تكون، وغير المخلوق تخلق (أي اتخذ جسداً مخلوقاً)، والذي لا يسعه شيء وسع، بنفس واسطة عقلية توسطت فيما بين لاهوت وغلظ جسم ملموس، والغني افتقر، افتقر بجسمي كيما استغنى أنا بلاهوته، والملا خلا قليلاً من مجده حتى أصل إلى امتلائه وكماله .

فما هي هذه النعمة، وما وصلت إليه من هذا الجود العظيم، وما هو السر الذي قد أحدق بي من كريم، أنا نلت صورته فما حفظتها، فأخذ هو جسمي كي ما يخلص الصورة، ويوصل الجسد إلى أن لا يموت، شاركني شركة ثانية، أعجب من الأولى كثيراً، بحسب ما أوصلني في تلك إلى العظمى، تقاصر إلى الذلة في هذه الأخرى، هذا بالإله من الأول أليق، وهذا عند أولى العقول أشرف وأخلق، فما الذي تقوله في هؤلاء الثلابون ومحاسبي اللاهوت، والأمرين وعادمي المحمودات، المظلمين حول الضوء، وعديمي الأدب عند الحكمة، الذين مات المسيح عنهم مجاناً، الخلائق غير الشكورة، وزرع الشرير وجبلته .

أمن هذا تشتكي ربك لأنه أحسن إليك، ألهذا هو عندك صغير، لأنه من جهتك ذليل، إلا أن الراعي الصالح قدم إلى الضال، فوضع نفسه عن الرعايا، على الجبال والروابي التي كنت عليها تذبح، فوجدك ضالاً فهدى، وعلى منكبيه التي علت الخشبة رفع وأعلا، وإلى الحياة والبقاء ضم وأوى، إلاّ أنه أشعل كالمصباح جسمه، و طهر العالم من الخطايا، وطلب الدرهم، أي الصورة الملكية، بعد انطمارها في الآلام والخزى، ودعا القوات التي هي عنده محبوبات على وجدان الدرهم، وجعلها في السرور شريكات، وهن اللاتي صيرها منذرات بالتدبير صاحبات، إلا أن الضوء البهيّ لحق المصباح السابق، واتبع الصوت الكلمة، والختن لسفير العروس، الذي أصلح لربه شعباً خاصً، وتقدم في التطهير للروح بالماء .

أهذا الذي تشكوه من إلهك، أمن هذا تتوهمه ناقصاً، لأنه اتزر بمئزرة وغسل أرجل تابعيه، وأظهر التواضع وجعلها سبيلاً شريفة، إلى العلو ناهجة، إلا أنه بسبب النفس التي كانت إلى القرار منحطة، تقاصر

حتى يرتفع معه ما كان قد ثقل من أوزار الخطية واستسفل، فلم لا تعدد غير هذا، من أكله مع العشارين، وانتدابه لتلمذة المكسة وجباة الضرائب، وذلك ليربح شيئاً .

فإن سالت ما هو هذا الشيء قلت لك هو خلاص الخطاة، اللهم إلا أن يلوم أحد للأشياء إذا تطاطى على الآلام، وصبر على الكريه من الروائح الرديئة، كي ما يعيد الصحة إلى ذوي الأسقام، أو يعدل أحد لذلك الإنسان، الذي ينحني ويتنكس إلى هوة تحتنا لينتشل البهيمة التي فيها سقطت، فينشلها ويخلصها، كما أمر الناموس .

أنه لقد أرسل ولكنه مثل إنسان، لأنه كان من شيئين، وقد تعب، وشبع، وعطش، وجاهد، ودمع، كل ذلك بحكم الجسد، فأن نظرت إليه كما تنظر إلهاً، فما رأيك في هذا، غير أن تعتقد أن مشيئة الآب في الإرسال الذي إليه يرفع أحواله، ويكرمه إكرام الأصل والابتداء، الذي لا يدخل عليه زمان، وحتى لا يظن أنه قد خالف اللاهوت، **فإنه قد قيل أنه قد أسلم، وقد كتب عليه أنه لذاته اسلم، وقد قيل أن الآب بعثه، إلا أن قد قيل مع ذلك أنه أقام نفسه وصعد، فليكن ذلك للمشيئة، وهذا للمقدرة .**

إلا أنك أنت إنما تقول ما ينقص، وتكني عما يرفع، وتفكر في أنه تألم، ولا تنظر إلى أن ذلك باختياره، بحسب ما قد تألم الكلمة أيضاً في هذا الوقت، من قوم يكرمونه بأنه إله، إلا أنهم يخلطونه، ومن آخرين يسبونه بأنه جسد، وهم مع ذلك أيضاً يفرزونه، فعلى من يصعب أكثر، وعن من يصفح، أعن الذين يجمعون رديأ، أم الذين يفرزون، فأن أولئك أيضاً قد كان سبيلهم أن يفصلوا، وهؤلاء أن يحملوا ولكن أولئك بالجسد، وهؤلاء في اللاهوت .

أتعثر بالجسد هذا مثل اليهود، وعساك أن تدعوه سامرياً، وما بعد ذلك فأنا امسك عنه .

أتكفر باللاهوت، هذا ولا الشياطين .

فيا أكثر من الشياطين كفراً، ويا أقل من اليهود محافظة، وعلماً ، لأن أولئك اعتقدوا في الابن أنه اسم مساواة، وهؤلاء قد عرفوا الإله الذي كان يشردهم، لأنه قد كان أقنعهم وحقق عندهم ما كان يرهقهم ويؤلمهم، وأنت فلست تقبل المساواة والمكافأة، ولا تقر باللاهوت والقدرة، فقد كان الأجود لك أن تختتن وتجن، متى قلت لك قولاً مضحكاً ، من أن تكون في غلفة وصحة، وأنت شرير لا تعرف الله، **إلا أنك بعد قليل ستبصر يسوع في الأردن متطهراً، لموضوع تطهيري أنا، بل تعاينه للمياه مطهراً، وما كان محتاجاً إلى رحض وطهور، لأنه رافع خطية العالم ومبيدها .**

وترى مع ذلك السموات مفتوحة، والروح المجانس بالشهادة معلنا، وتراه بعد ذلك مجرباً وغالباً للمجرب، ومن قبل الملائكة مخدوماً مقدساً، ولكل استرخاء ومرض شافياً، وللأموات محيياً .

فيا ليته أحياك يا ميتاً بسوء الإيمان وستشاهده يطرد الشياطين بعضها بنفسه وبعضها بتلاميذه، ويشبع بخبزات يسيرة ربوات من الناس كثيرة، ويمشي على ظاهر اللجة .

ثم تراه يُسلَم ويُصلب، ويصلِب معه خطيتي، ويقدم مثل حمل ويقدم مثل كاهن، تراه مثل إنسان مدفوناً، وتراه مثل إله قائماً مبعوثاً، ثم تعاينه من ههنا صاعداً، ثم من هناك بمجده آتياً .

فكم لي من الأعياد والجموع، على كل واحد من أسرار المسيح، التي رأسها واحد، وهو إتمامي واصلاح خلقي واعادتي إلى آدم الأول .

وأما الآن فاقبل مني الحبل، وتقدم فاجرى، إن لم تكن مثل يوحنا في بطن أمه، فلتكن مثل داود وقت مجيئ التابوت، واستحي من الثبت الذي به اثبت في السموات، وأكرم الولادة التي بها انحللت من رباطات الولادة (القديمة الخاطئة)، وعظم بيت لحم هذه الصغيرة، التي أعادتك إلى الفردوس القديم .

واسجد للمذود الذي كنت قبله بهيمة، فغذاك منه النطق .

اعرف الخالق كما أمرك إشعياء، مثل الثور ومثل العفو (الحمار) معلف صاحبه .

هل كنت واحداً من الحيوان النقي ومما هو تحت الناموس، وفي طاقته أن يرفع الكلام إلى بقرتك النطق عوضاً من اجترار البهائم، حتى تكون للصحة متهيئاً، أم من الحيوان النجس الذي لا يؤكل ولا يذبح، فهو من حزب الأمم البعيدة .

ما يعمل في العيد

وعلى كل حال فمع الكوكب اعلو، ومع المجوس فاهد ذهباً ولباناً ومراً، كما يهدى لملك وإله وميت بسببك .

مع الرعاة مجّد، مع الملائكة سبّح، مع رؤساء الملائكة رتل، وليكن الاحتفال مشتركاً بين القوات السمائية والأرضية .

فأني أتحقق أن تلك (القوات) أيضاً تجذل وتجتمع اليوم مع الناس لأنها محبة للبشر ومحبة لله بحسب ما ذكرها داود، بعد الألم أنها

كانت صاعدة مع المسيح، متلقية أوامره بعضها بعضاً بأن ترتفع الأبواب (مز ٢٤ : ٧) .

لكن أمقت شيئاً واحداً، مما جرى في مولد المسيح وهو قتل هيرودس للأطفال، بل استحي من ذلك لأنها ذبيحة على سر المسيح تقدمت، فذبحت قبل الذبح الجديد .

إن هرب إلى مصر فاهرب معه بنشاط، فما أحسن الهرب مع المسيح، إذا كان مطلوباً .

وإن أبطأ بمصر فادعه من مصر، وإن كان مسجوداً له هناك حسناً .

ثم سر بلا عيب في جميع أشياء المسيح وقواته، كأنك للمسيح تلميذ .

تطهر، اختتن، انزع الغشاء الذي عليك من الولادة، وبعد هذا فعلّم في الهيكل، واطرد المتاجرين في اللاهوت، وارجم أن اتجه أن يلحقك ذلك، فإني أعلم انك ستخفي عن الراجمين، واعرف حسناً أنك ستخلص فيما بينهم، كالإله لأن الكلمة لا ترجم .

وإن قدمت إلي هيرودس على الأمر الأكثر، لا تجبه فأن سكوتك ليخجله أكثر من كلام قوم آخرين ولو أسهبوا، وإن قدرت فاطلب الباقي، وذق المرارة بسبب المذاقة، اشرب الخل، اقبل التفل، تَلَقَّ اللطم والقرع، وتكلل بالشوك، أي خشونة السيرة المستعملة في الله، البس القرمز وتسلم القصبة وتقبل السجود من الهازئين بالحق .

آخر كل شيء اُصلب معه، ومت في جملته، واقبر بنشاط، حتى تقوم معه وتتمجد بمجده، وتملك مع ملكه، بنظرك إليه بمقدار الطاقة، ونظره إليك فأنه المسجود له وممجد في ثالوثه، الذي نسأله الآن وندعوا إليه أن يكشف لنا ذاته بحسب ما نحتمله، ويقدر عليه المرتبطون بالجسد، بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد إلى دهر الدهرين آمين .

الميمر الثالث

ميمر قاله على الدنح الذي هو الغطاس تقديس المياه

الميمر الثالث
ميمر قاله على الدنح
الذي هو الغطاس تقديس المياه

من الرأس يسوع الذي لي، وأيضاً سر سر لا خديعة فيه، ولا عديم الجمال، ولا هو مما تحويه ضلالة الصابئة أو سكرها، الذي به يسمى كل ما كان لطيفاً عندها، وكذلك أظنه يسميه كل أحد من ذوي العقول، بل سر جليل إلهيّ عالٍ، وللبهاء العالي مفيد، لأن يوم الدنح المقدس الذي إليه انتهينا أن نعيده في هذا اليوم تحقق .

إنما ابتداؤه صبغة مسيحيّ، النور الحقيقيّ الذي ينير كل إنسان وارد إلى العالم (يو ١ : ٩)، وإنما فعله طهارتي، ومعونة الضوء الذي كنا أخذناه في الأصل قديماً، ثم من الخطية طفيناه، وبالظلمة خلطناه .

فاسمعوا مني إذاً نغمة إلهية قد تنغمت لي بقوة شديدة، إذ كنت صاحب السر في هذه الأشياء والمنذر بها، ويا ليتها أن تتنغم فيكم فتسمعوها " أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ " (يو ٨ : ١٢)، فلهذه الحال اقصدوه، وأشرقوا ضياء فلا تخزى وجوهكم، عندما ترسم بالنور الصادق .

والوقت وقت إعادة الولادة، فلنولد من فوق، الوقت وقت إعادة الخليقة، فلْنُجد آدم الأول، لا نبق كما نحن، بل لنكن كما قد كنا قبلاً، فأن النور في الظلمة ظهر، أي في هذا العالم، وفى الجسم، والظلمة طلبته فما أدركته، القوة المعاندة حولت ما ظهر من آدم بقحة فسقطت، عندما صادمت الإله فانهزمت، كي ما نطرح نحن الظلام، ونكون من الضياء قريبين، ثم نصير نوراً كاملاً، ومن النور الكامل مولودين .

فانظروا إلى نعمة اليوم وأبصروا قوة السر، أما ارتفعتم من القرار، أما استقررتم في العلو ببيان، وصرتم من كلامنا ورمزنا مستعليين، ولقد تزيدون علوا فيما بعد، إذا ما طرقت الكلمة كلامنا، أترى يكون مثل هذه الطهارة طهارة الناموس الممثل، الذي كانت منفعته فيمن قد دخلت

عليه النجاسة، بالنضوح ورماد العجلة، الذي لا فائدة فيه إلا في وقته، ألا يكون مثل هذا ما يسر الوثنيين، الذين كل أسرارهم وأفعالهم هزأ عندي، واختراعات من الشياطين مظلمة، واختلاق فكرة شقية، قد أعانها الزمان، وسترها اللغز بخرقة الهذيان، إذ كان ما يسجدون له كأنه صادق يسترونه باللغز، وقد كان سبيلهم أن كان حقاً ألا يسمونه رمزاً ، بل يثبتوا أنه ليس قبيحاً، وأن كان كذباً فلا يعظم الإعجاب به، ولا تختلف الآراء فيه اختلافاً شديداً، ويتضاد في شيء واحد بعينه، كأن أصحاب هذا الرأي في سوق صبيان أو رجال أشرار يلعبون، ولا يناظرون أيضاً رجالاً لهم عقول، وهم للكلمة ساجدون، وإن كانوا لهذا الإقناع الصناعيّ النجس باصقين .

[[من ههنا يترك القارئ هذا الجزء فما حاجة إلى قراءته لأن القديس احتاج إلى هذا في وقته]]

ليست أسرارنا هذه من مولدات الطغاه الكريتيين وسرقتهم، ولا هي أصداء أجواق الكنوريتيون، ولا هذه أصوات الغلمان ورقصتهم وتصفيقهم بالسلاح إذا ما بكى الإله يخفون صوته، حتى يخفى على أب مبغض البنين، لأنه قد كان صعباً أن يبكي مثل صبيّ، من قد كان مثل الحجر .

ليست أسرارنا مثل أسرار الإفروجيين(أهل فريجية) وزمرهم وملاهيهم، ولا آلات كورفانيتس ولا كل مايفعله المهووسون بريتا، ولا ما كان من الناس يصرعون به، حول زيا أم الآلهة، ويقدمون لها ويتقدمون نحوها بما يشبه والدة مثل هؤلاء الآلهة، إن أسرارنا لا تخطف منا، ولا تضل فيها الإلهة ديمترا، ولا تقود إلى مقاصيرها الزواني والزناة .

وإن كنت أنا أستحي أن أذكر أمامكم هذا الحديث، وأعرض هذه القازورات التي تتم ليلاً في أسرار الوثنيين، إن أفسينا تعرف هذه الأسرار وكهنتها يسكتون عنها.

وأسرارنا هذه ليست أسرار باخس هذا المولود بالأوجاع ناقصاً كما حصل مع الرأس سابقاً.

ليست إله استاري ساماليس المعبود ولا هي أسرار عشتاروت الفاسقة التي ولدت وعيدت على ما يقوله اليونانيون بالطريقة المخجلة .

ليست أسرارنا سفك دماء الغرباء يقوم به أهل طروادة، ولا الدماء التي كان يسفكها شبان سبارطه فوق الهيكل من أجسام المجلودين المتجلدين لإظهار البطولة الجنونية في تكريم الآلهة، هؤلاء أنفسهم كانوا يكرمون الإنحلال الخلقي، ويحترمون الوقاحة.

أين هو محل بيلبس الذي قدم جسده للآلهة الجياع أثناء زيارتهم الخالية من كل إنسانية؟ أين أشباح إيكائيس القاتمة ؟ وأين ألاعيب تروفوكيس الخفية، وتنجيمه، ومطالعاته للغيب وخزعبلات سنديانة دُودِنِس، وسفسطات دلفي، وتخرصات مياه كستالس؟ ليست أسرارنا من معرفة المجوس السابقة، ولا من علم الفلك، ولا من علم الأنساب عند الكلدانيين، ولا حركة الأجرام السماوية .

لا نعرف ما جوهرنا ولا ما يكون منا، ولا هذه أسرار الاتراكيين، الذين من اسمهم اشتق اسم النحلة، على ما قيل، ولا عمل اورفيفُس وأسراره، الذي بلغ من شغف اليونانية إلى أن دفعوا إليه قيثارة ليجتذب إليه الجميع، ولا عقوبة مترا الواجبة على من يرضى بمثل هذه الأشياء لنفسه، ولا محادثات أو سيرابيس التي كانت عندهم محتشمة، التي هى مصيبة أخرى يكرمها أهل مصر، ولا نجس أو سيدس، ولا البنوس التي هى أحق بالكرامة من المندسيس، ولا رأى عجل أبيس المتنعم بسبب جهل أهل منف، ولا ما كان الناس يمجدون به النيل الذي يعطيهم الثمار ويزيد على حسب اعتقادهم في السنابل، ويكيل لهم السعادة بالزراعات، هذا إذا تركت إكرامهم الدبابات والبعوض واحتفالهم وعملهم لكل واحد منها وليمة وجمع يخصه، وما كان من سوء حظ، فيشتمل على جميعهم وحتى أنه لما كان سبيلهم أن يكفروا ، وعن مجد الله سقطوا، وإلى عبادة الأصنام، وأعمال الصنائع، وما تجبله الأيدي ينحطوا، بل يكن لأولى العقوبات أن يدعوا عليهم شيء، أولى من دعائهم، إلى أن يعبدوا ما هذه صورته، ويكون هكذا كرامته، حتى يكونوا يأخذون الثواب بدل الضلالة، كما قال الرسول فيما هم له عابدون، ولا يكون إكرامهم نفوسهم لما يعبدون بأكثر من هو أنهم من جهة ما إليه ينتمون، بل يكونوا من الضلالة مرذولين، وأكثر ذلك من سقوط ما يسجدون له ويعظمونه مهانين، لأنهم أقل حساً مما له يكرمون، يزيدون في الجهل بحسب زيادة ماله يسجدون، في الخسة والدناءة .

هذا فليلعب به أولاد الصابئة وشياطينهم، الذين منهم صار الجهل إليهم، فحسدوا كرامة الله التي تخصه، لما اجتذبوا كرامة الله إلى نفوسهم، وفرقوا كل قوم إلى ناحية ومذهب، وآراء سخيفة، وتخيلات فاحشة، منذ أبعدونا من شجرة الحياة بشجرة المعرفة، التي لم تتناول في وقتها ولا أخذت من حيث ينبغي، واستضعفونا لذلك ارتكبونا، فالعقل الرئيس استخفوا، وإياه إليهم اختطفوا، وللآلام باب فتحوا، ذلك لأنهم لم يحتملوا وهم طبيعة حسودة، وللإنس مبغضة، بل إنما صاروا كذلك، لأجل شرهم، على أن يصل أهل الأرض، فلم يصبروا على أن يكونوا هم إلى الأرض قد هبطوا، ولا أن تصير نقله مثل هذه المجد والطبائع الأولى، فهذا هو اضطهاد الخليقة، ولهذا شتمت صورة الله، وبما أننا لم نحاول أن نحفظ الوصية، سلمنا إلى استطاعة الضلالة، وكما ضللنا امتهنا أنفسنا بما إياه عبدنا، ولم يكن هذا وحده شراً، أن يصير المخلوقون على أعمال الخير لمجد ربهم وحمده، والتشبه بإلههم حسب الطاقة منبعاً لأنواع الشرور، وتربة تغذي فيها هذه الشرور التي تدمر الإنسان الباطن، بل ويقيموا آلهة موافقة لهم في الآلام حتى لا يكون الخطأ عندهم لا جناح عليه فقط، لكن يكون مع ذلك محسوباً إلهاً ويلتجى فيه إلى حجة ظاهرة، وهى المسجود له بعينه .

[[من ههنا يقرأ القاريء]]

فأما نحن فحسبنا ما أنعم علينا، بالانفصال من الشقوة والضلال، والاتصال بالحق وعبادة الله الحيّ الصادق، والاستعلاء على الخليقة، بعد أن نكون قد حذفنا كل ما تحت الزمان وما يتحرك في دائرته .

بدء الحكمة مخافة الرب

فلنبحث ونتفلسف في الله وفى الإلهيات، ونبتدى من حيث الأفضل للبداية، فأن الأفضل من حيث ما حدده سليمان في قوله، "بدء الحكمة مخافة الله" (أم ٩ : ١٠) ، وما عنى بقوله ابتداء الحكمة الخوف، **لأن ما سبيلنا أن نبتدئ من العلم وننتهي إلى الخوف، لأن العلم إذا لم**

يضبطه لجام، ربما هور، ولكن ينبغي أن نجعل لنا الجزع اسطقساً، أو نتطهر به، بل نرق ونتلطف باستعماله، فيسهل علينا أن نرتفع إلى العلو .

فأينما كان الخوف كان هناك حفظ الوصايا، وأينما كان حفظ الوصايا كانت طهارة الجسد، من الغيوم التي تكتنف النفس، وتمنعها من أن ترى الشعاع الإلهي ببيان، وأينما كانت الطهارة كان النور، والنور فهو تمام الشوق للمشتاقين، إلى الدنو منه تعالى، أي من العظائم الإلهية.

فلأجل هذا سبيلنا أن نتطهر أولاً، ثم نفاوض الطاهر بعد ذلك، اللهم إلاّ أن نريد أن يلحقنا ما لحق إسرائيل، لما لم يحتمل مجد وجه موسى، فاحتاج لهذا إلى برقع(خر ٣٤ : ٣٣)، أو ينالنا ما نال منوح عند قوله هلكنا يا امرأة إذ رأينا الله (قض١٣ : ٢٢) ، وصرنا إلى التخيل بالله، أو نصرف يسوع مثل بطرس من السفينة، كأنا لسنا لقدومه أهلاً (لو ٥ : ٨)، وإذا ما قلت بطرس، من أعني الذي سار على الأمواج برجليه، أو نصاب مثل ما أصيب بولس ببصره، لما كان يلقى من يضطهده قبل أن يتطهر من روح الاضطهاد ، بل لم يلقه، وإنما لقي يسيراً من شعاع النور(أع ٢٢: ١١)، أو مثل رئيس المئة، يطلب الشفاء ولا يقبل أن يدخل يسوع تحت سقف بيته خجلاً من عدم نقاوته وعدم استحقاقه، فامتدح يسوع خجله(لو ٧ : ٦) .

فليقبل الواحد منا قبل أن يتطهر، ليقبل وهو في حالة قائد المائة، ويضبط كثيرين في السر، أو يخدم لقيصر الذي هو ممسك عالم المسجونين السفليّ، قل لست أهلاً أن تدخل لي تحت سقف، وإذا رأيت يسوع وكنت قصير القامة في الروحانية، مثل ذلك المعروف بزكا، الذي ارتفع على الجميزة بعد أن استعد وتجاوز نفسه باستعلائه على جسد الذلة، فأقبل إلى الكلمة واسمع اليوم حصل خلاص لهذا البيت(لو ١٩: ٩)، وخذ النجاة، واثمر الكمال وابذر وبدد نعماً على الفقراء والمساكين ما كنت جمعته بغش.

لأن الكلمة المسيح مخيف بطبيعته لكل من هم بطبيعتهم غير مستحقين، لكنه بمحبته للبشر، أهل الذين استعدوا بالتنقية ، وصرفوا الروح النجسة الهيولانية، ونظفوا بالمعرفة نفوسهم، وزينوها ولم يتركوها فارغة، ولا بطالة حتى يدركها بسبعة أرواح الشر، بقوة الاستعداد أهلهم أن يكونوا مواضع سكنى له .

وهم الذين عدوا أيضاً من جهة الفضيلة، لأن ما بعد الوصول إليه كان الحرص عظيماً عليه، بل مع هربهم من الشر يكونون أيضاً قد عملوا الخير، وقد سكنوا المسيح كله، أو ما أمكن في نفوسهم حتى لا يبقى فيهم ما هو فارغ، فتصل به القوة الخبيثة، وتملأه وتصير آخرة ذلك الإنسان شراً من أوائله، من أجل الصعوبة وشدة الاحترار في الحفظ، وبعد المرام في الوصول إليه .

وإذا ما نحن حفظنا نفوسنا كل الحفظ وجعلنا في قلوبنا ارتفاعات، وفلحنا قلوبنا وجعلناها أرضاً مهيئة ، وزرعنا البر بحسب ما راه سليمان وداود وإرميا، وانرنا في ذاتنا نور المعرفة، فحينئذٍ نتكلم بحكمة الله المخفية في السر(١كو ٢ : ٧) .

إلاّ أن سبيلنا على كل حال أن نتطهر ونتقدم فنجعل نفوسنا كاملة للكلمة، حتى يحسن إليها ويصلحها مصورة على صورة الله، ونقبل الكلمة إلينا وافية، وليس هذا وحده، بل نحمله على أيدينا ونقدمه للآخرين .

العيد وفلسفته وتفسيره

فإذا كنا قد طهرنا نفوسنا بالكلمة، فهاتِ نتكلم في باب العيد وفلسفته وتفسيره، ولنعيد مع النفوس التي تحب الله، وتود الأعياد .

إذا كان جوهر العيد هو ذكر الله، فلنذكره، لأن نغمة المعيدين هناك، حيث مسكن المسرورين كلهم، ليست على رأيي إلاّ إلهاً مسبحاً ممجداً، عند من استحق تلك السيرة، فأن كان فيما أذكره شيء مما تقدم به القول فلا يعجبن أحد، لأنني لست أتكلم شيئاً واحداً فقط، بل وفى أشياء أيضاً واحدة بعينها، من حيث أقشعِرُ لساناً وفكراً، إذا ما ذكرت الله، ولكم أصلي أن يلحقكم ذلك بعينه، إذ هو الألم الممدوح السعيد .

فإذا ما قلت الله فاستضيئوا بنور واحد، وفي الوقت ذاته بأنوار ثلاثة، أما الثلاثة فمن حيث الخواص والأقانيم، بحسب ما شاء أحد منكم أن يسمى الخواص أقانيم أو أشخاص، *فإننا لا نناظر في الأسماء إذا ما دامت مؤدية إلى معنى واحد* .

فأما الواحد فمن حيث القول في الجوهر واللاهوت، فانها تنقسم بغير انفصال، وتجتمع بانقسام، واللاهوت واحد في ثلاثة، والثلاثة واحد التي فيها اللاهوت، بل التي هى اللاهوت إذا ما حققنا القول .

فأما الزيادات والنقصانات، فنحن نذدري بها، ولا نجعل الاتحاد اختلاطاً ، ولا التمييز انفصالاً، ولنبعد عنا بالسواء جمع سابليوس وتقسيم أريوس الشرير، اللذان في المقابلة هما متساويان في الكفر، وإن بعدا عن الموافقة، وإلاّ فكم ينبغي أن يخلط الله اختلاطاً ردياً ، أو يفصل إلى غير مساواة .

إيماننا بالثالوث

فأما نحن فلنا إله واحد الآب الذي منه كل شيء، ورب واحد يسوع المسيح الذي به كل شيء، وروح قدس واحد الذي فيه كل شيء، من حيث يكون الذي منه، والذي به، والذي فيه، لا ينفصلون طبائع، وإلاّ فما كانت انتقلت المقدمات الظروف، ولا ترتيب الحروف، بل يمثلون خواص، طبيعة واحدة غير مختلطة، وهذا بين من اجتماعها إلى شيء واحد، إن لم يهمل القارئ ما قاله الرسول، وهو الذي منه وبه وإليه كل شيء، لأن له المجد إلى الدهر آمين(رو ١١ : ٣٦) .

إن الآب آب بلا ابتداء له ، لأنه ليس من غيره، والابن ابن وليس بغير ابتداء، لأنه من الآب، فأما إن أومأتُ إلى ابتداء الزمان فلا ابتداء أيضاً له، إذ كان صانع الأزمان لا يدخل تحت زمان، وأن روح القدس بالحقيقة هو الروح منبعث من الآب لا بمعنى البنوة، ولا الولادة، بل من حيث الانبعاث .

وإن احتيج إلى تجديد شيء من الأسماء من أجل البيان، لا الآب تغير عن عدم التاليد، وإن كان والد، ولا الابن انفصل عن الولود، وإن كان من غير مولود، وكيف كان يكون ذلك، ولا الروح انتقل إلى آب أو ابن وإن كان انبعث، وأنه إله، وإن كان ذلك ما لا تراه الكفار بالله، لأن الخاصة لا تتحرك، وإلا فكيف كانت تكون خاصة ثابتة إن تحركت وانتقلت.

وأما الذين يجعلون عدم التأليد والولود طبيعتي إلهين متشابهين في الأسماء، فعساهم أن يفصلوا آدم وشيت كل واحد منهما عن طبيعة الآخر، لأن أحدهما ليس من جسد بل من جبلة، والآخر من آدم وحواء، فالإله إذاً واحد في ثلاثة، والثلاثة واحد بحسب ما قلنا .

خلقتنا وفداؤنا

ولكي يربط الله بين السماء والأرض، وتملأ الدنيا بمجد الله، خلق الإنسان الذي أكرمه بالصورة الإلهية ، ولما انفصل الإنسان عن الله خالقه، بحسد إبليس ومذاقة الخطية المرة، انفصالاً يرثى له ، لم يتغافل الله عنه ولم يهمله، ما الذي صار؟ وما هو التدبير في استدراك هذا السقوط؟ وما هو السر العجيب الذي صار من أجلنا؟، تتجدد الطبيعة ويصير الإله بشراً، الجالس على سماء السماء في مشارق مجده وبهائه، مجد في المغارب، التي هى حقارتنا ودنائتنا، ابن الله رضي أن يصير ويدعى ابن إنسان، من حيث لم يتغير عما كان فيه وعليه، لأنه لم يتبدل بل أخذ ما لم يكن له، لأنه جواد محب البشر، حتى يحتمل الذي لا يحتمل، وتلقانا بوساطة جسم، مثل ستر، لأن احتمال لاهوته محضاً ليس هو ممكناً لطبيعة في الكون والفساد، فلهذه الحال اتحد الشيئان المتضادان الولادة مع البتولية، والغير متألم مع الألم، وبالجسد المائت مع ما لا يموت، ولأنه كان يظن مخترع الشر أنه لا يغلب، بعدما خدعنا بأمل التأله، دخلت عليه الخديعة بلباس الجسد، حتى يكون كما دخل على آدم يسقط بمصادمة الإله، وهكذا خلّص آدم الجديد آدم العتيق، وحل القضية التي على الجسد، إذ أمات الموت بموته.

فقد عيدنا الميلاد كما ينبغي ، أنا المتقدم في التعييد، وأنتم وكل ما كان في العالم، وما فوق العالم، مع الكوكب قد عدونا، ومع المجوس سجدنا، ومع الرعاة أنرنا، ومع الملائكة قد سبحنا، ومع سمعان (الشيخ) قد احتضنا، ومع حنه العجوز ذات العفاف قد اعترفنا، والمنة لمن جاء إلى خواصه مجيء الغريب .

فأما الآن فههنا فعل آخر للمسيح، وسر آخر غير ما تقدم، ليس يمكنني أن اضبط فرحي به، لأني أحس أن الله يملأ كياني، وإني ماضٍ في

اعلان البشارة المفرحة كيوحنا ، وإن لم أكن سابقاً فأنني من البرية، المسيح يستضيء، فلنستضيء معه، المسيح ينغطس (يتعمد)، فلننحدر معه، حتى نصعد بصعوده، يسوع يصطبغ أننتبه إلى المعمودية وحدها أم إلى كل الأشياء الأخرى؟ والعجائب الأخرى .

يجب أولاً التطهر ثم التواضع ثم التبشير

ماذا يجب نعرف وماذا نتعلم، أن نتقدم ونتطهر أولاً، وأن نتواضع ثانياً، وأن نبشر ونعلم في وقت تمام السن الجسدانية والروحانية، أمر التنقية، ينبغي أن نذكّر به أولئك الذين يرغبون أن يتعمدوا، ولم يتهيأوا بعدُ للمعمودية، وليست عندهم الضمانات لممارسة الفضيلة من أجل كسب الخلاص الثابت، لأن موهبة المعمودية وإن كان فيها غفران ما تقدم لأنها موهبة، فأن في ذلك الوقت سبيلها أن تهاب أشد، لئلا تعود إلى ما قد دفناه، وأما الأمر الثاني الذي هو التواضع وعدم الخجل، هذا فللذين يترفعون، على مدبري البشر وينكرون خطاياهم أمام الكهنة، والثالث للواثقين بالشباب، الذين يظنون أن كل وقت يصلح للتعليم والتقدم .

يسوع يصطبغ وأنت تتهاون بالطهر، المسيح يتنقى على يد يوحنا، وأنت تتمرد بنذيرك ومعلمك، تعمد المسيح عندما كان ابن ثلاثين سنة ثم بدأ يبشر، وأنت قبل أن تلتحي تروم أن تعلم الشيوخ، أو تثق بالتعليم من حيث لا يوثق لك السن والطريقة بذلك، ثم دانيال ههنا وفلان وفلان، قد كانوا قضاة من حداثتهم، والمثالات على لسانك، لأن كل ظالم لإحضار الجواب مستعداً، إلاّ أن ليس الفرادى للبيعة ناموساً (قانوناً) إذا كان خطاف (برعم جديد) واحد لا يدل على الربيع، ولا خط واحد تتم الهندسة، ولا سير البحر دفعة واحدة يشهد بالحق في الملاحة .

لماذا المعمودية بالماء والروح؟

يوحنا يعمد، ويسوع يتقدم عسى ليقدس الصابغ، إلاّ أن الطاهر أراد لكي يدفن آدم العتيق في الماء، وقبل هذا وبهذا يقدس الأردن، لأنه كما

كان جسداً وروحاً، كذلك تمم بالروح والماء، المعمِد يمتنع من تعميد المسيح، والمسيح يجتهد ويصر، أنا محتاج أن تعمدني، السراج يقول للشمس، الصوت للكلمة، الصديق للعريس، الأكبر في المولودين من النساء، لبكر سائر الخليقة، الذي سجد له من البطن، الذي هو فوق كل أحد، السابق في الأول، الذي سوف يسبق فيما بعد، الذي ظهر وسوف يظهر، أنا المحتاج إلى الاصطباغ من قبلك، ومن أجلك، (لأنه كان يعرف أنه سيصطبغ بالشهادة من أجله)، أو كقول بطرس الذي قال للمسيح اغسلني لا الرجلين فقط، بل وسواهما، ... وأنت تأتي إليَّ، هذه أيضاً نبوة لأنه قد كان علم أن بيلاطس بعد هيرودس سيصرع، وكذلك المسيح سيجري عليه ما عنى من قوله "اسمح الآن" لأن مخطط الرب يفرض ذلك، والرب يعرف أنه سيعمد المعمدان .

ماذا تعني الصبغة

ماذا تعني الصبغة؟ ماذا تعني النار؟ ماذا تعني الفأس؟ماذا يعني القطع والإلقاء في النار؟ أليست كل هذه تعني القطع الذي سيجريه الكلمة في فصل الشر عن الخير ، وتفصل المؤمن من الكافر، وتقيم الابن والابنة والكنة على الأب والأم والحماه، أي الحديثة على العتيقة الظلية، **فما هى سيور الحذاء التي لا تستحق حلها يا صابغ المسيح، يا ناسك الفيافي المتقشف في غذائه، يا إيلياس الجديد، يا من هو أفضل من نبيّ حيث عاينت الذي تنبأت عليه، يا واسطة العتيقة والحديثة، كأنك تسأل ما هذا بعد ذلك يكون الكلام بعد المجيء في الجسد، أنه أمر عسير أن نفهم جزءاً بسيطاً من هذا السر، ليس على الجسدانيين الصبيان في المسيح فقط، بل وعلى من كان بصورة يوحنا بالروح .**

إلا أن يسوع صعد من الماء وأصعد العالم بصعوده، ورأى السموات مفتوحة التي أغلقها آدم على نفسه، وعلى من كان بعده، كما حفظت حربة النار الفردوس، والروح فشهد باللاهوت، لأنه وافى إلى شبهه، والصوت فمن السماء لأن المشهود له من هناك، ومثل حمامة لأنه وجب أن يكرم الجسد، لأن الحمامة حملت قديماً بشارة زوال الطوفان (تك ٨ : ١١) .

وأما إن كنت تزن اللاهوت بالأجرام والأوزان، لهذه الحال الروح عندك صغيرة، لأنها بصورة حمامة، بل يا من هو شحيح في الكبار، فقد حان لك أن تستصغر ملكوت السموات، لأنها مثلت بحبة خردل، وترفع المعاند أيضاً على عظمة يسوع، لأن أحدهما يُدعَى جبلاً كبيراً ولوياثان وملك أهل المياه، والآخر يسمى حملاً، ولؤلؤة، وقطرة، وما أشبه ذلك .

أنواع المعموديات

وإذا كان العيد عيد الغطاس، فسبيلنا أن نتقدم لنرى سبيل من صار مثلنا، وتعمد وصلب بسببنا، فهات نتفلسف شيئاً في اختلاف المعموديات، لنمضي من ههنا مطهرين .

✠ فقد عمَدَ موسى ولكن بماء وقبله بغمام وبحر، ولقد كان مثالاً على رأى بولس، أما البحر فللماء، والغمام فللروح، كما أن المن كان مثالاً لخبز الحياة، والشرب للشرب الإلهيّ .

✠ وقد صبغ يوحنا أيضاً ولم يكن أيضاً على مذهب اليهود، لأنه لم يصبغ بالماء ساذجاً بل جعل ذلك للتوبة، ولم يكن أيضاً روحانياً بالكلية لأنه لم يزد كلمة بالماء والروح .

✠ وقد عمد يسوع إلاّ أنه بالروح، هذا هو التمام الأسمى .

✠ وأني أعرف أيضاً معمودية رابعة، وهى معمودية الدم والشهادة، التي قد تعمدها أيضاً يسوع، وإنها لأهيب من الباقية من حيث ليس لها تدنس بأوساخ ثانية .

✠ وأعرف أيضاً معمودية خامسة. وهى معمودية الدموع، إلا أنها صعبة موجعة، مثل الذي يعوم في كل ليلة سريره وفراشه بدموعه، والذي تبين فيه آثار السر، وقد ثبتت ويكون سلوكه حزيناً معبساً، ويتشبه برجعة منسى، والذلة المرحومة من أهل نينوى، الذي يصوت بصوت العشار في الهيكل، فيصير مبرراً دون الفريسي المتعظم، الذي ينحني مثل الكنعانية ويطلب الرحمة، ويسأل في الفتات الذي يتغذى به الكلب إذا اشتد جوعه .

أما أنا فإني أقر بأني إنسان وحيوان مثلث من طبيعة أرضية، ولذلك أقبل هذا بنشاط، وأسجد للذي أعطاني وأعطي للآخرين، وأقدم

الرحمة قبل الرحمة لأني أعرف الضعف المركب فيَّ، وأني كما أكيل سوف يكال لي .

بدعة نوفاتس

ولكن أنت ماذا تقول، ماذا تكني، يا حديثا من الفريسيين وطاهراً بالاسم لا بالضمير، الذي تعظم أمر نواطس (نوفاتس) وأنت تحب الداء بعينه، أما تقبل التوبة، أما تعطي للبكاء موضعاً، أما تستعبر عند الاستعبار، حتى لا يكون القاضي عليك مثلك، أما تستحي من تحنن يسوع الذي اتخذ أوجاعنا وحمل أمراضنا، الذي لم يأتي للأبرار بل للخطاة حتى يتوبوا، المريد الرحمة أكثر من الذبيحة، الذي يغفر الجرائم والآثام سبعة في سبعين.

وطوبى لك لو كان ترفعك طهارة، ولم تكن جبرية وقساوة، بهما تحكم على الإنسان بمالا تطيقه، وتقطع بالياس عن الاصطلاح، كذلك أيضاً هو ذوي التشمخ، إذا لا يكون معه أدب ولا افتقاد، الملام إذا لا يتبعه صفح ولا غفران، شيئان في الرداءة متشابهان، أحدهما يعطى العنان كله، والآخر يخنق بشدة خديه وضبطه .

فاظهر لي طهارتك، حتى أقبل صرامتك، وإلا فما أخوفني من نتن قروحك، تحكم بالبعد من البر على غيرك، ومع ذلك فقل لي ولا داود تقبل تائباً، وقد حفظتْ عليه التوبة نعمة النبوة، ولا بطرس العظيم، وقد ناله شيء بشريّ عند ألم الخلاص، إلاّ أن يسوع قد قبل وشفي بالثلاث في المسألة والإقرار، ما بدر في تثليث الجحود من النكران، أتراك لا تقبله أيضاً، ولا عند إهراق الدم قد يجوز أن يبلغ بك التهجم والبغي إلى مثل ذلك، ولا تقبل الذي زل في قرينته، فأن بولس قد قبله ومنحه الود لما رأى صحة الرجعة والعهد، والسبب في ذلك لئلاً يغرق بالزيادة من الحزن، وينفذ إلى الفرار بقلة الاعتدال في الزجر والانتهار .

وكأني بك أيضاً ولست تزوج الأرامل الحدثات، لأجل تهيؤ السن للزلات، لكن بولس قد جسر على ذلك الذي أنت اليوم معلمه، كأنك قد صعدت إلى سماء رابعة وفردوس بعده، وسمعت من الكلام الذي لا يباح به ما لم يسمعه، ودرت في البشارة أكثر من دوره، إلاّ أن ذلك في جوابك لم

يكن بعد المعمودية، ولكن فأين دليلك، إما أن تحضره، وإما ألا تدين، وإن كان مشكوكاً فيه، فلنغلب التفضيل .

إلاّ أنك تقول أن نوفاتس ما قبل الذين زلوا وقت الاضطهاد، أي شيء أراد بذلك، إن كانوا ما تابوا فبواجب، وأنا أيضاً لا أقبل من لا يتطاطى ولا يأتي بالواجب عليه، ولا يجعل تلافيه يعادل خطأه ويلائمه .

وإذا ما قلت فإنما أطلق لهم موضعاً لصورتهم موافقاً، وإن كان ذلك لمن قد دأب بالبكاء والدموع فلست أتشبه به، ولا أوافقه، ومن يلزمني بغلط نوفاتس وقساوته على الناس، وقد كان لا يعاقب على الشر والشرف الذي هو التالي بعد عبادة الأوثان، وقد كان قضاؤه على الزنا قضاء من لا لحم له ولا جسد .

ولكن أنتم ماذا تقولون إن كان قد أقنعكم هذا الكلام فهلموا قفوا معنا نحن معشر الناس حتى نعظم الرب جميعاً ، ولا يتجرأ أحد أن يقول، ولو كان أوثق الناس بنفسه، لا تلمسني فأني طاهر، ومن هكذا امتلئ، وإلاّ فأنيلونا شيئاً من نوركم، وإن كنا ما أقنعناكم فأنا لنبكين عليكم .

هؤلاء إن رأوا فليسلكوا طريقنا، أو طريق المسيح، وإن كانت الأخرى فعليهم بطريقهم، وعساهم أن يصطبغوا هناك بالنار، التي تكون آخر صبغة وأشد وجعاً وأطول مدة، التي تأكل المادة مثل الحشيش، وتفني كلما خف من الشر والرداءة .

وأما نحن فلنكرم معمودية المسيح اليوم ونعيد كما ينبغي ولا يكون تنعمنا للجوف بل سرورنا للروح، وذلك أن يكون المنعم هكذا، اغتسلوا صيروا أطهاراً، وإن كنتم باضعين في احمرار الخطية، ودوديّ لون الدماء فابيضّوا مثل الثلج، وإن كنتم مثل قايين ورجالاً للدماء كاملين، فابلغوا ولو إلى شبه الصوف في البياض، إلاّ أن على كل حال تطهروا، وعلى دوام التطهير فاثبتوا، فأن الله لا يفرح بشيء مثل صلاح الإنسان وخلاصه، الذي من أجله كل قول وكل سر حتى تصيروا كواكب في العالم، وقوة وحياة لقوم من الناس آخرين، وكي تقفوا قدام النور العظيم، وأنتم نور تام، وتعرفوا الضوء الذي هناك بوصولكم للثالوث، أبقى مما وصلتم وأبين، لأنكم إنما وصلتم الآن إلى اليسير، وذاك هو واحد من نور اللاهوت الواحد بيسوع المسيح ربنا الذي له المجد إلى الأبد آمين .

الميمر الرابع

يحض الناس على تقدمتهم
إلى المعمودية المقدسة

الميمر الرابع
يحض الناس على تقدمتهم إلى المعمودية المقدسة

لأن القول الذي تقدم هذا، هو في معمودية سيدنا المسيح، قاله في يوم الدنح، فلم يتسع له الخروج إلى ما أراده من ذكر هذه المعمودية التي تعم سائر الناس، فلما كان يأتي الدنح يأتي بهذا الميمر، وكان القديس باسليوس قد قال في هذا المعنى ميمراً، وسأل القديس إغريغوريوس أن يقول ميمراً ليرد الكافة عما كانوا عليه من تأخير المعمودية، لأن أكثر الناس لم يكونوا يتعمدون إلى أن تعلو أسنانهم، ويعتقدون في ذلك أن المعمودية تمحو الخطايا وهى كذلك، ولكنهم كانوا يرون أن يوغلوا قبلها في طلب اللذات وارتكاب الفساد ثم يتعمدون بعد ذلك، فكان جماعة منهم لا يتسع لهم أن يتعمدوا إلاّ عند الموت، وجماعة لا يتسع لهم جملة بسبب موت فجأة أو غرق أو قتل في الحرب أو وقوع من مكان عال وما أشبه ذلك .

فرأى هذان الرجلان (أي كيرلس وإغريغوريوس) أن يردا عن ذلك الرأي ويصيّرا الناس أن يستعجلوا المعمودية ولا يؤخروها على جنس المتاجرة للرب ومصادقته، في أن لا يجعلوها بعد الشبع من اللذات والإمعان في الموبقات، وقد بيّنا صحة الرأي فيما دعيا إليه الناس بحجج تبين من كلامهما نفسه للقارئ المستفيد إن شاء الله .

الحث على عدم تأخير المعمودية

فقال فاتحة الميمر: أمس في يوم الدنح البهيّ، لما عيدنا فقد كان لائقاً أن نجعل ما يختص به خلاصنا فرحاً وسروراً، فيكون ذلك أكثر من أفراح الأعراس والموالد والتسمية، عند أحباء الأجساد وحلق الشعور

والحصول في المساكن وما يتكرر في السنين، مما يحتفل به الناس ويعظمونه .

وجب اليوم أن نتكلم في المعمودية قليلاً، ونذكر ما حصل لنا من ههنا من نعمة وإن كان أمس قد عبرنا الكلام وفاتنا، لأن الوقت ضغطنا وتجنبنا مع ذلك فضل الكلام للمسامع، مثل فضل الغذاء للأجسام، وقد ينبغي أن نتأمل المقولات ليس بمعارضة وزيادة في تفتيش، بل نقبل الكلام في مثل هذه الأشياء بنشاط، إذ كان هذا النور أيضاً أن نعرف معنى السر وقوته .

معنى السر وقوته

فالعلم يعرف عندنا ثلاثة مواليد :

- احدهما من الأجسام .
- والآخر من المعمودية .
- والآخر من القيامة .

وهذه فأحدها ليليّ مملوك ذو آلام .

والآخر نهاريّ حُر، يحل الآلام ويزيل السترة التي من الكون كلها، ويعيد إلى الحياة العالية .

وأما الثالث فمفزع موجز بجميع الخليقة كلها، في لحظة يسيرة تقفها أمام باريها لتقوم بالحجة عما خدمته وسارت فيه، إذا كانت تبعت الجسد وحده، أم صعدت مع الروح، وقبلت باحترام عطية إعادة الولادة .

فهذه المواليد كلها طهراً يسوع قد أكرمها من نفسه .

- فإحداها بالنفخة الأولى التي أفادت الحياة .
- والأخرى فبالجسد والمعمودية التي اصطبغها هو .
- والثالثة فبالقيامة التي ابتدأ بها .

فكما صار بكراً بين إخوة كثيرين، صار بكراً عند قيامته من الأموات، والتفلسف في المولدين أعني الأول منها والأخير فليس هو من شأن هذا الوقت .

وأما الأوسط الذي هو ضروريّ عندنا، ويوم الدنح نسميه فنتفلسف فيه الاستنارة وهى المعمودية، بهاء النفوس وضياؤها، وتغيير الحياة، هى قضيتنا مع الله، المعمودية هى معونة لضعفنا .

✠ الاستنارة اطراح الجسد، اتباع الروح، مشاركة الكلمة، استصلاح الجبلة إغراق الخطية، مشاركة في النور، انتقاض الظلمة .

✠ الاستنارة مركب إلى الله، مسايرة المسيح، أساس الدين، تمام العقل، مفتاح ملكوت السماء، استفادة الحياة، بطلان العبودية، انحلال الرباطات، نقل التركيب، ولمالي أكثر العدد .

الاستنارة أجلّ ما في مواهب اللّه وأفضلها

✠ الاستنارة أجل ما في مواهب الله وأفضلها، وكما أنه قد يدعى شيء قدس الأقداس وتسبحة التسبيحات، لأنها تجمع أشياء كثيرة وتسودها، كذلك وهذه لأنها أنفس من سائر الاستنارات عندنا وأقدسها .

وقد يدعى المسيح واهبها ومعطيها بأسماء كثيرة ومختلفة، فكذلك تدعى موهبته أيضاً .

إما لأن هذا السر هو منبع الفرح، وقد سبانا حسنه وبهاؤه (لأن من يعشق شيئاً يلتذ بأسمائه دائماً) وإما لأن الموهبة نفسها كثيرة الأنواع، فلذلك ولدت لنا الكثير من الأسماء

بعض أسماء المعمودية

✠ فنحن ندعيها هدية، وموهبة، ومعمودية، ومسوحاً، واستنارة،ولباس البقاء وعدم الفساد، وحميم إعادة الكون، وخاتماً، وكل شيء كريم .

✠ فأما قولنا هدية فأنها تعطى لنا بدون أن نقدم قبلها شيئاً .

✠ وأما موهبة فإنّا نعطاها ونحن مديونون .

✠ وأما معمودية وغطاساً فلان الخطية تنغمس وتندفن في الماء معها .

✠ وأما مسوحاً فأنها كهنوتية وملكية، فالمسحة فيما سلف كان يُمسح بها الكهنة والملوك .

✠ وأما استنارة فلأنها بها غسل .

✠ وأما لباساً فلأنها سترة الفواحش .

✠ وأما حميماً فلأنها غسل .

✠ وأما خاتماً فلأنها تحفظ، وهى سمة الرب ونحن الموسومون بها، هذا تفرح به السموات .

فعندما تعتمد تفرح معك الملائكة، وتمجد لأجل مجانسته إياها في الضياء والنور والبهاء .

هذه صورة السعادة التي هناك، هذا قد نؤثر أن نسبحه، إلاّ أننا لا نقدر على ذلك بحسب استحقاقه .

أنواع النور

الله هو النور الأقصى، لا يدركه عقل، ولا يصل إلى اللفظ به نطق، وهذا المنير لسائر طبيعة النطق، هو في المعقولات في مثل ما هى الشمس في المحسوسات، بحسب أن تظهر يتصور لنا، وبقدر ما يتصور نشتاق إليه، وبمقدار ما يتاق إليه يعود فيعقل، هو وحده عارف بذاته، مدرك لها، ويفيض من ذلك اليسير إلى من خارج .

✠ النور الأول هو ذلك النور في أقانيم الآب والابن والروح القدس في طبيعتها الواحدة المشتركة، وإشعاعها الواحد في البهاء المشترك.

✠ والنور الثاني فهو الملائكة، الذي هو اندفاق من النور الأول وخدمتها إياه، ولست أعلم هل النور وصل إلى هذه الطبيعة بقدر ترتيب وفوق كل واحد منها، أم على مقدار الضوء صارت رتبة كل واحد من أهلها .

✠ فأما النور الثالث فهو الإنسان، وذلك معروف عند اليونانيين فإنهم قد يسمون الإنسان فوس وهو اسم النور بلغة اليونانية، وذلك من أجل قوة النطق التي فينا، ولموضع المتصورين منا بصورة اللاهوت، فهم إلى الله أشد قرباً .

✠ وقد أعرف نوراً آخر، وهو الذي به انصرفت الظلمة الأولى وانفصلت، بعد ما كانت قد تقدمت فوجدت قبل الخليقة المبصرة، وهو دور الكواكب والضياء، الذي من العلو ينير العالم كله .

✠ ولقد كانت من النور أيضاً الوصية، التي أوحيت إلى الأول من المخلوقين، لأن وصية الناموس سراج ونور، ولأن وصاياك نور على الأرض(مز ١١٩ : ١٠٥)، وإن كانت ظلمة الحسود، دخلت فابتدعت الشر.

✠ ونور هو أيضاً الناموس المكتوب، معتدل القابلية لأنه رسم لهم الحق وبين عن سر النور العظيم، وإن كان وجه موسى بهذا مجد، وحتى نعطي لكلامنا أضواء كثيرة، فقد كان ضوء الذي ظهر لموسى من نار، لما أوقد العليقة ولم يحرقها ليعرف بطبيعته ويتبين بقوته .

✠ ونور هو الذي هدى بنى إسرائيل بالعمود وطرق لهم البراري .

✠ نور هو أيضاً الذي اختطف إيليا في مركب من نار ولم يحترق المخطوف .

✠ ونور هو أيضاً الذي أشرق على الرعاة لما اختلط الضوء الدهريّ بالزمنيّ .

✠ نور هو أيضاً جمال الكوكب الذي سار إلى بيت لحم ليرشد المجوس، ويهدي الهدايا للضوء الذي صار معنا وهو فوقنا .

✠ نور هو أيضاً اللاهوت الذي ظهر للتلاميذ أيضاً على الجبل ولقد كانت أقوى وأشد من أبصارهم .

✠ نور هو أيضاً الذي سطع لبولس، وانصداع البصر شفى ظلمة النفس .

✠ نور هو أيضاً البهاء الذي هناك للذين يتطهرون ههنا، إذا أشرق الصديقون كالشمس ويقف الله فيما بينهم وهم آلهة وملوك، وهو يقسم ويفرق عليهم مراتب السعادة التي هناك .

✠ نور هو من دون هذه كلها ومخصوص بالضياء نور المعمودية، الذي فيه نتكلم في هذا الوقت، وهو يحتوي كل سر عجيب جليل في خلاصنا، لأن عدم الخطية إنما هو للباري وحده، للطبيعة الأولى التي ليست مركبة، إذ كان البسيط شيئاً ذا سلم لا اختلاف فيه ولا مقاومة، وقد

أجسر فأقول أن مثل ذلك أو قريب منه قد يخص طغمة الملائكة لموضع قربها من الباري، فأما الخطأ فهو للبشرية والتركيب السفلي، لأن التركيب ابتدأ الخلف والمقاومة .

فلهذه الحال لم يسر السيد أن يترك خليقته بلا معونة، ولا يغفل عنها وقد عطبت بالبعد والانفصال عنه، بل كما خلقنا ولم نكن قبل ذلك، فكذلك بعد خلقته عاد فجبلنا جبلة أشد إلهية من الأولى وأعلى، فهي للمبتدئين بالعمر خاتم، وللتامين في السن موهبة، وللصورة التي قد ألمت تلقا الشر إصلاح، حتى لا نصير باليأس أشراراً، ثم نزيد في الشر ونتحسب معه دائما فنحصل بالكلية خارجين من الخير وبعدين من الفضيلة باليأس، أيضاً ولا نسقط في عمق الشرور كما قبل فنتهاون، بل مثل الذين يسيرون الطريق البعيدة فيستريحون من تعبهم في منزل ما، فكذلك نقطع نحن ما يتبقى من الطريق فيما بعد ونحن ذوو قوة ونشاط شديد .

فهذه نعمة الاصطباغ وقوته، لن تورد على العالم خسف الطوفان، كما ورد فيما سلف، بل تولد الطهور من درن الخطية وتهبه لكل أحد، وتنظفه بالكلية مما ورد عليه من خسوف الشر وأدناسه .

لماذا لا تكون المعمودية بالروح فقط؟

لما كنا مركبين من شيئين وهما النفس والجسم بطبيعتين إحداهما تُرَى والأخرى لا تُرَى، صارت الطهارة لأجل ذلك مركبة من شيئين، وهما الماء والروح، فأحدهما يقبل ويتسلم ما يخص البصر والجسد، والآخر يتبعه بلا جسد ولا نظر، وأحدهما على معنى الرسم، والآخر على سبيل الحق، ويصل إلى العمق فيطهره إذ هو معونة للكيان الأول، فيجعلنا جديدين بدل عتق، ومتصورين بصورة الله بدل صورتنا هذه، ويسبكنا بلا نار، ويعود فيبنينا بغير هدم، فأن شئت أن أجمع الكلام قلت :

إن سبيل نعمة الاصطباغ أن نعتقد أنها وثيقة لله على الإنسان بسيرة ثانية، وعمر طاهر لا دنس فيه، فمن ههنا ينبغي أن يزاد في نهيها، وفى حفظ كل أحد نفسه، وحراستها كل الحراسة حتى لا نكون كذابين، ولا نحقر هذا الإقرار، فأن كان الله يخفر العقود فيما بين الناس إذا توسطها، فكم مقدار الخطأ والعطب متى وجدنا قد تعدينا ما بيننا وبينه من العهود،

ومتى ما صرنا للحق تحت تبعة الكذب واتصاف ذلك إلى غيره مما نحن عليه من الخطايا، هذا وليس لنا ميلاد ثانٍ، ولا خليقة معادة، ولا انعطاف إلى قديم كون، ولو طلبنا ذلك بكثير من الدموع والزفرات، التي منها يرد التحام ما على حسب ناموسي وحدي بشدة، فقد يجيء منها ذلك ونحن به مصدقون، فأن نحن محونا الآثار فما أحب ذلك إليَّ إذ كنت أنا محتاجاً إلى الرحمة أيضاً، إلاّ أنه متى لم يحتج إلى ظهور ثانٍ ووقفنا عند الأول، كان ذلك أجل وأفضل، وذلك فشيء أعرفه مشتركاً لا تعب فيه متساوياً فيما بين العبيد والسادة، والفقراء والأغنياء، والأذلاء والأجلاء، ومن لا حسب له وذوي الأحساب، ومن عليهم دين ومن ليس عليهم شيء، مثل نفس الهواء، وانصباب الضياء، وانتقال الأزمان، والنظر إلى الخليقة الذي هو التنعم الجليل، الشائع فيما بين جماعتنا، وهو المساواة في الإيمان، وما أشد ما يختار الإنسان بدل مداواة لا تؤلم، مداواة شديدة الإيلام وأن يطرح نعمة الرحمة ويحصل دينونة العقوبة، وأن يوازي بالخطية الاصطلاح، وكم تقدر أنك تقدم من دموع حتى تساوي ينبوع الاصطباغ، ومن الضنين لك أن آخرتك تنتظر اصطلاحك (أي من يضمن لك أن الموت يمهلك حتى تصير صالحاً)، ولا يدركنا موقف الدينونة ونحن تحت تبعة الخطية، والدين علينا واجب ومستحقون النار التي هناك مادام لم نوفِ الدين .

فأنت أيها الفلاح الجيد المحب للبشر، عساك تطلب من السيد أن يشفق على التينة فيما بعد، ولا يقطعها حين يشتكي منها عدم الثمر، بل ليمهلها، ليطرح عليها السرقين (سماداً)، أي الدموع والزفير والصراخ والركوع والنوم على البطحاء والسهر وإذابة الأنفس والجسم، والاصطلاح بالإقرار والطريقة الصعبة، إلاّ إنه غير معلوم إن كان السيد يمهلها أو يشفق عليها حين يعلم أن الإشفاق سيزيد في سوء حالهم وتدهورهم نتيجة إطالة حلمه عليهم .

هلموا نقبر مع المسيح بالمعمودية، حتى نقوم بقيامته، ننحدر معه حتى نستعلي بعلوه، ونستعلي حتى نتمجد بتمجيده، وإن صدمك بعد المعمودية معاند النور المحال وسيفعل ذلك لأنه قد فعله بالكلمة الإلهيّ بسب السترة (الجسد)، وتقدم إلى النور المستور من أجل الظاهر، فمتى تعرض لك كان لك ما تغلبه به، فلا تجزع من الجهاد، بل قدم سلاح الماء والروح، الذي به تطفئ سهام الشرير المتقدة، فأنه روح، ولكنه يحل الجبال، وأنه

ماء، ولكنه يطفئ النار، فأن ذكر لك الحاجة ولا سيما وقد جسر مع ذلك على مثل هذا وطلب الحجارة أن تصير خبزاً، مستغلاً فيك الجوع فلا تجهلن أفكاره، بل علمه ما لا يعلمه، وقاومه بكلام الحياة الذي هو خبز ورد من السماء فوهب للعالم الحياة .

وإن هو عمل عليك حيلة بالعجب، لأنه بذلك قد فعل مثل ذلك لما أصعد المسيح إلى جناح الهيكل، وقال ارْمِ بنفسك من فوق إلى أسفل حتى تُظهر اللاهوت، فإياك أن تخطئ بالترفع، فأنه إذا أوقعك في زلة واحدة فلن يقف عندها، بل ليس يقنعه شيء، فهو يدخل في كل باب يخدع بما لان وينتهي إلى ما يحسن، فهذا مذهبه في القتال وهو لص خبير بالكتب، فمن ههنا يقول قد كتب في باب الخبز، ومن ههنا قد كتب في باب الملائكة، " لِأَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ لِكَيْ يَحْفَظُوكَ فِي كُلِّ طُرُقِكَ "(مز ٩١ : ١١) .

يا مغتالاً للبشر كيف مسكت عما يتلو الكلام، أما أنا فقد عرفت ذلك جيداً، أو إن كنت أنت قد أمسكت عنه وهو أنى سأطأك أيها الحية والثعبان(مز ٩١ : ١٣)، وأمشي فوق الحيات والعقارب متحصنا بالثالوث .

وإن هو عارضك من كثرة شرهه بالشره، وأراك الممالك أنها له، وطلب منك السجود في لحظة من الزمان وطرفة من العين، فتهاون به كما تتهاون بالفقر، وقل واثقاً بالخاتم الذي عليك، أنني أنا صورة الله وما سقطت من المجد الأعلى كما سقطت بالتكبر أنت، بل قد لبست المسيح، وقد تجليت المعمودية وبصورته، فاسجد لي أنت، فأني أعلم بيناً أنه سيصرف عنك بهذا، وينهزم ويجرى كما انهزم من المسيح الذي هو النور الأول، كذلك سيهرب من وجه كل من استنار بالمسيح .

فهذه مواهب من يستلذ هذا الحميم، وهذه المائدة تقدم لمن قد جاد جوعه، فهلم نتعمد حتى نغلب، ونأخذ شيئاً من مياه الطهور التي هى أشد نقاء من الزوف، وأطهر من دماء الناموس، وأقدس من رماد العجلة، التي طهورها كان إلى مدة قريبة من الزمان، وليس فيه بطلان الخطيئة بالكلية، وإلا فما كانت الحاجة إلى مداومة الطهور، لمن قد طهر دفعة واحدة .

هلموا نتعمد اليوم حتى لا نضغط في غد، ولا نتأخر عن الإحسان كما نتأخر عن الظلم، ولا ننتظر أن نزيد في الشر ليزداد لنا في الصفح، ولا نصير متربعين وتجار في نعمة المسيح، ولا نتحمل أكثر مما نطيق، لئلا تغطس السفينة برجالها، وتعطب عندنا الموهبة، فنكون من

طريق ما أمكنا الزيادة ضيعنا الكل، ما دمت رب فكرك فتقدم إلى الغبطة، ما دمت لم تمرض بعد جسماً ولا فكراً، ولا يظن بك أنك هكذا عند من يحضر، وأن كنت معافا، مادام خيرك ليس هو إلى سواك، بل أنت صاحبه والقادر عليه، ما دام لسانك لا يتلجلج ولا ينشف ولا يخسر،

إذا لا أقول أكثر من هذا الكلام السر ما دمت قادراً أن تكون مؤمناً، ولا مظنوناً بك بل معترفاً بك، فلا تكون مرحوماً بل مغبوطاً (أي لا تأخذ العطية بصورة مشبوهة بل عن استحقاق)، ما دامت الموهبة ظاهرة لا يشك فيها، والنعمة تصل إلى العمق، فلا تحم الجسم حميم الدفن، ما دام حولك عبرات تدل على الرحيل، وربما كانت هذه مذروفه من طريق التحمد إليك، والزوج والأولاد يمسكون بحسب طاقتهم عن ذكر الانصراف ويطلبون كلاماً يتحفظونه عند الرحيل، لماذا تؤجل التوبة والطبيب الذي تعتمد عليه، ليس من ذوي الأهلية، وليس له أن يطيل في عمرك إلا سويعات معدودة فقط من غير أن يضمن هذه الساعات، ويزن خلاصك بالاستنارة، ويتفلسف في مرضك بعد وفاتك، أو ينقل الأجرة بالتطارد، أو يدل بذلك على اليأس ما دام ليس عندك مناظرة فيما بين المعمد والمكتسب، فأحدهما يطالب بان يزودك والآخر يحاول أن يكتب وارثاً، والوقت فلعله يضيق عليهما جميعاً .

- ✠ لماذا تنتظر الحمة أن تكون إليك محسنة، ولا يكون الله المحسن إليك ؟
- ✠ لماذا تنتظر زماناً لا تنتظر فكراً صالحاً ؟
- ✠ لماذا تطاوع صديقاً مفسداً عليك، ولا تنقاد إلى شوق يخلصك ؟
- ✠ لماذا لا يأتيك الخلاص اختياراً بل إجباراً ؟ لماذا لا يأتيك من ارادتك الحرة بل تحت ضغط الضيق ؟
- ✠ لماذا تطلب المعرفة من غيرك عن رحيلك، ولا تفكر فيه في كل وقت كأنه أمر واقع حاضر ؟
- ✠ لماذا تطلب الأدوية التي عساها لا تنفعك ؟
- ✠ لماذا تفضل أن يكون نزاع الضمير مع نزاع الموت ؟
- ✠ فقبل الضرورة طبب أنت نفسك، أنت فارحم ذاتك فأنك أولى بعلاج مرضك .

✠ ما دمت أنت تقدم لنفسك دواء الخلاص، ما دام سير سفينتك حسنا .

✠ فاتق العطب فما أقل ما نعطب إذا استعنت بالخوف .

سبيل الموهبة أن نعيد لها ونفرح لا أن نبكي عندها ويناح، الوزنة سبيلها أن نعمل بها حتى نربح، لا أن تدفن وتطمر .

✠ اهتم بأن يكون ولو قليل من الوقت بين معموديتك وموتك، حتى لا تمحو الكتب الرديئة فقط، بل تكتب بدلها صالحاً، حتى لا تكون موهبة فقط، بل يكون لك وقت تظهر فيه شكرك في عرفانك للجميل الإلهيّ، وعندئذٍ لا تتخلص من النار فقط، بل ترث المجد الذي يفيدك إياه العمل بعد الموهبة .

✠ فما أعظم عند ضيقي النفوس الخلاص من العقاب، فأما كبار النفوس فالكون عندهم هو الوصول إلى حسن الجزاء

مراتب المخلصين

وأني لأعرف المتخلصين ثلاث مراتب :

✠ أولها مرتبة العبيد .

✠ وثانيها مرتبة المأجورين .

✠ والثالثة مرتبة البنين .

فأن كنت عبداً فخف من الضرب .

إن كنت أجيراً فاقصد الأخذ .

وإن كنت فوق هذه الحال، فقد وصلت إلى البنوة .

فاستح من أبيك كما يستحي الولد من الآب .

اعمل الخير فما أحسن طاعة الولد، ولو لم تكن عتيداً أن يصير إليك شيء آخر فقد كان في الإقبال على الولد كفاية أن يكون لك ذلك أجر .

فلا نكونن بمثل هذا متهاونين، فأنه لمن أقبح الأشياء أن يتقدم الإنسان فيستقرض المال ويتأخر عن الصحة والعافية، وينظف جسمه ويتأخر عن طهارة نفسه، وأن يطلب حرية من العبودية السفلى، ولا يشتاق إلى العليا، وأن يشتد حرصه كيف يزخرف مساكنه وملابسه، ولا يهتم بما

يوصله إلى فوق ذلك مما يستحقه، وأن تبسط الإحسان إلى سواك، ولا ترى أن تفعل ذلك بنفسك .

فلو كان هذا الخير يباع لوجب أن لا يشفق على شيء من المال في ابتياعه، فإذا كان مباحاً فكأنك إنما تتهاون به لقربه منك، فكل وقت هو وقت غسل وطهارة، كما أنه وقت انصراف ورحيل، هاأنذا صارخ إليك مع بولس العظيم: "لأَنَّهُ يَقُولُ: «فِي وَقْتٍ مَقْبُولٍ سَمِعْتُكَ، وَفِي يَوْمِ خَلاصٍ أَعَنْتُكَ». هُوَذَا الآنَ وَقْتٌ مَقْبُولٌ. هُوَذَا الآنَ يَوْمُ خَلاصٍ " (٢كو ٦ : ٢)، فلم يحدد وقتا واحداً لأن الآن إنما هى لفظة تحد كل وقت حاضر .

أيضاً "«اسْتَيْقِظْ أَيُّهَا النَّائِمُ وَقُمْ مِنَ الأَمْوَاتِ فَيُضِيءَ لَكَ الْمَسِيحُ» " (أف ٥ : ١٤) ويحل ليل الخطيئة، لأن في ذكر الليل أمل سوء عند إشعياء، والعمل بالغد انفع،

فازرع إذا كان وقت الزرع، واحمل في وقت الحمل، وافتح الأهراء في وقتها، وأنصت في وقت الإنصات، واقطف العنب إذا نضج، وأحدر قاربك إلى البحر في الربيع، وارفع السفينة إذا بدأ الشتاء وتغير البحر، وليكن لك وقتاً للحرب ووقتاً للسلم، ووقتا للتزوج ووقت لتركه، وللصداقة وللانفصال إذا احتجت إليه، ولكل شيء أن قبلت أن تتمشى مع خطة سليمان الحكيم، و يجب أن تقبل منه لأن موعظته نافعه في كل وقت .

فأما الخلاص فاجعله موضوع حياتك دائماً، وليكن الوقت المناسب لمعموديتك كل وقت من الأوقات، لأنك إن أهملت اليوم وأجلت إلى الغد فأن عملك خطأ من عمل الشرير، يسرقك بواسطة التأجيلات التي هى من أسلوبه، فيقول أعطني الحاضر ولله المستأنف، أعطني، الشبيبة ولله الشيخوخة، أعطني اللذات ولذاك العطول عنها، فما أعظم حينئذ عطبك، فما أكثر العوارض التي تعارضك بما ليست في حسابك، إما حرب يتلف، أو زلزال يدفن، أو بحر يغرق، أو وحش يختطف، أو مرض يهلك، أو وبأ، إذ كان لا شيء أسهل من موت الإنسان، وإن كان يتأجج بالصورة عظيماً، وذلك أن يزيد عليه شراب أو يختطفة ريح، أو يتقنطر به فرس، أو يضر به دواء يغتال به، فيصير بدل شربه خلاص يصير للهلاك، أو حكم بالموت من قاضٍ لا إنسانية فيه، أو شرطيّ لا يمكنه الخلاص منه، أو غير ذلك مما يسرع بالنقلة ويجعلها أقوى من كل معونة .

فأن أنت تقدمت فأحرزت نفسك بالخاتم، واستوثقت بالمعونة القوية النفيسة، ووسمت نفسك وجسمك بالمسحة والروح كما فعل الإسرائيليون بالدم والمسوح الليليّ على العتبة العليا والقائمتين الحافظ للأبكار، وآثرت أن تعرف ما يكون منك وما تناله من فائدة وربح، فاسمع ذلك من قول داود النبيّ فإنه قال: "لَا تَخْشَى مِنْ خَوْفِ اللَّيْلِ وَلَا مِنْ سَهْمٍ يَطِيرُ فِي النَّهَارِ وَلَا مِنْ وَبَأٍ يَسْلُكُ فِي الدُّجَى وَلَا مِنْ هَلَاكٍ يُفْسِدُ فِي الظَّهِيرَةِ. يَسْقُطُ عَنْ جَانِبِكَ أَلْفٌ وَرَبَوَاتٌ عَنْ يَمِينِكَ. إِلَيْكَ لَا يَقْرُبُ. إِنَّمَا بِعَيْنَيْكَ تَنْظُرُ وَتَرَى مُجَازَاةَ الْأَشْرَارِ " (مز ٩١: ٥ - ٨)، هذا عظيم في الصيانة لك في حياتك لأن الخروف الموسوم (المعلَّم بعلامة) لا تسهل سرقته، فأما إذا كان غير موسوم فهو مأكل للصوص .

فالمعمودية لك عند الممات كفن نفيس إلهيّ من أفخر اللبوس، وأكرم من الذهب وأجل من القبور وأفضل من تربة الخلوف، وأوفق في الأوقات من المقدمات التي تقدم من الأثمار في أزمانها، وذلك مما يقدمه الأحياء للأموات حين يجعلون العادة فريضة، فلينصرف عندك كل سبب، ويختطف كل شيء، وينفق كلما كان من الأموال والعقارات والكراسيّ والكرامات وكلما يحوط به الدور السفليّ .

فأما أنت فأكمل عمرك بثقة وصيانة ولا تخسرن شيئاً مما جعله الله معونة لخلاصك، فأن كنت تخشى أن تفسد الموهبة وتتأخر عن الطهارة كأنها ليست لك ثابتة سواها، فلما لا تخشى من ثقتك بالزمان الذي يطردك ولا يكل في طلبك، فتعطب أخيراً وتخسر أعظم ما أنعم به عليك وهو المسيح، هل من هذه الجهة تهرب أن تكون نصرانياً، إياك فأن هذا الخوف ليس خوفاً صحيحاً، بل هو فكر من اختلط قياسه، فتباً لهذا التجرح الذي لا نجوب فيه، أن كان ذلك مما ينبغي أن يقال، بل تباً لحيل الشرير فأنها ظلمة، وتتزيا بالنور، وإذ لا يمكنه أن يقابل ظاهراً، احتال في سترة وصار كأنه مشيراً صالحاً وهو شرير، حتى يمكنه ولو تحيل حيلة واحدة، ألا نخلص من حيله وفخاخه .

فهذا هو الذي يحتال به في هذا الموضع بيناً، لأنه لا يمكنه أن يصل إلى اطراح المعمودية ظاهراً، فهو يحتال عليك في أن تخسر كلها بالاستيثاق المصنع، حتى يكون ما تخافه وتخشاه هو بعينه الذي يلحقك بالخوف والحذر، لأنك تخشى أن تفسد الموهبة، فبهذا الحذر نفسه تسقط وتعدم النعمة، أما ذاك فهذا شأنه، وليس ممن يكف عن الحيلة والمخادعة، إلى أن يرانا نتوجه إلى السماء من حيث سقط هو .

فأما أنت يا عبد الله وصاحبه فاعرف موضع خداعه، فأن القتال إنما هو على من عنده شيء، وفى الخلائل يكون القتال أيضاً، واحذر أن تجعل العدو مشيراً عليك، ولا تتهاون بأن تصير وتدعى مؤمناً ما دمت غير معمد، فإنما أنت في دهليز الإيمان، وسبيلك أن تدخل إلى داخل وتعبر الصحن وتشرف على القدس وتطلع في قدس الأقداس، وتصير مع الثالوث نفسه، أن الشيء الذي تقاتل عنه لعظيم، فأنت محتاج إلى استيثاق عظيم، تقدم إلى ترس الإيمان فتحصن به، فإنه سيخشاك حين تشهر سلاحك ضده ولأجل هذا يحتال أن يعريك من النعمة، حتى يجدك بلا سلاح ولا صيانة، وأنه يدخل في كل سن، وعلى كل مراحل العمر، فليُصَدَّ بكل وسيلة حتى يرتد ويُقهر .

✠ فأن كنت شاباً فقف على الآلام والمعونة معك، أدخل نفسك في صفوف المحاربين واقتل جليات الجبار، اغلب الألوف والربوات هكذا تكون خليق بشبابك وتتمتع بهذا الشباب، ولا ترضى أن يضيع شبابك وتموت في قلة تمام الإيمان .

✠ وإن كنت شيخاً وقد دنوت من الأجل الضروريّ، فما أحسن بك أن تحترم شيبتك، أظهر مقتضى التعقل بدل الجهل الذي تظهره الآن، عاون الأيام الباقية اليسيرة وثق بالشيخوخة على الطهارة، فلن تخشى ما يخشاه الشاب وأنت في الشيخوخة والنسمات الأخيرة، لا تنتظر أن تتعمد ميتاً، فلا تكون حينئذٍ مرحوماً أكثر مما تكون مبغضاً، أو أنت تشتاق إلى بقايا اللذات، وأنت بقية من الحياة؟! فما أقبح بالإنسان أن يكبر وينحل

جسداً، ولا يكبر ولا ينحل من الفواحش، لأنك إذا أنت أخرت المعمودية فإنما تدل بذلك على أنك تحب الخطية .

✠ ألك طفل لا تترك الشر يأخذ منه وقتاً بل قدمه للمعمودية وهو طفل، فطهره بالروح منذ نعومة أظفاره .

✠ أيتها المرأة تؤجلين معمودية طفلك كأنك قد خشيت عليه لأجل ضعف الطبيعة فما أصغر نفسك، وأقل إيمانك، أنت تعلمين أن حنة النبية وعدت الله بصموئيل قبل أن تلده، فلما ولدته طهرته للوقت وقدمته لله وربته في لباس الكهنوت، ولم تخف من ضعف البشرية بل وثقت بالله .

✠ فاحذري أن تهتمي بالتعاويذ والرُّقى، التي فيها يدخل الشرير ويسرق العبادة من الله إلى نفسه في أوهام وإيحاءات فارغة وعدمية، بل أعطي ابنك نعمة الثالوث القدوس أعظم وأحسن حجاب ووقاية .

✠ أتريد أن تلزم نفسك البتولية، اختمها بختم المعمودية لتكون نعمتها رفيقة لك وشريكة حياتك، وهى تنظم سيرتك وأقوالك تضبط كل عضو من أعضائك وكل حركة من حركاتك، وجميع حسك، كرّم المعمودية حتى تزينك وتجعل على رأسك تاج النعم، وتحامي عنك بإكليل العظمة، ادخلها معك لتكون لعقبك حافظة .

✠ أمقيد أنت بالزواج، فارتبط بخاتم المعمودية معه، وأسكن هذه الطهارة معك صيانة لعفافك، فهى آمن لك من الخدم والبوابين وأحصن وأصون، ألم تتزوج تزويج الجسد لا تخف من التمام، فأنك طاهر، وبعد العرس، والتبعة في هذا عليَّ، وأنا أكون للعرس مرتباً، وأكون مكللاً، لأنه ليس لما كانت البكورية من أكرم الأشياء، وجب أن يكون التزويج من اسقطها، فأنا اتشبه بالمسيح الختن، نديم الختن الطاهر، ومكلله الذي عمل الاعجوبة في العرس، وأكرم التزويج بحضوره، ولكن هذا وحده أطلب أن يكون العرس بهياً، ولا يخالطه شيء من العشق النجس .

✠ شيئاً واحداً آخر أطلب بأن تأخذ من نعمة المعمودية الأمان وأعطها الطهارة والعفة حتى يحين وقت الاكليل، وهو الوقت الأثمن من كل انشغال واهتمام، وأن يكون ذلك عن اتفاق مشترك ومرضاة، فلسنا نفترض ذلك بل لنشير به، لأننا نريد أن نأخذ منك شيئاً نقدمه عن صلاحك واحترازك وفي سبيل راحتك الدائمة، وبالجملة أقول أنه ليس عمر ولا

سيرة ولا مذهب ولا صناعة لا توافقها هذه النعمة، وهى لها أنفع من كل شيء .

✠ فاقبل يا صاحب السلطان اللجام، ويا من في العبودية المساواة في الكرامة، ويا من قد مسه الحزن السلوة، ويا من قد شمله الشرور المأدبة، ويا فقير الغنى الذي لا يؤخذ منك، ويا غنياً خذ السياسة التي تسوس بها مالك، ولا يكون أجود منها، ولا تتفلسف ولا تتحيل بما يفسد خلاصك، فأنا وإن تهاونا بغيرنا فلن يمكننا أن نتهاون بنفوسنا، لأن من سخر من نفسه فقد أخطأ عليها جداً وجهل أيضاً .

✠ فإن كنت تنقلت في الوسط، وتتدنس بخدمة العامة، ويصعب عليك أن تعمل الرحمة وتستثقلها، فالأمر بسيط، فإن كان يمكنك فاهرب من الوسط واستصحب الصحب الفاضل، واجعل لنفسك جناحي عقاب وحمامة، وأخص ما أقوله، مالك ولقيصر، أو مع شباب قيصر(العالم)، فانصرف إلى مكان ليس خطيئة، ولا لوثة خطية ولا حية تنهش في طريق، وتمنعك من المسالك المختصة بالله .

✠ اخطف نفسك من العالم، اهرب من سدوم، وافلت من الحريق، سر بلا انعطاف، حتى لا تجمد فتصير عمود ملح، واخلص إلى الجبل، ولا توجد مع الباقين، وإن كنت قد تمسكت بمكان، وارتبطت برباطات ضرورية، فقل لنفسك هذا، بل أنا أقوله لك، أن الأفضل أن يصل الإنسان إلى الخير، ويحفظ الطهارة، وإن كان هذا مما لا يمكن كلياً، فجيد هو أن تتدنس بخدمة الوسط يسيراً ولا تسقط بالكلية من النعمة، كما أنه أفضل أن يوبخ الإنسان والده أو سيده، من أن يقصيه ويبعده، وأن يستنير قليلاً، خير من أن يظلم بالكلية، فأنه مما يخص أهل الرأي الحصيف فيما يختارونه من الخير أن يكون أفضله وأثقله، فكذلك يليق بهم أن يختاروا من الشر أيسره وأخفه .

✠ فلهذا لا تجزع من الطهارة (المعمودية)، فأن قاضينا العادل المحب للبشر يحكم دائماً على أعمالك بحسب الظروف والأحوال ، فأن من يحقق تحقيقات صغيرة في ظروف صعبة، وأجواء غير صالحة، يكون في منزلة أعلى من منزلة من لم يحقق الشيء الكثير في جو من الحرية التامة والأحوال المؤاتية، كما أنه أعجب وأظرف أن يمشي المقيد قليلاً ممن يعدو ولا يثقله رباط، وأن يتدنس من يمشي على مجرى حمأة بنقط صغار، من

أن يكون نقياً وهو سائر في طريق طلقة، والدليل على المقول، رحاب الزانية التي لم يكن لها شيء حسن ، أن شيئاً واحداً طهرها وهو محبة الغرباء، والعشار شيء واحد رفعه وهو الاتضاع، ولم يكن له في غير ذلك شهادة، لتتعلم أنت ألاّ تسارع إلى اليأس من نفسك .

مثل العاملين في الكرم

✠ ربما قال قائل: فماذا عساه يكون بي من زيادة إذا تقدمت وارتبطت بالمعمودية ومنعت نفسي من لذات الحياة باستعجالي، ولي فسحة في التمتع بها، ثم أتناول النعمة فيما بعد، لأن الذين تقدم نصبهم وتعبهم في الكرم، لم يكن لهم شيء يزيد في الأجرة على المتاخرين، لأنها دفعت إليهم بالسواء .

✠ فأقول قد كفيتنا التعب أيها القائل هذا القول من كنت، لأنك أظهرت لنا بعد الجهد السر في تلومك، ولست أحمدك على التخابث ولكن أحمدك على الاعتراف، فهلمَّ أفسر لك المثل حتى لا يدخل عليك الضرر مما كنت تفهمه بقلة خبرتك .

✠ أول شيء ليس الكلام ههنا في المعمودية، وإنما هو في الذين يؤمنون في أوقات مختلفة، ويدخلون في الكرم النفيس الذي هو البيعة،لأن كل واحد منهم إنما يطالب بالعمل من اليوم والساعة التي فيها آمن .

✠ وبعد ذلك فأن الأولين قدموا زيادة في مقدار التعب ولم يقدموا زيادة في مقدار النية والاعتقاد، ومن ههنا قد يجب أن يكون الآخرين أكثر من الأولين، وإن كان الكلام في ذلك عجيباً، وذلك أن دخول الآخرين أخيراً، إنما السبب فيه أنهم استدعوا إلى عمل الكرم أخيراً، وأما الباقون فنحن ننتظر مقدار الفرق بينهم، وذلك أن أولئك لم يدخلوا في الكرم من قبل أن يوافقوا على الأجرة، وهؤلاء تقدموا إلى العمل بغير موافقة، وذلك دليل على الزيادة في الأمانة .

✠ وأولئك فوجدوا من طبيعة حسودة متسخطة، وهؤلاء فلم يكن يشتكي منهم شيء مثل هذا .

✠ وأولئك فكان الذي دفع لهم كان أجرة، وهؤلاء فالذي دفع لهم كان على جنس المنة، حتى إن الأولين نسبوا إلى الجهل، فوجب أن يعدموا الزيادة .

✠ وسبيلنا أن نعرف ما لعله كان يصير إليهم لو تأخروا، وهو المساواة في الأجرة لا محالة، وكيف يلومون المستأجر كأنه لم يساوى فيما بينهم عند مساواتهم، فهذا كله ينقص من عرق جبين الأولين، وإن كانوا قد تقدموا فتعبوا، ومن هذا قد يعرض أن تكون قسمة المساواة بعدل وواجب، إذا قيست إلى تعب الضمير .

✠ وعلى الاعتقاد فأن كان المثل يدل عندك على معنى الاستحمام (المعمودية)، فما الذي يمنعك أن تدخل وتتقدم فتتعب وتحمى، ولا تتضايق حينئذٍ، ولا تحسد المتأخرين ليجب لك الزيادة، فهذا نفسه وهو تحننك ومحبتك للبشر، وتكون المجازة لك واجبة، ولا تكون على طريق الامتنان عليك .

✠ ثم قد ذكر هنا كأن الأجراء لما دخلوا أخذوا ولم يخيبوا من الكرم، وهذا فهو خطر عليك أن لحقك في الخيبوبة من الدخول في الكنيسة، فهو شيء متى لحقك مثله كان من أعظم التلف والعطب عليك، فلو كان معروفاً أنك تصل إلى هذه النعمة عندما تتفق هكذا، وتمسك عندك شيء من العمل بفرط الحيلة، لقد كان لك عذر في الالتجاء إلى مثل هذه الأفكار .

✠ إيثارك أن تربح شيئاً من نعمة المسيح السيد في غير موضع الربح ، هذا إذا تركت أن أقول أن الزيادة في العمل بعينها هى الزيادة في الثواب، عند من لم يكن شديد المتاجرة في فكره، فأن كان عندك أنه من العطب سقوطك من الكرم بالمتاجرة، فكان ذلك ممن يخسرك راس المال عند نظرك في الحقائر الصغار .

✠ فها ارجع إلى كلامي واترك المحاورات والمدافعات وتقدم إلى النعمة بلا زيادة في قياس وفكر حتى لا تخطف من قبل تحقق الآمال، تعمل كل هذه الحيل والأفانين على حساب خلاصك .

✠ فأن قلت فماذا أو ليس الإله متعطف على البشر وعارفاً بالنيات، يميز الاعتقاد فيجعل إضمار التعمد مثل التعمد .

✠ أجبتك أن قولك هذا المثل يشبه الرمز أن يكون عند الله منيراً بسب محبته للبشر من لا نور فيه، أو يكون داخل ملكوت السموات من هو حريص على الوصول إليها، ثم لا يعمل شيئاً من أعمالها .

✠ وأما أنا فأقول ما عندي في هذا الباب، في ظني أنه يوافقني عليه سائر أولى العقول وذوي الألباب، الذين وصلوا إلى النعمة، منهم من كان بالكلية غريباً من الله بعيداً من الخلاص، قد دخل في كل صنف من الشر، وقد حرص أن يكون شريراً .

أو منهم من كان متوسطاً في الشر فيما بين الفضيلة والنقيصة، قد عمل الشر ولكنه لم يوافق من قد عمله كالمحموم، فهو محموم وليس مرضه مما يعجبه .

ومنهم من كان قبل تمام المعمودية ممدوحاً .

فواحد بالطبع والآخر بالاكتساب، فقد تقدم وطهر ذاته للمعمودية، فلما صار إلى التمام صار أفضل وأحرز مما كان قد فعل في الأول حتى يصير إلى الخير .

والثاني حتى يحفظه فمن البين في هؤلاء أن الذين قد تركوا أشياء من الشر، هم أفضل من الذين هم بالكلية أشرار .

وأفضل من الذين تركوا شيئاً من الشر الذين حرصوا أو نظفوا نفوسهم للمعمودية، لأن معهم شيئاً من الفضل وهو العمل، وذاك أن هذا الحميم لن يمحو الفضائل كما يغسل الخطايا والأوساخ .

وأفضل من هؤلاء هم الذين يفلحون النعمة، وينقشون الجمال في نفوسهم حتى يكونوا بقدر إمكانهم أجمل مما كانوا عليه قبلاً .

وكذلك الذين يحرمون هذه النعمة فهم من هو بالكلية بهيميّ أو وحشيّ بمقدار ما فيه من جهل أو شر، وهؤلاء هم فيما أظن الذين عندهم النعمة ليست محتشمة بل مطرحة جداً، ويعتبرونها ربحاً استثنائياً إذا أعطيت أرادوها وإذا لم تعط لهم يحتقرونها .

ومنهم من يعرفون قيمة المعمودية ويكرمونها إلا أنهم يؤجلونها إما عن كسل وتهاون، وإما عن قلب رغيب لا يشبع، وبعضهم لأنهم لا يطيقون قبولها، إما لأنهم أطفال وإما لحال أخرى هم عليها مجبرون، حتى إنهم ولو أرادوا لم يمكنهم الوصول إلى النعمة، فكما وجدنا في أولئك فرقاً بيناً فلذلك تجد في هؤلاء والذين هم بالكلية متهاونون، أشر من الذين هم

شرهون أو متكاسلون، وهؤلاء أشر من الذين يسقطون من النعمة إما من جهل أو من ضرورة غصبتهم، على رأيهم، لأن الغصب ليس هو شيئاً آخر غير حرمان قد ورد من غير الاختيار، وعندي أن الأولين سيطالبون بدينونة لأجل تهاونهم بالمعمودية، كما يطالبون عن غير ذلك من شرورهم.

وأما الثانون فسيطالبون بحنانه ولكن بدون ذلك، لأنهم لم يحرموها بسوء اعتقادهم بل بنقص في عقولهم .

وأما الآخيرون فلا يشرّفهم الديان العادل ولا يعذبهم، لأنهم وإن كانوا غير موسومين فإنهم غير شريرين، فقد أصيبوا بالخسران ولم يتعمدوه، وليس كل من ليس هو مستحقاً لعقوبة فهو مستحق لكرامة، كما أنه ليس من لا يستحق الكرامة قد يستحق العقوبة .

وأنا أنظر نظراً آخر أيضاً إن كنت تحكم بالقتل على من اعتقده ثم لم يفعله، فليكن عندك معموداً من أراد المعمودية ولم يتعمد، وإن كان ليس ذلك فكيف هذا، ليس يمكنني أن أعلم وإن رأيت، فهكذا إن كان يقنعك في قوة المعمودية الشوق إليها، فليقنعك في المجد والنعيم الاشتياق إليهم، أو ما عليك في ألاّ تصل وتنالهما إذا كان الشوق قد حصل لك .

فإذ كنتم إذا سمعتم هذه الأقوال، فهلموا تقدموا إليه واستنيروا ووجوهكم لن تخزى بحرمان النعمة، واقبلوا الاستنارة ما دام لكم الوقت أيضاً، حتى لا تلحقكم الظلمة فتدرككم، وتفصل فيما بينكم وبين الاستنارة بالمعمودية، إذ كان لابد من ورود الليل الذي لا يمكن أحد أن يعمل فيه شيئاً، وهو الانصراف من ههنا، أما ذاك الفصل الذي تقدم به القول فهو من كلام داود، وأما هذا فهو من كلام النور الصادق، الذي ينير كل إنسان آتٍ إلى العالم .

لا تلتمس الأعذار بتأخير المعمودية

ولنسمع أيضاً صوت سليمان الحكيم، يغير شديداً لمن كان فيكم بطيئاً أو متكاسلاً بقوله:" إِلَى مَتَى تَنَامُ أَيُّهَا الْكَسْلاَنُ؟ مَتَى تَنْهَضُ مِنْ نَوْمِكَ؟ " (أم ٦ : ٩)، تحتج بكذا ثم بكذا وتكثر الاحتجاج بعلل الخطايا فتقول : أصبر إلى عيد الظهور الإلهيّ، الفصح أكرم لي، بل انتظر العنصرة، وإن أنا تعمدت مع المسيح كان أفضل حتى أقوم معه يوم القيامة، أو أكرم ظهور

الروح القدس، ثم ماذا يكون بعد ذلك، تأتي الآخرة بغتة في اليوم الذي لا ترجوه والساعة التي لا تعرفها، ثم يأتيك فقر النعمة من المسائر السوء، وتجوع عند الغناء العظيم جوعاً من عدم الخيرات، وقد كان سبيلك أن تنتفع من الضد بضده، فتربح بعدم الكسل بالحصاد، وتقبل من الينبوع الري مثل الأيل الشديد العطش إذا قصد عيون المياه، وتطفئ نصب الإحضار ببرد الماء، ولا يلحقك ما لحق إسماعيل عند جفافه ونشفه بعدم الماء، ولا يلحقك ما قيل في الخرافات (الأمثال الشعبية) أن تكون في وسط المعين وأنت معاقب بالعطش .

فما أشد على الإنسان أن يترك الموسم ثم يطلب بعد ذلك التجارة، ويتجاوز المن ثم يطلب بعد ذلك الطعام، ما لم تعقب الرأي ومعرفة الخسران أن بعد الفوت إذا كان ليس إلى استقالة الغرامة سبيل، وذلك بعد الرحيل من ههنا وانغلاق الأعمال في العالم، الذي لا يكون أمرّ منه إذا ما حصل الخاطئون في العذاب والصديقيون في النعيم .

فلهذا لا تعوقوا التقدم إلى المعمودية، بل سارعوا حتى لا يسبقكم لص، ولا يعبركم فاسق، ولا يفضل عليكم بره، ولا يتقدم قاتل فيخطف الخير من دونكم، ولا يفعل ذلك زاني ولا عشار، ولا أحد ممن يغتصب الملكوت ويختطفها فإنها تغصب طائعة وتغصب لأجل الخير المبذول فيها،

فكن يا هذا إلى الشر بطيئاً وإلى الخلاص سريعاً، إن قبلت مني فأن الشر متساوي في المسارعة إلى ما يشين، والتأخر عما يزين .

وإن أنت دعيت إلى وليمة فلا تسارع، وأن دعيت إلى كفر فاقفز هارباً، وإن قال لك الصحب السوء هلم معنا فشاركنا في دم حتى نخفي في الأرض رجلاً صديقاً، فلا تفتح لذلك أذنيك فتستريح .

شيئان عظيمان أحدهما أن تعرّف أولئك بما هم عليه من الخطأ .

والآخر أنك تخلص نفسك من المشاركة في الشر .

إن قال لكم داود العظيم" هَذَا هُوَ الْيَوْمُ الَّذِي صَنَعَهُ الرَّبُّ. نَبْتَهِجُ وَنَفْرَحُ فِيهِ " (مز١١٨ : ٢٤)، أو نبيّ آخر "«هَلُمَّ نَصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الرَّبِّ إِلَى بَيْتِ إِلَهِ يَعْقُوبَ فَيُعَلِّمَنَا مِنْ طُرُقِهِ وَنَسْلُكَ فِي سُبُلِهِ». لِأَنَّهُ مِنْ صِهْيَوْنَ تَخْرُجُ الشَّرِيعَةُ وَمِنْ أُورُشَلِيمَ كَلِمَةُ الرَّبِّ " (إش ٢ : ٣)، والمخلص نفسه" تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ "(مت١١ : ٢٨)، أو قوموا ننصرف من ههنا بهيين وأكثر من الثلج نقيين، وأشد من اللبن

متجبنين، وأكثر من الجوهر الثمين لامعين، فلا نعارض ولا تتأخر في الإجابة .

بل لنصر مثل بطرس ويوحنا فكما كانا في مسارعتهما إلى القبر والقيامة، كذلك فلتكن مسارعتنا نحن إلى غسل المعمودية، يدافع بعضنا البعض ويزاحمه ونحرص أن نسبق إلى مثل هذا الخير .

ولا تقل عد إليَّ آجلاً حتى أتعمد في غد، وذلك يمكنك في يومك أن تصل إلى هذا الخير، ولا تقل فليحضر أبى أو والدتي أو اخوتي أو قريبي أو أولادي أو أصدقائي أو غيرهم ممن يكرم عليك وحينئذ أوصل نفسي إلى الخلاص، لأنه ما أن لي بعد أن أتطهر، فأني أخشى عليك ألا تصير من رجوته مشاركاً في الشرور، بل مشاركاً لك بدل ذلك في الحزن والنحيب، بل أن حضر من تقدم ذكرهم فلا بأس من ذلك، وأن لم يحضر فلا ينتظر .

وما أقبح بك أن تقول أين ما أقدمه عند المعمودية، وأين اللباس الذي يصلح للنور، حتى أتباهى به، ومن أين لي ما يصلح لمن يعمدني، حتى أكون فيما ماثل هذا قد تجملت كأنك تقرر أن هذا مما لابد منه، وأن المعمودية من إعْوَازِهِ تنقص .

ولا يضيق عطلك في الكبائر وإياك أن يلحقك جبن، أو صغر نفس في الجلائل، فأن هذا السر أجل من المبصرات، فقدم ذاتك وحدها والبس المسيح، وعاني سيرتك وأعمالك، فأن هذا هو الذي أفرح به إذا ما احتفلت بمثله، وهذا هو الذي يريده الله الذي وهب لك الكبار، ليس عند الله شيء كبير لا يصل إليه الفقير، فأنه لن يتهاون بالفقراء في هذا وما ناسبه، وإلاّ فما كان عندهم ما يمارون به الأغنياء في غير هذا الفرق فيما بين الغناء والفقر، فأما ههنا فمن كان أجود نية وأشد نشاطاً فهو الأوسع حالاً والأجل يساراً .

فلا يردنك شيء عن التقدم أمامك ولا يضبطن سبب من الأسباب نشاطك، بل ما دام شوقك شديداً فتناول ما قد اشتقت إليه، وما دام الحديد حاراً فاسطمه بالنار، لئلا تأتي فاصله فتقطع الشوق عن المحبوب، أنا اليوم فيلبس فكن أنت القنداكس (الخصيّ الحبشيّ) وقل ماذا يمنعني من التعمد ؟.

استقرض الوقت وانتهز الفرصة، وآجذل بالخير الذي قد حضرك، وإذا قلت فتعمد، وإذا تعمدت فاخلص ناجياً، وإن كنت حبشيَّ

الجسم فصر أبيضَ النفس، وتمسك بالخلاص الذي لا يكون أرفع منه عند ذوي العقول ولا أكرم .

ولا تقلْ ينبغي أن يعمدني أسقف، ويقول آخر بل يعمدني مطران، أو واحد من أهل أورشليم، فأن النعمة ليست للمواضع بل للروح .

ولا تقلْ سبيل من يعمدني أن يكون من ذوي الأحساب فأنه صعب على أن يشير حسبي من يعمدني، ولا تقل سبيله أن يكون قسيساً مماً ليست له امرأة أو من النساك أو من يساوي الملائكة في سيرتهم، لئلا أتلوث من سيرته ساعة المعمودية والتطهير، لا تضل ولا تطلب فضيلة النذير ولا الصابغ، فأن ديان هذه الأشياء هو عالم الخفيات، إذ كان الإنسان إنما ينظر إلى الوجه والله يبصر القلب، فأما أنت فكل أحد من الكهنة القانونيين فكن واثقاً في صحة معموديتهم، وإنما تطلب منه شيئاً واحداً، أن يكون من المتقدمين، وممن ليست مذمته ظاهرة، ولا هو غريب من الكنيسة.

لا تدن القضاة، وأنت محتاج إلى المداوة، ولا تطلب مراتب الذين يطهرونك ولا تطلب من يوازي والديك، وأما أنت فكل أحد أرفع منك، وانظر فيما أقوله، ليكن شيء ذهباً وآخر حديداً، وليكن من كليهما خاتمان، ولننقش فيهما صورة واحدة ملكية، ثم نختم بها شمع، فما الفرق بين طابع الذهب، وبين طابع الحديد، لا شيء، واعرف فضل المادة في الشمع إن كنت حكيماً، وقل أيهما طابع الحديد وأيهما طابع الذهب، وكيف هما واحداً، فإن الفرق إنما يأتي في الهيوليّ من ذاتهما وأما النقش فلا فرق فيه كذلك فليكن عندك كل أحد من المعمدين .

وإن تقدم واحدٌ في سيرته عن الآخر، فأن قوة المعمودية واحدة متساوية .

وليكن من يمنح المعمودية في نظرك شبيهاً بغيره إذا كان بهذه الأمانة التي نحن عليها متصوراً، ولا يمتنع أن يعتمد معك فقيرٌ إذا كنت غنياً، ولا يمتنع أن يعتمد معك من لا حسب له إذا كنت حسيباً، ولا أن يتعمد معك مملوك إذا كنت مالكاً، فإنك لن تصل في الاتضاع إلى المقدار الذي وصل إليه المسيح عند تعمدك اليوم، وهو الذي اتخذ صورة عبد من أجلك، وأنت منذ اليوم الذي تنتقل إليه، وقد انصرفت عنك سائر الصورة القديمة، وصارت على الجماعة صورة واحدة وهى المسيح .

فلا تتمنع أن تقر بخطيتك، مع معرفتك كيف كان يوحنا يعمد لتخلص بالخزي الذي يلحقك ههنا في الإقرار من الخزي في الآخرة، إذ كان هذا جزاء في هذا الموضع من العقوبة التي تلزم هناك، وإذا أنت فعلت ذلك كنت قد بينت بأنك بالحقيقة قد أبغضت الخطية ودحضتها، حتى قد أشهرتها وكشفتها كالمستحقة للشتيمة والإشهار، ولا تطرح مداواة الاستخلاف، ولا تستطيل مدتها، فانها تجربة وامتحان للقربى من نعمة المعمودية وما عساه ينالك من التعب، حتى تساوي ما نال ملكة الحبشة لما قدمت من أقصى الأرض حتى تعاين حكمة سليمان، وههنا ما يزيد على سليمان عند من يتبين ذلك حسناً .

فما دمت تطلب الحصول على المعمودية فلا تحسب حساباً لطول الطريق، ولا مسافة بحر ولا نار، ولو كانت بين يديك، ولا شيء غير ذلك من كبير العوائق أو صغيرها، كل ذلك حتى تنال هذه النعمة، فإن كان بإمكانك أن تحقق المعمودية بلا تعب ولا عناء، فكم يكون مقدار المهانة والنقص إذا تأخرت عن ذلك، إن إشعياء يأمرك قائلاً "أيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعاً هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ فِضَّةٌ تَعَالُوا اشْتَرُوا وَكُلُوا. هَلُمُّوا اشْتَرُوا بِلَا فِضَّةٍ وَبِلَا ثَمَنٍ خَمْراً وَلَبَناً " (إش٥٥ : ١)، فيالها من سرعة في الجودة والمحبة للبشر، ويالها من سهولة في تجارة ومبايعة، إذا كان ثمن هذا الخير النفيس إنما هو أن تريده فقط، أو تنهض نحوه، فأن النهضة تقوم عنده مقام الثمن، وهو يظمأ إلى من يظمأ نحوه، ويسقي من يريد الشرب، ويعمد مسألته في الإحسان إحساناً إليه، وهو حاضر قدامك وعطيته جليلة بحسب كرمه، وإذا ما أعطى كان ذلك ألذ عنده من التذاذ آخرين بأخذهم ما يطلبونه، وشيء واحد لابد منه ألا نلام على شح بطلب الصغار وما لا يكون أهلاً لمعطيه .

فطوبى لمن يطلب منه المسيح شربة كما طلب من تلك السامرية، ويعطيه غير ما تفوز إلى الحياة الأبدية، الطوبى لمن يزرعون على كل المياه(إش ٣٢ : ٢٠)، وكل نفس هى في غد مفلوحة مسقاة، بعدما كان اليوم الثور والحمار يطلبانها وهى معشبة ولا ماء فيها، معاقبة بعدم النطق .

طوبى لمن كان غابه حلفاً فأخذ شربة من بيت الرب، وصار ينبت البر بدل السعد، ويستغل (ويثمر) طعاماً يتغذى به الإنسان، ولا يكون

غليظاً ولا خشناً ولا لشرب الفوائد عديماً، فعن مثل هذا ينبغي أن نقدم كل حرص حتى لا نعدم النعمة المشتركة فأن قال قائل فليكن هذا من جهة من يطلب المعمودية وهو كبير السن .

معمودية الأطفال

فما قولك في الأطفال الذين لا يحسون بفائدة المعمودية ولا بخسارتها أترى أن نعمدهم، قلت أجل لا سيما إن دعت إلى ذلك ضرورة، فأنه لأفضل أن يقدسوا وهم لا يحسون، من أن ينصرفوا وهم غير موسومين، ولا متممين، والحجة على هذا عندنا من الختانة بعد ثمانية أيام، لأنها كانت سمة وسمة قد تقدمت إلى قوم أفكارهم غير تامة، ومثل ذلك وضع الدم على العتب الذي حفظت به الأبكار (خر ١٢ : ٧) فكان ذلك فيما لا حس له .

وأما غير هؤلاء فأنني أعطي فيهم رأياً ومشورة، أن يتوقف لهم مدة ثلاث سنين أو أقل من ذلك قليلاً أو أكثر، عندما يمكن أن يسمعوا شيئاً يسيراً ويجيبوا عنه، وإن كانوا لا يفهمونه بالكلية، فأنه رسم لهم، وكذلك يقدس بعدها نفوسهم وأجسامهم بسر التمام الجليل، ولعمري أنه كذلك لأن في ذلك الحين يبتدؤون في الشعور وبمسؤولية الحياة عندما يستكملون وعيهم ونطقهم، فأما جرائم الجهل فالعذر لهم فيها من قبل السن وصغرها، والأجود لهم من سائر الجهات أن يتحصنوا بحميم المعمودية بسبب ما يفاجأ في بعض الأوقات من موارد الشدائد التي هى أقوى من المعونات .

لا تقارن نفسك بالمسيح في أشياء وتترك أشياء

فإن قال قائل أن المسيح تعمد ابن ثلاثين سنة هذا وهو إله، أتأمر أنت بالاستعجال والإسراع إلى المعمودية، أجبته بأنك لما قلت المسيح إله حللت الشبهة، لأن ذلك كله طهارة ولم يكن محتاجاً إلى طهر، وإنما يطهُر لك ومن جهتك، كما لبس الجسم ولم يكن له جسم، ولم يكن هناك ضرورة إلى معمودية تؤذن بعطب متى أخرها، وهو كان الأصل لذاته في

ألمه، كما كان السبب لذاته في ميلاده، وأما أنت فليس الأمر كذلك وخطرك خطر كبير إذا مت وأنت مولود ولادة الجسد الفاسدة ولم تلبس البقاء وعدم الفساد .

وأنا أنظر أيضاً في شيء آخر أن ذلك كان يلزمه الصبر في المعمودية إلى ذلك الوقت، فأما أنت فليس الأمر كذلك، لأنه ظهر لكافة الناس بعد ثلاثين عاماً، ولم يظهر قبل ذلك حتى لا يظن به أنه أراد الرياء والتبجح، الذي من أعراضه من لم تكمل له الفضيلة، ومع ذلك فأن تلك السن التي تعمد فيها هى سن التمام الذي فيه يمتحن الفضيلة، وهى سن التعليم، ولما كان عتيداً أن يناله ألم الخلاص الذي به يخلّص العالم، لزم أن تكون كل عمليات ومقومات هذا المخطط المرسوم متجمعة سابقة للآلام والصلب للظهور للملأ، المعمودية، والشهادة له من العلو والبشارة، وتزاحم الجمع إليه، والعجائب، وأما ضجة المدينة وضجة الجماهير فاستدعت اظهار آياته وعجائبه التي جلب الناس إلى الإنجيل، ومن ذلك حصل له الحسد، ومن الحسد البغضة، ومنها التشاور في بابه والمطالبة في تسليمه، ومن ذلك الصلب والأشياء التي بها خلصنا، أما أحوال المسيح فهذه بقدر ما استطعت أن اصورها وأن أصيغها، ولكن قد يكون هناك سبب أعمق من هذه الأسباب التي ذكرتها في تأجيل عماد الرب السيد .

وأما أنت فليس لك أن تتبع مثلاً هو فوق منك، ولا ههنا ضرورة تدعوك إلى أن تسيء الرأي في أمر نفسك، وإلاّ فههنا أشياء أخرى مما جرت في ذلك الوقت، وكانت حالها في حينها ذلك غير الحال التي تظهر عليها الآن، وليست موافقة الأوقات، مثل ذلك أنه صام قبل التجريب، ونحن نصوم قبل الفصح، فالصوم واحد ولكن الفرق بين الوقتين ليس بصغير، أما ذاك فقدم الصوم مقاومة للتجارب، وأما نحن فقوته قوة الموت لنا هى مع المسيح، والتطهر قبل العيد .

وأما ذاك فصام أربعين يوماً متصلة لأنه كان إلهاً، وأما نحن فقد ميزنا ذلك وفصلناه بمقدار طاقتنا، وإن كان قوم قد تحملهم الغيرة على تجاوز قواهم.

باشر التلاميذ الفصح في علية وبعد العشاء وقبل يوم واحد من الألم، وأما نحن فنفعل ذلك في بيوت الصلوات من قبل العشاء وبعد القيامة.

و قيامة ذاك بعد ثلاثة أيام وقيامتنا نحن بعد زمان طويل ، فأحوالنا لا تنفصل عن أحواله بالكلية، ولا تتصل بها اتصالاً زمانياً، بل لما كانت، أسبابه رسماً لا سبابنا ومثالاً، وجب أن يكون بينهما في بعض المعاني تفاوت ما، حتى لا تكون هى بعينها، فليس ذلك عجباً أن كان أخذ المعمودية بسببنا أن يكون فيما بيننا وبينه فيها خلف في زمان، وإن كان ذلك شيئاً قد ظننت أنت انك قد وجدته جليلاً وعجيباً في المعمودية على ما خيل لك، وهو بالحقيقة يعاند خلاصك .

فأن رأيتم القبول مني، فاتركوا هذا الكلام والاحتجاج بسلام، وتقدموا إلى الخير المبذول لكم، وجاهدوا عنه جهادين :

- ✠ أحدهما في أن تتطهروا قبل المعمودية .
- ✠ والآخر حفظها فيما بعد .

إذ كانت الصعوبة واحدة في اقتناء شيء من الخيرات قبل وجوده، وفى حراسته بعد الوصول إليه .

وقد اتفق في كثير من الأوقات أن يضيع الضجر ما وجده الحرص، وأن يستعيد النشاط ما أتلفه الكسل، ومن أجود المعونة لك على الوصول إلى ما ترتاح إليه، السهر والصوم والاضطجاع على الحضيض والصلوات والدموع والرحمة والعطاء للمحتاجين، هذا فليكن لك شكراً لما تناولته وحفظاً لما أخذته .

فأن كان لك من هذه النعمة تذكرة تذكرك بكثير من الوصايا، فأن تقدم إليك فقيراً فلا تتجاوزه، بل اذكر كم من الخيرات كنت منها فقيراً فاستغنيت .

وإن تقدم محتاج إلى طعام أو شراب، وكان لعازر آخر مطروحاً على بابك، فاستح من المائدة السرية التي تقدمت إليها، ومن الخبز الذي تناولته، والكأس الذي شاركت فيها، وكملت معه في آلام المسيح .

وإن حف بك غريب لا بيت له، وهو قد طار إلى بلدك، فاقبل وأضف بقبولك إياه، لمن تغرب من أجلك، هذا وتغربه كان فيمن يملكه، وساكنك بالنعمة واجتذبك إلى المسكن الأعلى .

وكن زكياً بعدما كنت عشاراً، وصر اليوم كريماً بتقديمك كل شيء لدخول المسيح، حتى تصير طويلاً بعد ما كنت صغيراً، في سن الجسد قصيراً، وتبصر المسيح كما ينبغي .

وإن كان يزورك مريض أو جريح، فاخجل من صحتك بعد السقم، والجراحات التي اعتقك المسيح منها .

وإن رأيت عارياً فاكسهِ وأكرم بذلك لباس البقاء الذي لبست، فإن ذلك اللباس هو المسيح، لأن جميعنا معشر الذين تعمدنا بالمسيح فللمسيح لبسنا وبه اكتسينا .

وإذا حضرك من لك عليه دين، فمزق ما عليه من كتاب وصك بواجب كان أو بباطل، واذكر القناطير الكثيرة التي وهبها لك المسيح، ولا تكن مستخرجاً عسراً بما هو دونها من الدين، هذا هو على قوم يشاركونك في العبودية، وأنت قد صفح لك السيد عن أضعافها، حتى لا يصير عليك تبعة تحننه على البشر إذ لا تتشبه بها، وقد أراك مثالها .

فليكن لك هذا الحميم طهوراً، ليس للجسم وحده بل للنفس، ولا يكون غسلاً للخطايا وحدها، بل اصطلاحاً للمذهب، ولا تغسل الحمأة التي كنت انتسبت فيها فقط، بل نظف الغير، ولا يرسم لك أن تقتني الشيء من وجهة فقط، بل يعلمك أن تنفقه فيما ينبغي .

بل وما هو أخف من ذلك أن تطرح ما قد اقتنيته من غير وجهة، وإلا فما الفائدة في أن يصفح لك عن خطيتك، ولا تتخل أنت لمن قد ظلمته بما قد خسرته إياه .

وهاهنا شيئان رديئان وهم :

- ✠ قنية الشيء من الظلم .
- ✠ والتمسك بذلك الشيء .

فأما الواحد منهما فقد أخذت الصفح عنه .

وأما الآخر فأنت اليوم ظالم فيه .

لأن في يدك اليوم ما ليس هو لك، والخطية فلم ترفع بالكلية، بل انفصلت بالزمان، لأن بعضها قد جسرت عليه قبل المعمودية، والباقي منها فهو باقٍ عندك، لأن هذا الغسل إنما يصفح عما تقدم من الأثام، وليس يصفح عما تجنيه أنت في وقتك، وسبيلنا ألا نحتال على هذه المعمودية بغش، بل نتزين به كختم وعلامة لا تتغير، وأن نضيء بالمعمودية كلياً ولا نتلون بالشكل فقط، ولا يكون ذلك سترة للخطية بل إقلاعاً عنها بالكلية، فقد قال " طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ" (مز ٣٢ : ١)هذا من الطهور الكامل، ثم قال والذي "سُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ"، يعني بهذا الذي ما تطهرت دواخله بعمق

التنقية وقال أيضاً " طُوبَى لِرَجُلٍ لا يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً وَلا فِي رُوحِهِ غِشٌّ " (مزمور ٣٢ : ٢)، فهذه رتبة ثالثة للخطاة وهم الذين أعمالهم غير محمودة، إلاّ أن نياتهم غير مذمومة .

فماذا أقول وما الرأي عندي، أمس كنتِ نفساً كنعانية لأجل الخطايا منحنية، واليوم قد استقمتِ من قِبَلِ الكلمة، فإياكي أن تعودي إلى الانحناء، وتميلي إلى الأرض، ويثقلكِ الشرير بشيء ثقيل، فيعسر عليكِ أن تتنشلي من الحضيض .

أمس كنتِ جافة بحرارة نزف الدم، لأنه كان تتبع منك الخطية الحمراء، واليوم قد نشفت من النزف، وعدتِ إلى استقامة الحال، لأنكِ لمستي أذيال المسيح فوقف النزف، فاحفظي لي هذه الطهارة، لئلا تعودي إلى صب الدم، ولا تصلي إلى سرقة المسيح ولا يمكن أن تسترقي منه الخلاص، لأن المسيح لا يحب أن يسرق في سائر الأوقات، وإن كان محباً للبشر جداً .

أمس كنتَ مطروحاً على سرير، مخلعاً منحلاً ولم يكن لك إنسان يطرحك في البركةِ إذا تحرك الماء، واليوم فقد وجدتَ إنساناً، وهو مع ذلك إله بل هو إله متأنس، قد ارتفعتَ من السرير، بل قد رفعتَ أنتَ السرير، وأشهرتَ الإحسان، فإياك بعدها أن تسقط على سرير الخطية، وهو راحة الجسد، وتنعيمه باللذات، بل سر بمقدار طاقتك واذكر الوصية في قوله : «هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فَلا تُخْطِئْ أَيْضاً لِئَلا يَكُونَ لَكَ أَشَرُّ» (يو ٥ : ١٤)، إذا ما صرتَ شريراً بعد الإحسان إليكَ .

قد سمعت من الصوت العظيم، بعد ما كنت موضوعاً في القبر يا لعازر اخرج خارجاً، وماذا يكون أعظم من صوت الكلمة، فخرجت ولبست داء أربعة أيام، بل داء زمان طويل، وقمت مع الذي قام بعد ثلاثة أيام، وانحللت من رباطات الأكفان، فإياك أن تموت بعدها، فتصير مع سكان القبور .

ولا تضغطك رباطات خطاياك، فإنه ليس بالمعروف، إن كنت تقوم شيئاً آخر من القبر إلى حين القيامة المشتركة، والبعث الأخير الذي يساق فيه كل الخليقة إلى الدينونة، ليس لتشفى بل ليحكم عليها، وتقوم بالحجة عما خزنته حسناً أم قبيحاً .

وإن كنت مملوءاً من البرص وهو الشر القبيح الصورة، وقد تنظفت من هذه المادة الرديئة، وأخذت الصورة الجديدة، فأظهر لي أنا كاهنك طهارتك، حتى أتعلم أن هذه الطهارة، أكرم من طهارة الناموس، وكن ليس من التسعة غير الشكورين، بل تشبه بالعاشر، لأنه وإن كان سامرياً فقد كان أحسن حفاظاً من الباقين، فاحذر أن تعود فيظهر فيك الشر أو البرص، فيعسر الشفاء لاضطراب جسمك .

وإن كان يبس يدك قبل هذا الشح والبخل، فاليوم تسيل الرحمة والسخاء والعطاء أن يمدها، فما أحسن الشفاء لليد المريضة من التبذير بالعطاء للمساكين، ومن تبذير جميع ما لنا بغير إشفاق، إلى أن نصل إلى الفقر، فعساه أن ينبع لنا كما نبع للصارفية (صرفة صيدا) طعام، لا سيما أن اتفق لك أن تكون اضفت إيليا وقمت له بالطعام .

وما أجود لك أن تتصور الإعسار من أجل المسيح الذي تمسكن من أجلنا ايساراً عظيماً .

وإن كنت أصم أخرس فلتسمعك الكلمة بل اضبط الذي قد أسمعك، ولا تغلقن أذنيك عن أدب الرب ووعظه، مثل الثعبان الذي يتطارش عن صوت الرقائين .

وإن كنت أعمى لا نور فيك فأنر عينيك، حتى لا ترقد للموت، وأبصر بنور الرب نوراً بالروح، اجعل نورك ابن الله حتى يصير لك النور المثلث الذي لا ينقسم .

فأن أنت قبلت الكلمة كله فأنك ستجمع عجائب المسيح كلها وشفاء لنفسك، ويحصل لك وحدك ما تفرق في غيرك من الأشفية والعجائب بعد أن لا تجهل مقدار النعمة، ولا يجدك الشرير نائماً غير مهتم، فيزرع فيك الزوان، فأن حسدك من جهة هذه الطهارة، فلا تشمته بك عند ارتكابك الخطيئة، وإياك أن يزيد عليك الفرح بهذا الخير فتترفع شديداً فتسقط في نفس الاستعلاء، واعمل الطهارة دائماً، واجعل في قلبك كما قال النبي مطالع، والصفح الذي وصلت إليه مجاناً فاحفظه بنشاط، حتى يكون لك من الله الصفح، ومن جهة نفسك الحفظ لما وصلت إليه .

فأن قلت كيف يكون ذلك، فأذكر لك المثل، فأنك تعاون به نفسك معاونة تامة جليلة، خرجت منك الروح النجسة الهيولانية، وطردتها المعمودية، فما تصبر على الطرد، ولا تحتمل أن تكون بغير بيت ولا

مسكن، فهي تطوف في مواضع لا ماء فيها ناشفة من النبع الإلهيّ، فتروم أن تسكن هناك، فتضل في طلب الراحة وما تجدها، ولا تجسر أن تقترب من النفوس المعمدة، التي قد أغرق الحميم شرها، فتخاف من الماء وتغرق في الطهارة، كما غرق اللجيئون في البحر، فتعود بعد ذلك إلى البيت الذي خرجت منه إذ كانت وقاحة لجوجة، فتقدم وتزاود، فأن وجدت المسيح قد سكن هناك وملأ الفضاء الذي خرجت منه، فقد انصرعت، وعادت وبلا نزال انصرفت، وقد صارت مشموتاً بها من تلقاء الضلال، ومداومة الدوران، وإن هى وجدت الموضع الذي فيك مكنوساً مزيناً فارغاً، من الأعمال صفراً، ولقبول الروح الفلانية والفلانية مستعداً، فقد اترخت لوقتها وسكنت، وزادت في الاستعداد للمقام، وصارت الأواخر شر من الأوائل، لأنه قد كان في الأول رجاء للصلاح والاحتراس، والآن فقد بان الشر، واجتذب الخبث والعطب بالهرب من الخير وقلة التمسك به، فلذلك قد تمكن الساكن واستوثق في المقام .

وبعد هذا فأنا أذكرك أيضاً بالأنوار دفعات كثيرة، واقتضب الكلام فيها من الكلام الإلهيّ، فإني سأزيد طرباً عند ذكري إياها إذا كان لا شيء أحلى من النور، عند من ذاق النور، وبذكري إياها أنيرك أنت، نور قد أشرق للصدقين، وأشرق معه قرينه الذي هو السرور، ونور الصديقين في كل وقت، وأنت تضيء عجيباً من الجبال الدهرية، وقد قيل ذلك لله وأظنه عَنِيَ بالجبال القوات الملائكية التي تساعدنا على المحامد، وقد سمعت داود يقول "**اَلرَّبُّ نُوري وَخَلاصِي**" (مز ٢٧ : ١)، وقد رأيته أيضاً يطلب في وقت ما أن يرسل إليه النور والحق (مز ٤٣ : ٣)، ورأيته في وقت آخر يشكر لأنه قد أخذ ذلك ووصل إليه لما ارتسم فيه نور الله وصورته (مز ٤ : ٦) أي أن سمات النعمة واشعاعها ارتسمت وظهرت على محياه .

✠ هذا وفيما نحن نتكلم عن النور والأنوار، فهناك نور واحد يجب أن نتجنبه ولا نشتهيه، هو نور النار المرة نار العذاب ، لا نسير أيها الإخوة مستنيرين بنور نار جهنم، وبنور الشعلة المحرقة المهلكة التي أشعلناها .

✠ وأنا أعرف نار أخرى مطهرة، وهى التي جاء المسيح يطرحها على الأرض، وهو أيضاً فقد يدعى ناراً في معنى من المعاني

الرمزية، "لأن إلهنا نار آكلة (عب ١٢ : ٢٩) أينما وجدت هذه النار تبيد المادة والعوائد الرديئة وتفنيها، وهى التي يريد المسيح اشتعالها عاجلاً، لأنه يشتاق إلى سرعة الإحسان إلينا، وهو أيضاً يعطينا جمر نار لمعونتنا .

✠ وأعرف أيضاً ناراً أخرى ليست مطهرة بل معدمة وهى إن شئت فنار سدوم أمطرها على الخطاة مخلوطة بزوبعة وكبريت، وإن شئت فهي المعدة لإبليس وجنوده، أو النار التي تنبعث أمام وجه الرب فتحرق حوله أعداءه .

✠ واعرف ناراً أخرى وهى أشد من هذه وأصعب، أعني النار التي قد خلط بها الدود الذي لا ينام، وهى لا تُطفَأ، بل تقد وتدوم الدهر كله على الأشرار، هذا كله من القوة المهلكة، وكل هذه النيران يمكن أن تذوب وتختفي أمام الإرادة العازمة على المعمودية والتوبة .

وكذلك أعرف أيضاً نورين :

✠ أحدهما هو العقل المستولي فينا، وهو الذي يمهد لنا السبيل إلى محبه الله .

✠ والآخر فهو المخادع المحتال، الذي يخالف النور الصادق، ويظهر أنه نور وذلك ليخدع ويختلس العقول بما يظهره، فهذا النور هو بالحريّ ظلمة، يظهر بشكل نور نصف النهار، أي وقت حدة الضوء ومع أن هذا النور هو ليل فهو في نظر المنافقين والفاسقين استنارة، لأن داود النبيّ يقول: "فقلت إنما الظلمة تغشاني فالليل يضيء حولي" (مز ١٣٩ : ١١) .

ولكن فليكن أولئك هكذا، أو لتكن هذه صورتهم، وأما نحن فسبيلنا أن نضيء لنفوسنا بضوء المعرفة، وسيكون لنا ذلك عندما نزرع براً، فنجني ثمرة الحياة، لأن العمل يفيد العلم، حتى نعرف الأشياء الأخرى، ونعلم معها ما هو النور الصادق، وأي شيء هو الكاذب، ولا تختلط الأمور عنا أن نلقى الشر فنقدره الخير، ونصير نحن نور، مثل ما قيل في التلاميذ عندما دعاهم بذلك النور العظيم قائلاً " أَنْتُمْ نُورُ الْعَالَمِ " (مت ٥ : ١٤)، "ونكون كواكب في الدنيا نحفظ كلام الحياة" (دانيآل بالتتمة ١٢ : ٣)، أي نكون قوة حياة لغيرنا، نتمسك باللاهوت، نتمسك بالضوء الأول الساطع اللامع، نسير خلف ضوءه، قبل أن تعثر أرجلنا على جبال مظلمة، وما دام

نهار " لِنَسْلُكْ بِلِيَاقَةٍ كَمَا فِي النَّهَارِ لا بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ لا بِالْمَضَاجِعِ وَالْعَهَرِ لا بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ" (رو ١٣ : ١٣) .

عمل الأعضاء يجب أن يكون مقدساً

ولنطهر يا إخوة كل عضو فينا، ولننظف كل حاسة، لا نبق فينا شيئاً غير تام ولا شيئاً من بقايا الكيان الأول، لا نترك فينا شيئاً لا يضيء، بل لننير النظر حتى يبصر برؤية واضحة مستقيمة .

ولا نصور في نفوسنا صنم زنا، متسرب من مشهد غريب يعمل فينا، وإن كنا لم نسجد للألم نفسه فقد دنسنا النفس وصورتها، وأية خشبة كانت في أعيننا، وأي عور فسبيلنا أن نطرحه، ليمكننا أن نرى ما في غيرنا، ولننير السمع ولننير اللسان، حتى نسمع ما يقوله الرب الإله، ولي نستطيع أن نستمع إلى مراحم الله في الصلاة الصباحية، ونسمع فرحاً وسروراً، نتنغم بها في المسامع الإلهية، حتى لا نكون سكيناً حادة، ولا موسى مسنوناً، ولا نردد تحت ألسنتنا غلاً وتعباً، بل نتكلم بحكمة الله المستورة في السر، ونستحي ونوقر الألسنة النارية .

✠ ولنشف المشم، ولا نحنثه، ولا نوصل إليه بدل الرائحة الطيبة، رائحة من نتن الخطيئة وغبارها الكريهة، بل نطيبه بنسيم طيب الميرون الذي أفرغ من أجلنا، وبمقدار ما نتأثر به تنبعث منا رائحة طيب زكيّ .

✠ ولنطهر اللمس والذوق والحنجرة، فلا نطلق لمسنا على الأشياء الناعمة، ولا نفرح بما لان ملمسه، بل يكون قصدنا باللمس كأننا نلامس جسد الكلمة المتأنس من أجلنا وننتشبه فيه بتوما الرسول الذي لمس الجسد بورع .

✠ لا نلذذ المذاق بالأطعمة والأشربة لئلا نجتذب أخوات الأطعمة والأشربة من الملذات المرة، بل نذوق ونعرف أن الرب هو الصالح، وذلك هو الذوق الباقي النفيس، ولنعرف أيضاً أن كلمة الرب أحلى في الأفواه من العسل والشهد .

✠ وهناك شيء آخر أحسن من كل ما قلتُ، هو أن نتنقى من الرأس حتى يتنقى الرأس الذي هو مشغل المشاعر والأحاسيس كلها، أن

نمتلك المسيح رأساً لنا " و غير متمسك بالرأس الذي منه كل الجسد بمفاصل و ربط متوازرا و مقترنا ينمو نمواً من الله (كو ٢ : ١٩)، والرأس الذي منه كل الجسد مركبا معا و مقترنا بمؤازرة كل مفصل حسب عمل على قياس كل جزء يحصل نمو الجسد لبنيانه في المحبة (أفسس ٤ : ١٦)، أجل أن نمتلك المسيح رأساً ونطرح الخطيئة التي تسعى لامتلاكنا، ولكن يمتلكها الأقوى منها .

✠ وما أجود أن نقدس الكتف والظهر، ليمكنها حمل صليب المسيح، الذي لا يسهل على أحد أن يحمله .

✠ وما أجود أن تنظف الأيدي والأرجل، أما الأيدي فلترتفع في كل موضع بارة، ولتتمسك بأدب المسيح لئلا يغضب الرب، وتؤتمن على الكلام مع الفعال، كما أوتمنت أيدي الأنبياء .

✠ وأما الأرجل فتقدس لكي لا تكون سريعة في إراقة الدماء، ولا تحاضر في الشر، بل تكون مستعدة للبشارة، وأن تكون مستعدة لجائزة الدعوة العليا، قابلة المسيح غاسلاً ومطهراً اياها .

✠ وهناك تطهير للبطن الذي من شأنه أن يتقبل، وأن يرد ما يتقبله من غذاء الكلمة بعد هضمه، وتقسيمه على الجسد، فما أجود هذه الطهارة، وأن لا يجعل لها إلهاً بالتنعم والطعام الباطل، بل نجعله لطيفاً وديعاً، حتى يمكنه أن يقبل كلام الرب في وسطه، ويتوجع كما ينبغي لأجل ذنوب إسرائيل أي لسائر البشر .

✠ ومع هذا فأنا أجد القلب وما داخله للكرامة مؤهلاً، ويحثني على ذلك داود النبي عند طلبه" قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اَللَّهُ وَرُوحاً مُسْتَقِيماً جَدِّدْ فِي دَاخِلِي " (مز ٥١ : ١٠)، وفيما أظن أنه يقصد بالروح الذهن وكل الحركات أو حصيلة التفكير الناجم عنها .

✠ وما قولك في الحقوين، وما قولك في الكليتين، وهذه لا يجب أن نتجاوزها، بل فلتصل الطهارة إليها أيضاً، لتكن أوساطكم مشدودة بالنسك، متشمرة كما قيل قديماً لشعب إسرائيل الذين أكلوا الفصح طبقاً للناموس(خر ١٢ : ١١)، لأنه لن يخرج أحد نقياً من مصر ، ولن يخلص من المهلك، إلاّ من يؤدب نفسه باصلاح ما تقدم ذكره وتطهره .

✠ وأما الكليتان فسبيلهما أن تتغير التغيير الحسن، وينقلا الشهوة كلها وحركاتها إلى الله، حتى يمكن للقائل أن يقول :" بِنَفْسِي اشْتَهَيْتُكَ "

(إش ٢٦ : ٩)، ويوم شر فما اشتهيه، لأن كل واحد منا يجب أن يكون رجل شهوات الروح .

وبهذه الطريقة فقط ينحل ويضعف التنين الذي هو في داخلي، التنين أو الثعبان الذي يجمع معظم القوة في بطنه وظهره بعد أن نسحق نقطة تمركزه وقوته، ولا تتعجب من أنني أقدر مثل هذا التقدير، تلك الأعضاء الحقيرة فينا، متخذاً موقفاً مضاداً للمادة في إماتة هذه الأعضاء أو في تهذيبها وتصعيد أهوائها، ولنجعل في ملك الرب وطاعته كل الأعضاء التي على الأرض ولنكرسها ولنقدسها .

✠ لنقدس أكبادنا والكلى ولا نترك لا شحماً ولا جزأ من الجسم غير مقدس، ولما لنا نهين شيئاً من الأعضاء وسبيلنا أن نقدم لله نفوسنا كلها، وأن نصير قرباناً ناطقاً وذبائح كاملة، ولا نجعل العضد وحده، ولا الأحشاء ولا غيرها من رسم الكهنة نصيباً للطهارة، فأن هذا يسير، بل إذا سلمنا نفوسنا كلها لله فحينئذ نملكها كلها، لأن هذا هو التطهير، أن نعطي ذواتنا لله وأن نعمل لخلاصنا مقدمين ضحيةً .

أهم الودائع التي يجب حفظها

ومع هذه كلها وقبلها احفظ أيها العزيز الوديعة الحسنة التي بها نعيش وبها نتصرف، وهى المسافرة معنا ومعها نصبر على المؤلمات، ومن أجلها نطرح اللذات، وهى الإقرار بالآب والابن والروح القدس، فعلى هذه الوديعة أئتمنك اليوم، وبها أغطسك، وبها ومعها أنشلك، وإياها أدفع إليك حافظة لعمرك، وشريكة في سيرتك، الألوهة الواحدة، والقوة الواحدة الموجودة في ثلاثة أقانيم متحدة، والحاوية هذه الأقانيم الثلاثة في بساطة الألوهة بغير تشويش ، بلا زيادة، ولا نقصان، ولا تفاوت، ولا ارتفاع، ولا انخفاض فيما بين الأقانيم، بل بمساواة من جميع الوجوه ، كمثل كمال واحد للسماء، وعظمة واحدة باتفاق في الطبيعة لا تستقصى، في ثلاثة لا مدى لها، كل واحد منها إله إذا أخذ لذاته، كما أن الآب هو إله كذلك الابن وكذلك الروح القدس ، كل واحد إله فقط إذا نظرنا إلى أقنومه الخاص المميز، أما الثلاثة معاً فهم إله واحد كمتساوين في الجوهر من جهة، وكأصحاب أصل واحد من الجهة الثانية، لا أكاد أدرك الواحد حتى أستنير

بالثلاثة معاً، ولا أكاد أجمع الثلاثة معاً حتى أدرك كل واحد متميزاً، عندما أتصور الواحد من بين الثلاثة أظنه الكل وتمتليء رؤيتي بالألوهة ويفوتني ما هو أكثر منه، لا يمكنني ضبط حجم الواحد لكي أدرك أن القسم الأكبر هو ما لم أضبطه، وعندما أدرك الثلاثة عقلياً أرى منبع نور واحد وأنا غير قادر أن أميز أو أقيس النور الموحد الذي يضيء .

إن كنت أنت تخاف من الميلاد حتى لا يتألم الإله الذي لا يؤلمه شيء، فأنا أخاف القول بأن الابن خلقةٌ حتى لا أفقد الله بالتجني على الألوهة في فصل جائر وتجديف كبير ، أما بفصلي الابن من الآب، أو بفصل جوهر الروح من الابن، الغريب هنا هو أن أولئك الذين يلصقون بالله جزءاً مخلوقاً يعودون فيقسمون هذا الجزء المخلوق بحد ذاته، فكما أنهم يجعلون الابن في مرتبة دون مرتبة الآب ويجعلونه مع المخلوقات الأدنى والأوطأ، كذلك يجعلون الروح القدس في مرتبة دون مرتبة الابن لكي يهينوا الله وخليقته بهذا اللاهوت السفسطائيّ السخيف .

ليس في الثالوث يا هؤلاء شيء عبداً ولا مخلوقاً ولا دخيلاً، كما زعم بعض الحكماء، يقول الرسول بولس " أَفَأَسْتَعْطِفُ الآنَ النَّاسَ أَمِ اللَّهَ؟ أَمْ أَطْلُبُ أَنْ أُرْضِيَ النَّاسَ؟ فَلَوْ كُنْتُ بَعْدُ أُرْضِي النَّاسَ لَمْ أَكُنْ عَبْداً لِلْمَسِيحِ " (غل١ : ١٠) ، وأيضاً أقول إذا كنت قد سجدت وتعبدت لخليقة، أو إذا كنت تعمدت باسم خليقة، فلست إذاً حاصلاً على التأله ولا تحولت إلى ولادة جديدة، ماذا أقول للمتعبدين لعشتاروت، أو المتدنسين بأدناس الأصنام، إذاً لأشبهناهم ولصرنا مثلهم متعبدين لمن هم مثلنا في العبودية أي الخلائق.

وما حاجتي إلى كلام طويل، والوقت الآن وقت تعليم لا وقت مباحثة ومناقشة " إنني أشهد أمام الله وأمام الملائكة المختارين" إنك يا هذا ستتعمد بهذا الإيمان، وليس بغيره، وأنا كفيل كمالِك وخلاصِك، اعتصم أنت بالصلاح المحض، والحقيقة الكاملة وحدة الأقانيم الثلاثة، وأترك لي أنا ساحة المعركة مع الهراطقة والكافرين، دعني أكون صانع السفينة وأنت كن قائدها فقط، أنا مهندس البيت وأنت ساكنه، فاسكن واطمئن بشعور الأمان من غير جهد ولا تعب، كن أنت القائد وأنا أدير المعركة والحرب، أنا أواجه الحراب والسهام، وانت تقضي العمر بسلام مصلياً من أجلي وأنا في خطوط المعركة الأمامية من أجل أمنك وسلامك أنت، أترى مقدار الصلاح العظيم والخير العميم لدى الروح القدس، هو الذي يعتني بنا

وينطق بنا، فأمدد إليَّ بالأمانة يدك، فأن عندي ثلاثة أحجار بها أقذف الغريب، وعندي ثلاث نفخات على ابن الصارفية بها أحي الأموات، وعندي ثلاث دفعات من الماء أصبها فوق الحطب لكي أحرق الذبيحة مشعلاً النار والماء على هذا النحو الغريب وسأقهر أنبياء الخزي وكهنتهم مستخدماً قوة السر العجيب .

فإن كان قد كتب فيك غير ما يقتضيه كلامي، فهلم حتى أغير الكتابة، لأنني كاتب غير بليد، أكتب ما كتب لي وأعلم ما تعلمت وحفظت منذ الابتداء، وإلى هذه الشيبة، الخطر في هذا عليَّ والكرامة لك، إذ كنت أنا اليوم مدبر نفسك ومتممها بالمعمودية، وإن كان الذي عندك هكذا، وكنت قد توسمت بكتاب جيد، فاحفظ لي ما كتب لك، واثبت في الأوقات المتغيرة ولا تتغير في أمر لا يتغير، وتشبه ببيلاطس لما كتب ما لا ينبغي في كتابتك أنت ما ينبغي، وليكن ثباتك أنت على فعلك أجل من ثبات ذاك، وقل للذين يحاولون أن يثنوك كقوله «مَا كَتَبْتُ قَدْ كَتَبْتُ» (يو ١٩ : ٢٢) لأني أستحي أن يكون الشيء الرديء باقياً على حاله والشيء الجيد لا يبقى، بل نسهل انتقالنا وحركتنا من الشيء الأردأ إلى الشيء الأفضل، فأما من الأفضل إلى الأردأ، فلا ننتقل ولا نتحرك، فمتى اصطبغت هكذا، أو كنت على هذه التلمذة، فها شفتاي لا أمنعها، وها يداي أعيرهما للروح، فهلموا نسرع إلى الخلاص، وننهض إلى المعمودية، فأن الروح يخفق وينتظر، والصانع نشيط، والجائزة معدة .

وإن كنت تتباطأ بعد ولا تقبل تمام اللاهوت، فأمامك الغرق المحتم، فأنه لم يكتب إلى الآن على صفحة نفسك شيء، فتعال لنتقدم إلى وسط السحابة، أعطني لوحة قلبك، وأنا أتجاسر على أن أقول إني سأكون لك مثل موسى آخر، وسأكتب بإصبع الله فوق لوحة صدرك الوصايا الجديدة، مختَصَر الخلاص، هلم نصعد إلى الجبل وإلى الغمام، فإذا كان بينكم وحش هرطقة طائش فليبق في أسفل الجبل، لأنه سيرجم ويقتل بسهم الحقيقة .

سأتلمذك وأعمدك بسم الآب والابن والروح القدس، والاسم المشترك للثلاثة فهو اللاهوت، وستعرف من الكلمات والحركات أنك قد طرحت الكفر كله، وانتظمت دفعة واحدة في صف الألوهة .

آمن بأن العالم كله ما يُرَى منه وما لا يُرَى، قد خلقه الله من لا شيء وهو يدبره بعنايته، ثم ينقله إلى ما هو أفضل منه .

آمن بأن الشر لا جوهر له ولا ملك ولا هو بغير ابتداء ولا مبتدأ به من ذاته ولا مصنوع من الله بل هو فعل من أفعالنا وأفعال الشرير، يدخل علينا من قلة تيقظنا وليس هو من جهة الخالق .

آمن بأن الله الكلمة الأزليّ المولود من الآب بلا زمان، ولا جسم، إنه ولد في الأيام الأخيرة من أجلك، وصار ابن الله ابن إنسان، قادماً من البتول مريم بغير دنس من حيث لا يوصف، إذ كان لا يكون دنس بحيث الإله ولا عند من به الخلاص، وهذا بعينه فكله إله متأنس ، لكي يوهب لك الخلاص كل الخلاص، بفتحه لك طريق الخلاص، وحل دينونة الخطيئة كلها، لا يتألم بما يخص اللاهوت وهو أليم متألم بما يخص ما اتخذه، بهذا المقدار هو إنسان بسببك، أي بمقدار ما تصير أنت إلهاً من جهته .

وهذا فقد سيق إلى الموت من أجل آثامنا، وصلب ودفن بمقدار ما ذاق الموت، وانبعث في اليوم الثالث، وصعد إلى السموات لينشلك أنت، ويجمعك بعد ما كنت أسفل مطروحاً، وسيأتي أيضاً بمجده يدين الأحياء والأموات، وليس هو جسد ولا بغير جسد، بل بجسد إلهيّ النوع كما يعلم هو، ليظهر للذين طعنوه ويبقى إلهاً بعيد من غلظ الأجسام، وأقبل مع هذا قيامة ودينونة ومجازاة بموازين الله العادلة، وهذه المجازاة فهي نور للذين يطهرون أفكارهم، والنور فهو الله يبصرونه، وهذا الأمر فهو الذي نسميه ملكوت السموات، وهى ظلمة للذين عميت عقولهم، الظلام فهو البعد من الله، بمقدار ما يداخل كل واحد من عمى عيني عقله أن يعمل الخير على أساس هذا الرأي، لأن الإيمان بلا عمل ميت وأيضاً العمل بلا إيمان ميت .

هوذا قلتُ لك كل ما أعلن لنا من الأمور السرية التي تبين رشدها في أذهان الداخلين في السر، أما الأمور الباقية فردها إلى الله وسيُفضَى لك بسرها، وتعرفها من الثالوث القدوس وستحفظها داخلك مختوماً عليها بختم .

إلاّ أنني أبشرك بذلك، وهو أن هذا الموقف الذي قد وقفته اليوم بعد المعمودية، إنما هو مقدمه ومثال للموقف العظيم، والمجد الذي هناك، والترانيم التي بها تقبل فهي طريق أيضاً إلى تلك الأناشيد، والمصابيح التي توقدها فهي سر لذلك النور الذي به تلتقي الختن، ونحن نفوس أبكار بهيات،

نلقاه أيضاً بمصابيح من الأمانة منيرات، ولا تكون نفوسنا هاجعة من طريق الكسل فتخفي عنا من نرجوه إذا حضر ويوافي، ونحن لا نفطن ولا تكون نفوسنا أيضاً عديمة العدل والرحمة، وناقصة من الأعمال الصالحة، فتبعد من ذلك الخدر وتسقط عنه، فما أعظمها من مصيبة، ويا له من ألم ما أشده، لأن الختن يأتي وينطلق الصراخ هوذا العريس مقبل، فتحضر النفوس العاقلات بالضوء المنير إليه، وبموفور الماء والغذاء ، ويحضرن الجاهلات فيطلبن الزيت في غير وقته ممن ليس ذلك عنده، ثم يدخل الختن مبادراً، فيدخلن معه العاقلات مبادرات، ثم يغلق في وجه الجاهلات، لما ضيعن وقت الدخول واشغلن في الاستعداد، وسيبكين بعد هذا ويندبن، إذا عرفن مقدار ما أتى عليهن من تضجيعهن(نومهن) من الخسارة، إذ لا يكون لهن الخدر مباحاً ولو طلبنه شديداً، إذ كن اللاتي يغلقنه بسوء الرأي على ذاتهن .

وقد يشبهن في هذا الذين تأخروا عن العرس لما دعاهم الآب الصالح للختن الجليل، أما بسبب المرأة الحديث عهدها بالتزوج، أو من أجل الضيعة القريب ابتياعها، أو من جهة فدان البقر الذي اغتنوه مما لا ينبغي، فخسروا الحظوظ الجليلة من جهة الأشياء الصغار .

فليس هناك أحد من المتهاونين ولا المضجعين، ليس هناك أحد ممن تدنس لباسه ولم يَلِقْ زيه بالعرس، وإن كان من ههنا قد أهّل نفسه لذلك البهاء، وخفي فأدخلها في غير موضعه، وخدع نفسه بالباطل والمحالات، وبعد هذا فماذا إذا صرنا داخل، كان الختن عالماً بما يعمله ويعرفه للنفوس التي تدخل معه، وسيقرب منها فيعلّمها على ما أظنه الأشياء التامة البينة التي نسأل نحن في الوصول إليها معشر الذين نعلم هذا ونتعلمه بربنا المسيح الذي له المجد مع أبيه والروح القدس إلى أبد الدهور آمين .

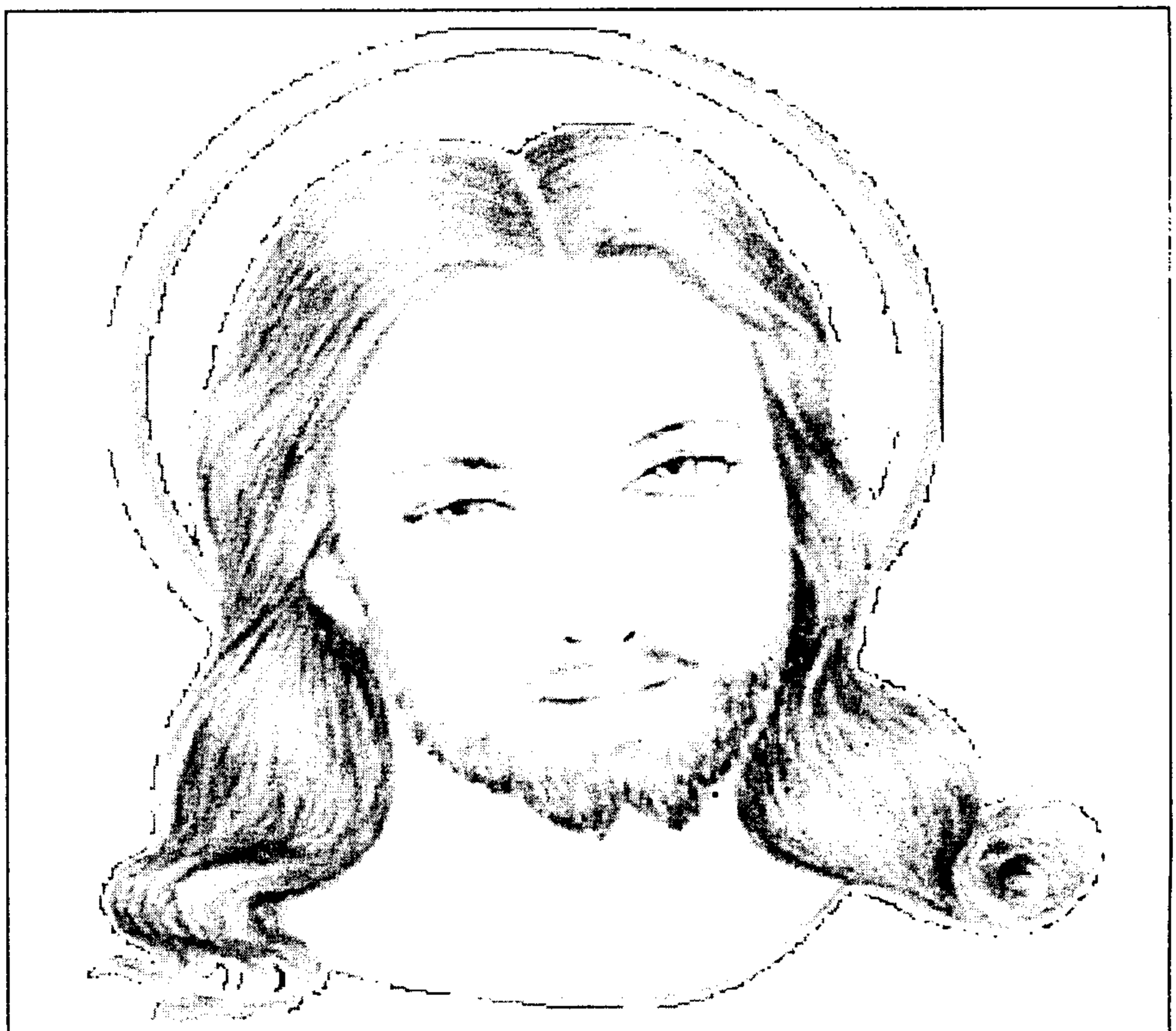

التجارب مثل الكلاب
تعض من لا يتعود عليها
وتهز زيلها لمن تعرفه

الميمر الخامس

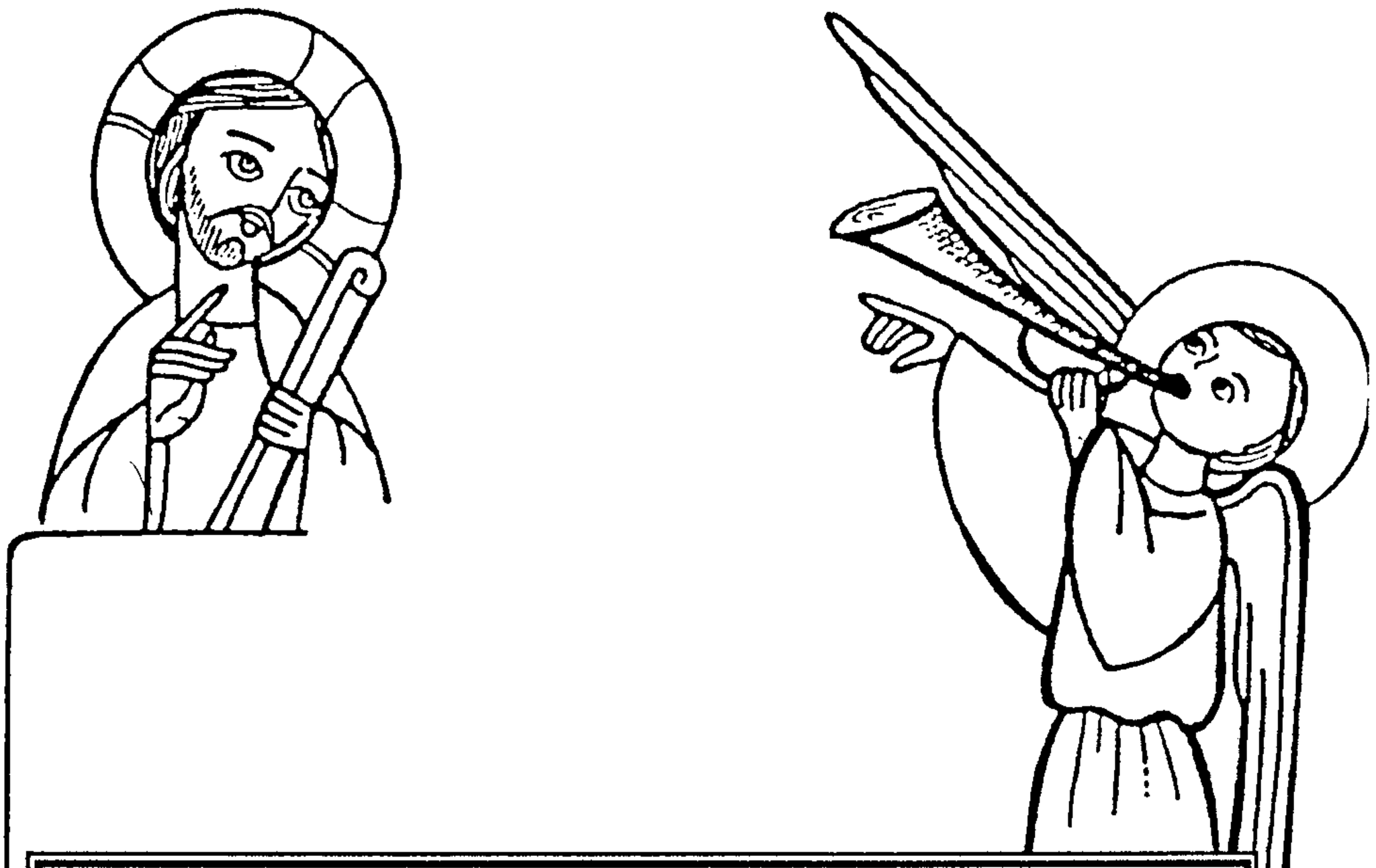

ميمر في محبة المساكين

وهم المجذومون

الميمر الخامس
ميمر في محبة المساكين
وهم المجذومون

أيها الرجال الإخوة الذين هم لي مشاركون، فأننا كلنا فقراء وإلى النعمة الإلهية محتاجون .

وإن كان الواحد يتوهم أنه عن صاحبه من المستغنيين، إذا كان لنفسه بالتعديل الحقير من المعدلين، هلموا فاقبلوا الكلام في المساكين، كلاماً ما يشوبه فقر، بل يعلوه عز وفضل، ليكون غناكم الملكوت، وصلوا معنا أن نمدكم بذلك إمداداً غنياً فاضلاً، فتعدو أنفسكم بالقول، ونفت الخبز الروحانيّ للجياع القادمين إليه .

إما أن نتشبه في ذلك بموسى القديم، ونمطركم طعاماً من السماء، ونفيض عليكم خبز الملائكة .

وإما أن نطعم من خبزات يسيره ربوات كثيرة، كما عمل فيما بعد السيد يسوع المسيح الخبز الحقيقيّ علة الحياة الصادقة .

فإنه ليس من الأشياء السهلة جداً اصابة العالية من الفضائل، وأن نعطي الفضيلة حدها، والتقديم كما ليس هو أيضاً متيسراً أن يجد الواحد في بستان كثير الأزهار طيب الروائح أفضل ما في الأزهار وأطيبه، لأن كل واحد ممن هناك يترد ذاته حاستي الشم والبصر، ويطالب بأن يتناول منه قبل غيره .

فسبيلنا أن ننظر في هذه الأشياء بحسب تفضيلها عندي فأقول من أجود الأشياء هذه الثلاثة الأمانة، الرجاء، المحبة.

الفضائل المسيحية

✠ فشاهد الأمانة إبراهيم الذي حسب من تلك الأمانة عدلاً .

✠ وشاهد الرجاء أنوش الذي ترجاه في الأول عند دعوته إلى الرب وكل الصديقين معه .

أيضاً الذين من أجل الرجاء صبروا على الآلام .

✠ وشاهد المحبة بولس السليح الإلهي، الذي ما جسر أن يتكلم أو يذكر عن نفسه شيئاً من أجل إسرائيل، والله نفسه إذ كان يدعى محبة .

✠ ومن أجودها محبة الغرباء أيضاً، والشاهد في الصديقين لوط السدوميّ وليس بسدوميّ المذهب .

✠ وفي الخطاة رحاب الزانية وليست بزانية الخلق، لأنها من تلقاء محبة الغرباء مدحت وتخلصت .

✠ ومن أجودها محبة إخوة يسوع إذا كان هو لم يرضَ أن يدعى أخاً لنا فقط، بل وصبر على الآلام من أجلنا .

✠ من اجودها محبة البشر، والشاهد يسوع نفسه أيضاً فإنه لم يخلق الإنسان على أعمال الخير وحده ويخلط الصورة بالتراب ويجعله هادياً إلي الجليلات، ومفيداً للعاليات، بل وصار مع ذلك إنساناً من جهتنا .

✠ من أجودها الأناة وطول الروح، والشاهد على ذلك المسيح نفسه فأنه لم يكتفِ بألا يطلب فرقة من الملائكة لصد مهاجميه فقط، بل انتهر بطرس لما جرد السكين وأمره بان يرد السيف بل شفى أذن المجروح وأعادها إلى مكانها، وكذلك صنع فيما بعد اسطفانوس تلميذ المسيح، لما صلى عن الذين رجموه .

✠ ما أجود الوداعة ويشهد لجمالها موسى وداود اللذان يثني عليهما الكتاب أكثر من سواهما، ويشهد لها معلمها الذي لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع صوته في الأسواق ولا مَانَعَ الذين أخذوه واستاقوه للتعذيب .

✠ ما أجود الغيرة، ويشهد بذلك فنحاس لما طعن المديانية مع الإسرائيليّ ليرفع العار عن بني إسرائيل، وسمى بذلك من قبل نيته، ويشهد

بعده القائلون غرت للرب، غرت عليك غيرة الرب، وغيرة بيتك أكلتني، ولم يقولوا ذلك فقط، بل قالوه وفعلوه .

✠ ما أجود الإماتة الجسدية، يثبت لك ذلك بولس الرسول عند تأديبه لنفسه ومخافته على الواثقين بنفوسهم المنقادين إلى الشهوات الجسدية، ويشهد بذلك أيضاً يسوع في صومه ودخوله تحت التجارب وغلبته للمجرب .

✠ ما أجود الصلاة والسهر ويحقق ذلك لك يسوع لما سهر وصلى قبل الآلام .

✠ ما أجود الطهارة والبتولية، ويحقق ذلك لك بولس في وعظه الذي بين فضل الزواج والبتولية، ويحقق ذلك أيضاً يسوع في ولادته من بكر ليكرم الولادة، ويجعل البتولية فوقها قدراً .

✠ ما أجود الصبر والثبات، ويحقق ذلك داود لما ملك ماء البئر من بيت لحم، فلم يشربه بل نضح منه عليه فقط ولم يرد أن يتمم شهوته ويشفي ألمه بدم غيره .

✠ ما أجود البرية والسكون فيها ويعلمك ذلك كرمل إيلياس، وقفر يوحنا المعمدان، وجبل يسوع، الذي كان يصعد إليه ويخلو بذاته في سكوت .

✠ ما أجود البساطة يعلمني ذلك إيلياس عند نزوله عند أرملة، ويوحنا في استتاره بوبر جمل....

✠ ما أجود الاتضاع وما أكثر الشواهد على ذلك وقبل الكل مخلص الكل وسيده لما تألم لم يكفهِ أن يضع ذاته إلى صورة العبد، وأن يعرض وجهه لخزي البُصاق، ويحسب مع مصاف المجرمين، هو الذي طهر العالم من الخطية وحده، بل وغسل أرجل التلاميذ في صورة عبد وشكله .

✠ ما أجود الزهد، وقلة القنية، والتهاون بالمال، وقد شهد بذلك زكا العشار، والمسيح نفسه، فأحدهما لأنه قدم كل شيء إلاّ قليلاً عند دخول المسيح إليه، والآخر لما بين للشاب الغنيّ أن الكمال في التخلي عن المال، وإذا أوجزتُ في الكلام في هذه الأشياء قلتُ .

✠ فما أجود العلم وما أجود العمل أحدهما يرفعنا من ههنا ويمر بنا إلى قدس القديسين، ويرد عقلنا إلى ما يجانسه، والآخر فيقبل المسيح

ويضيفه ويخدمه ويحقق المودة بالأعمال، وكل واحد من هذه الأشياء هو طريق إلى الخلاص يؤدي إلى واحد من المنازل الدهرية المغبوطة، لأنه كما أن هنا على الأرض حالات مختلفة من الحياة فعند الله كثيرة مقسومة لكل واحد بحسب ما يستحقه .

فليتم واحد الفضيلة الفلانية، والآخر غيرها، والآخر فضائل عدة، والآخر كلها إن أمكنه، إذ يكون كل واحد سالكاً في طريقه متقدماً إلى ما قدامه، تابعاً من يهديه ويقوم مسالكه على ما ينبغي، إذ يقوده بالطريق الضيقة، والباب الغير واسع، التي تكون هناك .

عمل الرحمة

فأن قبلت من بولس ومن المسيح وحكمنا، المحبة بأنها أول الوصايا وأعظمها إذ هى رأس الناموس والأنبياء، وجدت أفضل ما فيها محبة المساكنين، والتحنن على المجانسين، والتألم للمتألمين، لأنه لن يرضى الله بشيء مثل الرحمة ولا ههنا شيء أخص منها بالله، لأن " الْعَدْلُ وَالْحَقُّ قَاعِدَةُ كُرْسِيِّكَ. الرَّحْمَةُ وَالْأَمَانَةُ تَتَقَدَّمَانِ أَمَامَ وَجْهِكَ " (مز ٨٩ : ١٤)، وله ينبغي أن نقدم الرحمة قبل الحكم، لأن الرحمة تفتخر على الحكم (يع٢ : ١٣) ولن يصل إلى التفضيل ومحبة البشر شيء آخر من جهته، أكثر من الوصول إلى ذلك يتفضل مثله، وتحنن على البشر لأنه إنما يعطي مثله من طريق عدله، وإنه ليصنع الرحمة بالميزان والمعيار .

فينبغي أن نفتح الحشا لسائر المساكين، ولكل من لحقه ألم بسبب من الأسباب، على حد الوصية التي تأمر "فَرَحاً مَعَ الْفَرِحِينَ وَبُكَاءً مَعَ الْبَاكِينَ "(رو١٢ : ١٥) .

فسبيلنا أن نقدم لسائر البشر جوامع الخير إن احتاجوا إلى ذلك، أما من أجل ترمل، أو من أجل يتم، أو من تغرب عن وطن، أو تهجم سلطان، أو قلة شفقة من مستخرجين، أو تدنس لصوص بدماء، أو شره سراق، أو مصادرة، أو غرق، فكل هؤلاء بالسواء إلى الرحمة محتاجون، وإلى أيدينا ناظرون، كما نحن إلى الله فيما نطلبه شاخصون، ولكن ما أحق بالرحمة في هؤلاء كلهم من لم يحدث له شقاء قبل ذلك، ولحقه سوء بغير استحقاق، ولا سيما من كان بالمرض الظاهر من المفسودين المتآكلين حتى

اللحم والعظام والمخاخ على ما تقدم به الوعيد لقوم آخرين، وهؤلاء هم الذين أسلمهم هذا الجسد المتعب الخائن الذليل، هو الذي لست أدري كيف اختلط به .

محبة الجسد وأخطارها

ولا أعلم كيف أنا صورة الله، وكيف قد انجبلت مع الطين هذا الذي يقاتلني إذا اصطلحت حاله، ويؤلمني إذا أدركه القتال، هذا الذي أحبه لمشاركتي إياه في العبودية، وابغضه لاشتهاره معي في المعاداة، أهرب منه كما يهرب من الرباط، ثم أخزى منه كما يستحي من الشريك في الميراث، أروم أن أدينه، ثم لا أدري بماذا استعين على الأعمال الصالحة، لأنني أعلم لماذا صرت، وأن سبيلي أن ارتفع إلى الله بأعمالي، واشفق عليه على المعين، ثم لا أفلت من حركاته وتمرده، ولا أعلم كيف اسقط من خير الله بالقيود التي انقلتني واحدرتني إلى القرار، فهو عدو وشقيق، وهو صديق خائن، فياله من اتفاق، وياله من افتراق، ما أخافه أحوطه، وما أوده أحذره، فقبل أن أحاربه أصالحه، وقبل أن أصالحه انفصل منه، فم هذه الحكمة فيّ يأتي، وما هذا السر العظيم، اللهم ألا يكون لما رآني أنا حرمته، وقد انحططنا من العلو حتى لا نستعلي بسبب المرتبة، ونرتفع فنتهاون بالخالق، جعل القتال والصراع مع الجسد، لنكون شاخصين إليه أبداً، ويكون الضعف المركب فينا تأديباً لمرتبتنا، فنعلم أنا عظام، وأنا أرضيون وسمائيون مائتون وغير مائتين، نار وظلمة، إلى أي الجهتين ملنا، فمثل هذا هو من أجلنا، ومن أجل هذه الأشياء على ما يظهر لي، حتى إذا ترفعنا من أجل الصورة، انقبضنا من تلك التراب .

محبة المساكين

هذا من رأى أن يتفلسف فيه فيتفلسف، وسنتفلسف نحن أيضاً معه في وقت أوفق من هذا، وأما الآن فالذي تحرك فيه الكلام عندي، في تألمي على لحمي وضعفي في آلام غيري .

فسبيلنا يا إخوة أن نداوي من يجانسنا، ويساوينا في العبودية، فأنني وإن كنت قد تكلمت فيه كما يتكلم في العدو لموضع إيلامه، فأني اشفق عليه كما على الصديق، من أجل أن رباطه أكيد، وكل واحد فليداوي ألم رفيقه، ليس بدون ما يداوي ألم نفسه، وليتعمد بذلك الأصحاء لمن قد اضربه هذا المرض، وكلنا بالرب واحد، من كان منا غنياً ومن كان فقيراً، ومن كان عبداً، أو حراً، ومن كان صحيحاً، ومن كان جسمه سقيماً .

ورأس الكل فواحد وهو المسيح الذي منه الكل، وكما نحن أعضاء بعضاً لبعض، كذلك فليكن كل واحد لصاحبه، وليكن الكل للكل فلا يتهاون أحد ولا ينتن في أمر الواقعين في المرض الشامل، ولا يعجبنا حسن حال أَجسامنا، أكثر مما يحزننا سوء حال إخوتنا، الذين يجب علينا أن نعتقد التحنن عليهم حرزاً واحداً لأجسامنا ونفوسنا، ومع ذلك فننظر هكذا .

أما غير هؤلاء فشيء واحد فيهم يحتاج إلى الرحمة، وهو الإعواز، الذي عسى أن يحله إما زمان، وإما تعب، وإما صديق، وإما قريب، وإما تغير وقت، وإما هؤلاء، فهذا الذي تقدم ذكره فيهم، ليس بدون ما في أولئك، إن لم يكن أكثر بحسب ما قد انتزع منهم مع أجسامهم والمعونة لنفوسهم، والتعب فيما لابد منه، وأعظم من المرض عندهم الخوف منه، والجزع أكثر من ارتجا العاقبة، حتى لم تبقَ لهم معونة ولو يسيراً من رجاء أرامل، وذلك وحده هو الدواء والعزاء الذي يبقى للمنكوبين.

ومع الفقر والمرض شر ثانٍ وأشد، الأسوأ ثقلاً، وأجل ما يتعود منه، وقد يجري في أفواه ليتبن على اللغز .

وشيء ثالث أنهم غير مقبولين عند جماعة، ولا منظور إليهم، بل مهروب منهم، فهم مرذولون مدحوضون، كالشيء الذي ينفى ويتباعد منه، وذلك أشد عليهم من السقم والمرض، من انهم أحسوا بأنهم لأجل مرضهم مبغوضون .

مرضى البرص

أما أنا فلا أحتمل ألم هؤلاء بلا دموع، بل إذا ذكرتهم يغمى عليَّ سماع ذكرهم، ويا ليته لحقكم مثل ذلك حتى تفلتوا من الدموع بالدموع،

وسينال ذلك من كان محباً للمسيح، أو محبا للضعفاء من الحاضرين الذين معهم الرحمة من الله، وأنتم بهذا الألم من الشاهدين، لقد حضر قدام عيوننا منظر مفزع عجيب لا يصدقه إلاّ مَن قد عرفه، ناس أحياء وأموات مبتورين في كثير من أعضاء أجسامهم، لا يعرفون إلاّ قليلاً مَن كانوا، ولا مَن أين هم، بل هم بقايا شقية، ومن أناس كانوا معروفين قديماً، يذكرون آباء وأمهات وإخوة، ومواضع يدلون بها على أنفسهم قائلين، أنا ابن فلان وفلانه، كانت لي والدة وهذا هو اسمي، وأنت كنت لي فيما سلف صديقاً ومعرفة، ويفعلون ذلك لأنه لا يمكن أن يعرفوا من تسمياتهم وحلية من قديم حالهم أناس قد انتزعوا من أموالهم وأنسابهم وأصدقائهم وأجسامهم أنفسها، أناس وحدهم من دون الخلق بالسواء يرحمون نفوسهم ويبغضونها معاً، لا يدرون على أي الاثنين ينوحون، على ما ليس هو موجوداً من أجسامهم، أم على ما هو باقٍ، أعلى ما قد صرفه السقم، أم على ما قد بقاه لازماً، قد نَفِدَ قول تعد شقياً، وما بقي فقد بقي شقياً، فمن ذلك ما قد مضى قبل القبور، ومنه ما ليس يوجد من يواريه في لحد، إذا كان الصالح المحب للبشر جداً لا يكاد يكون على هؤلاء من المتألمين، فها هنا نسينا أنا بشر، وأن جسم الذل ستره لنا، وبعدنا بهذا المقدار من مداواة أجسام مشاركينا في الجنس، بمقدار ما يوهمنا أن الهرب منهم حرز لأجسامنا .

ولعل واحد قد تقدم إلى ميت عتيق، ويجوز أن يكون قد نتن، وقد صبر على رائحة كريهة من جيفة بهيمة، وامتلأت خياشيمه من رائحة حمأة فصبر، ونحن فلسنا على هؤلاء صابرين، بل عن مواضعهم بجهدنا هاربون، فبوسائله من جفاء إذا ما صعب علينا أن نشاركهم في استنشاق الهواء وتنسمه، ما يكون أقرب من الولد، ما يكون أشفق من الوالد، إلاّ أن الطبيعة قد أغلقت فيها أبواب الرحمة على هؤلاء، والأب يرى ولده الذي رباه، الذي قدره أن يكون وحده غنياً لدنياه، وضوء العيشة الذي من أجله قد ابتهل إلى الله دفعات، فينوح عليه، ولكنه مع ذلك يطرده، أحدهما يفعله طائعاً، والآخر يأتيه مجبراً، والوالدة فتذكر توجعها عند الطلق، وتضطرب أحشاؤها، وتعدّد عليه بكاءً ونحيباً، وتقدمه بين يديها، فتنوح على الحيّ كما يناح على الموتى، فتقول يا بنيّ شقيّ البخت، ويا ولد والدة تعيسة شقية، لقد قاسمتك المرض وسقاني فيك الزمان كأساً مراً، يا بنيّ مرجوما ويا ولد لا معروفا، ويا بنيّ ليت تربيته في الجبال والبراري والكهوف والصحاري،

مع الوحوش قد سكنت، وبالصخر قد استترت، وليس ينظر إليك من الناس إلا من كان عابداً وحده .

وتقول مع ذلك كلام أيوب الحنين، يا بني لم خلقت في بطن أمك، ولم خرجت إلى العالم، وإذ خرجت لما هلكت عاجلاً لساعتك، حتى كان اتصل الموت بالولده، ولم لم تنصرف عن شرور العالم، ولم اتصل بعض أعضائك ببعض، ولم نلت من الثدي وأنت عتيد أن تعيش عيشاً أشر من الموت، فإذا قالت هذا هطلت عيناها من الدموع أنهاراً، فتروم الشقية أن تصحافحه ثم تخشى من جسم ولدها، كما يخشى من كثير الآفات، وإذ كان ذلك كذلك لم تخل مواضعهم من الطرد والصياح، ليس على الظالمين بل على الأشقياء الممتحنين .

وقد يجوز أن يساكن الواحد رجلاً قاتلاً، ويعطي زانياً ليس سترة وحدها بل وفائدة، ويشارك من كان من تبعه سارقاً، ويصالح من أساء إليه، فأما ألم هذا الإنسان فيحوِّل عنه وجهه كما يحوِّله عن القبيح، وذلك المألوم ما يكون قد عمه شيء، فصار الشر أعظم عليه من المرض، لأننا قد تمسكنا بالقساوة، كما نتمسك بالشيء الحر المخلص .

وقد أهان التحنن كما يهان القبيح الفاحش، فهم يطردون من المدن من البيوت ومن الأسواق والمجامع والطرقات والمحافل والمجالس، فياله من ألم حتى ومن الماء قد يطردون كأن العيون ليست لهؤلاء مع غيرهم مشتركة، ولا الأنهار يوثق بها ألاّ يحدث منهم دنساً، ومن العجائب أنا نطردهم كالشيء الدنس، ثم نردهم إلينا كمن لم يأتِ تقبيح، ثم لا ندفع إليهم مسكناً، ولا طعاماً، ولا لجراحهم دواء، ولا لأجسامهم بحسب طاقتنا سترة وغطاء، فهم يطوفون ليلاً ونهاراً حائرين، عراة يائسين لا شيء يسترهم، ولا موضع يأوون إليه، يظهرون داءهم، ويذكرهم القديم من أحاديثهم، ويستصرخون للخالق ويستعمل الواحد أعضاء غيره، بدل ما يكون قد أعوزه منها، ويتحيلون بنغمات تستدعي لهم الرحمة، ويطلبون اليسر من الخبز والحقير من الإدام، أو خرقة شعر تستر عوراتهم، أو يشيد شيئاً من فروجهم .

والرحيم عندهم هو ليس من أوسع عليهم في حاجتهم، بل من لم يصرفهم بمرارة وعسف، وأكثرهم فلا يتحايدون المحافل من قبل الخجل، يفعلون منه ذلك ويقصدونها من تلقاء الحاجة، ويندفعون إلى هذه المجامع

الطاهرة، التي وجدناها نحن النفوس شفاء، وجعلنا الاجتماع فيها لسر آخر، واختلفنا فيه لأجل شهداء الصدق، حتى يكون إذا أكرمنا جهادهم، تشبهنا بجمال عبادتهم، وهم مع ذلك يستحون من الناس لموضع مصابهم، وقد يؤثرون أن يكونوا إلى الجبال والأدوية والغياض، أو بالليل والظلام مستورين، إلاّ أنهم يرمون نفوسهم في الوسط عمداً، ويطرحونها حملاً مؤلماً، وللدموع أهلاً .

وعسى ذلك منهم بواجب من القياس، حتى يكونوا لضعفنا تذكرة، ويقنعونا ألاّ نتمسك بشيء من المبصرات الحاضرات، ونقدر فيه الثبات، وإذ طرحوا أنفسهم كان ذلك من بغضهم لشهوة صوت أنسيّ، ومن آخرين إيثاراً للنظرة، ومن غيرهم ليجمعوا زاداً يسيراً من عند المتدفن لمعاشهم، وأما كلهم فيفعلون ذلك ليخف بعض ما بهم إذا ذكروا للناس أحزانهم، وندبوا مصائبهم .

من لا ينكسر عند توجعهم ونوحهم، إذ يجتمعون فيقولون اتفاقاً مؤلماً وشعاراً محزناً، أي سمع يصبر على السماع .

أي نظر يحتمل المشاهدة أمامهم فيكون بعضهم مع بعض مضطجعاً، ومن شدة الألم لصاحبه مدائياً ومعه مزدوجاً، ومستمداً منه شيئاً من مصيبته تؤدي إلى رحمته، وكل واحد منهم زيادة لرفيقه في الألم، فهم من المرض مرحومون، ومن تحنن بعضهم على بعض لاتفاقهم في الألم يستوجبون الرحمة أكثر، وأما غيرهم فيطوفون حولهم وهم مختلطون ويتوجعون لهم، ولكن توجعاً لوقته ثم يتمرغون على أرجل الناس، ويتعفرون في التراب والغبار، وينكشفون للشمس، وربما طرحوا نفوسهم في الأمطار والرياح والبرد الشديد، فنمتنع من وطئه بمقدار ما نستنكف من لمسهم والقرب منهم .

وفى بعض الأوقات تعادل أصوات طلباتهم وبكائهم، الأصوات الطاهرة والألحان في الكنائس المقدسة وتقوم حدا القراءات السرية مناحة شديدة .

ولم قد اعتزمت أن أشرح مصائبهم كلها لقوم بعيدون، ومتى فعلت ذلك واثبت على كل ما هم فيه قدرت أنني أحرك، ولكم أيضاً مناحة فيغلب الأمر العيد .

وإنما أقول هذا إذ كان ما أمكنني أن أحقق عندكم أنه قد يكون في بعض الأوقات حزن أفضل من لذة، وكما أنه أوفق من انبساط وبشاشة في عيد، ودمعة محمودة أفضل من ضحكة مذمومة .

أما هؤلاء فهكذا حالهم وأشقى مما ذكرت كثيراً، وهم من معيني الاختصاص بالله اخوتنا، وأن كرهتهم في ذلك فطبيعتهم وطبيعتنا واحدة، وتركيبنا وتركيبهم من طبيعة واحدة، وهى التي منها كنا قديماً، وأعضاؤهم وعظامهم قريبة منا، وجلودهم ولحومهم مثل ما لبسنا نحن منها أيضاً، كما قال أيوب الإلهي في بعض المواضع، وتفلسف في الآلام عندما تهاون بالظاهر منا .

بل أن وجب أن أقول ما هو أجل من هذا، قلت أنهم وصلوا إلى ما يخص الصورة مثلنا، ولعلهم قد حفظوها أكثر منا، وإن كانت أجسامهم فسدت، الذين هم لا بسون معنا مسحة واحدة على الإنسان الباطن، الذين قد اؤتمنوا على عربون الروح الذي قد اؤتمنا نحن عليه بعينه مثلهم، الذين يشاركون في النواميس والأقوال والوصايا والمجامع والأسرار والأمانة، الذين عنهم مات المسيح رافع خطايا العالم مثلنا، الذين يوافقونا في ميراث الحياة العليا، وإن كانوا قد بعدوا عنا في هذه كثيراً، الذين قد قبروا مع المسيح ويقومون، لأنهم إنما يتألمون حتى يتمجدوا معه .

فأما نحن فمن وارثين الاسم العظيم الجديد، وقد لقينا المسيح بآلامه المقدسة، القبة الملكية الشعب الخاص المنفرد على أعمال الخير والخلاص، تلاميذ المسيح الوديع المتعطف على البشر حامل ضعفنا، الذي وضع نفسه حتى إلى جبلتنا، الذي افتقر بهذا الجسم والمسكن الأرضيّ من أجلنا، الذي توجع وتألم من جهتنا حتى نستغني نحن بلاهوته .

فنحن إذاً الذين قد اتخذنا هذا المثال من التحنن والترأف، ما ترى هؤلاء وما نصنع، أنهملهم أم نتجاوزهم أم نتركهم كالأموات المرذولين، أو كالأشر من الوحوش والدواب .

لا يا إخوه ليس هذا من شأننا، ونحن تربية المسيح الراعي، رَادُّ الضال وطالب الهالك ومقويّ الضعيف، ولا من شان الطبيعة البشرية أيضاً لأنها قد جعلت التحنن ناموساً وتعلمت التحرز والتعطف على الإنسان من قبل الضعف الذي هو مساويه فيه .

أفيجوز أن يشقى هؤلاء في الصحارى مكشوفين، ونسكن نحن في البيوت البهية الزاهرة، بأنواع الحجارة اللامعة بالذهب والفضة، وتركيب الفص الدقيق، وما هو من الصور متلون نفيس، وذلك خدعة للعيون وسحرية للأبصار، فمنها ما نسكنه، ومنها ما نبنيه لمن عساه يكون لغير وراثنا، بل للغرباء البعيدين، ولعل هؤلاء ما يكونون لنا محبين بل أعداء الناس وأحسدهم لنا.

ما أشد ذلك من الشرور وأصعبه، أو ترونهم قد بالغ منهم البرد ولا يستترون إلاّ بشيء من مسوح أو مرقع من خرق، ولعلهم لا يصلون إلى ذلك، ثم نقنت نحن نفوسنا ونبيت في الملابس الرقيقة الرفيعة اللينة، وفيما كان نسجه هوائياً من الكتان والحرير، ونفتضح في ذلك أكثر مما نترفق به، إذ كنت أنا يمكنني أن أسمِّي كل فاضل من الأشياء زائداً فيها بهذا، ومن الأشياء ما يخزن المخازن، فيكون همّاً غير صالح،ولا ينتفع به ما كان للسوس، والزمان مبيد للكل، ويكون أولئك لا يصلون إلى القوت الضروريّ، أو تنعم ومن شقائهم بل يطرحون قدام أبوابنا جياعاً جريحين، وليس لهم من أجسامهم معونة على الترسل، بل يعوزهم الأصوات التي بها كانوا ينوحون، والأيدي التي إياها إلى الطلبة كانوا يمدون، والأرجل التي بها على طول الزمن يستغيثون، فأشد الشرور عندهم أهونها وذلك أنهم يخمدون عيونهم إذا ما تبصر فساد أجسامهم .

أفيكون هؤلاء هكذا ونضطجع نحن على المنابر العالية، والأسرة الشامخة، والمطارح الزائدة التي لا تمس، ونتبجح ونتباهى حتى ولو سمعنا صوتا في وسائلهم لصعب علينا أو سبيلنا مع ذلك أن نزين الأرض بالأزهار وربما كان ذلك في غير وقته، وننضح على المائدة الطيب، ونتخير منه ما كان أنفسه لنزيد في التحنث، وتقف حولنا الغلمان بعض على غاية الزينة وما يتبعها، وخدم مزحيين الشعور، وزائدين فيما لا يحتاج إليه الوجه من التحفيف، يتصنعون أكثر مما لا يوافق العيون الطامحة، ومنهم من يحمل الكؤوس على أطراف أنامله كأنه يطلب أحسن ما أمكن في ذلك وأوقته، ومنهم من يريد أحكام تحريك الريح على الرؤوس بالمراوح فيبردون بهوى الأيدي عن كثرة اللحوم الزائدة فينا، ثم بعد ذلك نكثر اللحوم على المائدة، وتمدنا الاسطقسات بكل شيء فاضل من الهوى والأرض والماء، ونضيف علينا مع ذلك صنعة الطباخين وحيل صانعي المآكل

وجهاد الجماعة، إنما هو في أن يمكن الواحد أن يزيد على صاحبه في رضى الجوف الشره، الفاقد الشكر، الوقر الثقيل، والشر القديم، الوحش الخائن الذي لا يشبع، الذي يبطل الوقت مع طعامه الباطل، وأولئك فيكون عندهم كثيراً رية من ماء، ونحن فالكؤوس عندنا تقضي بنا إلى السكر من الصهباء، بل وأكثر من السكر عند الهائمين منا بالفسق، ثم نطرح بعض الشراب ونتخير ما كان منه مرواحاً، ثم نتفلسف في الآخر ويكون عندنا خسارة، إذا ما قد انضاف إلى البلديّ منه آخر من الغريب كالمغتصب .

وسبيلنا أن نكون عندكم متفخمين زائدين فيما نحتاج، أما أن يكون كذلك على الحقيقة، أو يظن بنا ذلك كأننا نستحي متى لم نحسب أشراراً، وللبطن وما تحت البطن عبيداً .

ما هذا يا أصدقاء وإخوه، لم نمرض مرضا يخص نفوسنا وهو مرض أشد من مرض الأجسام، لأن مرض الأجسام غير اختياريّ، وهذا المرض فقد عرفته من الاختيار موافيا، وذلك المرض منحل انحلال هذه الحياة، وهذا المرض لا يزايلنا، بل يَنْفَدُ معنا في وقت انتقالنا، وذلك المرض مرحوم وهذا عند ذوي العقول مذموم، فلم لا نُعينَ الطبيعة إذا الوقت يساعدنا على ذلك، ولم نسترد له الجسد ونحن أجسام أيضاً، لم نتنعم في شقاء غيرنا، أما أنا فلأن كان لي أن أستغني وهؤلاء معوزون، ولا أن تصلح حالي واضح أن لم أعن جراحتهم، ولا أن اكتفي من القوت، ولا من السترة ولا من الراحة تحت سقف، إن لم أعطهم الطعام، وأوصلهم إلى الكسوة مقدار طاقتي، وأريحهم تحت السقوف التي أصل إليها، بل سبيلنا إما نترك كل شيء للمسيح حتى نتبعه اتباعاً قريباً ونحمل صليبه، ونتعال ونستخف فوق العالم، وننفذ إلى العالم الأعلى متشمرين، لا يثقلنا شيء ولا يمنعنا، ونربح المسيح بدل كل شيء، ونكون بسبب الاتضاع رافعين، ولموضع القفر مستغنين، وإما نقاسم المسيح على مالنا الموجود، حتى يتقدس ما لنا بحسن تدبيره، والمشاركة فيه لمن لا موجود له، فلئن زرعت أنا لنفسي وحدها، فليأكل غيري ما زرعت، نعم وأقول في هذا ماقال أيوب : يخرج لي بدل القمح شوك وبدل الشعير عليقاً وتأخذ ريح حادة تعبي وتبدد الزوبعة غناي حتى أكون قد تعبت باطلاً، وإن أنا بنيت لي أهراء وللمال مخازن فانتزعت مني في هذه الليلة نفسي وقمت بالحجة عما خزنته في غير موضعه .

أما نعتبر ونصطلح ولو بآخره ؟ أما نطرح عدم التألم ؟ إذ لا أقول ضيق العطف وكثرة الشح، أما نتفكر في أمر البشرية ؟ أما نصلح أحوالنا بما نبصره بمأساة غيرنا ؟ ليس من أحوال الناس حال بالطبع ثابتاً، ولا متفقاً ولا منتظماً ولا كافياً ولا على حال واحدة ثابتاً، بل دور يطوف حول أحوالنا فيأتي في يوم واحد، وربما أورد في لحظة واحدة أصنافاً كثيرة من الاختلاف والانتقال، والأولى أن يثق الإنسان بالهوى وبآثار سفينة جارية في البحر، أو بادغاث الليل الغراره التي فائدتها إلى مدة يسيرة، نعم وبما تلعب الصبيان ويخبونه في الرمل، أكثر من الثقة بحسن حال الإنسان .

فالحازم من يكثر لنفسه الحظ المستأنف عند قلة ثقته بالحاضر، ويعد الصلاح والخير الذي لا يزول من أجل قلة ثبات الموجود في حسن الحال وعدم ثباته، ليحصل له على كل حال أحد ثلاثه أشياء:

إما لا شيء حاله لأن الإله قد يكافئ لذوي العبادة الحسنة في بعض الأوقات بشيء من الخيرات، ههنا استدعى التحنن منهم بما يوصله إليهم من الخير .

وإما أن يكون له داله عند الله وثقة في نفسه، بأن الذي يناله من السوء، ليس هو لأجل شيء تقدم من جهته، بل من أجل تدبير الخالق لا يقف عليه .

وأما الأخير فهو يكون إذا طلب وتوسل من ذوي الأحوال طلب الرحمة منهم كأنه واجبه له لموضع ما قدمه لا مثاله في وقت إثرائه واستقامة أحواله .

"هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: «لَا يَفْتَخِرَنَّ الْحَكِيمُ بِحِكْمَتِهِ وَلَا يَفْتَخِرِ الْجَبَّارُ بِجَبَرُوتِهِ وَلَا يَفْتَخِرِ الْغَنِيُّ بِغِنَاهُ" (إر ٩ : ٢٣)، وإن كانوا قد وصلوا إلى الغاية أحدهم من الحكمة، والآخر من المال، والآخر من القوة، وأما أنا فأزيد في ذلك ما يتلوه فأقول: ولا البهيّ بمجده، ولا الصحيح بعافيته، ولا الجميل بجماله، ولا الحدث بشبيبته، ولا بشيء غير ذلك من الأشياء المحمودة، إذا أجملت القول من كان مفاخراً بما هذه جملته " بَلْ بِهَذَا لِيَفْتَخِرَنَّ الْمُفْتَخِرُ: بِأَنَّهُ يَفْهَمُ وَيَعْرِفُنِي أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الصَّانِعُ رَحْمَةً وَقَضَاءً وَعَدْلاً فِي الْأَرْضِ لِأَنِّي بِهَذِهِ أَسَرُّ يَقُولُ الرَّبُّ " (إر ٩ : ٢٤)، ويتألم مع المتألمين ويعد لنفسه شيئاً من الخير في معاده، فأن ما ههنا فإن وقتي غير

دائم، كالفصوص التي تطرح في اللعب، فتظهر في وقت شيءٌ وفى آخر غيره، وتنتقل معونتها في واحد إلى الآخر، فليس شيء يتمسك به صاحبه فلا يحله، إما زمان، وإما جسد، وأما الأشياء الآتية فهي قائمة ثابتة لا تزول ولا تحول ولا تكذب، أمل من يثق بها ويرجوها .

وأما أنا فهذا الرأي عندي أنه من أجل هذا صارت الخيرات التي ههنا، ليس فيها ما توثق به الناس ولا ما تطول مدته، بل إن كان شيء آخر فهذا أفضل منه في تدبير الكلمة الخالق، والحكمة التي تتجاوز كل عقل، أن تكون تلعب بنا في هذه الأشياء المبصرة، التي تنتقل من حال إلى حال، فينقلها في وقت وغيره، وهى تتغير وتسير علواً وسفلاً وثقلت في بعض الأوقات من قبل أن توجد، حتى إذا ما رأينا ما فيها من قلة الثبات وعدم النظام، انتقلنا إلى المستأنف وتقنا إليه، فما لعلنا كنا نصنع لو كان حسن الحال ههنا ثابتاً ونحن قد ارتبطنا به هذا الارتباط، وهو منتقل لا ثبات له، وقد استعبدتنا اللذة والخديعة بما هذه صورته، هذا الاستعباد، حتى إننا لا يمكننا أن نتصور شيئاً أفضل من هذا الحاضر، ولا أرفع من هذا، ونحن قد صرنا على صورة الله، وسمينا بذلك ووثقنا به، أعني بالصورة التي هى فوق تجذبنا إلى ذاتها، فمن هو الحكيم فليفهم هذا .

طوبى لمن له التمييز

من يتجاوز الأشياء التي تجوز وتعبر، من يتصل بالأشياء الثابتة، من يتفكر فيما هو حاضر، ويعتقد أنه نافد، من يتصور الأشياء المؤلمة أنها باقية، من يفرق بين الموجودات والمظنونات فإحداها يتبعها والأخرى يتجاوزها، من يميز فيما بين الغربة والوطن، فيما بين الضوء والظلمة، فيما بين حمأة العمق والأرض المقدسة، فيما بين الجسم والروح، فيما بين الله وصاحب العالم، من يشتري المستأنف بالحاضر، والآجل بالعاجل، من يشتري بالغنى السائل، الغنى الذي لا ينحل، من يبتاع بالمبصرات ما لا يبصر .

فطوبى لمن يفرق ويميز، ويفصل فيما بين هذه بقطع النطق الذي يفصل فيما بين الأفضل والأدنى، ويصرف في قلبه ويضع مطالع كما قال داود الإلهي في بعض المواضع (مز ٨٤: ٧) ويهرب من هذه الهونة

هذه المناحة بحسب طاقته، ويطلب العلو، وينصلب عن العالم ويقوم مع المسيح، ويصعد مع المسيح، ويرث الحياة التي لا تنتقل ولا تعبر، بحيث ليس ثعبان على طريق ينهش ويترصد العقب الواطئ رأسه .

أما غير هؤلاء فما أحسن ما قال فيهم داود كالمنادي الذي ينادي من علو بصوت عالٍ على جمع كبير، كما دعاهم غليظي القلوب ومحبي الباطل، ومتبعين الكذب(مز ٤ : ٢)، حتى لا يتمسكوا ويتشبثوا بالمبصرات شديداً، ولا يعتقدوا في السعادة التي ههنا شيئاً أكثر من الاعتقاد في الشبع من البُر والقهوة اللذين هما من الأشياء الفاسدة .

وعسى ميخا المغبوط هذا قد داخل فكره في بعض المواضع فعاند الأشياء المنسحبة سفلاً وتظن حيزاً فقال اقتربوا من الجبال الدهرية "قُومُوا وَاذْهَبُوا لِأَنَّهُ لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الرَّاحَةَ" (مي ٢ : ١٠) .

هذا أيضاً موافق إلاّ قليل الكلام الذي أمر به مخلصنا وربنا عندما قال :" قُومُوا نَنْطَلِقْ مِنْ هَهُنَا" (يو ١٤ : ٣١) ولم ينقل التلاميذ في ذلك الوقت فقط من ذلك الموضع وحده كما عسى أن يظن ظان، بل ولكل تلاميذه الذين تعهدهم اجتذب من الأرض إلى السموات والسمائيات .

فسبيلنا أن نتبع الكلمة ونطلب الراحة التي هناك، ونطرح الغنى الذي ههنا، وما كان جيداً فنفيده وحده ونفوز به، وتملك نفوسنا بالرحمة، ونواسي الفقراء من الموجود، لنستغني بما هنالك من الفوز، أعطِ نصيباً للنفس لا للجسم وحده، اقبض شيئاً من البطن وقدمه للروح، اختطف شيئاً من النار، ارعَ بعيداً من اللهيب الذي يسعى في السفل، اختطف من المغتصب، واأتمن السيد عليه، أعط نصيباً للسبعة أي لهذا العالم، بل وللثامنة أي لمنتظرنا بعده، أعطِ قليلاً لمن لك منه الكثير، أعطِ الكل لواهب الكل، فلن تغلب جود الباري وكرمه، ولو بذلت كل موجود، لا ولو أضفت إلى ذلك نفسك بالكلية، فإنما هذا هو الأخذ بالحقيقة العطاء لله، وكل ما قدمت شيئاً كان ما يعوزك أكثر، لأنك لست تعطي شيئاً يخصك، إذ كان الكل من عند الله، وكما أن الإنسان لا يمكنه أن يتجاوز فيه إذ كان يتبعه حيث ما مضى، ولا يمكن مُعْظَم الجسد أن يصير فوق الرأس، لأن الرأس تعلوه أبداً، كذلك لا يمكننا أن نغلب الله بما نعطيه، لأنا لن نعطي شيئاً ليس هو له، ولا نملك إلاّ ما هو من تفضله .

فاعرف يا إنسان من أين لك الوجود، من أين لك النفس، من أين لك العقل، من أين لك أعظمها وهو معرفة الله، وارتجاء ملكوت السموات، ومساواة الملائكة والنظر إلى المجد، لأننا إنما ننظر الآن بالمرآة والأزمان، فأما في ذلك الوقت فأننا نبصر التمام الكليّ (١كو ١٣ : ١٢) .

من أين لك أن تكون ابن الله وشريك المسيح، وأجسر فأقول : من أين لك أن تكون إلهاً، من أين لك هذه الأشياء كلها، وممن افترى لي أن أقول لك الصغار والمرئيات، مَن أعطاك أن تبصر جمال السماء، مسير الشمس، دور القمر، كثرة النجوم، وما في ذلك كله من الاتفاق وحسن الانتظام، الذي كأنه في عود أو رباب وترتيب، ذلك الذي هو على حالة واحدة، من أين لك تغير الأزمان في انتقال الأوقات ومدار السنين، واتفاق الليل والنهار، وثبات الأرض وانصباب الهوى، وعروض البحر في انبساطه ووقوفه، وأعماق الأنهار وهبوب الرياح، من أين لك الأمطار والفلاحة، والطعام والمساكن، والشرائع والسنن، والعيشة الهادئة والاختصاص بالمحاسن، من أين لك صار بعض الحيوان مستأنساً وطائعاً لك، وبعضه غذاء وطعاماً، مَن جعلك سيداً وملكاً على سائر ما في الأرض.

مَن الذي وهب لك إذاً الإعداد لكل شيء ما يزيد به الإنسان على غيره، أليس هذا هو يطلب منك قبل كل شيء وبدل كل شيء الرحمة، ثم لا نستحي أن نكون قد أخذنا هذه الأشياء كلها منه، ونرجو بعدها أخرى، فلا نقدم له نحن واحدة وهى محبة إخوتنا، أما هو جل وعلا فقد أفصل ما بيننا وبين الوحوش، وأكرمنا دون سائر ما على الأرض بالنطق .

أفيجوز أن نجعل نحن نفوسنا وحشية، ونكون قد غلب علينا التنعم، حتى قد أفسدنا أو جننا، أو لست أدرى ما أقول منه يضرنا مع الرغيف والبخالة التي قد حصلت لنا، لعل ومن غير وجهها نتوهم أننا نزيد عليهم وفى الطبع أيضاً، وكما قيل في الألغاز والخرافات أن هناك جنس جبابرة وأناساً آخرين، كذلك نحن أيضاً أجلاء شراه فاخرين، نزيد على غيرنا من الناس كما قد قيل في النمرود وجنس بني عناق الذي كان يضغط الإسرائيليين، أو الذين لأجلهم ورد الطوفان فطهر الأرض، أما هو فلا يأنف أن يُدعَى أباً لنا وهو الإله وسيد، أفنجحد نحن المجانسة أي مجانسنا في البشرية .

لا يا أصدقائي وإخوتي لا نكن مدبري سوء فيما دفع إلينا وائتمنا عليه، حتى لا نسمع من بطرس إذ يقول اجزوا معشر الذين معهم ما ليس لهم وتشبهوا بمساواة الله فلا يكون أحد فقيراً، لا نتعب في كنز المال وحفظه إذ كان آخرون مسعوفين، لا يعيّرنا ويتهددنا شديداً من هذه الناحية عاموس الإلهيّ بهذا الكلام " مَتَى يَمْضِي رَأْسُ الشَّهْرِ لِنَبِيعَ قَمْحاً وَالسَّبْتُ لِنَعْرِضَ حِنْطَةً؟ لِنُصَغِّرَ الإِيفَةَ وَنُكَبِّرَ الشَّاقِلَ وَنُعَوِّجَ مَوَازِينَ الْغِشِّ " (عا ٨ : ٥) مما يفضي رجز الله على الذين يقتنون الوزن الكبير والصغير، ومن ههنا ميخا المغبوط وهو فيما أظن به يقطع بالكلية عن التنعم، لأن التملي يولد السفه، ويمنع من البطن والنوم على الأسرة العاج والتقنيت بالنفيس من الطيب، والتسمن بالعجول الرخصة من قطعان البقر والجداء من قطعان المعز، والتصفيق عند سماع الملاهي، ثم أشدها وهو الظن بأن ذلك ثابت دائم وعسى أن النبيّ لا يظن ما هذا شرحه صعباً بل قلة التألم لتوجع يوسف وانكساره ممن يقصى عن ذلك ويشتعل بترفه ونعيمه لأنه قد أضاف هذا إلى لومه إياهم على التملي فإياكم أن يلحقنا ذلك، ولا نتنعم هكذا حتى نتهاون برحمة الله وتعطفه على البشر، لاسيما وهذه الأشياء تصعب عليه، وإن كان لا يأتي بالرجز في الوقت، ولا ينزله بالخطاة عند الشر ممن قبلهم في حين واحد معاً .

هلموا نتشبه بناموس الله الأعلى

هلموا نتشبه بناموس الله الأعلى الأول الذي يمطر على الصديقين والخطاة وتطلع شمسه على الكل بالسواء، وقد بسط الأرض وأباحها لأهل البر، بما فيها من أنهار وعيون وغياض، وخلق الهوى لطبائع الطير المختلفة والماء لما عيشه فيه من الحيوان، ووهب علل الحياة للأوائل للكل بلا منافسة فيما بينهم إذ لا يمنع عن ذلك تجبره ولا يجوزه مقدرة، ولا تحيد عنه بشريعة ولا تحول دونه حدود، بل وقد جعل ذلك مشتركاً للكل واستعلاء ينتفص فيه الواحد دون الآخر، كذلك المساواة في كرامة الطبيعة فقد أكرمها بمواهب بالسواء، وأظهر في ذلك جوده وكرمه وغنى صلاحه .

فأما الناس فإذا جربوا الذهب والفضة وما كان من الملبوس ناعماً زائداً عن الحاجة، وما كان من الأحجار نفيساً مستحسناً، وغير ذلك من الأشياء التي هى دلائل الغضب وأسباب الحرب، رفعوا حواجبهم ورفعوا من تلقأ جهلهم رؤوسهم، ومنعوا من لا حظ له في العالم من أهل جنسهم من رحمتهم، ولم يروا أن يغيثوهم ولا بما هو فاضل عنهم، فتباً له من جهل وبؤساً له من عدم الأدب والعلم، وتباً له من عجز حتى إذ لا يكون شيء آخر، ولا في هذا يفكرون أن الفقر والغنى والحرية التي نقولها، والعبودية وما ناسب هذا من الأسماء، إنما دخلت على جنس الناس أخيراً، كالأمراض المشتركة التي دخلت مع الشر، وهى من حيله ونتائجه .

فأما في الأول فقد قال القائل :أنه ما كان كذلك، بل الذي خلق في الابتداء إنما خلقه حراً متسلطاً على ذاته، متمسكاً بناموس الوصية وحده، وغنياً بنعم الفردوس، فهذا قد رأى الباري أن يعطيه، ولغيره من جنس البشر، ويهبه بذلك الدرع الواحد الذي هو الأول،

فأما الحرية والغنى فإنما كانا للعدول عنها، فمذ صار الحسد والعري، واغتصاب الثعبان وخداعه، ولم يزل ذلك بإيثار اللذة يقودنا بغتة، ويقيم المتَهجمين على المستضعفين، انفصل اتفاق جنسنا إلى عداد من الأسماء الغريبة، وقطع الشره والرغبة في الكثرة حسب طبيعتنا، واتحد ذلك شبه على التجبر مساعدة .

وأما أنت فانظر إلى الاتفاق الأول في الكرامة، ولا تعول على الانفصال الثاني، ولا الفرقة الأخيرة، لا تعول على ناموس المستولي (الشيطان)، بل على ناموس الباري، اعن الطبيعة بحسب طاقتك، أعن الحرية القديمة، استحي من نفسك، استر مسبة الجنس، كن كفافاً للمرض، أعن العوز، أنت الصحيح الغِنَى لحال المريض الفقير، أنت الذي لم تسقط لمن قد سقط وتهشم، أنت المسرور للحزين المعوز، أنت المخصب بأحوال اليمين، للمعسر المعكس بأحوال الشمال .

أعطي شيئاً لله شكراً على نعمه

أعطي شيئاً لله شكراً على نعمه، لأنك قد صرت مما يمكنه أن يعمل جميل وينيله لمن سواه، ولست ممن يسأل فيه ويطلب نواله من غيره،

لأنك لا تنظر إلى يدين غريبتين بل إلى يديك بأشخاص آخرين، واستعن لا بالمال وحده بل وبحسن العبادة، لا بالذهب فقط بل بالفضيلة، كُن أكرمَ وأجلْ من قريبك، بكونك له صالحاً، وعليه جواداً، كن للبائس إلهاً، تشبه بالله في الرحمة، فلن يصل الإنسان أن يتشبه في شيء غير الرحمة والإحسان، وإن كان الواحد يحسن أكثر والآخر أقل كل واحد منهما على حسب طاقته، أما هو فخلق وإذ أحل وفرق فهو يجمع ويربط، وأما أنت فلا تتجاوز من قد سقط، أما هو فقد رحم وتفضل في الكبار والعظائم، وأعطى مع كل شيء ناموساً وأنبياء، وقبلهم الناموس الطبيعيّ، الذي هو فاحص المفترقات، وكاتبها وزجر ووعظ، وأذن ثم أسلم نفسه أخيراً فدية عن حياة العالم، ثم أرسل رسلاً ومبشرين ورعاة ومعلمين، وأشفية وعجائب وعودة إلى الحياة، وبطلاناً للموت وظفراً بالغالب، وإرسال الروح القدس، وسير الخلاص الجديد .

وأما أنت فإن كنت قادراً على ما هو أجل، وما يحسن به إلى أنفس، فقد جعلك الله في ذلك غنياً إن أردت وممكناً، فلا تمتنع عن الإحسان إلى المحتاج، بل أول الأشياء وأجلّها، ابذله لمن يطلب منك ويسألك، نعم وقدم ذلك قبل السؤال، وارحم في كل النهار، واقرض الكلام والتعليم، واطلب و فاء القرض مع الربا بحرص واجتهاد، وليكن ذلك الزيادة من المنتفع بتعليمه التي يزيدها الكلام دائماً، الذي ينمي في ذاته ويزيد أولاً فأولا في زرع البر .

وأولاً يمكنك ذلك فأعمل ما يتلوه وما هو دونه، وما تصل إليه طاقتك، أعن أحد بطعام، جُدْ بخرقة، ناول دواء، أشدد الجراح، سل عن شيء من حال المصيبة، علّم التفلسف في الصبر، اجسر تقدم، فلن تصير دون ما أنت في شيء، ولن يلحقك شيء من الألم، وإن كان ذلك مما لا يراه المتصلفون جداً، وينخدعون فيه بأقوال باطلة، بل إنما يحتجون بذلك، إما من صلفهم وإما من كفرهم، ويلتجئون فيه إلى نوع من الجبن كأنه شيء عظيم تقتضيه الحكمة والسياسة، وليحقق ذلك عندك الكتب، وغلمان الأطباء، وخدام هؤلاء القوم الذين يشاركونهم، وليس أحد منهم قد لحقته المصيبة من تقدمه إليهم .

وأما أنت فأن كان الأمر عندك يا عبد الله المحب لله، الودود للبشر، مهاباً وللظنة أهلاً، فلا يلحقك مهابة بل اجسر بالأمانة، ولتكن

الرحمة التي فيك للجبن غالبة، وخوف الله للاسترخاء، وليقف حسن العبادة أمام الأفكار المحبة للجسم، لا تتغافل ولا تتجاوز أخاك، ولا تلتفت عنه كأنه نجس، أو كأنه وسخ، أو كشيء آخر مما يهرب منه ويجدر، فهو عضو من أعضائك، وإن كان قد انحنى بمصابه، فقد نزل الفقر كأنه إله لك، فإذ أنت عدوت عنه وتعديته جداً بنفس كثيرة فلعساني استعطفك بهذه الأقوال، فقد وضع لك حجة ومركباً لترأفك على البشرية .

وإن كان الغريب يبعدك عن أن يلحقك خير من جهته، فكل سائر في البحر قريب هو من العطب، ويزيد خوفاً كلما جسر على الزيادة في السير، ومن هو متلبس الجسد فهو قريب أيضاً من بلايا الجسم، ويزيد قرباً كلما سار منتصباً ولم ينظر إلى من سقط قبله .

مادام سير سفينتك مستقيماً فامدد إلى من قد عطب يداً، مادمت صحيحاً مستغنياً فأعن من كان شقياً مضروباً، لا تنتظر أن تعرف في نفسك مقدار الجفاء على البشرية، ومقدار الصلاح في الأحشاء المفتوحة للمحتاجين .

إياك أن ترى ارتفاع يد الله على الغليظي الرقاب، الذين يتجاوزون المساكين ويتعدونهم .

في مصائب غيرك تعلم إصلاح نفسك، وتأدب بما يصلح شأنك .

أعطِ المحتاج ولو قليلاً، فليس قليلاً عند المحتاج إلى كل شيء، ولا عند الله إذا كان بمقدار الطاقة .

أعط بدل الكثير النية والنشاط .

إن لم يكن لك شيء فدمعة فإنها جليلة في مداواة البائس .

الرحمة عظيمة إذا كانت من نفس خالصة .

والتألم للمضرور والتقرب منه قد يحط كثيراً من ضره وبلواه .

لا يكنْ الإنسان عندك أهون من البهيمة التي إذا سقطت أو ضلت، يأمرك الناموس بإقامتها وطلبها، وإن كان الناموس شيء آخر في هذا المعنى أدق وأعمق مما ذكرناه، في أشياء كثيرة من عمق الناموس في هذا ودقته، فليس لي أن أعلم ذلك، بل الروح الذي يفحص عن كل شيء ويعلمه، فأما الذي أدركته أنا، وعلى ما يعنى لمعرفتي، فأنه يروضنا ويقودنا من التحنن على الصغار الحقيرة، إلى التحنن في الكبار الجليلة، فكم مقدار ما يلزمك لذوي جنسك ومشاركيك في الكرامة تجد، أما قد طولبت به

في أمر البهائم الدنيئة فهذا رأى الكتاب والناموس، والمعتدلين من الناس الذين عندهم الإحسان إلى غيرهم، أجلّ من أن يحسن غيرهم إليهم، وعندهم أن الرحمة أهم من التكسب .

فما قولك في الحكماء الذين عندنا، وأنا أترك ذكر البرانيين الذين يطلبون لآلامهم وداء نفوسهم آلهة يوافقونهم على ذلك، ويعطون الأول والجليل من الكرامة للمكسب، وهو عندهم لقب من ألقاب عطارد، وهاهنا ما هو شر من ذلك وهو رأيهم، في قتل الناس، وذبيحتهم لبعض الشياطين، وفى بغض الناس، وعندهم أن الجفاء على البشرية جزء من حسن العبادة، فيفرحون بهذه الذبائح، ويعتقدون أن آلهتهم يسرون بها، أيضاً فهم كهنة أشرار وتلاميذ لآلهة أشرار .

بكاءً مع الباكين

ولكن ههنا قوم أيضاً من أصحابنا ينبغي أن يبكى من أجلهم، وهم الذين قد بعدوا عن التألم لأهل البلوى، ومعاونتهم حتى إنهم يعيرونهم شديداً، ويدخلون مع ذلك اللوم عليهم، ويتفلسفون فلسفة فارغة باطلة، ويصرخون بالحقيقة من قعر (عمق) الأرض، ويتكلمون في الهواء، ولكن ليس في أذان ذوي فهم، ولا في مسامع الثقة الآراء الإلهية، ويجسرون أن يقولوا، من الله الشقاء لأولئك، من الله النعماء لنا، ومن أنا حتى انقض رأى الله وأكون أصلح من الله، فليعسفوا فليشقوا فليمتحنوا كذلك حكم عليهم وهكذا روى فيهم، فها هنا هم لله محبون إذ يخزنون الفلوس ويفتكون في ذوي الشقوة لا غير .

فأما أنهم ليسوا يعتقدون أن النعمة لهم من الله فيدلون على ذلك مما يقولونه، لأن من هذا يرى هذا الرأي في المتوسلين وهو يعتقد أن الله وهب له ما اقتناه إذ كان الرأي واحد في أن يكون الشيء للإنسان من الله وفى أن يدبره بما أمر به في سائر أحواله .

الآلام قد تكون للامتحان وليس للعقوبة

وأما إن كان البؤس لأولئك من الله فليس ذلك بينا، مادامت الهيوليّ تأتي من ذاتها بالاضطراب كما يأتي فيما يجري ويسيل، ومن ذا الذي يعلم إن كان الواحد يعاقب لشر فيه، والآخر يرتفع لمحامده، وليس الأمر بضد ذلك أن يكون الواحد لشرِّهِ يرتفع، والآخر لفضيلته يمتحن، أما الواحد فيترك ليزداد علوا حتى يسقط شر سقطة، ويمهل أولاً حتى يخرج جميع شره، كما لابد للمرض أن يتكامل وينتهي حتى تكون العقوبة عليه واجبة، والآخر فيبتلي بخلاف ظنه حتى يجربَ مثل الذهب في الكور، وما كان فيه من شر أو وسخ يذوب ويفنى، إذا كان ليس أحد بالكلية نقياً من وسخ ممن كان في طبيعة الكون كما قد سمعنا، ويجري ذلك حتى يظهر أفضل وأنفس .

ولقد أجد مثل هذا السر في الكتاب الإلهيّ، ويطول على أن أعدِّد أصوات الروح التي تقودني إلى ما هذا معناه، ولكن من الذي يعد رمل البحر وقطر السحاب، ويمسح طول الأعماق وبسط البقاع، ومن الذي يقف على سر حكمة الله وعمقها ودقتها في سائر الأشياء التي منها وبها صنع الكل، وعلى قوانينها يدبره كما يرى هو وعلى الطريقة التي يعرفها وحده، وحسبنا على رأى الرسول بولس أن نتعجب من دقة النظر في ذلك وصعوبة الوصول إليه، ثم نتجاوزه ونقول "يَا لَعُمْقِ غِنَى اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ! مَا أَبْعَدَ أَحْكَامَهُ عَنِ الْفَحْصِ وَطُرُقَهُ عَنِ الاسْتِقْصَاءِ! «لأَنْ مَنْ عَرَفَ فِكْرَ الرَّبِّ أَوْ مَنْ صَارَ لَهُ مُشِيراً؟ (رو ١١ : ٣٣ و٣٤) على ما قاله أيوب من الحكيم الذي يعرف هذه الأشياء فلا يقدر أن يتجاوزه المقدار مما لا يوصل إليه غيرى فليكن فيما هذه صورته جسوراً فاتكاً، بل لا يكونن أحد كذلك .

فأما أنا فاتثاقل عن التسليم في باب العقوبة أنها ههنا من أجل الشر وأن النعمة من أجل الفضيلة وحسن العبادة، بل قد يكون في بعض الأوقات سوء حال الأشرار مما لا ينتفع به في شر تنقطع عاديته من جهتهم، وربما كانت حسن الحال للأخيار باقية زائدة بفضيلة تتطرق وتزيد من هذه الجهة، ولكن ليس ذلك دائماً ولا على سائر الأحوال باقياً، بل هذا

قد يكون للزمان الآتي والآجلة المنتظرة التي فيها يأخذ أهل الفضل جوائزهم وأهل الشر عقابهم .

إذ كان قد قيل أن هؤلاء يقومون لبعث الحياة، وهؤلاء لنشور الدينونة، فأما ههنا أعني هذه الدنيا فهو لرسم آخر وطريقة مستورة، كلها تؤدي إلى تلك من معنى أن المظنون ههنا فله نظام له عند الله استواء، أو نظام كما يكون في الجسم مواضع خارجة ومواضع داخلة، وعظماء وأدنياء، وزيادة في الأرض ونقصان، فإذا اتفق بعضه مع بعض تفقد بدقيق العلم وخدمتنا شيئاً يؤدي إلى جمال واتفاق، وكذلك ما هى الهيولىّ عند الصانع من قلة الانتظام وعدم الترتيب فيه يبين الحذق ويصير منتظماً إذا تهيأ لإصلاح عمل ما منها .

فأما نحن فيتبين لنا ذلك ونقر به إذا رأينا جمال صنعته قد كمل فيما يعمله، ولكن ليس الباري جل وعلا عديماً للحذق في صنعته مثلنا، ولا سياسة بغير ترتيب، وإن كان العلم بها عندنا غير معروف، بل إن أردنا أن نأخذ بحالنا مثالاً فلسنا بعيدين عن حال سيارة البحر الذين يمتدون ويلحقهم الدوار فيتوهمون أن الأشياء كلها تتحرك وتدور بدورانهم، فكذلك هؤلاء الذين فيهم كلامنا، لأنهم لا يصبرون على أن يكون الله جل وعز أحكم منهم في شيء من العوارض، التي تخفى عنهم .

ولكن سبيلنا أما أن نتعب ونجني فلعل الحق ينكشف لنا بالمواظبة على البحث أو نفاوض في ذلك لمن هو أحكم منا وأشد روحانية، لأن الموهبة ليست واحدة، والعلم ليس هو لكل الناس، أو نطلب أن نصيد ذلك ونتعلق به من طهارة السيرة وجودة الطريقة، ونطلب الحكمة من عند الحكمة الصادقة، إلا أن هؤلاء وتباً لجهلهم وقلة أدبهم، إنما يطلبون الأسهل، ويقصدون الأقرب، فيضيفون جهلهم وقلة علمهم إلى الاعتقاد في سياسة الكل أنها على غير نظام، فهم ليس حكماء من عدم الأدب، ومن أجل الحكمة التي هى زائدة على ما ينبغي، عديمو الحكمة وبعيدون من الفهم، فمن ههنا اعتقد قوم البحت وأن هذه الأشياء كائنة من ذاتها، ولعمري أن هذا رأياً بالحقيقة كائن من ذاته مختلف من حيث اتفق .

البعض نسب التجارب للكواكب والنجوم

ومنهم من ضم إلى تدبيرنا قوة ما للكواكب بلا قياس ولا انحلال تدبر أمرنا وتربطه كما ترى، بل ربطها ذلك على رأيهم ضروريّ، فقد أضافوا إليه اجتماعاً لنجوم متحيزة وغير متحيزة، وانفصالاً لبعضها من بعض، ودوراً كلياً للكل وأدوار جزئية .

وقوم آخرون داخلوا على جنس الناس للبائس الشقيّ كما تخيله وظنه كل واحد منهم، وما لم يصلوا إليه من معرفة سياسة الكل، ولم يقفوا على علمه، قسموه إلى آراء مختلفة، وأسماء غير متفقة .

ومنهم من قد دخلوا على السياسة فقراً ونقضوها، إذ اعتقدوا أنها تدبر ما فوقنا وليست تنحدر إلى النظر في بابنا عندهم ونحن المحتاجون إلى نظرها، فكأنهم جزعوا على المحسن الجواد في إحسانه إلى الكل، أو يكون الله عندهم يغنى من الإحسان إلى الكثيرين، إلاّ أن هؤلاء فليطرحوا كما قلت، لأن الكتاب قد تقدم فعاندهم وقال "وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاءَ وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللَّهِ الَّذِي لا يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإنسان الَّذِي يَفْنَى وَالطُّيُورِ وَالدَّوَابِّ وَالزَّحَّافَاتِ" (رو ١ : ٢٢و٢٣) ونسبوا تدبير الكل لخرافات وألغاز اختلقوها .

فأما نحن فلا نبتدع هذه البدع إن كان يهمنا أمر الكلمة، لأننا أصل نطق، وخدم للكلمة الناطقة، ولا نقبل من يبتدع ذلك ولا نغبطه، وإن انطلق لسانه فيما لا ينبغي من الكلام، وأطرب السامع بما يجدده في الآراء المبتدعة، بل نثق ونؤمن بالله ونعتقد أنه صانع الكل وباريه، وإلاّ فكيف كان يتم وليس له مجوهر ولا ناظم، ثم نعتقد أن هناك سياسة وتدبير يجمع الكل ويربطه لأنه لا يلزم، ويجب أن يكون صانع الأشياء هو مدبرها، وإلاّ فلو جرى الأمر في السياسة على حسب الاتفاق، لقد كان الكل أشبه الأشياء بسفينة لا مدبر لها، تأخذها الرياح إلى حيث اتجهت، فتعطب وتنكسر وتنهدم لما فيها من قلة نظام الهيولي، وكانت تعود إلى الاختلاط القديم وعدم الرتبة والجمال .

ونعتقد مع ذلك ونقبل أن صانعنا أو جابلنا كيف ما شئت أن تسميه هو الذي يطالع أمورنا ويدبرها، وإن كان عيشنا يجري على ضد ما

نريد، فلعلنا إنما جهلنا ذلك، حتى نزيد إعجاباً بالكلمة المدبر لذلك، الذي هو فوق كل شيء، ويكون التعجب بقدر بعد إدراكنا من العلم بذلك، لأن كلما يوصل إليه بسهولة منتهى للأهوان به، وما هو فوق علمنا فإعجابنا به بمقدار بعدنا من الوصول إلى إدراكه، وكلما فات الشهوة فإنما يروض الشوق .

ومن أجل ذلك فما سبيلنا أن نعجب بالصحة الدائمة، ولا نحتقر المرض بالكلية، ولا نعول على الغنى الفاني، ونربط به قلوبنا ونتمسك بزواله أكثر مما ينبغي، حتى إننا ننفق على ذلك شيئاً من جوهر نفسنا، ولا نحتقر الفقر ونعاديه كأنه شيء مرذول من سائر الوجوه، وقد وجب عليه الحكم وصار من القسم المبغوض، بل نتعلم أن التهاون بالصحة من عدم الفهم، وأن ثمرة التهاون الخطية، ونكرم المرضى أكثر، ونخجل من الذين غُلبوا بالآلام، فعسى يكون أيوب في المرض مستوراً وهو أكرم من المُعَافَيْنَ كثيراً، وإن كان يجري من قروحه المدة وإن كان طريحاً تحت السماء ليلاً ونهاراً، وإن كانت المحنة والمرأة والأصدقاء قد ضيقوا عليه .

ونطرح أيضاً الغنى الذي هو من الظلم، الذي بسببه لم يزل الغنيّ يتلظى في اللهيب ويطلب قطرة يسيرة تبرد لسانه، ونمدح الفقير الشكور والفيلسوف لعازر المسكين الذي بسبب صبره وشكره استغنى باستقراره في حضن إبراهيم .

وأما أنا فلهذه الحال أري أن التحنن على هؤلاء واجب، والرحمة للمتوسلين ضرورة لازمة، حتى يخصم ويسكت الذين رأيهم هكذا، أو لا نطلق لهم تكلماً بالقول الباطل، فنفترض على نفوسنا الجفا .

وقبل كل شيء فلنستح من الوصية ومن المثال، فما هى الوصية؟ فانظروا إلى المداومة عليها والملازمة لها، لأن الذين تكلموا فيها من أهل الروح لم يذكروا المحتاجين دفعة وثانية ثم انفصلوا، ولا ذكر قوم منهم ذلك وقوم لم يذكروه، ولا ذكر قوم أكثر وغيرهم أقل كما يفعل في أمر غير عظيم، وليس هو من المهمات جداً، بل ذكروا ذلك كلهم وكل واحد منهم بحرص شديد، وأمروا به أولاً وفى الأوائل وتقدموا به في بعض الأوقات وتهددوا عليه في غيرها، وغيروا من جهته فيما سواها، وفى أوقات أخرى حمدوا أهل الاستقامة حتى تكون المداومة على الذكرى بهذا

الباب طريقاً إلى إكمال الوصية، فقال بعضهم من أجل شقاء المساكين وتنهد الفقراء قال الرب سأقوم (مز ١٢ : ٥) .

فمن ذا الذي لا يجزع من الرب إذا قام، " قُمْ يَا رَبُّ. يَا اَللَّهُ ارْفَعْ يَدَكَ. لَا تَنْسَ الْمَسَاكِينَ " (مز١٠ : ١٢)، فسبيلنا أن نستفيد من مثل هذا الارتفاع أعني ارتفاع يد الرب، حتى لا نراها مستعلية على مخالفيه، ولا ممدودة على الجفاه .

وقال أيضاً :" لَمْ يَنْسَ صُرَاخَ الْمَسَاكِينِ "(مز ٩ : ١٢) ولا تنسى الضعيف إلى الغاية، "لِأَنَّهُ لَا يُنْسَى الْمِسْكِينُ إِلَى الْأَبَدِ. رَجَاءُ الْبَائِسِينَ لَا يَخِيبُ إِلَى الدَّهْرِ " (مز ٩ : ١٨) وعيناه إلى البائس تنظران، وهما أفضل الأجفان وأخص فأما أجفانه فهي تفحص عن بني البشر، كأنه ما يقول الإشراق الثاني الذي على الإنسان .

فإن قال قائل أن هذا عن المظلومين من الفقراء والمساكين لم أخالفه في ذلك، لكن هذا الرأي والتفسير فليوصلك أنت بالتحنن والرأفة، لأن من كان الاهتمام به هكذا إذا كان مظلوماً، كان الإحسان على الإحسان إليه أكثر، والاحماد للجميل معه أقوى، لأنه إذا كان الْمُسْتَهْزِئُ بِالْفَقِيرِ يُعَيِّرُ خَالِقَهُ (أم ١٧ : ٥) فإنه ليكرم الصانع من راعى حال الصنعة .

وأيضاً فإذا سمعت الكتاب يقول: " اَلْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ يَتَلَاقَيَانِ. صَانِعُهُمَا كِلَيْهِمَا الرَّبُّ " (أم ٢٢ : ٢)، فلا تتوهم أنت أنه صنع أحدهما فقيراً والآخر غنياً، وأن هذا قصد الكتاب، فتزيد في التهجم والاستيلاء على الفقير لأنه غير بين إن كان هذا الفضل بينهما من الله، فالذي توخاه الكتاب أن كليهما خلقه الله بالسواء في صنعته، وإن كان ما خارجهما غير متساوٍ هذا فليقنعك ويقودك إلى التحنن ومحبه أخيك، حتى إذا ارتفعت من جهة أولئك انقبضت من جهة هذا، وصرت دون ذاتك ذاتها فما بعد ذلك، مَنْ يَرْحَمُ الْفَقِيرَ يُقْرِضُ الرَّبَّ وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ على ما قال الكتاب (أم ١٩ : ١٧) من ذا الذي لا يرى أن يكون الله له غريماً يعطيه ماله وربحه في وقته، وبالرحمة والأمانة تتطهر الخطايا، فلنتطهر إذا رحمنا ولنغسل بالنبات الحسن والعقار القوى أوساخ النفوس ودرنها، فيبيض فريق منا كالصوف، وغيرهم كالثلج، على مقدار ما يستعمله كل واحد من الرحمة والتحنن .

وأقول شيئاً آخر أجلّ وأهيب مما ذكرته، إن كان فيك تهشم أو أثر أو ضربة منتفخة أو برص في نفسك الباطنة، أو لمس علامة لامعة مما قد طهره الناموس تطهيراً حقيراً، وهو فيما بعد محتاج إلى المسيح يلمسه ويشفيه، فاستح أنت من الذي تألم وجرح وامتهن من أجلنا، وستستحي منه وتكرمه إذا صرت لعضو المسيح صالحاً ومتحنناً .

وإن كان لص نفوسنا الغشوم الظلوم لنا قد جرحك ووصل منك إلى هذا المقدار، إما في انحدارك من أورشليم إلى أريحا، وأما في موضع آخر أدركك فيه عارياً من السلاح ومن الاستعداد له بعيدا، حتى قد لا ق بك أن تقول ذلك القول : وهو أن جراحاتي قد نتنت وعتقت من قبل جهلي .

فإن كانت حالك قد بلغت إلى أن لا تطلب الشفاء ولا تعرف الطريق إلى البر، فيالها من ضربة ما أشدها، واهٍ من هذه الشقوة البالغة إلى أقصى القرار .

وإن كنت لم تيئس من نفسك، ولا هى صورتك صورة من لا بر له ولا شفاء، فتقدم إلى الشافي (أي للرب) واسأله واشفِ جراحاتك بالجراحات، أي أصلح حالك بالنظر في إصلاح الحال في جراحات أخيك، اقتن بالشبه شبهه وبالمثل مثله، بل بصغار الأشياء أصلح أنت حالك واشفها من كبائرها، فإنه سيقول لنفسك أنا هو خلاصك (مز٣٥ : ٣)، وأمانتك خلصتك(لو١٧ : ١٩)، وها أنت قد شفيت (يو٥ : ١٤)، ويضيف إلي ذلك غيره من كلام الرحمة والتحنن على البشر كل ذلك إن رآك قد بذلت الرحمة للمتألمين فقط، فقد قال الرب للرحومين بأنهم سيُرحَمون، والرحمة فهي كثيرة عندي في تعديد الطوبى، وأيضاً طُوبَى لِلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمِسْكِينِ. فِي يَوْمِ الشَّرِّ يُنَجِّيهِ الرَّبُّ (مز٤١ : ١)، وأيضاً "سَعِيدٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَرَأَّفُ وَيُقْرِضُ. يُدَبِّرُ أُمُورَهُ بِالْحَقِّ" (مز١١٢ : ٥)، وأيضاً أن الصديق الْيَوْمَ كُلَّهُ يَتَرَأَّفُ وَيُقْرِضُ وَنَسْلُهُ لِلْبَرَكَةِ (مز ٣٧ : ٢٦) .

فهلموا بخطف الطوبى، وقد فهمنا بهلموا فلندعى ونكون صالحين، لا يحولن بينك وبين الرحمة ليل ولا غيره، " لَا تَقُلْ لِصَاحِبِكَ: «اذْهَبْ وَعُدْ فَأُعْطِيَكَ غَداً» وَمَوْجُودٌ عِنْدَكَ " (أم ٣ : ٢٨)، لئلا تحصل واسطة فتقطع فيما بين نهضتك واحسانك، فهذا وحده من الأشياء لا يحتمل تأخيراً، وهو الإسعاف ومحبة البشر وبذل المعروف، فتت خبزك للجائع وادخل إلى بيتك من لا مأوى له ولا سترة(إش ٥٨ : ٧)، وكل ذلك فليكن

بنية صادقة، فقد قال من يرحم أن يكون ببشاشة وطلاقة وجه (رو ١٢ : ٨)، والخير يتضاعف عند الانبساط فيه والاستعداد له، ولا يقع فيه تعويق، لأنه ما كان بحزن ومن ضرورة، فلا منة ظاهرة ولا جماله كامل، والإحسان والمعروف فسبيله أن يعيد له لا أن يتاح بين يديه، وقد قال إن أنت صرفت عنك الرباط وقبض اليد، وأظنه عنى بذلك الشح وضيق العطاء والتمنن والتشكك وكلام التذمر، فما الذي سيكون منك أنه لعظيم أنه لعجيب، وما مقدار الثواب عليه حِينَئِذٍ يَنْفَجِرُ مِثْلَ الصُّبْحِ نُورُكَ وَتَنْبُتُ صِحَّتُكَ سَرِيعاً وَيَسِيرُ بِرُّكَ أَمَامَكَ وَمَجْدُ الرَّبِّ يَجْمَعُ سَاقَتَكَ. حِينَئِذٍ تَدْعُو فَيُجِيبُ الرَّبُّ. تَسْتَغِيثُ فَيَقُولُ: «هَئَنَذَا»... يُشْرِقُ فِي الظُّلْمَةِ نُورُكَ وَيَكُونُ ظَلاَمُكَ الدَّامِسُ مِثْلَ الظُّهْرِ وَيَقُودُكَ الرَّبُّ عَلَى الدَّوَامِ وَيُشْبِعُ فِي الْجَدُوبِ نَفْسَكَ وَيُنَشِّطُ عِظَامَكَ فَتَصِيرُ كَجَنَّةٍ رَيَّا وَكَنَبْعِ مِيَاهٍ لاَ تَنْقَطِعُ مِيَاهُهُ"(إش ٥٨: ٨ـ ١١).

فمن الذي لا يشتاق إلى الضوء ومن الذي لا يصبو إلى الصحة والشفاء، وإني مع ذلك بخجل ومستحي من درج المسيح الذي يدعونا إلى إطعام المساكين، ومع هذا فأستحي من اتفاق بطرس وبولس لأنهما تقاسما البشارة وجعلا المساكين شركاء، وأستحي أيضاً من تمام الشاب الذي جعل محدوداً في عطائه للفقراء، وفرض عليه البذل للمساكين .

فإن كنت تتوهم أن محبة البشر ليست عليك ضرورة لازمه، وأنها إليك تختارها على حسب إيثارك، وإنما قيل فيها ليس هو فرضاً بل وعظاً، فإني قد كنت وأنا لهذا مؤثراً وإياه مقدراً، لولا فزعي من اليد اليسرى، ومن الجداء، وما يعبر بها من أقامها هناك، لأنه لم يلم على أن الواقفين هناك أنهم غصبوا أو لأنهم سرقوا أو لأنهم فجروا، ولا لأنهم صنعوا غير ذلك من المحظورات، فحكم عليهم لأجل ذلك بهذه الرتبه وهذا المكان، بل لأنهم لم يداوا المسيح ولا شفوه ببذل المعروف للمحتاجين(مت ٢٥ : ٤٣) .

فإن أطعتموني وقبلتم مني يا معشر عبيد المسيح وإخوته ومشاركيه في الوراثة، فما دام لنا وقت فلنفتقد المسيح، ونكرم المسيح لا بالمائدة وحدها مثل قوم، ولا بالطيب مثل مريم، ولا بالقبر وحده مثل يوسف الرامي، ولا بحوائج الدفن مثل نيقوديموس الذي هو محب للمسيح بصنف المحبة، ولا بذهب ولبان ومر مثل المجوس قبل هؤلاء، بل لأن سيد الكل يحب الرحمة أكثر من الذبيحة، فلنقدمها له من جهة السؤال،

والمطروحين اليوم على الأرض، حتى إذا انصرفنا ورحلنا عما ههنا، قبلونا في المساكن الدهرية بالمسيح ربنا الذي له المجد إلى أبد الأدهار آمين.

الذي ترك العالم وملزاته سهل عليه الموت بل يصير الموت فرح وشهوة له

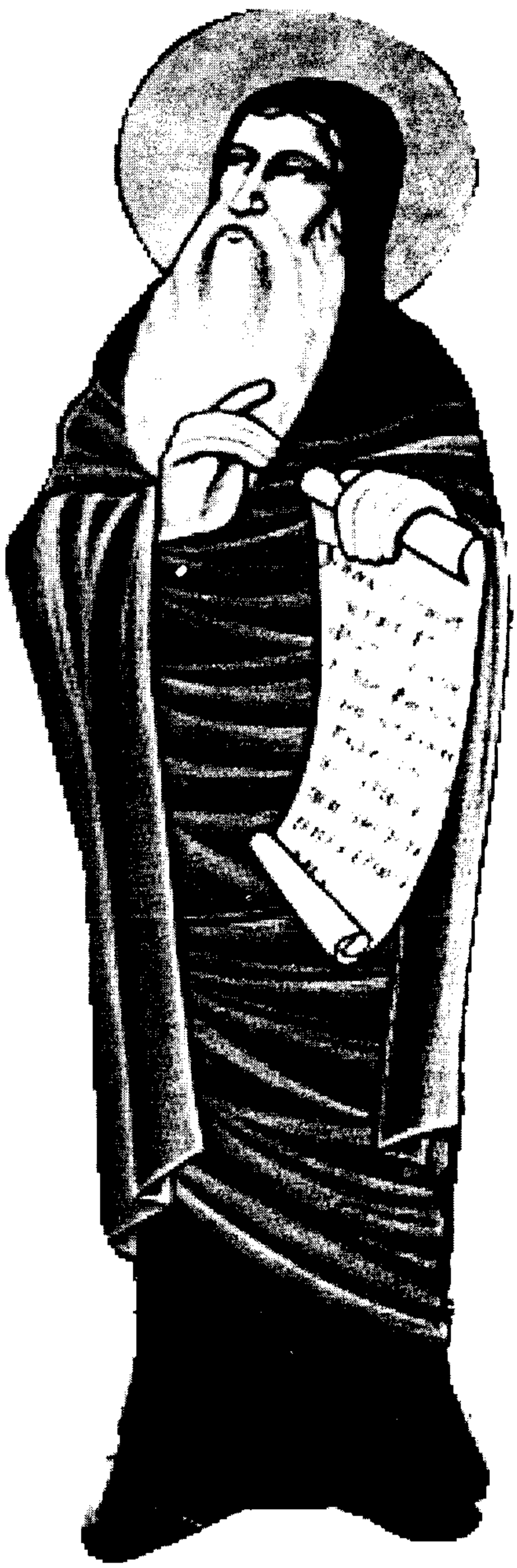

الميمر السادس

في إغريغوريوس أسقف نيصص
صديقه لما جاء بعد سيامته

الميمر السادس
في إغريغوريوس أسقف نيصص صديقه
لما جاء بعد سيامته

إن الصديق الأمين لا يعتاض عنه بشيء من الموجودات، ولا وزن يوزن به جمال الصديق الأمين .

كنف عزيز وملك حصين الصديق الأمين .

كنز ونفس الصديق يزيد على التبر والجوهر الثمين بكثير .

الصديق الأمين جنه مقفلة وعين مختومة ينفتحان في وقتهما وينيلان .

الصديق الأمين ميناء راحه ونياح، فإن كان مع ذلك يزيد فياله من مقدار، وإن كان قدوة في الأدب أعني الأدب الذي يخصنا فيما سلف لنا فما أشد بهاه، وإن كان ابن نور وإنساناً لله، أو قريباً من الله، أو رجل للمآثر العليا، أو غير ذلك مما هو أهل أن يسمى به من هذه المعالم، من شأن الكتاب أن يكرم بها من كان إلهيا وعالياً وهو من الحزب الأعلى، فلذلك إذاً هبة من الله وفوق ما نستحقه نحن ببيان، وإن كان قد تقدم من قبل صديق، وكان ذلك الصديق مساوياً في الكرامة وفى صداقتنا، فأن ذلك لأبهى وأقوى في النعمة والمنة، وأطيب نسيماً من الطيب، الذي يزين من الكاهن لحيته وجيب ثوبه، فهل في هذا كفاف، وقد صور لكم الرجل قولي تصويراً مقتصداً، أو سبيلنا أن نعمل ما يعمله المحررون المزوقون في طرحهم الألوان دفعة بعد دفعة ليتبين لكم بالقول الصورة كاملة، إلا أننا على كل حال سنزيد في تصويره زيادة بينه في الكمال والإيضاح .

من كان الأشرف من واضع الناموس موسى، من كان أقدس من رئيس الكهنة هرون، هذا إن كانا أخوين في حسن العبادة، ليس بدون

إخوتهما في معنى الجسد، بل أحدهما كان لفرعون إلهاً، وفي آل إسرائيل متقدماً، وللناموس واضعاً، وداخل الغمام متوغلاً، وإلى الأسرار الإلهية باصراً، وبها منذراً، وللخباء الصادق صانعاً، وذلك الخباء الذي نصبه الرب ولم ينصبه بشر، إلاّ أنهما كانا بالسوية كاهنين، من ذلك ما قيل فيهما من قول القائل: "مُوسَى وَهَارُونُ بَيْنَ كَهَنَتِهِ " (مز ٩٩ : ٦)، وكان أحدهما رئيس الرؤساء وكاهن الكهنة يستعمل هرون كما يستعمل اللسان، وكان هو يتولي لصاحبه الأمور عند الله، وأما الآخر فكان بعد هذا شريكاً، إلاّ أنه كان يتقدم الباقين في الرتبة والقرب من الله، وكانا كلاهما لمصر معذبين، وللأعداء مغرقين، وللخبز من فوق مستحضرين، وفى ماء في قفر آتيين، ما كان يصدق بهما اتيين في أنه ما اتبعاه، ومنه ما خلياه، وكانا كلاهما لعماليق ببسط يدين معذبين، ورسم سر جليل محاربين، وكانا كلاهما إلى أرض الميعاد قائدين ومسرعين، أفيكون شيئاً أبين من هذه الصورة، أما تعلمون أن القول المزوق قد صور لكم سمتي، وقسم روحي ببيان، هذان أحدهما مسحنا وقدمنا إلى الوسط بعدما كنا متوارين، ولست أدري ما لحقه في ذلك، ولا كيف تحرك إلى هذا الباب، فأجري إلى ما خالف الروح التي كانت ساكنه فيه، وإن كان هذا من قول خشناً إلاّ أنه قد يقال ومع ذلك فلم تزل الصداقة تحتمل كل شيء في ألم ينالها أو سماع يسمعه .

وأما الآخر من الاثنين فقد أتى مسلياً ومصلحاً ومنطلقاً في معنى الروح، وأن ذلك عندي لعظيم، وإن كان في هذا الوقت وكيف لا يكون عظيماً، وأنا الذي قدمتكم على كل شيء من أحوال عمري، إلاّ أن اللوم من طريق أنه جاء بعد الحاجة، فكيف تكون النجدة بعد الهزيمة أو الاعازة يا أفضل الأصدقاء والمنجدين، ثم يأتي بعد الهيج المدبر وبعد انختام القرحة الدواء، فعلى أي الصورتين قدمت كأنك قد استحيت كما يستحي الأخ من أخيه، وخجلت من التعدي، وقدمت وأنت كالمقتدر معظماً قدر المخالفة أيما من الأخين تلوم، وأيهما تطلقه من اللوم، فأني سأصوت إليك بشيء من كلام أيوب نظير ما تألمت أنا أيضاً في حال صديق، وإن كان ليس هكذا ولا على مثل ذلك من الآلام، فإلى أيهما تميل ومن منهما أنت عتيد أن تعين، أليس لمن له القوة الجزيلة ومن له الحكمة الغزيرة والعلم، لأنني هكذا أراه يلحق كثيرين من القضاة في هذا الوقت، الذين يسهل عليهم

الصفح للأشراف على العظائم، أكثر ما يسهل عليهم تسامح المنخفضين بالصغائر، هذا وأنت هو الذي تعمله .

وأما أنا فلن يجوز لي أن أحكم عليك بشيء مما ليس بجيد، إذ كنت أعتقد أنك حذو قانون لكل شيء جيد، ومع ذلك فقد تعلمت من الكتاب ألاّ أكون عجولاً في قضية، فعليَّ أنا القيام بالحجة وأنا لها مستعد لك ولكل من يريد، أقوم بذلك من أجل الصداقة عن خلافي أن سماه كذلك مسمٍ، وعن سياستي التي أقنع نفسي أنها كذلك من طريق الاحتراس، لكي تعلم أنك قد استعملت صديقاً لا يكون في شيء محيداً عن الصواب، ولا عديماً للعلم، بل يمكنه أن يرى شيئاً أفضل مما عند كثيرين، ويجسر فيما هو أهل أن يجسر عليه، ويخشى حيث الخوف، وفيما الحذر فيه أجل عند ذوي العقول .

فماذا ترى وما الأفضل عندك، أترى ندخل لكم تحت الثقيف، وهذا هو الذي يأمرون به، ولا يفرزون الوقت الذي هو موسم وعيد وليس هو مجلس حكم، أو ترون أن نخزن هذا إلى وقت آخر، ومجمع غير هذا، لأن الكلام فيما هذا معناه أطول مما يحتمله هذا الوقت، فنحن إذ سنخاطبكم بما يستحقه العيد حتى لا نطلق سراحكم وأنتم صائمون، ومع ذلك فنحن أصحاب المائدة .

هلموا يا إخوة نطهر نفوسنا للشهداء، بل لمن يطهر له أولئك بدماهم وصدقهم، هلموا ننعتق من دنس الجسم والروح، ننغسل نصير أطهاراً، نقدم أجسامنا وأروحنا ضحية حية مقدسة مرضية لله وهى مخاطبتنا الطاهرة، إذ كان ليس عند الطاهر شيئاً كريماً هكذا من أجل الطهارة والتطهير، هلموا نجاهد من أجل المجاهدين، ونغلب من أجل الغالبين، نشهد للحق من أجل الشهداء، وليكن امتناننا على جهادهم، بل نصير نحن متوجين، وفى ذلك المجد بالميراث مشاركين، أعني المجد الذي هو منا والذي هو مخزون في السموات، الذي هذه المنظورات كلها إنما هى أشباح له وتذاكير .

فلنجاهد في قتال ذوي الرئاسات والسلاطين المضطهدين غير الظاهرين، والغشومين الذين لهم السلطان على الظلمة في هذا العالم، نجاهد بإزاء الأصناف الروحانية من الخبث في الهوى، وحول السماء نجاهد في القتال الذي هو في ذواتنا ودواخلنا في المقاومات التي تجينا في كل يوم، من خارج نصبر على الغضب كما نصبر على الوحش، وعلى اللسان مثل

السيف القاطع، واللذة نطفئها كما نطفيء النار، نضع على مسامعنا أبواباً في فتحها وغلقها، ونجعل الألحاظ عفيفة، نؤدب اللمس إذا ما كلب، والذوق إذا قلق، لئلا يدخل الموت من طاقاتنا، وبهذا الاسم أرَى أن تُدْعَى حواسنا ونضحك على الضحك إذا أسرف، ولا نَحْنِ ركبة لبعل من أجل الحاجة، ولا نسجد للصورة الذهب من أجل الخوف، شيئاً واحداً سبيلنا أن نخافه، وهو أن لا نخاف شيئاً أكثر من الله، فنشتم الصورة بالسر .

وفى سائر الأشياء فلنتخذ منه الأمانة، ونهرب من سائر سهام الشرير، فهذا هو القتال الشديد، والمواجهة العظيمة، والظفر الكبير، فإن كنا هكذا اجتمعنا، وفى هذا عدونا، فأن موسمنا بالحقيقة على ما يؤثره المسيح، وقد كرمنا الشهداء وسنكرمهم أيضاً، وقد طربنا بالحقيقة على الغلبة، وإن كنا نمتن ونتنعم على ملذات الخوف، ونتمتع بما لا يدوم، ونداخل ما يفرغ، وإن كان عندنا أن هذه المواضع إنما هى مواضع السكر والخمار، وليست مواضع العفة، وكان عندنا أن هذه أوقات رحل وتجارات، وليست أوقات استعلاء وتأله، بحسب ما أجسر وأقول، وهو التأله الذي فيه تتوسط لنا الشهداء، فأني أولاً لا أعرف الوقت لأنه أي شيء من القرب فيما بين التبن والبر وفيما بين تفتيت الجسم في التحير وبين صراع الشهداء من المقاربة، فتلك الأشياء لمناظر اللعب وهذه لجموعي أنا، تلك للفساق وهذه للأعفاء، تلك لمحبي الأجسام وهذه لمن انحل من الجسم، وبعد هذا فأنني أريد أن أقول شيئاً أتجرى عليه أكثر من هذا، إلاّ أنني أشفق وأتصون من التجديف، استحياء من اليوم .

وعلى كل حال فليس هذا هو الذي يطلبونه منا الشهداء، فلعمري أن هذا أقصد في القول وألطف، ما سبيلنا يا إخوة أن نتمم الأشياء المقدسة بلا طهارة، ولا نقدم إلى العالي ونحن ذليلون، ولا من المكرم ونحن مهانون، وبالجملة فلا نقرب أسباب الروح بمنزلة التراب، فأن اليهوديّ قد يعيد ولكن على معنى الكتاب، وقد يعيد الحنيفيّ ولكن كما يعجب الشياطين.

كيف يجب أن نعيد؟

وأما نحن فبحسب ما أن الأشياء كلها روحانية وهى العمل، الحركة، الرأي، الكلام، حتى المشي واللباس، وحتى الغمزات والطرفات، وبحسب ما يلحق النطق، عندنا كل شيء، فنمهد الإنسان المختص بالله

ونهذبه، فكذلك سبيل تعييدنا أن يكون روحانياً وتجلياً، ولست أقول هذا وأنا مانع بالكلية من الراحة والدعة، بل إنما أعاف الإفراط، فأن نحن اجتمعنا هكذا فعظيم هو إن وصلنا، ونحن إلى تلك الجوائز، وورثنا ذلك المجد، وما لم تبصر عين، ولم تسمع به أذن، ولا يصوره عقل بشريّ، متى اختلق بسلطانه تلك العطية في ذاته، وجملة ذلك فهو الذي نراه معداً للمتطهرين بدمائهم، المتشبهين بضحية المسيح، ولكني أعلم علماً مُبيناً أنا سنبصر بهاء القديسين، وليس ذلك صغيراً من معنى قولي، وندخل إلى فرح الرب بعينه، ونستنير بضوء الثالوث الرئاسيّ المغبوط ، استنارة زائدة في البقاء والبيان، وذلك هو الثالوث الذي به أمنا، وإياه نعبد، ونحن به معترفون قدام الله والناس، ولا نخاف من شيء، ولا نخجل من الأعداء البرانيين، ولا من المسيحيين الذين فينا كاذبين، وفي إظهارهم ليسوا هم من حزب الروح، ويا ليتنا نكون بذلك معترفين إلى آخر نسمة بدالة كثيرة، وأنها الوديعة الحسنة التي أودعنا إياها الآباء القديسون، الذين كانوا من المسيح، وللأمانة الأولى قريبين .

هذا الاعتراف الذي رُبيَّ معنا من الصبا، وهو الذي حفظناه أولاً وهو الذي نتزوده أخيراً، ونكون الذي نحتمله ونحتضنه معنا من ههنا، متى لم يكن غيره حس العبادة، وإله السلامة الذي أصلح حالنا لذاته بالصليب، لما كنا قد جعلناه بالخطية حرباً، الذي بشرنا بالسلامة للداني والقاصي، ومن كان تحت ناموس وخارج الناموس أبو المحبة، المحبة نفسها الذي بشر بهذا أكثر من كل شيء، إذا سمي به لنجعل علينا ولو بالأسماء ناموساً في مقه(محبة) الإخوة، الذي جعل الوصية الجديدة أن نحب بعضنا بمقدار ما أحبنا، الذي أعطى أن يغضب الواحد غضباً حسناً، ويغضب من أجل المخافة، ونتوقف أيضاً بحجة، ونتوارى ثم نجسر بسبب الكلمة، الذي يصلح الرعايا الكبار، ويعظم الصغار بالنعمة، هو بكثرة صلاحه يعزينا تعزية كثيرة، ويقودنا إلى ما هو قدام، ويكون معنا راعياً وللرعية مخلصاً، ويصلحكم أنتم أيضاً ويجعلكم مستعدين لكل عمل صالح، ويؤهلنا أن نعيد للشهداء تعييداً روحانياً، ويجعلنا مستحقين للنعيم الذي هناك، بحيث مسكن جماعة المسرورين، ويملأنا من مجده إذا ظهرنا بعدل وظهر لنا مجده بربنا يسوع المسيح الذي له المجد والكرامة والسجود إلى الأبد و إلى أبد الأدهار آمين، آمين، آمين .

الميمر السابع

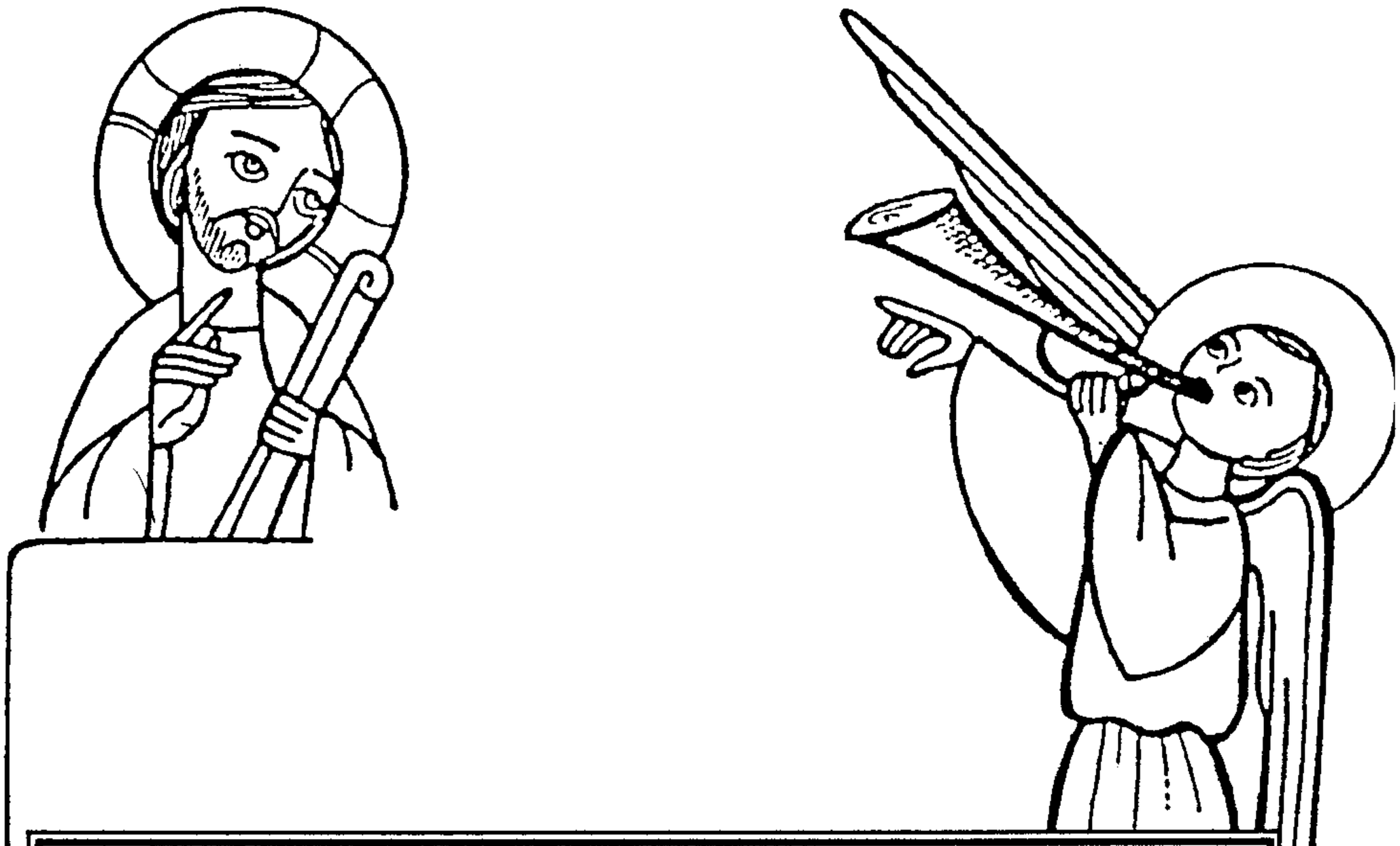

ميمر ذكر فيه تأخره، لما دعاه والده يتسلم كرسيه ورعيته وأجابه إلى لك فى يوم عيد الفصح المقدس

الميمرالسابع
ميمر ذكر فيه تأخره، لما دعاه والده يتسلم كرسيه ورعيته وأجابه إلى ذلك فى يوم عيد الفصح المقدس

إن اليوم النشور(القيامة)، وإن الابتداء ابتداء ميمون، فسبيلنا أن نتباهى بالموسم، وأن نصافح بعضنا بعضا، فنقول يا إخوه والذين هم لنا ما قتون، فضلاً عن أن نقول ذلك لمن فعل شيئاً من أجل المودة، أم عرض له لأجلها عارض، فهلموا نصفح عن كل شيء مع القيامة، ونعطي الغفران بعضنا بعضاً، أنا الأول الذي غضبت غضباً حسناً، ثم أريد فأقول .

وأنتم أيضاً الذين غضبتم نعماً فيما عليه من التأخر، وعسى أن يكون ذلك عند الله أكرم من مسارعة قوم آخرين، فما أجود أن يتأخر الواحد لله قائلاً، كموسى ذلك القديم وبعده إرميا، ثم يقدم إليه مستعداً،إذا ما دعاه مثل هرون وإشعياء بعد أن يكون ذان من أمرين على نسك وحسن عبادة .

✠ وأما أحدهما فلموضع ما يخصنا من الضعف .

✠ وأما الآخر فلموضع قوة الداعي .

فلقد مسحني سر، وسر أحجمت قليلاً، بمقدار ما نظرت في أمر نفسي، وبسر تقدمت أيضاً، من حيث استصحبت هذا اليوم لجبني وضعفي مساعداً، حتى يكون الذي قام اليوم من بين الأموات مجدداً لي بالروح، وملبساً إياي الإنسان الجديد، فيعطيني للمولودين بالله بانياً صالحاً، ومعلماً يموت مع المسيح بنشاط، ثم يقوم.

بالأمس ذبح الحمل ومسحت الأساطين وناحت مصر على أبكارها وتجاوزنا المبيد، فكانت السمة مهيوبة مستحقة للإكرام، فخصنا بالدم الكريم، وأما اليوم فقد فتنا مصر فوتاً ظاهراً، وفتنا فرعون الصاحب المر، والقوم القتال، وانعتقنا من الطين وعمل اللبن، فليس أحد يمكنه أن

يمنعنا أن نعيد للرب إلهنا عيداً لخروجنا، ونعيد بغير خميرة الشر العتيق والخبث، بل بفطيرة الإخلاص والحق (١كو ٥ : ٨)، من حيث لا يكون معنا شيء من العجين المصريّ المبعد من الله .

أني لقد صُلبت بالأمس مع المسيح، فأتمجد معه اليوم .

وقُدمت معه بالأمس، فأحيا اليوم في جملته .

وقد دفنت معه بالأمس، فأنهض اليوم بنهوضه .

ولكن سبيلنا أن نقدم قرباناً للذي تألم من أجلنا ثم قام، ولعلكم تقدرون أني أقول لكم ذهباً أم فضة أم ملبساً أم حجارة من التي تشف وتكرم وجملة ذلك فهو هيوليّ فإني من الأرض وثابتة في الأسفل، وأكثرها عند الأشرار، وعند ما كان في الأسفل مع ضابط العالم، إلا أنني لا أقول ذلك بل سبيلنا أن نقدم نفوسنا بأعيانها التي هى عند الله أكرم القنية وأخصها، ونعطي الصورة ما يخص الصورة، ونعرف رتبتنا، ونكرم الرسم القديم، ونعرف قوة السر، وعن من مات المسيح، فنكون مثل المسيح، لأن المسيح صار مثلنا .

فسبيلنا أن نكون آلهة من أجله، لأنه صار إنساناً من أجلنا، أخذ الأدنى ليعطي الأفضل، وتفاقر لنستغني نحن بفقره، أخذ صورة عبد لنستعيد الحرية، انحدر لنصعد، جرب لنغلب، امتهن لنمجد، مات لنخلص، طلع ليجتذب إلى ذاته من كان في الأسفل موضوعاً في سقطة الخطية .

فليعطي الواحد كل شيء، وليقرب كل شيء، لمن أسلم نفسه فدية عنا، وأن نعطي شيئاً مثل هذا الذي أذكر، وهو أن يعطي نفسه، بعدما عرف موضع السر، وصار من أجل ذلك المنقذ، كما صار ذاك من أجلنا، فقد يقرب لكم الراعي الصالح، راعياً أنتم إليه ناظرون، وهو الذي نؤمله ونرجوه، وندعوا أن نصل إليه، ويطلبه منا ذلك الراعي الذي دفع نفسه من أجل الغنم، وأعطاكم ذاته مضاعفة بدل واحد بسيط، فجعل عكازة الشيخ عكازة الروح، وأضاف إلى الهيكل الذي لا نفس له الهيكل ذا النفس، أضاف إلى الهيكل الحمل السمائيّ، الذي موضعه ما اتفق من حال والمقدار، ولكنه أكرم من كان له، وذلك أنه تممه بالكثير من عرقه ونصبه، فياليته يكون لذلك النصب أهلاً، فإنه قد يضيف إليكم كل ماله، فياله من كرم وكبر نفس، وأن قصدنا الأصدق، قلنا يا لها من محبة الأولاد، إذ أثركم على نفسه بالكهولة، بالحداثة، بالهيكل، برئيس الكهنة، بمعنى الميراث،

بصاحب الميراث، بالأقوال التي كنتم إليها تائقين، فأثركم منها بما ليس هو باطلاً، ولا إلى الهوى سائلاً، ولا عند السماع واقفاً، بل الأقوال التي يكتبها الروح فيرسمها، ليس في صحف حجرية، بل على قلوب لحمية، ولا نقشها على بسيط الظاهرة، ولا بحيث يسهل محوها، بل يجعلها في القعر مرسومة، ليس بالمداد بل بالنعمة، فهذا من فعله بكم .

إبراهيم اللطيف هذا أبو الآباء، الهامة الكريمة، التي هى أهل أن يستحى منها، معدن الخيرات كلها، قانون الفضيلة، تمام الكهنوت، الذي قدم للرب الذبيحة الطوعية في هذا اليوم، وهى وحيده الذي جاءه بالميعاد .

فقدموا أنتم لله ولنا، أن ترتعوا حسنا، في موضع عشب ساكنين، وعند ماء الراحة مفتدين، وللراعي معرفة حسنة عارفين، ومن قبله معروفين، وإياه ما دعانا تابعين، اتباع الرعاية الحرية من حيث الباب، وأما غيره من راع غريب فغير مقتفين، إذا ما تسلق على الصخر تسلق اللصوص والمغتالين، فلا تكونوا لصوت منافر سامعين، إذا مارام أن يسرقكم ويثنيكم عن الحق اليقيني، في جبال وفيافي القفار وهوات، ومواضع لا يشرق عليها الرب، ويعدل بكم عن الأمانة الصحيحة، بالآب والابن والروح القدس، اللاهوت الواحد والقوة الواحدة، وذلك الصوت هو الذي سمعته غنمي دائماً، وليتها تسمعه دائماً أبداً .

وأما الأقول المبهرجة المفسودة، فغير هذا الصوت يسرق بها، ويحيد سامعه عن الراعي الأول الصادق .

وأنا أدعو أن يكون اجتماعنا من الرعاة والرعية مرعوين وراعين، بعيداً من هذه الأقوال، كما نبتعد من النبات الذي يولد المرض والموت، من حيث نكون كلنا واحداً بيسوع المسيح الآن، وفى النياح الذي هناك، وله المجد والكرامة والسجود إلى أبد الأدهار آمين .

الميمر الثامن

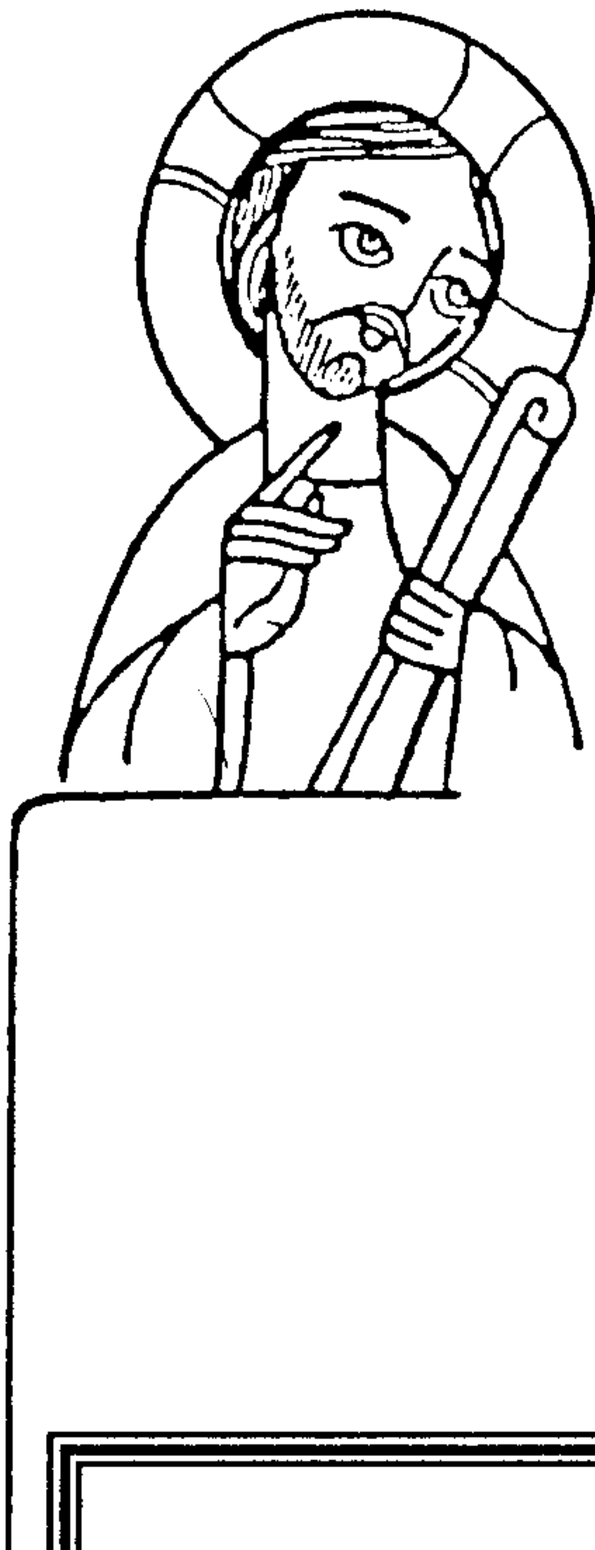

ميمر في الفصح المقدس

ميمر في الفصح المقدس

الميمرالثامن
ميمر في الفصح المقدس

قد قال حبقوق العجيب: "عَلَى مَرْصَدِي أَقِفُ وَعَلَى الْحِصْنِ أَنْتَصِبُ وَأُرَاقِبُ لِأَرَى مَاذَا يَقُولُ لِي وَمَاذَا أُجِيبُ عَنْ شَكْوَايَ " (حب ٢ : ١)، وأنا اليوم وقد خولني الروح السلطان والنظر، فلما وقفت ونظرت، فإذا رجل جالس على السحاب، وهذا الرجل كان طويلاً جداً، ومنظره منظر ملاك، ولباسه مثل ضوء البرق العابر، فرفع يده إلى الشرق وهتف بصوت عظيم، وصوته مثل صوت بوق، وحوله كثرة من الجند السمائيّ، وقال اليوم خلاص العالم، ما كان مرئياً منه وما كان غير مرئي، المسيح قام من الأموات فانهضوا معه، المسيح رجع إلى حاله فعودوا ، المسيح خرج من القبر، فانطلقوا من رباطات الخطية، إن أبواب الجحيم تفتح، والموت ينهد، و آدم العتيق يطرح، والجديد يتم، فكل ما كان بالمسيح صار خليقة جديدة، وهكذا كان قول الرجل، والباقون فكانوا يسبحون بحسب ما كانوا يسبحون في الأول عندما ظهر لنا المسيح بميلاده الأرضيّ في قولهم "«الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الأَعَالِي وَعَلَى الأَرْضِ السَّلاَمُ وَبِالنَّاسِ الْمَسَرَّةُ». " (لو ٢ : ١٤)، وأنا فمع هؤلاء أنطق لكم اليوم بهذا بعينه، ويا ليتني أتخذ صوتاً للنغمة الملائكية أهلاً وإلى الأقطار كلها واصلاً، فأقول :

إن الفصح فصح الرب، ثم أعيد أيضاً بالفصح إكراماً للثالوث، هذا عيد الأعياد، وموسم المواسم، الذي يفوقها كلها، ليس ما كان منها بشرياً وفى الأرض سائراً، بل وعلى ما كان منها للمسيح وفى المسيح متمماً، وزيادته عليها مثل زيادة الشمس على الكواكب، ولقد كان التباهي بالأمس بالملابس النفيسة، والاستضياء بالأمور الشريفة تباهياً حسناً، ما عملناه منه سراً وعلناً ونصبه جنس البشر كله، نعم وعن قليل كل زينة، من حيث أنرنا الليل بنور شديد، وكأننا رمز إلى ذلك النور العظيم الذي أضاء

العالم كله، إما الذي ترسله السماء من فوق وبه تنير العالم كله بجماله، وإما الذي فوق السماء، في الملائكة التي هى الطبيعة الأولى في الضياء، وإما ما كان في الثالوث الذي منه ثبت كل ضوء منقسماً ومنفصلاً من ضوء لا ينقسم، إلاّ أن يومنا هذا أحسب وأبهى، بحسب ما كان الضياء، فإن ما كان بالأمس مقدمة للضوء العظيم عند قيامة الرب اليوم، وأنه قد كان ذلك مثل سرور ما قبل العيد، وأما اليوم فأنّا نعيد للقيامة نفسها وليست من الآن منتظره، بل قد كانت وتمت، وجمعت كل العالم إلى ذاتها .

فليثمر إذن كل امرئ ثمرة في الأوان، فليقدم الواحد شيئاً، ثم الآخر شيئاً من هدية وقربان للعيد موافقاً ما كان من ذلك، صغيراً أم كبيراً من الأشياء الروحانية، التي هى عند الله مأثورة، بحسب ما لكل واحد من قوة، إذ كان الواجب في ذلك لا تكاد الملائكة تكون إليه واصلة، هذا على أن الملائكة هم المقربون العقليون الطاهرون الذين هم إلى المجد الأعلى ناظرون، وبه شاهدون، إن كان يمكنهم الكل من التسبيح .

اللّه سرمديّ

وأما نحن فنقدم قولاً وهو أجل ما يمكننا وأكرم ما نصل إليه، وقد نطبق ذلك على معنى آخر وهو، من حيث أن سَنْحَيي الكلمة على إحسانها على نعمة الطبيعة الناطقة .

فأبتديء بذلك من ههنا لأنه يشق عليَّ وأنا أضحي في أعظم الأيام خطباً على الضحية العظيمة، واليوم الجليل، ألا أرتفع إلى الله وأستهل كلامي به، فيا من يستلذون مثل هذه الأشياء، طهروا لي العقل والسمع والفكر، لأن الكلام إلهيّ وفى الله، لتنصرفوا صائرين إلى التنعم بما لا يبصر وينفذ، وسيكون ذلك كاملاً معاً وموجزاً، حتى لا يغم بنقصه، ولا يكون كريهاً لإفعامه .

إن الله قد كان ويكون وسيكون بل هو دائم، لأن كان ويكون فصول من زماننا ومن الطبيعة الحائلة، وأما هو فهو الكائن، وهذا مما سمَّى به ذاته عندما ناجى موسى على الطور، من حيث جمع الوجود كله وحواه احتواء لا ابتداء له ولا نهاية، كمثل لجة جوهر لا نهاية لها ولا حد، يفوق كل معنى زمان وطبيعة، وإنما يتوهمه العقل توهماً كثير الغموض

والقصور، لا بما فيه بل بما يتعلق به، منتزعاً من متباين الأشياء صوراً متباينة، ومؤلفاً منها شبهاً للحقيقة، يفوت قبل أن يضبط، وينصرف قبل أن يفهم، وإنما ينير رئاسة العقل فينا إذا ما كانت نقية مهذبة، بمقدار ما يلمع سرعة البرق الخاطف، وأراني في ذلك أنه إنما يريد بما يوصل إليه منه أن نحيد إلى ذاته، لأن ما لا يوصل إليه بالكلية لا يترجى ولا يرام، وأما ما لا يصل إليه البتة منه، فيكثر لأجله العجب، وبالعجب يزيد الشوق إليه، وبالشوق يطهر، وإذا ما طهر جعل قوماً صورتهم إلهية، فإذا ما صاروا كذلك، ناجاهم مناجاة الخواص، وقد يجسر القول على ذكر شيء فيه تهجم وجرءة، وذلك قولنا في المناجاة، أن الله يتحد بآلهة فيعرفونه، ولعل ذلك يكون بمقدار ما يعرف المعروفين، إلاّ أن اللاهوت لا يستقصى، والعلم بها عسر، وإنما يدرك منها، بالكلية أنها لا غاية لها فقط، وإن توهم أحد أن الكائن ذا الطبيعة البسيطة، إما أنه لا يدرك منه شيء وإما أنه يدرك بجملته، فماذا نقول : هل هى طبيعة بسيطة، ولكن سبيلنا أن نفحص لأن ليست البساطة طبيعة له إذا لم يكن طبيعة ولا للمركبات، لأن المركبات ليس التركيب لها ذاتاً، وما لا نهاية له فالنظر فيه في معنيين في الابتداء والغاية، فما كان يتجاوز هذين ولا تحويه هذان فلا نهاية له .

فإذا ما نظر العقل إلى لجة العلو في التقادم، ولم يجد ما يقف عنده ويتعلق به من التخيلات في الله، سمى ما ليس له غاية ولا منه مخرج ما لا ابتداء له (الأزل)، وإذا ما نظر إلى لجة ما بعد وما يتبعها قال أنه لا يموت ولا ينفذ، وإذا ما جمع الكل قال إنه دهريّ (الأبد)، لأن الأبد ليس زماناً، ولا من الزمان جزءاً، ولا هو مقدراً بنيل الشيء الذي هو عندنا، الزمان المقدر تحركه الشمس وهذا هو الأبد عند الأبديين، وهو المحدود مع تلك الموجودات، كمثل حركة ما زمنية ومدار زمني، فهذا هو ما سبيلي أن أتفلسفه في الله الآن، إذ كان ليس ههنا وقت أكثر من ذلك، وذلك أن الذي حضر الكلام فيه ليس هو كلاماً في اللاهوت، بل في السياسة والتدبير .

التثليث والتوحيد

وأنا فإذا ما ذكرت الله فإنما أذكر الآب والابن والروح القدس، من حيث لا تنقسم اللاهوت إلى أكثر من ذلك، لئلا تدخل على نفوسنا جمع

آلهة، ولا تجتمع دون ذلك، فيلزمنا الحكم بشحها أو عسرها، ولا نكون قد وافقنا اليهود في تمسكهم بالوحدة في الرئاسة، ولا الوثنيين في جسارتهم على الغزارة فيها، لأن الرداءة في القولين متشابهة، وإن كانت توجد في ضدين ، فهكذا فإن أقداس القديسين، المحتجبة عن السارافيم، والممجدة بثلاث تقديسات، تجتمع إلى ربوبية واحدة، ولاهوت واحد، بحسب ما كان التفلسف في ذلك من آخر قبلنا، تفلسفاً أجود من كل شيء وأنفس .

الجود الإلهيّ

ولكن لما كان الخير الأعظم لا يريد أن يكتفي بالخير لذاته فقط، بل أراد أن يشرك آخرين في خيريته ، هَمَّ أولاً بالقوات الملائكية السمائية وكانت الهمة قولاً بكلمة متممة وبروح مستكملة، فعند ذلك تكونت أنوار ثانية، للنور الأول خادمة، وهى أنوار عقلية، أو نار غير هيولانية، وقد أرَى أن أذكر فيها، أنها إلى الشر غير متحركة، وأن حركتها إلى الخير وحده، إذ كانت حول الله، وكان نورها من الله النور الأول، لأن ما ههنا فهو يعد إشراق ثانٍ، إلاّ أنه يقنعني في اعتقادي أنها ليست متحركة إلى الشر، بل عسرة التحرك إليه، وأن أقول فيها هذا القول، ويمنعني من ذلك ذاك الذي كان كوكباً للصبح من أجل النور، فصار ظلمة لتعظمه، ووسم بهذا الاسم، ومن تحته من القوات الماردة التي هى صانعة الشر، وصائرة بنا إليه، من حيث الهرب من الخير .

فهكذا إذن وبموجب هذه العلل قد أنشأ العالم العقليّ كما تكلمت عن ذلك وازناً الأمور العظيمة في خطبة صغيرة، وإذ استحسن الخلائق الأولى، هَمَّ بعالم ثانٍ ماديّ مرئيّ وهو الخلطة والجملة، من السماء والأرض، وما بينهما عالم ممدوح، من حسن طبع كل واحد منه في ذاته، وهو أهل للزيادة في المديح، من ائتلاف كل واحد مع غيره، واتفاق الواحد مع الآخر، اتفاقاً حسناً منتظماً، ثم اجتماع بعضهما مع بعض، إلى كمال عالم واحد، حتى تبين أنه يمكنه أن يصنع طبيعة تخصه وحدها بل أنه قادر أن يصنع أخرى غريبة بالكلية منه، فالذي يخص اللاهوت الطبائع العقلية التي تدركه بالعقل وحده، والغريب منه بالكلية لا نفس له ولا حركة .

فالعقلُ إذن والحِسُّ كانا هكذا واحداً من الآخر متميزين، وداخل حديها واقفين، ولعظمة الكلمة الخالقة فيها حاملين، ومادحين لعظمة الإبداع صامتين، ونذيرين ممسكين، لأنه لم يكن امتزاج من الاثنين، ولا خلطة من الضدين، يكون منهما علم بحركة زائدة واهتمام بالطبائع وكمالها، ولا كانت غزارة الخير معروفة، فلما رأت الكلمة الصانعة إظهار ذلك، صنعت حيواناً من هذين جميعاً، أعني الطبيعة التي لا ترى والطبيعة المبصرة فخلقت الإنسان، وأخذت الجسم من المادة لأن صنعها كان قد تقدم، ووضعت من ذاتها نفخة هى النفس العقلية وهى التي نرى القول أنها صورة الله، فجعلتها مثل عالم ثانٍ كبيراً في صغير، وجعلته ملكاً آخر ساجداً مخلوطاً مشرفاً على البرية المرئية، وهو خبير بسر العقلية، ملكاً على ما في الأرض ومملوك ما في العلا، أرضياً وسماوياً، وقتياً وغير مائت، مبصراً ومعقولاً، بين العظمة والذلة، وهو الواحد روحاً وجسماً، فالروح من أجل النعمة، والجسم من أجل الكبرياء، ليثبت أحدهما ويمجد المحسن، ويتألم الآخر ويتذكر إذا تألم، ويتأدب في عظم ما جرى، حيواناً يساس في هذه الدنيا ثم ينتقل إلى الأخرى متألهاً بنزوعه إلى الله، على أن لألاء الحق الضئيل ههنا إنما يرمي إلى هذا الأمر، وهو أن أبصر وأحسن بهاء الله، خليقاً بمن جمع ويفرق وسيجمع إيضاً بشكل أعلا وأنفس .

منع آدم وحواء الأكل من الشجرة لا لشر فيها ولكن لأنه لم يأتِ الوقت

وحتى لا يكون سخاء من اختار أقل من سخاء واهب البذور قد أنعم عليه بالحرية وجعله في الفردوس، وكرمه بالتسلط ليكون الخير من المتمسك به، وصيره حارساً لنبات لا يموت، وعسى ذلك أن يكون حيث البسط والعيشة بلا صناعة ولا تصنع، عرياناً خاسراً من كل سترة وكسوة، لأن بهذه الصورة كان ينبغي أن يكون من كان في الابتداء الأول، وأعطاه ناموساً هو التسلط والاستطاعة، والناموس كان وصية بما سبيله أن يتناول منه من النبات، وما سبيله ألاّ يدنو منه، وذلك فكان عود المعرفة الذي لم يكن في الأول منصوباً نصبة رديئة، ولا من حيث البخل منع منه، ولا

يبسط معاندو الله ألسنتهم إلى ما هناك، ولا يتشبهون بالحية، ولكنه كان جيداً إذا ما أخذ في وقته، إذ كان ذلك النبات علماً بحسب علمي أنا، ولا يأمن الصعود إليه سوى من هم في أكمل حالة، من كانت شجيته كاملة وطريقته تامة، وأما ما كان بعد بسيطاً وفى شهوته نهماً فلم يكن له ذلك النبات جيداً، بحسب ما لا يكون الغذاء التام نافعاً لمن كان بعد طفلاً وإلى اللبن مضطراً، فلما نسي الوصية التي دفعت إليه، بالأذية التي دخلت على المرأة لضعفها، وقدمتها من حيث إقناعها والقبول منها.

فأف من ضعفي الذي هو ضعف الأب الأول، الذي لما انهزم وانحط من المذاقة المرة، صار منفياً من عود الحياة والفردوس ومن الله، ومن أجل ذلك اتشح بالأغشية الجلدية التي لعلها أن تكون للحم الحِسي المائت الصلب، والأول ما عرف به خزيه فاستتر من الله، وربح من ذلك شيئاً ههنا وهو الموت والانقطاع من الخطية، حتى لا يخلد الشر، فصار من ههنا العقاب حناناً، وعلى هذه السجية أرَى العقوبة من الله .

فلما تأدب بأشياء كثيرة، بقول وناموس وأنبياء وإحسان ووعيد وضربات ومياه وحريق وقتال، وغلبات وآيات من السماء، وآيات في الهواء، وهزائم من بر وبحر ومدن وأمم، بتغييرات مختلفة، الغرض في جملتها أن تسحق الشر الذي أنبتها، أصل الشر في علل وأزمان مختلفة، قد احتاج أخيراً إلى دواء أنجع لما هو أخطر بين الأمراض كالقتل والزنى والحنث والشذوذ الجنسيّ، وعبادة الأوثان آخر وأول جميع الشرور، والسجود للمخلوق دون الخالق فلاحتياج هذه إلى معونة أكبر قد نالت معونة أكبر وهى كلمة الله بعينه الأزليّ الذي لا يُرَى ولا يُدرَك ولا جسم له، الابتداء من الابتداء، النور من النور، ينبوع الحياة وعدم الموت، نقش الرسم القديم، الخاتم الذي لا يتغير، الصورة التي لا تتبدل، حد الآب وكلمته صار إلى الصورة التي تخصه، ولبس جسماً من أجل الجسم، ونفس ناطقة من أجل نفسي، وطهر الشبه بالشبه، وصار إنساناً وكل شيء من الإنسان ما خلا الخطية، وولد من العذراء، التي تطهرت نفساً وجسماً بالروح، لأنه كان ينبغي أن تكرم الولادة وتتقدم البكورية بالكرامة، فأتى إلهاً مع ما اتحد به، واحداً من ضدين، أعني جسماً وروحاً، فأحدهما إله والآخر تأله، فياله من اتحاد جديد وربطة عجيبة بها الأزليّ تكوَّن، وغير المخلوق خُلق (أي خلق له جسداً)، والذي لا يوسع وسع بوساطة نفس عقلية وتوسطت

اللاهوت وثقل الجسم، والغنيّ تفاقر، تفاقر بجسمي أنا لأستغني بفقره، واستتر بلاهوته، والملء خلا من مجدهِ قليلاً، حتى أنال أنا من ملئه .

فما هو هذا الغنيّ من الخير، وما هو هذا السر المتمم لأجلي ، أنا نلت من صورته فما حفظتها، فاتخذ هو من جسمي ليخلص الصورة ويجعل الجسم لا يموت، وشارك شركة ثانية أعجب من الأولى بكثير بحسب ما أنه إله، حينئذ أنال من الأفضل وأنه الآن اتخذ من الأدنى، وهذا إله من الأول وهذا عند أولي العقول أرفع .

عيد الفصح ورموزه

وعسى أن يقول لنا أحد المفرطين في حب الأعياد وفي الحمية، اغمز المهر في العطفة (أي استحث الجواد لكي نبلغ النهاية) واذكر لنا فلسفة في العيد وفيما نحن لأجله اليوم جالسون، وسأقول ذلك وإن كنت قد ابتدأت قليلاً من فوق، وكان ذلك مما اضطر إليه القول في الشوق .

وهذا الفصح العظيم المكرم يُدْعَى عند اليهود فصحاً على حسب لغتهم وتدل اللفظة على العبور .

أما من حيث الخبر فمن أجل الهرب من مصر والانتقال إلى أرض كنعان .

وأما من حيث الروح فمن أجل التقدم من الأرض إلى السماء، والصعود من ههنا إلى أرض الميعاد .

وقد وجدنا في مواضع كثيرة من الكتاب أسماء كثيرة قد عبرت إلى البيان من قلة البيان، ومن الأقبح من اللفظ إلى أحسنه، فحفظنا مثل ذلك ههنا، وذاك أن قوماً ظنوا هذا الاسم دليلاً على الألم المخلص، ثم أحالوه في اللغة اليونانية بإبدال الفاء إلى الباء والخاء إلى الخى، فسموه "باسخاً" أي الفصح في لغتنا، ثم تسلمت العادة هذه اللفظة فقوتها حتى نفذت في أسماع الكثيرين، فصاروا يقصدونها كأنها أشد في الكرامة، وأزيد من حالها .

وأما الناموس كله فقد ذكر فيه السليح الإلهيّ وختم قبلنا بأنه في المستأنفات والمعقولات، وكذلك الإله الذي أوحى قبل هذا في هذه المعاني إلى موسى، بما كان واضعاً فيما هذه سبيله ناموساً، لما قال انظر أن تعمل

كل شيء على رسم هذا المثال الذي أظهر لك في الطور(خر٢٥ : ٤٠)، من حيث أظهر أن المبصرات برسم ما، وشبح لغير المبصرات .

وقد أقنع نفسي بأنه لم يؤمر بشيء من ذلك باطلاً، ولا بعيداً من قياس، ولا من حيث سيرة الأرضيات، ولا من حيث البعد من استحقاق، وصنع الله الناموس وخدمه موسى في ذلك، وإن كان قد يصعب أن يوجد لكل شيء شبه وصورة توافقه، للوصول إلى ما يرمز إليه مما سن في تلك القبة بعينها من المقادير والمادة، والذين يحملون ذلك من الخدام واللاويين، وما رسم في باب الذبائح والطهر والأنصبة في ذلك، مما قد يتصور لمن كان بصورة موسى في الفضيلة، وقريباً من آدابه وحده، لأن الله قد يظهر في ذلك الجبل بعينه للبشر من حيث يرفعنا نحن على معنى آخر من ذل الأرض ، ليتسع ولو بمقدار قريب للطبيعة المكرمة، أن يلوح لها بمقدار ما لا خطر فيه، ذلك الذي لا يتسع ولا يوصل إليه، لأنه غير ممكن على طريقة أخرى، أن يصير غلظ عقل، مرتبط بجسم هيوليّ، إلى وهم في الله، من حيث لا تأتيه معونة، فحينئذ لم يثبتوا كلهم لترتيب واحد ووقوف بعينه مستحقين، بل بعضهم أهلاً لرتبة ما، وآخر لأخرى كل واحد منهم على ظني بمقدار ظهوره، ومنهم من كان بالكلية مدحوضاً لا يطلق له غير سماع الصوت الوافد من العلو، وهم القوم الذين أخلاقهم وحشية وليسوا للأسرار الإلهية أهلاً .

فسبيلنا نحن أن نسلك طريقة وسطا، فيما بين من غلظ فكره، وبين من تهذب جداً في النظر والصعود، حتى لا نكون بالكلية عطلاً، قد بقينا لا نتحرك، ولا نكون زائدين على ما لا ينبغي في الفحص، فنسقط عن مطلبنا ونصير منه غريبين، وإحدى هاتين الخصلتين ذليلة ولائقة باليهود والأخرى تشبه مفسري الأحلام وكلتاهما مذمومتان بالسواء .

الحكمة من الناموس

ثم نتكلم في هذه الأشياء بمقدار وسعنا وما لا يكون ساقطاً عن موضعه جداً ولم يصر للكثيرين مَضْحَكاً، فأنّا نرى لما سقطنا بسبب الخطية في الأول واستعبدنا باللذة، حتى أوردنا مورد عباد الأوثان والدماء النجسة، وكان سبيلنا أن نستقل وأن نُعَادَ صاعدين إلى التقديم من أجل حنان الله أبينا،

إذ لم يصبر على أن يخسر الإنسان الذي هو صنعة يديه، فكيف كان يجب أن نعاد فنجبل، الواجب كان في ذلك أن نرفض ما كان صعباً من الطب، لأنه من حيث الإقناع غير مقنع، ومع ذاك فنقدر على الإيلام والنكاية لموضع التفاقم في مقدار طول الزمان .

وأما ما كان فيه كان لين وحنان على البشر، فيكون به التدبير في التلافي والإصلاح، لأنه ولا قضيب منحني يصبر على اثنائه في دفعه، ولا يحتمل صعوبة يد تقومه، إذ كان أقرب إلى أن ينكسر من أن يتقوم، ولا يصبر أيضاً حصان حاد تليع، على شدة لجام، بلا مداراة وتدريج، فمن أجل ذلك أعطينا ناموساً لمعونة، كأنه يكون حاجباً بين الله والأوثان، يصرفنا عن تلك ويعيدنا إلى هذا، فسمح باليسير في الأول، لم يأخذ الكثير وكان الذي سمح به الذبائح، حتى يرتب الإله، ثم بعد ذلك إذا ما جاء الوقت نقص الذبائح، من حيث كان يدرجنا بما ينتزعه من تلك قليلاً قليلاً بحكمة، وننقل إلى البشارة بالإنجيل بعد ما نكون قد تمرسنا على الطاعة .

الحكمة من الذبائح

فمن ههنا ولأجل هذا دخل الناموس المكتوب، جامعاً لنا إلى المسيح، وهذا هو الرأى في الذبائح من حيث رأيي أنا، ولكيما لا نجهل قعر (عمق) الحكمة، ولا ثروة أحكامه التي لا تدرك، لم يهمل ولا هذه الذبائح أيضاً غير مقدسة أو نافعة أو مقتصرة على مجرد دم ساذج، بل قد مزج بالذبائح الناموسية تلك الذبيحة العظيمة غير المضحاة التي هى كما استُبيح القول بحسب الطبيعة الأولى ، ولم يكن ذلك بجزء صغير من المسكونة ولا إلى مدة قليلة بل لكل العالم جعله طهوراً أبدياً، فلذلك أمر بان يتخذ خروف من أجل دعته وقلة الشر، وحتى يصبح الكسوة للعري القديم، وكذلك هو الذبح الذي ذبح عنا، موجود كسوة لعدم الفساد، ومدعو بها وكان ذلك ما ليس من أجل اللاهوت الذي لا يكون شيء أتم منه فقط، بل ومن أجل ما اتخذه مما مُسِحَ باللاهوت وادهن وصار ما هو الماسح الداهن، وقد أجسر أن أقول واحداً مع الله، وكان المأخوذ ذكَراً لأنه عن آدم قُدِّمَ بحيث ما وجد بخاصة عن الجد، وعن الذي سقط أولاً تحت الخطية، وما هو أجد منه وما لا يحمل شيئاً أُنثوياً، ولا غير رَجُلِيّ، بل يكون قد انبعث وانتزع من

رباطات بكورية والدة بشدة سلطان كثير، ويكون قد ولد ذكراً من بنيه كما يبشر إشعياء، ويكون حولياً كمثل شمس العدل، أو لأنه من هناك نهض، أو لأنه من معنى المنظور إليه محدق به، وإلى ذاته عائد، ولأنه إكليل للخير مبارك، وهو مساوٍ لذاته ومشبه إياها من سائر الجهات، وليس لهذا وحده، بل ولأنه يخشى دائرة الفضائل اختلاطها بدعة بعضها بعض بشبه مودة وترتيب، وقيل أن يكون بغير عيب ولا دنس، كأنه مداوٍ للعيوب والنقائص التي من الشر والأوساخ، وإن كان اتخذ خطايانا وتحمل أوصابنا فلم يلحقه شيء مما يحتاج إلى مداواة، وقد لحقته التجارب في كل شيء على شبهنا ولكن من غير خطية، وذاك أن الذي يطلب الضوء الظاهر في الظلمة ما أدركه .

الفصح كان يقدم في أول شهور السنة

وماذا أقول أيضاً ؟ فإن هذا الشهر جعل الأول وبالحريّ رأس الشهور، إما لأنه كان كذلك عند اليهود من القديم، وإما أن يكون صار من ههنا بهذه الصورة فأخذ من السر أن يكون أولاً، وكان ذلك في العاشر من الشهر، لأن هذا القدر من الأعداد كامل في كونه فرداً أولاً تاماً من أحاد وللتمام مولداً، ويحفظ إلى اليوم الخامس لعل ذلك أولاً لأن ذبحي مطهر للحواس التي منها الخطأ، والتي حولها القتال، وهى التي تقبل شوكة الخطية، لا يذبح من أجل الصديقين وحدهم، بل ومن أجل الخطاة، وعسى أن يكون ضحية عن هؤلاء أكثر بحسب حاجتنا من محبته للبشر إلى ما هو أجل وأعظم، وليس بعجيب أن يكون الواحد كفاية لذاته بخاصة للتمام، حتى يضحيها ضحية حية مقدسة لله الراعي، ويكون في كل وقت وعلى سائر الوجوه مضحى، فإن لم يكن ذلك فنستعين بمساعدة من كان متشبها في الحال والجنس في هذا وذلك فهو معنى المشاركة لمن قرب متى ما دعت الحاجة إليها .

ومن ههنا ننتظر ليلاً ظاهراً بضد ليل هذا العمر المبدد وهو الذي فيه ينحل الظلام المتولد من القديم ويصير كل شيء إلى نور وترتيب وصورة، ويصل عدم الرتبة فيما قبل إلى رتبة، ومن ههنا أيضاً نفر من مصر وهى الخطية، العيشة الطالبة لنا، ومن فرعون الذي هو الغشوم ولا

ننتظر، ومن الامرين الذين يسوقوننا إلى العمل، ونتهيأ للانتقال إلى العالم العلويّ، ونعتق من الطين وعمل اللبن، وذلك هو العتق من حيلة الجسم الخطرة وبيتها المستور الذي لا يمكن أن يثبت ويضبط، ولا بمقدار أفكار بنيته، ومن ههنا نذبح ونرشم بالدم الكريم والقول إلى المَلَكَة والفعل اللذين هما عتبتان لأبوابنا أعني بذلك حركات العقل وأبوابه لتكون مفتوحات ومغلقات كما ينبغي، ومغلوقات من حيث العلم إذ كان للإدراك مقدار ومن ههنا الضربة الأخيرة الثقيلة على المضطهدين التي هى لليل أهل ومنها تنوح على أبكارها وأفعالها مصر وذاك الذي من شأن الكتاب أن يدعوه زرعاً كلدانياً منزوعاً وأطفالاً بابليين نضرب بهم الصخرة فينحلون فكل شيء من الصياح والصراخ من أهل مصر مملوء إلاّ أن مبيدهم ينصرف عنا نحن استحياء وخوفاً من الدم ومن ههنا رفع الخمير سبعة أيام وذلك أن هذا العدد من الأعداد كامل وموافق لهذا العالم ومعناه الشر العتيق الذي قد تداخله الحمض ليس رفع القوة الحيوانية التي تصنع الخير وحاجتنا إلى ذلك ألاّ نُبقى عندنا عجين نتزوده من مصر يكون بقية من تعليم الفريسيين البعيد من الله .

لماذا يشوى الخروف؟

إن أولئك سبيلهم أن ينوحوا، ونحن فيؤكل عندنا الحمل عند المساء، لأن وصب (آلام) المسيح إنما كان في آخر الأدهار، ولأنه شارك التلاميذ في السر، حل ظلمة الخطية، ولا يسلق الخروف بل يشوى، حتى لا يبقى في القول عندنا شيء غير معروف، إلاّ ما يكون مائتاً وإلى الانحلال متهيباً، بل يكون كلامنا متميزاً مسنداً، وبالنار المتطهرة ممتحناً، ومن كل درن معتقاً، ومن الزيادة الفاضلة على ما يحتاج إليه بريئاً، ونكون نحن بالجمرة المحمودة مساعدين، فنشعل أفكارنا ونطهرها من قبل ذاك الذي أتى ليجعل ناراً على الأرض، تبيد الأخلاق الخبيثة، وهو الذي استعجلنا على الاشتعال، فما كان من القول لحمياً مأكولاً، فنحن نأكله مع دواخله التي هى خفايا العقل، ونصدره إلى هضم روحانيّ، حتى يصل إلى الرأس والرجلين، وذاك فهو العلم الأول بأمر اللاهوت والفكر الأخير في أمر الناسوت .

لماذا لا يترك منه للغد؟

و لا نخرج منه شيئاً ولا نتركه إلى الغد، لأن كثيراً من أسرارنا لا يجوز أن نخرجها إلى من كان خارجاً، ولأنه لا يكون ظهور بعد هذا الليل، ولأن التلوم غير محمود لمن يريد الوصول إلى العلم والمعرفة، وكما أن الغضب لا ينبغي أن يطول معنا نهارناً كله، بل سبيله أن يغرب قبل غروب الشمس، إذ كان هذا جيداً وعند الله مأثوراً، من حيث الرأي في الزمان والتأويل أيضاً، أن لا تغرب عندنا شمس العدل ونحن غضبين إذ كان ذلك ليس يجوز لنا، فكذلك ما سبيل هذا الطعام أن يتجاوز الليل عندنا، ولا نوعيه (أي نضعه في أوعية) ولا نحتفظ به إلى اليوم التالي، وأما كل ما كان عظميّ غير صالح للأكل أي صعب التصور فلا يكسر مقسماً تقسيماً رديئاً ومفهوماً فهماً سيئاً .

فهذا أقوله إذا ما ألغيت ما ذكر في خبر يسوع أنه لم يكسر له عظم، على الصالبين قد كان يلزمهم المسارعة إلى موته من أجل السبت، ولا يُطرح أيضاً شيئاً من ذلك .

ونحرقه حتى لا نطرح القدس للكلاب الذين ينهشون الكلام كما لا يجب .

لن نطرح للخنازير ما كان من القول فيه نور وجوهرية، بل يضرم ذلك الطعام ويمحق بالنار التي بها تفنى الذبائح، ليلطفه ويصونه الروح الفاحص والعارف بكل شيء، غير بائد في الماء ولا مذرى كمثل مالحق رأس العجل من موسى، الذي عمله إسرائيل على غير روية، وهذا كان من فعله تعييراً لهم على غلطهم .

وقد ينبغي أن نتجاوز ذكر الطريقة في الأكل بذلك الطعام، لأن الناموس أيضاً ما أغفل ذلك عندما لازم الصمت في الكتاب .

وسبيلنا أن نفرغ من الذبيحة بعجلة وسرعة، ونأكل الفطير مع شيء مر، وتكون أوساطنا مشدودة، والحذاء في أرجلنا، والعكازات معنا كالشيوخ .

فأما معنى العجلة والسرعة، فحتى لا ينالنا ما أصاب لوط فيما نهته عنه الوصية، لأن سبيلنا أن لا نلتفت ولا نتوقف في شيء من البلدة، ونبادر إلى الجبل لئلا نوجد ونقع في نار سدوم الغريبة، فنجمد ونصير مثل قطعة ملح، من أجل العودة إلى مكان أدنى، وذلك ما من شأن التلوم أن نضيعه .

لماذا أعشاب مرة؟

وأما الشيء المر فذكره لموضع مرارة السيرة الإلهية، وما يحتاج إليه فيها من التصعد إليها، ولا سيما عند من كان مبتدئاً، ولأنها تعلو على الملاذ، وذاك وإن كان النير الجديد صالحاً، وكان الحمل كما سمعت خفيفاً، فإن ذاك إنما هو من أجل الرجاء والمجازاة التي هى أغزر كثيراً من شفاء الدنيا والنصب الذي يتقدمها ههنا .

وأما من معنى آخر فمن ذا الذي لا يقول أن الإنجيل أصعب من أوامر الناموس وأتعب؟ إذ كان الناموس إنما يمنع من تمام الخطايا، وأما نحن فقد نطالب بأسباب العمل قريباً من العمل، لأن الناموس يقول لا تفجر، وأنت فيقال لك إياك تنظر إلي امرأة لتشتهيها(مت ٥ : ٢٨)، فتشعل الشهوة من نظرة تتأملها، وتطيل التعب من الشخوص إليها .

والناموس فقال لا تقتل، وأنت فقيل لك "لا تُقَاوِمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضاً (مت ٥ : ٣٩)، فما أجل مقدار التفلسف، وهذا المعنى وزيادة على ذاك .

قال ذاك لا تحنث، وقال هذا "لا تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ لا بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ وَلا بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ وَلا بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلا تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ لأَنَّكَ لا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. بَلْ لِيَكُنْ كَلامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ لا لا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ" (مت ٥ : ٣٤ - ٣٧)، لأن اليمين يولد الحنث .

وقال ذاك لا تضف منزلاً إلى منزل، وحقلاً إلى حقل، من معنى البغاء على الفقير، وأنت فقيل لك " بِيعُوا مَا لَكُمْ وَأَعْطُوا صَدَقَةً "(لو ١٢ : ٣٣)، وعزى المساكين حتى يخف لك حمل الصليب الذي لسيدنا يسوع المسيح، وتستأثر بما لا يبصر .

معنى الأحقاء

وأما الأحقاء فلتكن للبهائم محلولة غير مربوطة، إذ كان ليس لها نطق تتمسك به عن اللذات، لكنها تنقاد بالغريزة في الأوقات المحددة لها، وأما أنت فسبيلك أن تتشمر بزنارة العفة، الذي يدفع ألم الفاحشة، كما ذكر الكتاب في الشهوة والصهيل، حتى تأكل الفصح بطهارة، وأنت قد أمت الأعضاء الأرضية، وتشبهت بمنطقة يوحنا العظيم رجل البرية، المتقدم في الإنذار بالحق .

وقد أعرف منطقه أخرى هى شداد الجندية والشجاعة التي يقال القوم من معناها متمنطقي سورية، أو ذوي المنطقة الواحدة، وعلى هذا ناجى الله لأيوب وقال له"اُشْدُدِ الآنَ حَقْوَيْكَ كَرَجُلٍ فَإِنِّي أَسْأَلُكَ فَتُعَلِّمُنِي " (أي٣٨ : ٣)، وبمثل ذلك يفتخر داود الإلهيّ ويقول أنه اشتمل بمنطقة قوة من العلى "تُمَنْطِقُنِي بِقُوَةٍ لِلْقِتَالِ. تَصْرَعُ تَحْتِي الْقَائِمِينَ عَلَيَّ "(مز١٨: ٣٩) بل يمثل لنا الله نفسه أنه لابس قوة متمنطق بها على الكفار، مالم يؤثر أحدهم القول بأن هذا إنما يعني فيض القوة وشبه إمساكها كما في قوله " يلتحف بالنور كرداء" لأنه من يحتمل جموح قدرته وضيائه؟ وأني لأتساءل ما الجامع بين الأحقاء والحق وما الذي يفهم من قول بولس :" فَاثْبُتُوا مُمَنْطِقِينَ أَحْقَاءَكُمْ بِالْحَقِّ" (أف ٦ : ١٤)، ألعله يفهم أن قسم العلم يشد قسم الشهوة، حتى لا يتركه يتوجه إلى موضع آخر، لذلك قال هذا القول، إذ كان الانصباب على شيء يمنع أن يكون للمرء نفس القوة على اللذات الأخرى .

معنى الحذاء

وأما الحذاء، فسبيل من هو عتيد أن يطأ الأرض المقدسة، التي وطئها الإله، أن يطرحه ويحله، كما فعل موسى على الطور، حتى لا يحمل ميتة، ولا شيئاً يكون حاجزاً بين الله والبشر .

وكذلك من كان تلميذاً وأرسل في البشارة، فسبيله مع حكمته أن لا يكون معه شيء فاضلاً، لا عصا، ولا نحاس، ولا ثوبين، وأن يكون أيضاً حافياً عاري الرجل، حتى تظهر جميلة أرجل المبشرين بالسلامة، وكل شيء غيرها من الخير فلا يستر .

وأما من كان من مصر هارباً، وعما بمصر منصرفاً، فسبيله أن يلبس الحذاء، من أجل الاحتراز من أشياء أخر، ومن العقارب والحيات التي تربى بمصر، كثيراً منها لا تلحق مضرة من الذين يرصدون الأعقاب، وهم الذين أمرنا أن نطأهم وندوسهم .

معنى العصا

وأما العصا فهذا رأيي في الرمز بها، لأنني قد عرفت واحدة نتوكأ عليها، وأخرى نرعى بها، ومنها ماهو للتعليم يهش بها على الأغنام الناطقة، فالتي يتوكأ عليها يأمر لك بها الناموس في هذا الوقت، حتى لا تضعف وينكسر فكرك، إذ ما سمعت بدم الله وآلامه وموته فتستدرج إلى الكفر من حيث تدّعي المحاماة عن الله، فكل الجسد واشرب الدم الزكيّ بغير تشكك ولا خزي، إن كانت لك رغبة في الحياة لا منكراً للأقوال التي تتعلق بالجسد ولا متأذياً مما يخص الآلام وقف راسخاً متوكئاً، لا تتزعزع من شيء من أسباب المخالفين، ولا تنقاد بأقاويل الفصاحة، واثبت في علو ذاتك، واثبت في ديار أورشليم قدميك، ومكنها على الصخرة، حتى لا تضطرب مسالكك التي في الله .

الخروج من مصر

ماذا تقول؟ هكذا كان رأيك أن تنصرف من مصر، التي هى الأتون الحديد، وتترك ما هناك من كثرة الآلهة بل عدمهم، وتتبع موسى وناموسه وتدبيره لأمور الجيوش، فأني آتي في ذلك بشيء ليس هو عندي أو هو أخص ما مني إن نظرت المعنى الروحيّ .

اقترض من المصريين آنية ذهب وفضة وسر بها، وتزود من مال غيرك بل من مالك، لأن لك عليهم أجرة الخدمة وعمل اللبن، فاحتال بشيء وأنت في استيدائها، واعدمهم ذلك من حيث ينبغي، واذكر أنك قد شقيت هنا في معاناة الطين، أي في هذا الجسم المتعب الدنس، وبنيت مدناً لغيرك خطرة يبيد ذكرها وتزول مثل زوال الصوت، فلم تنصرف مجاناً بلا ثواب، ولماذا لم تترك شيئاً لأهل مصر والقوات المخالفة، ذلك ما اقتنوه من الظلم ويصرفونه فيما هو أشر منه، فأن ذلك ليس هو لهم بل سرقوه واختطفوه، وهو فلذلك الذي قال أن لي الذهب والفضة وأعطيها لمن أريد، إنما كان ذلك لهم بالأمس لأنه سمح بذاك، واليوم فلك يعطى ويهبه لك السيد إذا ما كنت تقدر على أن تستعمل ذاك بحسب ما ينبغي، ويؤول إلى خلاصك .

فسبيلنا أن نقتني لأنفسنا أصدقاء من مال الظلم حتى إذا ما انصرفنا أخذنا العوض في يوم الدين (لو ١٦ : ٩) .

إن كنت نفساً كبيرة مثل راحيل وليئة زوجتي يعقوب فاسرق الأوثان التي تجدها لأبيك، لا لتحفظها، لكن لتحطمها وتبيدها، وإن كنت امرءاً إسرائيلياً حكيماً، فانتقل إلى أرض الميعاد، ليتألم المضطهد على ذلك، وليعرف تمام الحيلة عليه، وأنه كان يضطهد الأفاضل ويستعبدهم باطلاً، فأنك إن فعلت هذا وخرجت على هذه الصورة من مصر، فأني أعلم حسناً أنك سترشد ليلاً ونهاراً بعمود نار وغمام، وأن القفر يتمهد لك، والبحر ينشف، وفرعون يغطس، والخبز يمطر، والصخرة تتبع، وعماليق يقهر، ليس بالسلاح وحده، بل وبيدي الصديقين المحاربة والمصلية والراسمة علامة الصليب غير المغلوبة، لا تنحل ولا تتوارى منذري، والنهر فسيرجع منعطفاً، والشمس فتقف قائمة، والقمر فينضبط مثبتاً، والأسوار فتتهدم بغير حيلة ولا بحرب، ودبابير تتقدم فتصلح الطريق لإسرائيل وتمنع مخالفه، وغير ذلك مما ينضاف إليه من الخير يعطيك إياه، إذاً لا أطيل كلاماً في هذا .

فمثل هذا العيد نعيد اليوم، وهذا الذي ندعوك إليه ميلاد المولود، ومرتبة المدفون، ومثل هذا لك في سر الفصح، هذا ما مثله الناموس، وهذا ما يتممه المسيح، الذي هو مبطل الحرف ومتمم الروح، الذي بما ناله من الألم، علم أن نتألم وبما تمجد وهب المشاركة له في المجد .

دم ابن اللّه

وههنا ما يقتضي إذاً أن نفحص عن أمر، وأرى هو عند جماعة غيري مهمل، و أما عندي أنا فهو مطلوب جداً، وذلك أن نفحص الدم العظيم المنتشر ذكره، أعني دم الإله رئيس الكهنة المضحي، الذي سفك عنا.

من أجل أي شيء أُهرِّقَ، ولمن قُدِّمَ؟ فأنّا نحن كنا عند الشرير منضبطين، قد باعتنا الخطية، فاتبعنا بالشر اللذة، فإن كانت الفدية لا تكون صائرة، إلاّ إلى من هو المالك، فأني أطلب إلى من صارت ولأي سبب، فإن كانت صارت إلى الشرير فيا للإهانة! إذ كان اللص لا يأخذ من الله فقط بل الله نفسه فدية وأجرة فائقة على ظلمِه فقد كان من حقنا عليه لأجل ذلك أن يشفق علينا، وإن كان للآب فأولاً كيف ؟ لأننا لم نكن مأسورين له، وثانياً ما هذا الكلام ؟ فأي معنى لدم ابن وحيد يلتذ به آب، لا سيما هو الذي لم يقبل إسحق لما قدمه أبوه، بل عوَّض عن الذبيحة بكبش بدلاً عن ذبيحة ناطقة، فواضح إذن أن الآب يأخذ لا عن طلب أو حاجة بل للتدبير والسياسة، والحاجة إلى أن يتقدس الإنسان ببشرية الله، حتى ينقذنا هو، ويضبط الغشوم بشدة، ويعيدنا إلى ذاته بوساطة الابن الذي دبر هذا كرامة للآب، الذي يبين أنه يتخلى له عن كل شيء، هذا فيما للمسيح، وليوقر الكثير مما سواه بالصمت .

الحية النحاسية

وأما الحية النحاسية تعلق مضادة للحيات التي كانت تنهش، ولم تكن رسماً للذي تألم من أجلنا من حيث المشابهة، بل من حيث المخالفة، فكانت تخلص الناظرين إليها، ليس لأنها حية بل ميتة، والذي كانت مثاله قد مات بموتها، وأمات بموته القوات التي من قبله، وانهزم كما كان يستحق، وما هى الرتبة التي هو أهلها من جهتنا أن نقول، أين هى شوكتك يا موت وأين ظفرك يا جحيم، إذ كنت ضربت بالصليب فانحططت، وأمت لصانع

الحياة فمت، وصرت عديماً للنسمة، وكاملاً في الموت، ونفياً من الحركة، وبعيداً من الفعل، وإن كانت صورة حية معلقة في العلو خالصة .

ولكن سبيلنا أن نتناول من هذا الفصح، أما في هذا الوقت فبالرمز والرسوم، وإن كان ذلك أعز وأكشف مما تقدمه، لأن الفصح الذي كان على رسم الناموس، فأني أجسر وأقول : أنه كان رسماً لرسم هو أخفى منه، وأما ما نتناوله بعد قليل فسيكون أتم وأجلى، إذ ما شربه الكلمة معنا حديثاً في ملكوت الآب، وكشف لنا وعلمنا ما أظهره لنا في هذا الوقت إظهاراً مقتصداً .

والحديث الجديد أبداً فهو الذي يكون معروفاً في الآن، ومعنى ذلك أن الآن ليس هو من الزمان الماضي، ولا من المستقبل، فيكون ما ينتقل من الواحد إلى الآخر قد عتق، بل الآن فيما بينهما، فما هو معروف فيه هو أبداً جديد، فذلك ماعنيَّ القديس في قوله أن الجديد أبداً ما هو معروف في الآن .

معنى الشراب والغذاء

فإن سألت ما الشراب، وما التمتع به، قلت لك أن ذلك لنا نحن التعلم، وله هو التعليم، وأن يشارك تلاميذه في المعرفة بالكلمات لان التعليم غذاء حتى للمعلم، ولكن هلموا فنأخذ ونحن من الناموس ما كان بالإنجيل شبيها، لا ما كان في الكتاب وحده مكتوباً، بل ما كان تاماً لا ما يكون ناقصاً، وما يكون أزلياً ولا ما يكون وقتياً، ونجعل رأسنا ليس أورشليم الأرضية بل أمها العليا، لا التي تصل إليها في هذا الوقت الجنوس فتطأها، بل التي تكون الملائكة تسبحها، وليس نذبح عجولاً ثلاثية، ولا خرافاً ذوات قرون وأظلاف، التي أكثر ما فيها ميت وعديم الحس، بل نضحي لله ضحية التسبيح على مذبحه الذي فوق مع الصفوف العلوية، نشق الستر الأول، ونتقدم إلى الثاني، ونطلع على أقداس القديسين .

التشبه بالقديسين والتضحية بالنفس

أو فترون لي أن أقول الأعظم من هذا، فأني أقول أن سبيلنا أن نضحي بنفوسنا بعينها في كل يوم، ومن حيث كل الحركة نقبل كل شيء من جهة الكلمة، ونتشبه بآلامها تشبها يكون بآلام ذواتنا ونكرم دمها بدمائنا.

✠ فهلموا نصعد على الصليب بنشاط، فأن المسامير لحلوة، وإن كانت مؤلمة، الألم مع المسيح ومن أجل المسيح، أفضل من الترف والتنعم مع قوم آخرين .

✠ فإن كنت سمعان القيروانيّ، فاحمل الصليب واتبع .

✠ وأن صلبت معه مثل اللص، فاعرف الله كمثل من حسن اعتقاده، وأنه هو قد حسب مع ذوي مخالفة الناموس بسببك وبسبب خطيتك، فكن أنت من أجله تابعاً للناموس، واسجد وكن لمن علق بسببك .

✠ وإذا علقت فاذبح شيئاً من الشر، واتبع الخلاص بالموت، وادخل مع يسوع إلى الفردوس، لكي تعلم لماذا سقطت، وانظر إلى ما هنالك من الجمال، واترك من يشتد ذلك عليه براحته، يموت بفكره وتجديفه.

✠ وإن كنت يوسف من الرامة، فسل عن الجسد واطلبه من الصالب، وليكن لنفسك الطهر الذي كان لسائر العالم .

✠ وإن كنت نيقوديموس المكرم لله ليلاً، فحنطه بالطيب .

✠ وإن كنت مريم، أو مريم الأخرى، أو سالومى، أو يوانا، فدِّمع سَحَراً، وانظر إلى الحجر مرفوعاً قبل غيرك، لعلك تبصر الملائكة، ويسوع بعينه، وانطلق حتى تسمع صوتاً .

✠ فأن سمعت لا تمسسني، فقف بعيداً وأكرم الكلمة، ولكن لا تغتم، فهو يدري لمن يظهر في الأول، وجدد القيامة وأعن حواء أول من سقط وأول من حيّا المسيح وأخبر التلاميذ، كن كبطرس أو يوحنا، وأسرع إلى القبر سابقاً ومتوقفاً، أو حس في المباراة، وإن تقدمت وسبقت بالسرعة، فاغلب بشدة الحرص، ولا تتطلع في القبر بل صر داخلاً .

✠ وإن تأخرت مثل توما عن التلاميذ الذين ظهر لهم المسيح، فإذا ما رأيته فلا تشك، وإن شككت فصدق القائلين، وإن لم تصدق هؤلاء فثق بآثار المسامير .

✠ وإن انحدر إلى الجحيم فانحدر معه، واعرف ما هناك من سرائر الله، واعرف ما هو التدبير في النزول المضعف وما علته، وما القول في ذلك هل يخلص بالجملة في ظهوره كل أحد أم يخلص هناك من قد آمن .

✠ وإن صعد إلى السماء فاصعد أنت معه، وكن مع الملائكة المشيعين والمستقبلين، ومُرِ الأبواب بأن ترتفع وتفتح، بل تصير أرفع مما كانت، لتقبل الذي صار من الآلام أرفع، واجب الذين يتشككون بسبب الجسم، ومن أجل آثار الصلب التي لم ينزل بها ولكنه أصعدها معه، والمتسائلين لأجل ذلك من هذا ملك المجد؟ فقل أنه الرب العزيز القويّ في جميع ما صنعه ، وهو أبداً صانعه، وكذلك في قتاله الآن عن البشر وطرقه وأعطِ جواباً مضعفاً عن المسألة المضعفة .

الرد على المقاومين

فإن تعجبوا وقالوا بحسب معجوب إشعياء مَن هذا القادم من أدوم، ومن البشر الأرضيين، وكيف ثياب الذي لا دم فيه ولا جسم له حمراء ناصعة كثياب دائس المعصرة، قد وطئ معصرة مملوءة، فاحتج في ذلك بجمال ملبوس الجسم الذي تألم، المجمل بالألم، والمتلألىء باللاهوت، التي ليس شيء أبر منها ولا أجمل .

ففي هذا ماذا يقول لنا أصحاب الشتمة والثلب، الذين يتصنعون مرارة في محاسبة اللاهوت، ثلابو الممدوحات والمظلمون عند الضوء، وعديمو الأدب عند الحكمة، الذي مات المسيح عنهم مجاناً، البرية الغابة، خلق الشرير وطينته .

يابائس، أهذا الذي تذم من الله، إحسانه إليك!!، أمن أجل هذا هو عندك صغير، لأنه من أجلك تواضع، أفلأنه جاء الراعي الصالح الذي وضع نفسه عن الخراف، طالباً الضالة على الجبال والروابي، التي عليها كنت تضحي، فوجد الضائع، ولما وجده حمله على منكبيه، التي كانت على

عود الصليب، وأخذه فقاده إلى الحياة العليا، وأصعده وجعله في عدة الذين هم أبداً باقون .

أو لأنه أوقد سراجاً هو جسمه، ونظف البيت، أي طهر العالم من الخطية، فطلب الدرهم أي الصورة الملكية التي كانت ، في الأهواء قد اندفنت، ودعا القوات اللاتي هى عنده محبوبات عند وجدانها، فجعلن في السرور مشاركات، إذ كن بتدبيره منذرات، أو لأن الضوء الزائد نوره نبع المصباح، وشقح الصوت النطق، وأتبع الختن للمصاهر به الذي تقدم، فأصلح للرب شعباً خاصياً، وسبق فطهر بالماء، قائداً إلى التطهير بالروح .

أفي مثل ذلك يا هذا تلوم إلهك، وتتوهم ما قصر، لأنه اتزر بمئزر وغسل أرجل تلاميذه، وبين أن التواضع هو الطريق الأفضل إلى الرفعة، أو لأنه اتضع من أجل النفس التي قد انكبت إلى الأرض، حتى يرفع ما كان من قبل الخطية انهوى إلى أسفل .

فَلِمَ لا تذم ذلك من فعله، أنه كان يأكل مع العشارين وجباة الضرائب، وتلمذهم حتى يربح منهم شيئاً، وإن قلت لي ما هو؟ بينت لك، أنه خلاص الخطاة إن لم يكن إنسان يلوم الطبيب إذا ما تطلع في الجراحات وصبر على الكريه من الروائح، لكيما يعطي الصحة للمتألمين .

أو يكون آخر أيضاً يلوم الذي ينحدر إلى البئر تحنناً، كي ينقذ البهيمة التي قد سقطت، ويخلصها بحسب ما أمر الناموس .

أنه قد أرسل ولكن من حيث هو إنسان، ولذلك قد تعب، وجاع وعطش، واكتأب ودمع، كل ذلك بناموس الجسم، وإن كان مع ذلك إلهاً، وكأني بك تسأل عن هذا ما هو، فأعرفك أن سبيلك أن تتصور في مسرة الآب وإيثاره، أن ذلك هو الإرسال والمرسل، فهو الذي يرفع إلى ذاك جميع ما يخصه، ويكرمه كما يكرم الابتداء الذي لا يدانيه زمان، ومع ذلك فحتى لا يظن به أنه يظهر بمظهر نقيض لله ولئن قيل أنه أسلم فلقد كتب فيه أيضاً أنه أسلم نفسه .

الميسح أقام نفسه والآب أقامه

وقد يقال أيضاً أن الآب أقامه وأصعده، إلا أنه يقال مع ذاك أنه أقام نفسه وأصعدها .

✠ أما القول الأول فمن حيث مسرة الآب .

✠ وأما القول الثاني فمن حيث سلطان الابن .

إلاّ أنك تقول ما نقص، وتتجاوز عما رفع، وتعتقد أنه تألم، ولا تضيف إلى ذاك أنه تألم طائعاً، ومثل ذلك فقد تألم الكلمة، والآن في أنه من قبل قوم يكرم بأنه إله، فيمزجونه، وأما من قوم آخرين فهو يهان، ويقال أنه جسم مجزئين له، فعلى مَن تغضب من الفريقين أكثر، وعن مَن تصفح عنه أفضل، أعن الذين يجمعون جمعاً ردياً، أم على الذين يفصلون، وقد كان سبيل أولئك أن يفصلوا، وهؤلاء أن يجمعوا، أما بعضهم فبالعدد، وأما الآخرون فباللاهوت .

فقل يا هذا، هل الجسم هو الذي يعثرك، ذلك هو الذي عثر به اليهود، أو عسى أن تدعوه سامرياً، وما بعد ذلك فأنا ممسك عنه، أو تكفر باللاهوت، فأن ذلك ما يجسر عليه ولا الشياطين .

فيا من هو أشد كفراً من الشياطين، ويامن هو أقل معرفة من اليهود، لأن أولئك توهموا في اسم الابن أنه مساواة في الكرامة، وهؤلاء استحوا من الإله الذي كان يطردهم، وكان أقنعهم مما كان يؤلمهم، وأما أنت فلست تقبل المساواة ولا تعترف باللاهوت، وقد كان الأجود لك أن تختتن وتصير شيطاناً .

وإن قلت في ذلك مضحكاً، من تكون في غلفه وصحة وأنت شرير ولله معاند، إلاّ أن معاندة أولئك وقتالهم، إما أن تنحل في وقت من الأوقات إذا ما عفوا أن شاءوا، وإما يترك إذا لا يشاؤون بل يكونون على حالهم، ونحن مع ذاك فلسنا على الثالوث خائفين، وأن نكون عنها مجاهدين، وأما الآن فالضرورة داعية لنا إلى أن نختم القول بما نحن ذاكروه، أنّا صرنا لكي ينالنا حسن، ونلنا الحسنى لأننا صرنا، أوتمنا على الفردوس لنتنعم، أخذنا وصية لننفوز إذا ما حفظناها، ولم يكن الله غير عارف بما سيكون بل قد كان عارفاً، ولكنه وضع ناموساً على الاقتدار، أعني السلطة الذاتية فانخدعنا لأنه حسدنا، وسقطنا لأنّا خالفنا، وصمنا لأنا لم نصم عن شجرة المعرفة بالامتناع منها، والوصية فكانت قديماً ولنا في الزمان مساوية، كانت للنفس مأدبة وردعاً عن الزيادة في اللذة، ورسم لنا ذلك بحسب ما أشبه حتى يكون الشيء الذي سقط عنا لما لم نحفظه، سنعيده الآن إذا حفظناه .

احتجنا إلى الإله يتجسد ويموت لنعيش، ومتنا معه حتى نتطهر، وقمنا بقيامته لأننا متنا بموته، وأما العجائب التي كانت في ذلك الوقت فكانت كثيرة، منها إله مصلوب، وشمس مظلمة، ومع ذلك ملتهبة، أي عائدة إلى ضوءها، لأنه كان ينبغي أن يتألم مع الخالق خلائقه، ومن ذلك أيضاً ستر تمزق، ودم مع ماء انصب من جنب أحدهما، من حيث يشبه الإنسان، والآخر فوق البشرية، وكان من ذلك أرض تزلزلت وصخور تقطعت، وأموات قاموا بياناً للقيامة الأخيرة المشتركة، وما تبع القبر أيضاً من الآثار، وما كان بعد القبر، فمن الذي يمكنه أن يسبح ذلك بمقدار ما يستحقه، إلاّ أنه ليس شيء أعجب من أعجوبة خلاصي أنا، وأن قطرات من ماء ودم يسيرة جبلت العالم كله وصارت كأنها عصارة، واختلطت بلبن في سائر الناس، ربطت جماعتنا إلى شيء واحد .

فيا فصحاً عظيماً طاهراً، وطهر لسائر العالم، ها أنا أخاطبك مخاطبة ذي نفس، يا كلمة الله التي هى نور وحياة، وحكمة وقدرة، أني لمسرور بجميع أسمائك، يا من هو للعقل العظيم ولد، ونهضة، وخاتم، يا كلمة معقولة، وإنساناً مبصراً، يا من هو حامل الأشياء كلها، ورابط لها بكلمة قوته، دونك الآن هذا من قولي، لا تقدمة أوله، بل تماماً، لعلة يكن لما قدمناه وقرأناه، فهو بعينه شكر معاً، وسؤال في ألاّ ينالنا ما فيه شقوة، وخارجاً عن الضروريات الظاهرة، التي عشنا معها، وأن تكف مع الجسم الاضطهاد التي علينا، فأنك ناظر يا رب إلى مقداره، وأنه قد أخبأ وحط أو فحل بنا قضيتك إن كنا قد تطهرنا عندك، وإن قضينا بحسب الشوق، فنقبل في المنازل السمائية، وحتى أن نضحي لك هناك ضحايا مقبولة على مذبحك المقدس، أيها الآب والكلمة والروح القدس لأن لك المجد كله والكرامة والعز إلى دهر الأدهار آمين .

الميمر التاسع

ميمر قاله في الأحد الجديد
وفي الربيع وفي القديس ماما

الميمر التاسع
ميمر قاله في الأحد الجديد
وفى الربيع وفى القديس ماما

إن إكرام التجديد سُنَّة عتيقة، وأن حالها لحسن، إلاّ أن إكرام الحديثة بالتجديد، أجدر على أن لا يكون ذلك في مرة واحدة، بل مِراراً في كل ما عادت السنة بدورها، فأعادت ذلك اليوم بعينه، حتى لا يفني الزمان الأشياء المحمودة، ولا تندفن وتزول في أعماق النسيان .

وذلك أن الجزائر تتجدد إلى الله عند إشعياء، بحسب ما قد قرأناه، وينبغي أن نرى في هذه الجزائر بحسب ظني، أنها كنائس الأمم وجماعاتها التي هى الآن قد تزينت، وطرحت عنها الكفر المملوء ملحاً، واتخذت لله أساً ثانياً .

وقد تجدد عند نبيّ آخر سور نحاس، وذلك هو النفوس من حيث تقديري، الجلدة التي ذهب لونها ودنسها في حسن العبادة جديد يمكنه .

ونحن فقد أمرنا أن نسبح الرب تسبيحاً جديداً، ومن كان منا قد انسحب إلى بابل، وانصب إلى الخلطة الخبيثة مقهوراً من الخطية، ثم تخلص إلى أورشليم بعد ذلك، فتم ما أمكنه أن يسبح التسبحة الإلهية، كأنها كانت في أرض غريبة، وهو ههنا، أي الموضع الذي انتقلوا إليه، يقيم تسبيحاً جديداً، وسيرة حديثة، ومن كان من الذين ثبتوا في الخلال المحمودة، وزادوا فيها نجاحاً، فمنهم من قد تقدم بشيء من إصلاح حاله، ومنهم من هم في إصلاحه بتأييد الروح المجدد.

وقبة العهد فقد كان يعيد لها التجديد، ويتناهى فيه جداً، وهى التي الله أراها، وبصلائيل تممها، وموسى نصبها.

ومملكة داود قد كانت تجدد أكثر من مرة، في وقت ما دهنوه، وفى ما دعوا له بالملك ثانياً.

وقد قيل أنه كان التجديد في أورشليم، وكان الوقت شاتياً من الكفر وقلة الأمانة، فحضر يسوع الإله والهيكل معاً الإله الزائد على الزمان والهيكل المتحدد فيه، المنحل في يومه، القائم في ثالثه، الثابت إلى الأدهار،

ولكيما أتخلص أنا وأستقيل من عثرتي القديمة، وأصير جبلة جديدة، مجبلاً بهذا من جنان .

ويلتمس داود الإلهيّ قلباً في ذاته نقياً، وروحاً مستقيمة في أحشائه مجددة، ولم يلتمس ذلك من حيث لم يكن له حنان، ومن كان أجدر من داود بأن يكون له ذلك الذي هذا مقداره، ولكنه إنما كان يعرف الجدة، من هذا الذي تجدد الآن في هذا الوقت .

ولما لي أحتاج إلى أكثر من هذه التجديدات، وقد يمكنني أن أعرف هذه الأشياء الحاضرة، وما قد نعيد له في هذا اليوم، عندما دنونا من الحياة بعد الموت، فعيدنا هذا يا إخوه تجديد وتجديد، وسبيل ذلك أن يقال دفعات من معنى الالتذاذ به، وما ذلك فأنتم يا عارفين علموا به، ويا جاهلين جددوا سماعكم لسماعه، أن الله لنور واحد لا يستطاع الدنو منه ولا يدانيه، أنه لا يتبدل، لا ابتداء له ولا نهاية ولا عدد، نوره دائم، ضوءه مثلث مبصر عند قوم يسيرين بحسب ما هو، وقد أظن ولا عند اليسيرين أيضاً من الأنام مبصراً كاملاً .

والقوات التي حوله والأرواح التي تخدمه فهي أنوار ثانية، متشعبة من الضياء الأول، وأما هذا الضوء الذي عندنا، فليس شأنه أن أبتديء به أخيراً، بل قد يقاطعه الليل، ويقاطع هو الليل بمساواة في الفعل، قد أوتمن البصر عليه واندفق في الهواء فقد يأخذ ما يعطي من حيث يهب للبصر النظر، وقبل ذلك فيبصره البصر، وإذا ما انبسط على المبصرات جعل لها دالة، أي اقتداراً على أن يدرك، فلما أراد الله أن ينير هذا العالم المبتري المقوم من المبصرات المنير الكبير بعظمته العجيب في حكمته وقد كان هو للازليين نوراً ولم يكن شيء غيره إذ كان لا حاجة بالذين لهم النور العظيم إلى ضوء ثانٍ .

وأما أهل الأرض ومن يجرى مجرانا فقوة هذا الضياء هى التي يسوقها علينا في الأول، ولقد كان من أليق الأشياء بالنور الأعظم أن يبتديء من الضوء في بريته الذي به حل الظلمة، وما كان إذ ذاك من قلة النظام وعدم الجمال، إلاّ أنه ما أظهره في الأول في آلة ولا في الشمس على رأيي، بل جعله بغير جسم ولا شمس، ثم بعد ذلك دفعه إلى الشمس لتضيء وينير سائر المسكونة، لأنه في غير هذا من المخلوقات قدم الهيولىّ، ثم صورها وجعل فيها بعد لكل شيء ترتيباً وشكلاً وعظماً، فأما ههنا فلأنه أراد أن يأتي بأعجوبة عظيمة جداً، فلذلك قدم الصورة على الهيولىّ، لأن الضوء هو صورة الشمس، ثم بعد ذلك اتبع بالهيولىّ، وخلق هذه الشمس عيناً للنهار، فمن ههنا صار يعد في الأيام، يوم أولاً وثانياً

وثالثاً، وما بعد ذلك إلى اليوم السابع، الذي هو يوم الراحة من الأعمال والسكون، وهى الأيام التي انقسمت فيها الكائنات، لتكون مرتبة على أصول، ولا توصف ولا تكون آتية جملة بواحدة، وإن كان صانعها كلمة قادرة، الوهم عنده والقول وحده فعل حاضر، وعمل كامل .

وإن كان الإنسان ظهر أخيراً، على أنه قد كان بيد الله وصورته مكرماً، فليس ذلك بعجب، لأنه كما قد يجب أن يصلح للملك منازل مكرمة، ثم بعد ذلك ينزلها، والكل تخدمه وتحجبه، كذلك كان هذا في خلقه، ولو كنا بقينا كما كنا وحفظنا الوصية، لقد كنا صرنا ما لم نكن، فتقدمنا إلى شجرة الحياة بعد شجرة المعرفة .

فإن سألتني ما الذي كنا نصير، قلت لك إن الموت كان قد نفي عنا، ودنونا من الله، إلاّ أنه لما كان الموت دخل إلى العالم بحسد الشرير، واختطف الإنسان بالخديعة، لذلك تألم الإله بالألم الذي نالنا وصار إنساناً، وتفاقر لكي ما نستغني نحن بفقره، فمن ههنا صار موت ودفن وقيامة، ومن ههنا تجديد الخليقة، والعيد بعد العيد، وصرت أنا أيضاً معيداً، ولخلاصي مجدداً .

الأحد الجديد

فماذا يقول قائل؟ قد يقول: ألم يكن الأحد الأول هو الذي كان التجديد، وهو الذي كان بعد تلك الليلة الظاهرة المصابيح، بل أنت لهذا اليوم تعطي ذلك يا محب الأعياد، المحتال فيها بأصناف من البهاء والتبجيل .

فأقول أما ذاك اليوم فكان الخلاص، وأما هذا فهو ميلاد الخلاص، وأما ذاك اليوم فكان الفرز للدفن والقيامة، وأما هذا فهو جد المولد الثاني ببيان، حتى يكون كما ابتدأت الخليقة الأولى يوم الأحد، ومن ذلك اليوم فبين أن السبت سابع، وهو الراحة من الأعمال، وكذلك الخليقة الثانية من الأحد تبدأ، الذي هو أولٍ لما يتلوه، وثامن لما تقدمه، وهو يوم

أرفع من يوم رفيع سبقه، وأعجب من عجيب سلفه، لأنه يوم مؤدي إلى السيرة العليا .

وقد رمز إليه سليمان الإلهيّ على ظني في قوله ورسمه ناموسه، أن يعطى السبعة جزاءً أي هذا العمر والعالم، بل والثمانية أي الدار الأخيرة، من حسن الحال ههنا وما يوصل إليه هناك(جا١١ : ٢) .

وقد شبه أيضاً داود العظيم، أن يكون في هذا اليوم يرتل المزمور الذي من المزامير، التي نسبها إلى الثامن، بحسب ما جعل لهذا يوم التجديد، مزمور آخر سماه تجديد منزل ما، والمنزل فهو نحن الذين استحقينا أن نسمى ونكون لله منزلاً وهيكلاً، قد حصل لكم الكلام على التجديد والقول فيه، ولكن تجددوا واطرحوا الإنسان العتيق، وسيروا في جدة الحياة، واجعلوا لجاماً على كل شيء يتكون منه الموت، وأدبوا سائر الأعضاء، واشنوا كل طعام خبيث آتي من شجرة الخبث، واذكروا الأشياء العتيقة لهذا المعنى وحده لنهرب منها، فقد كانت الثمرة التي أماتتني جميلة في المنظر وحسنة في المأكول، فسبيلنا أن نفر من حسن الألوان، وننظر إلى ذواتنا وحدها .

حكم وإرشادات

✠ فإياك أن تغلبك شهوة حسن، وإياك أن تخطفك ألحاظك ولو بطرفة، وإن أمكنك أن تتوقاها من حيث تتذكر حواء الطعم الحلو بالخديعة الدواء المكره، فكيف يسهل أن تخلص الغريبة من أوردته الخصيصة .

✠ احذر أن تنحل منك الحلق، الذي به تختار كل ما تتناوله، فهو مكرم قبل أخذه، ومهان بعد حصوله، فأن المشم منك مرة قد تخبث، فاهرب من الروائح الطيبة الخبيثة، وباللمس قد تلبثت واسترخيت، فانصرف عما لانَ ونَعُمَ .

✠ والسمع الذي أقنعك وغرك، فضع باباً فيما بينك وبين كلام الغرور والحيل .

✠ وافتح فاك بكلمة الله، حتى تجدد روحاً ولا تقبض موتاً .

✠ وإذا خدعك شيء من المحظورات فأذكر من كنت ومن أين ضللت .

✠ وإن هفوت قليلاً فحدثَ يسيراً عما ينبغي، فعد إلى ذاتك قبل أن تسقط بالكلية وتقع إلى الموت، وصر جديداً بعد عتيق، وعيد لنفسك تجديداً .

✠ والغضب فليكن لك على الأرقم (الحية) وحده الذي من أجله سقطت .

✠ والشهوة فلتمد لك كلها وتصب إلى الله لا إلى شيء آخر مما يغتال وفى داخله الخطر .

✠ والفكر منك فليملك كل شيء ولا تقتدرنَّ على جليل منه فتحيده إلى الدون .

✠ ولا تمقت أخاك ولا سيما مجاناً، وعنه مات المسيح، وصار لك أخاً وهو إله وسيد .

✠ لا تحسدنَّ من استقام أمره، وأنت فقد حسدت وأجبت إلى أن تحسد، ومن أجل سقطتي لا تهن دمعة، وقد لحقك ما يستحق دموعاً كثيرة ثم بعد ذلك رحمت .

✠ لا تدفع مسكيناً وقد استغنيت بغنى هو اللاهوت، فأن لم وإلا فلا تستغن من المسكين، وهذا فشيء قد يكثر عند الذين لا يشبعون .

✠ لا تستهن بغريب من أجله تغرب المسيح، ونحن فغرباؤه وأضيافه أجمعون، حتى لا تصير من الفردوس غريباً، كما صرت في الأول، إنك لمحتاج سكناً وعطاء وطعاماً، وأنت متنعم من ذلك بما يزيد على حاجتك، ولا تختر غنى إن لم تعن محتاجين .

✠ يا من صُفِحَ له اصفح، ويا من رُحِمَ ارحم، واقتن بالتحنن على البشرية الحنان على ذاتك، وما دام لك وقت فلتتخذ ذلك العمر كله، وكل طريق من طريق السير .

✠ يا من هنَّ تحت نير، أعطين الله شيئاً، لأنكن قد ملكتن، يا من هنَّ عذارى أعطين الكل لله، ولا تكنَّ مطلقات، وإياكنَّ أن تسرقن لذة عنده، من حيث الهرب من الحرية، من مساكنة من ليس هم رجال وهم على كل رجال، لأنني لا أرى ممارسة تذكرات اللذة، فمن ههنا قد أبغض ما قد جرى بالهوى من عادة .

✠ يا من كان من أولي المقدرة افرقوا من القادر، ومن كان من ذوي المنابر العالية فاجزعوا من الإعلاء .

✠ لا يعجبك شيء إذا ما كان لا يثبت، ولا تغفلن عما هو ثابت، ولا تتمسك بشيء يسيل وأنت ماسكه، ولا تغتبط بشيء تحسد عليه وليس هو بأهل أن يكون محسوداً، بل مبغضاً ممقوتاً .

✠ لا ترتفع عظيما لئلا يكون سقوطك أعظم من ذلك .

✠ لا تعتقد أن تصير أفضل من الأشرار في الشر، بل ليحزنك إذا ما كنت انقص من الأخيار .

✠ لا تضحك على سقطة القريب، وتحرز في مسالكك بمقدار كل قوتك، وابسط يداً إلى من كان في التراب موضوعاً .

✠ وإذا كنت في حزن وشقاء فلا تيئسنَّ من أن تصير إلى رخاء، وإذا ما كنت أيضاً في رخاء فلا تأمن من شدة وضرٍ، فأن السنة الواحدة تأتي بأربعة أوقات، وطرفة من زمان، تورد في أمور كثيرة تغييرات، والهم منك فليقطعك عن اللذة، والغم فليحجبك عنه الرجاء الحسن، فمثل هذا يتجدد الإنسان، وكذلك يكرم يوم التجديدات بمثل هذه الأغذية، بمثل هذه الأطعمة، فأنه قد قال إياك أن تظهر فارغاً قدامي (سيراخ ٣٥ : ٦) بل حاملاً معك كل شيء ما وصلت إليه من شيء حسن، فسبيلك الآن أن تظهر جديداً على معنى آخر، وتكون متغيراً إذ كان القديم قد مضى وقد صار كل شيء جديداً .

✠ وهذا العيد فأثمر وغير كل شيء بحسب ما حسن من التغيير، ثم بعد ذلك فلا تتعظم بفكرك، بل انطق بما قاله داود، أن هذا الغيار هو غيار يمين الرب، الذي منه للبشر اصلاح أمورهم، والكلمة فليس تزيد منك، إن تثبت على شيء واحد، بل تكون دائم الحركة، وحسن الحركة، على حال جديد البنية .

✠ إن كنت قد أخطأت فمثيباً وإن كنت على الصواب فزايداً منيفاً، قد كانت لك بالأمس أمانة بالأزمان، وسبيلك اليوم أن تعرف الأمانة بالله، إلى متى تغمز وتعرج على ماضيك، إلى متى تتبع السياسة وتتوقف، فانشط في وقت أن تكون قد أحكمتها وبلغت .

✠ قد كنت بالأمس تحتفل بأن يظن بك ظناً، واليوم فاختر على ذلك أن تتحقق الأمر فيك، إلى متى تكون الرؤيا والمنامات، قد أن للحق أن تقصده وتتوخاه .

✠ قد كنت بالأمس نظرياً، فكن اليوم عملياً .

✠ قد كنت بالأمس شتوماً غشوماً، فكن اليوم لطيف اللفظ وديعاً.
✠ قد كنت بالأمس لعاباً فكن اليوم عفيفاً، وكن اليوم شارباً رحيفاً، وفى غد شارباً زلالاً .
✠ أنت اليوم تتبختر على الأسرة العاج، وتتغلف بالرفيع من الطيب، فكن في غد على الحضيض نائماً، وطول الليل ساهراً .
✠ وبدل ما كنت بالزينة متصففاً، فتقصد ما شنا من اللباس .
✠ وبدل ما كنت هائجاً متجبراً، فتكون في ظاهر أمرك ديِّناً .
✠ وبدل ما كنت ذا سقف مذهب فتصير ذا ضيقة، ويكون نظرك إلى الأسفل، بدل ما كان عنقك إلى العلا ممتداً .
✠ فإن أنت جعلت هذا في فكرك، وصار هذا من فعلك، صارت لك السماء جديدة، والأرض حديثة، وصرت عارفاً بأصول ما ذكرناه وغيرها .
✠ ولكن سبيلنا أن ننصرف وقد عيدنا للوقت بما يشبه الوقت، إذ كان كل شيء يستأثر هذا المرسم لمحاسنه، ويشارك في مسرته .
✠ فانظر كيف صورة المبصرات، أن المُلك من الزمان هوذا يزف مُلك الأيام ويحجبه بأحسن ما عنده وأطربه، فالسماء الآن شديدة الضياء، الآن الشمس جلية وذهبية المنظر، وكرة القمر عظيمة البهاء، ومواكب الكواكب تامة النقاء، الآن الأمواج تنضح على السواحل، وتصير إلى الشمس الغمام، وإلى الهوى الرياح، والأرض إلى النبات، والنبات إلى الانضار، لأن العيون قد زاد نبعها ونُقيت وشُفيت، الآن الأنهار قد سمحت، ومن رباطات الشتاء قد انحلت، الآن الجنان قد طابت بأريج الروائح، والأشجار قد أزهرت، والمروج والرياض فللحر والحد قد تهيأت، والحملان بخضرة الآن قد طربت .
✠ الآن السفن من الموانى قد خرجت بالتكثير والتهليل الذي أكثره من محبة الله، وطير بالقلوع، ورقص الدلفين وتنفس بلذة ويصعد بقدرة، وبذرق أهل السفن بفرح وسرور، الآن قد أضمد الأكار قنقنة واستجار معطي ثمرة، وأدخل ثورة العمال تحت نيره، وقطع في الأرض خطوطاً حلوة، وفرح بالأمل قلبه .
✠ الآن راعي البقر وراعي الغنم يصلحان الصفارات، ويترنمان بلحن رعائيّ، فينشروا الأشجار والصخور بالربيع، الآن الفلاح يفلح نباته،

والصياد بالدبق ينصب براعه ويرصد الأغصان، وصياد السمك يطلع وينظف شباكه، وعلى الصفا ينشرها، الآن النحلة محبة العمل قد خلصت جناحيها، ووقفت على قرص شمعها، وأظهرت حكمتها، وتطيرت نحو الجنان، وسرقت الأزهار، فالواحدة تصلح في الشمع الثقات المسدسات والمبراونات، وينشحط بالخطوط المستقيمة، ويجمع في عملها جمالاً وجرزا، والأخرى توعى العسل في المخازن، وتعد للصيف ثمراً حلوا لم يتعب فيه حراث .

✠ ويا ليتنا نحن جميع نحل المسيح، تأسينا بمثال منها في الحكمة والنشاط، والآن فالطير تعبي الأعشاش، فواحد يعود، وآخر يقيم، وغيرهما يطير، والآخر فيطرب، الغراب بما يورده من النغم والأصوات، ويجاوب بذلك الجماعة من الناس، فكل شيء لله مسبح بنغم حسن، وعلى كل شيء بشكرك الله، ولذلك نحن فنهدي كل حاسة لتصير سبحاً، تلك لنا، ومن تلك فلنتخذ أناء التسبيح، إلاّ أن كل جنس حيوان يضحك الآن .

✠ الحصان الهائج الزعر المتجبر يصعب عليه المقام في البيوت، ويغضب على العقال، ويقفز في المروج، ويتبختر عند الأنهار .

مديح للشهيد ماما

ولما لي لا أقول غير هذا وههنا الشهداء قد انكشفوا، وظهروا داعين للشعب المحب للمسيح، وشهروا جهادهم، والواحد منهم هو متوخي وصاحي، وإن كان ليس عندي فليسقط الجسد، إذ كان قولي لمن يعرفه، وهو ماما العظيم صفته وذكره، من راع وشهيد، قد كان في الأول يجلب التخمورات وهى تتسابق إليه، لكي يتغذى صديق بلبن عجيب غريب، وهو الآن يرعى شعب أم مدن، و يجدد الربيع اليوم بآلاف كثيرة، وقد تداركت عن كل ناحية بأنواع من جمال الفضيلة، وقد جعلوها أهلاً لرعيتهم مستحقة، من أقوال منهم ترافق الغلبة، وبالجملة فأنا أقول قولاً موجزاً .

الآن ههنا ربيع عالميّ وربيع روحانيّ، ربيع النفوس وربيع الأجسام، ربيع يبصر وربيع لا يبصر، نحن نسأل منه في النوال بمجازاة نجازاها ههنا، وزاد نتزوده من هناك، إذا ما انصرفنا جديدين إلى عمر

جديد، بيسوع المسيح ربنا الذي له كل مجد وكرامة وعز مع الروح القدس مع مجد الله الآب آمين .

دير السيدة العذراء المحرق

الميمر العاشر

قاله فى العنصرة وهو حلول الروح القدس على التلاميذ

الميمر العاشر
قاله في العنصرة
وهو حلول الروح القدس على التلاميذ

سبيلنا أن نتفلسف في العيد قليلاً، ليكون تعييدنا روحانياً، وذلك أن لكل أحد عيد يخصه، وأما خادم الكلمة فعيده النطق، ومن النطق ما كان للوقت شديد الموافقة، وليس شيء حسن يسر هكذا لأحد من مؤثري الحسنات، مثل من لا يود إلاّ عيداً للمواسم روحانياً، ويجب علينا أن ننظر هذا، وذلك أنه قد يعيد اليهود، ولكن من حيث الكتاب، لأن قصد الناموس الجسدانيّ لم يصل إلى الروحانيّ، وقد يُعيّد أيضاً الصابيء ولكن من حيث الجسم، وعلى مذهب آلهته وشياطينه، الذين منهم من أبدع عوارض الفساد على رأيهم بأعيادهم، ومنهم من كان تكريمه من هذه الأغراض، ولذلك صار تعييدهم مضاهياً للفساد، حتى يكون تكريم الله عندهم الإثم بعينه، فيقدمون إليه الفساد كأنه محمدة .

وأما نحن فنعيد أيضاً، ولكن بحسب رأينا في الروح، والرأى عندنا إما أن نقول شيئاً مما ينبغي، وإما أن نعمله، وهذا هو تعييدنا أن تخزن النفس شيئاً مما يثبت وينضبط، لا مما ينحل وينصرف، ويطرب الحس قليلاً ويفسده كثيراً ويضربه بحسب القول عندي، وقد يكفي الجسم شر ذاته، فلما للهيب أن يزاد مادة، ولما للوحش يذداد طعاماً حتى يزيد التمكن منه بعداً، ويصعب على الفكر انقياداً، فمن ههنا يجب أن نعيد تعييداً روحانياً .

فأول الكلام ما يجب أن نقوله، وإن طال القول قليلاً، ويجب على وامقى الكلام أن يوثروا التعب في ذلك، لنخلط ذاك في هذا الموسم، مثل ملذة ما، وذاك أن أولاد العبرانيين، يكرمون السابوع على سنة موسى، كما أكرم أصحاب يوثاغورس الرابوع عندهم، الذي جعلوه لهم قسماً .

وكما أكرم السمن ومركين عدد التمانية، وعدد الثلاثين، فقد سموا دهورا تساوي ذلك في العدد وكرموها، ولست أعلم على أي رأى وقياس رأياه قوة لهذا العدد يكرمونه بها ولكن على كل حال هم لذلك يكرمون .

السبت اليوم السابع

إلاّ أن الظاهر في ذلك أن الله جلَّ وعزَّ في ستة أيام أبدع الهيولىّ وصوّرها، وزين هذا العالم المبصر بأنواع وصور شتَّى، فلما كان في اليوم السابع استراح، بحسب ما يدل عليه اسم السبت، لأنه يدل على الراحة بالعبرانية، فإن كان ههنا رأي آخر أشرف من هذا، فيتفلسف فيه غيرنا، والكرامة عندهم فليست في الأيام وحدها، بل وإلى السنين واصلة، وكرامة الأيام ولدت لهم هذا السبب الذي يكرمونه دائماً، وعليه من عدد رفع الخمير عندهم .

وأما كرامة السنين فمنها صار السابع منها عام الصفح والتسريح، وليس الكرامة عندهم في السوابيع وحدها، بل وفى سوابيع السوابيع، وذلك متساوي عندهم في الأيام والسنين، فأما سوابيع الأيام فولدت لهم اليوم الخمسين، يوماً مدعواً مقدساً، وأما سوابيع السنين فولدت العام الذي يسمونه أوتيلاوس (اليوبيل)، وفيه يكون عندهم تسبيل الأرض، وعتق العبيد، وإطلاق ما اقتني بثمن، فهذا اليوبيل، ليس يزكي عن الغلات والأبكار وحدها، بل قد يزكي لله عن الأيام والسنين .

فعدد السبعة المكرم عندهم تهب كرامة البنطقستي، وذاك أن السبعة إذا ضعفت بمثلها كانت خمسين إلاّ واحدا، وهو اليوم الذي أخذناه من الدهر المستأنف، وهو بعينه يوم ثامن وأول، بل هو واحد لا ينحل ولا يزول، فهناك ينبغي أن تنتهي أسباب النفوس، كما يجب أن يعطى الجزء للسبعة، بل للثمانية بحسب ما رأى قوم، ممن كان قبلنا، من مقال سليمان الحكيم .

إلاّ أن إكرام السبعة له شهادات جملة، فيكفينا قليل من كثير، كما ههنا سبعة أرواح كريمات سميت، لأن إشعياء كان عندي يؤثر أن يدعو أفعال الروح أرواحاً، وكلام الرب مطهر سبعة أضعاف عند داود "كَلَامُ

الرَّبِّ كَلاَمٌ نَقِيٌّ كَفِضَّةٍ مُصَفَّاةٍ فِي بُوطَةٍ فِي الأَرْضِ مَمْحُوصَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ " (مز ١٢ : ٦) والصديق فست دفعات يخلص من الشدائد وأما السابعة فهو فيها غير مخروج " فِي سِتِّ شَدَائِدَ يُنَجِّيكَ وَفِي سَبْعٍ لاَ يَمَسُّكَ سُوءٌ " (أي ٥ : ١٩) وأما الخاطيء فمصفوحاً عنه ليس سبع دفعات وحدها بل سبع في سبعين(مت١٨ : ٢٢)، وبضد ذلك فممدوح عقاب الشر، فقايين الثأر مأخوذٌ منه سبع مرات (تك ٤ : ١٥)، أي مطالب بالنيل عن قتله أخيه، وأما لامك فمؤدي ذلك سبعاً في سبعين (تك ٤ : ٢٤)، وأما الذين كانوا ذوي شرور من الجوار، فكانوا آخذين في أحضانهم سبعة أضعاف(مز ٧٩ : ١٢) ما بدر منهم، وبيت الحكمة فكان مدعوماً من العمد بسبعة(أم ٩ : ١) وحجر زربابل فبعدد ذلك عيوناً كان مرئياً(زك ٣ : ٩) والله مسبَّح بالتسبيح سبع دفعات في النهار(مز ١١٩ : ١٦٤)، والعاقر ولدت سبعة وأتت بالعدد الكامل التي هى ضد بمن كانت غير تامة في الأولاد(١صم ٢ : ٥) وإن استدرجت إلى النظر في السير العتيقة وجدت أخنوخ السابع في السالفين بالنقلة من المكرمين(يه١ : ١٤)، ووجدت إبراهيم الحادي والعشرين برئاسة الأبوة من الممجدين بزيادة في السر مضعفة، لأن السبعة إذا ثلثت كانت بهذا العدد آتيه .

وقد يجسر واحد من الشُّطَّر (أي العلماء) في كل شيء على الإقدام على آدم الحديث، الذي هو إلهنا وربنا يسوع المسيح، فيجده من آدم العتيق الذي كان تحت الخطية سابعاً وسبعين في العدد، بحسب نسبة لوقا المعكوسة .

وأرى أيضاً سبعة أبواق يشوع بن نون، ودورات الكهنة، كذلك في هذا المقدار من الأيام قد هدمت الأسوار الأريحية (يش ٦ : ٤) .

وأرى عودة إيليا النبيّ لما عادت على ابن أرملة صرفة صيدا ألهبت فيه الروح المحيية .

وأرى صبة الماء على الذبيحة والحطب بهذا العدد(١مل ١٨ : ٣٤)، قد استدعت ناراً منزلة أحرقت الذبيحة، وحكمت على أنبياء الخزى بالقضية، ولم يقدروا على مثل ذلك بما قدموه من دعوة .

وأرى أيضاً مراقبة الغمام وقد أمر بها سبع دفعات للغلام في النظر نحو البحر إلى السحاب (١مل ١٨ : ٤٣) .

وأرى في أليشع سبع عطفات على ابن الشونامية عطفت بالحياة عليه(وعطس الصبي سبع مرات) (٢مل ٤ : ٣٥) .

ومن هذا المعنى أيضاً إذا لا أذكر منارة الهيكل، ذات القوائم السبع، والسرج السبعة(خر٢٥ : ٣٧) .

ففى سبعة أيام أرَى الكاهن متمماً (لا ٨ : ٣٣)، وفى مثلها الأبرص مطهراً (اللاويين ١٣ : ٤)، والهيكل في عدد مثله مجدداً، والشعب في سنة سبعين من السبى عائداً (٢أخ ٣٦ : ٢١)، ليكون ما تقدم في الآحاد والعشرات مكرراً، وسر السابوع في العدد أتم من غيره مكرماً .

ولما لي أبعد في القول، ويسوع نفسه الذي هو التمام النقيّ قد رأى أن يغذي في القفر بخمس خبزات خمسة آلاف وسبعة أيضاً أربعة آلاف، وفضلات شبعهم أما هناك فاثنتا عشرة قفة، وأما ههنا فسبعة سلال (مر ٨ : ١٩و٢٠) وليس من ذلك شيء في ظني بغير القياس، ولا بعيداً من استحقاق الروح .

وأنت إذا تفقدت في نفسك وجدت أعداداً كثيرة فيها ما هو أعمق من ظاهرها، إلا أن ما يحتاج إليه في هذا الوقت، أن العبرانيين إما على هذه الأصول، وإما على ما يقرب منها، وإما على ما هو أجل منها، يكرمون البنطقستي ونكرم ذلك أيضاً نحن، كما أن ههنا أشياء آخر كثيرة معمولة عندهم من حيث الرسوم، وكاملة عندنا من حيث السر، فإذا ما كنا قد قدمنا في هذا اليوم هذا المقدار من الكلام، فسبيلنا الآن أن نصير إلى ما يتلو ذلك فيما بعد من الأقوال، فنقول :

أنَّا معيدون عيد الخمسين، ونزول الروح، وحلول الميعاد، وتمام الأمل، والشر ومقداره، فأنه لعظيم من كل جهة كريم، فجسدانيات المسيح قد انتهت، بل الذي انتهى فهو أحوال قدومه الجسدانيّ، لأنني متوقف عن أن أقوال أسباب الجسد قد انتهت، ما دام لا يقنعني قول بأن الأجود انتزاعه عن الجسد، وقد ابتدت الآن معاني الروح .

فإن قلت ما كانت أسباب المسيح فهي بتول وميلاد، ومهد وتقميط، وملائكة يمجدون ورعاة يسارعون، وسير كوكب وسجود مجوس وحملهم هدايا، وقتل هيرودس أطفالاً، وفرار يسوع إلى مصر، وعودته من مصر، وختانته ومعموديته، والشهادة له من العلو، وامتحانه ورجمه بالحجارة، من أجلنا نحن الذين كان ينبغي أن يعطينا مثالاً للتألم من أجل

الكلمة، وتسليمه وتسميره ودفنه وقيامته وصعوده، وما يناله كثيراً والآن، أما من قبل الذين يمقتونه، فمن المسبة واحتماله إياها لأنه طويل الروح، وأما من قبل وامقيه (محبيه) فمن الاقتصار والسخط وهو يتلوم، كما يؤخر الرجز عن أولئك، كذلك الصلاح عن هؤلاء، أما أولئك فيمهل لهم بعطية وقت، عساه يكون لتوبتهم، وأما هؤلاء فيمتحن ودهم، ألاّ نكون في الأحزان ناكضين وفى الجهاد عن حسن العبادة مقصرين، وذاك أصل في التدبير الإلهيّ، وبيان لأحكامه التي لا تدرك، وبها يقوم أحوالنا بحكمته .

فهذه هى أحوال المسيح وهذا شأنها، وسنبصرها فيما بعد زائدة شرفاً، يا ليتنا كذلك عندها .

الروح القدس الرب المحيي

وأما أحوال الروح فليحضرني الروح لذكرها، ويجُدَ عليَّ بنطق بالمقدار ما أوثر، وإن لم يكن بهذا المقدار فبالمقدار الذي يكون للوقت مضاهياً .

وعلى كل حال فسوف يحضر سيد، كما يحضر سيد، لا كما يحضر عبد، ولا ينتظر من غيره أمراً كما يظن قوم، لأنه يهب أينما يشاء، وعلى من يشاء، ومتى أراد، وبالقدر الذي يختار، وكذلك ألهمنا نحن أن نعتقد ونقول في الروح .

فأما الذين يحطون الروح القدس إلى أن يكون خلقة، فهم شامتون وعبيد أشرار، وشر من كل شرير، لأن العبيد الأشرار من شأنهم إنكار الولاء، والمروق والمعاندة لصاحبهم، ويصير الحر مساوياً لهم في العبودية.

وأما الذين يعتقدون أن الروح إله فإلاهيون، وفى أذهانهم بهيون، وأما الذين يسمونه كذلك فأن سموه لأولي طاعة فهم رفيعون، وإن سموه لمنخفضين فليسوا مدبرين، إذ يتمنون طيناً على جوهر، وسمعاً فاسداً على صوت رعد، وألحاظاً ضعيفة على النظر إلى الشمس، ومن كان راضعاً لبناً على الطعام المبين، وقد كان الواجب عليهم أن يستجروهم إلى ما قدام مهلاً مهلاً، ويطرقوهم إلى العاليات، ويهيئوا لهم الضوء بضوء، ويهيئوا

لهم الحق بالصدق، لأننا نحن نترك الكلام الكامل الآن في ذلك، إذ كان ليس ذواقة، ونخاطبهم هكذا .

إن كان عندكم يا قوم أن الروح القدس ليس إلاّ مخلوقاً، وليس هو إلاّ تحت زمان، فهذا لا محالة فعل الروح النجسة، فسلموا إلى الغيرة أن تتجرأ قليلاً، وإن كنتم قد وصلتم إلى هذا المقدار من الصحة والسلامة، حتى تحيدوا عن الكفر المبين، فتجعلوا الذي يجعلكم أحراراً من العبودية بريئاً، فانظروا فيما يتلو ذلك مع الروح ومعنا، لأنني أثق بأنه معكم شيء منه، وأخالطكم حينئذٍ في النظر كما يخالط الاخصون، أو فسلموا إليَّ شيئاً متوسطاً، فيما بين الملك والعبودية، حتى أضع هناك رتبة الروح، أو فإن هربتم من العبودية فلن تخفى، أين ترتبون المطلوب، أو فأنتم ممن يصعب عليه الحروف ويتغير بالفظ، وذلك لكم حجر عثرة وصخرة شك، لأن المسيح صار كذلك لقوم، إن ذلك لعرض بشريّ فسبيلنا أن نوافق بعضنا بعضاً بالروح ونكون ذوي محبة للإخوة، أكثر من الود لذواتنا، وسلموا قوة اللاهوت حتى نسلم إليكم الصفح عن الاسم، واعترفوا بالطبيعة بألفاظ أخرى وأن وجب أن تكونوا منها خجلين، ونحن إذ ذاك نطببكم كما نأسوا المريضين متحيلين في شيء نسوقه لكم مما تكونوا به ملتذين، فقبيح قبيح ومن القياس جداً بعيد أن نكون في النفوس معافين، وفى الكلام متضايقين، كأننا نستره كنزاً لغيرنا حاسدين، وأقبح من ذلك أن نُدخل علينا ما نشكوه، ونكون على البخل بالكلام لائمين، فنتضايق ونحن أيضاً في الحروب، فاعترفوا يا قوم أن الثالوث من لاهوت واحد، وإن شئتم من طبيعة واحدة، نطلب لكم نحن الاسم الذي هو الإله من الروح إذا كنتُ أعلم حسنا أن الذي أعطى الأول سوف يعطي الثاني لا سيما إن كانت المعاندة حيناً ما روحانية، ولم تكن دفعاً شيطانياً، وأن أقول ما هو أبين من هذا وأوجز، لا تلومونا نحن في اللفظة العالية، فليس حسد من أجل استعلاء إلى ما هذه سبيله، ولا نشكوا نحن منكم أيضاً اللفظة التي لم تصلوا إلى ما سواها ما دمتم في طريق أخرى إلى هذا المعنى صائرين، إذا كنا لا نطلب أن نغلب بل أن نحتضن إخوة نحن من فراقهم منزعجون، فهذا قولنا لمن نجد عنده شيئاً من إله الحياة، وهم معشر الأصحاء، في أمر الابن الذين نحن من سيرتهم متعجبون إلاّ أننا لسنا لرأيهم مُحَمِدِّين .

فيا من عندهم أسباب الروح اتخدوا أيضاً الروح كيلا تجاهدوا فقط أو يكون ذلك من حيث الناموس الذي منه التاج، وياليت هذا يكون لكم ثواباً عن سيرتكم، أن تُقروا بالروح إقراراً كاملاً، وتنشروا ذكره معنا وقبلنا بمقدار ما هو أهله .

فأني أجسر من أجلكم على ما هو أكثر من هذا وذاك، أن أقول كما قال السليح هذا مقدار محاماتي عنكم، ومقدار استحيائي من لباسكم الحسن زيه، ولونكم المنبئ بنسككم، ومجامعكم الطاهرة، والبتولية فيكم اللطيفة، والطهارة النقية، والصلاة الليل أجمع، ومحبة الفقراء، وود الإخوة، وحسن الضيافة، حتى أني أرضى أن أكون عن المسيح ناحية، وأن يلحقني شيء مما يلحق الذي وجب عليه الحكم، وذاك إن أنتم وقفتم معنا ومجدنا الثالوث جميعاً .

وأما غيركم فما ينبغي أن أقول فيهم وقد ماتوا بالكلية، وليس لأحد غير المسيح أن يقيمهم إذ كان هو المحيي الأموات بقدرته، وهم المنفصلون بالموضع انفصالاً رديأ، فإن كانوا بالقول معاقدين، وهم بهذا المقدار من المخالفة بعضهم بعضاً بمقدار مفلتين منفلتين إلى شيء واحد شاخصين، فهما ليس من حيث الناظر بل من حيث وضعه مختلفان، هذا متى وجب أن يشتكي منهما الأعوجاج، ولم يكن العماء منهما هو الشكوى، والآن فإذا كنا قد أتينا بمقدار القصد فيما بيننا وبينكم، فهاتِ نعود إلى الروح، فقد أظن أنكم أيضاً لي تابعون .

إن الروح القدس كان دائماً وهو كذلك، وهكذا فسوف يكون، غير مبتديء وغير متناهٍ، ولكنه مع الآب والابن منتظم متصل معدوداً أبداً، لأنه ما حسن قط أن يخلو الآب من الابن ولا الابن من الروح، ولو كان ذلك لكانت لاهوت عديمة المجد في أكثر الأشياء، كأنها صارت إلى كمال التمام على تدرج من رأي إلى رأي، إلاّ أن الروح لم يزل ينال منه، ولا يحتاج إلى النوال يُتْمِم ولا يُتْمَم، يُكْمِل ولا يُكْمَل، يُقْدِس ولا يُقْدَس، يُؤلِه ولا يُؤلَه، هو شيء واحد في ذاته موافق لها دائماً، ولمن هو مرتب معه لا يُبصَر ولا يحويه زمان، ولا يسعه مكان، لا يستحيل ولا يشوبه كيفية ولا كمية ولا صورة، ولا لمس بل هو محرك ذاته وهو دائم الحركة، وهو مسلط على ذاته وهو وقوته من ذاته وقدرته كلية، وإن كان إلى العلة الأولى مقترناً، فكذلك كما أن أسباب الابن الوحيد إلى الآب راجعة، كذلك أسباب

الروح أيضاً، هو حياة ومحيي، وهو نور ومانح نور، هو في ذاته خيرٌ وللخيراتِ معدن، هو روح مستقيمة، رئيس سيد مرسل مميز، صانع محلات لذاته، هادٍ فاعل كما يشاء، موزع مواهب، هو روح النبوة والحق، والحكمة والفهم، والمعرفة والكرامة، والرأي والقوة، والخوف، هذه الأشياء التي هى معدودة به، نعرف الآب ونمجد الابن ومنهما وحدهما نعلم به، والانتظام واحد والعبادة واحدة، والسجود واحد والقوة والتمام والتقديس .

ولما لي أطول، كل ما هو للآب هو للابن ما خلا أن ذاك غير مولود، وهذه الأشياء فليست - بحسب رأيي - تميز جوهراً بل هى تتميز حول جوهر، فإن كنت أنت تتمخض على المعاندة، فأني أنا أتلهف على إرسال الكلام، فأكرم يوم الروح، واضبط اللسان قليلاً إن كان ذلك ممكناً، فأن الكلام في ألسنة آخر فاستح منها أو فخفها فأنها مع النار أبصرت .

فسبيلنا اليوم أن نذكر الرأي مطلقاً ثم نضيفه في غد من حيث الصناعة، وأن نعيد اليوم ونشتهر بالفتح في غد، ويكون هذا من معنى السر الروحانيّ، وذاك من معنى مشاهد الهزل، ويكون هذا لمن في البيع، وذاك لمن في الأسواق، ويكون هذا لمن كان ناسكاً، وذاك لمن كان سكران، وهذا لذوي الجدِّ، وذاك للذين هم في هزل من قصدهم الروح .

والآن فإذا كنا قد دفعنا الغريب، فهات نصلح القريب، فهذا الروح لم يزل يفعله قديماً في القوات السمائية الملائكية، وكل ما كان منها أولاً بعد الله ، ثم وكانت أثاره بعد ذلك في الآباء والأنبياء، فمنهم من تخيل الله وعرفه، ومنهم من سبق فعرف ما يكون بما نفخه الروح في صفوة عقله، فصاروا مشاهدين ما استأنف كمشاهدة ما حضر إذ كانت كذلك قوة الروح ثم ظهر فعله في تلاميذ المسيح .

وأنا أترك أن أقول في المسيح الذي كان معه حاضراً أو لم يكن فيه فاعلاً، بل كما يكون المشارك في الكرامة موافقاً، وكان اتصاله بالتلاميذ من ثلاثة وجوه، بمقدار ما كان في طاقتهم أن يسعوه في أوقات ثلاثة، منها قبل تمجد المسيح بالألم، وبعد تمجيده بالقيامة، وبعد صعوده إلى السموات، أو عودته، أو غير ذلك، فما ينبغي أن يقال ويدل على ذلك، تطهيرهم في

الأول من الأمراض والأرواح، وأن ذلك لم يكن خلواً من الروح، ثم النفخة بعد تمام التدبير .

وذاك أنه من البين أنها كانت منحة تزيد على غيرها في الإلهية، وبعد ذلك فهذا التقسم وتوزيع الألسن النارية الذي إياه اليوم معيدون، إلاّ أن الأول كان خفياً، والثاني كان أبين، وهذا هو أتم لأنه لم يكن حضوره في العقل والأثر كما كان في قديم، بل كان ملابساً ومطابقاً كما قد يكاد الإنسان بالجوهرية، ولقد كان لائقا لما ناجانا الابن بالجسد أن يظهر وهذا من معنى جسم، ولما عاد المسيح إلى ذاته أن ينحدر إلينا ذاك قادماً كرب مرسلاً كموافق غير مخالف، وهذه الألفاظ فهي تدل على الموافقة أكثر من الدلالة على إفصال الطبائع، ومن أجل هذا كان ذاك بعد المسيح حتى لا يخلو من معزٍّ، وقيل آخر لتذكر أنت المساواة في الكرامة، لأن الآخر إنما هو آخر هواناً، وهذا إنما هو اسم المشاركة في الملك، وليس هو اسما للهوان لأن آخر لا يقال على من كانت طبائعه غريبة بل على من كان في الجوهر متفقاً، فأما ظهوره في ألسنة نارية فلموضع اختصاصها بالنطق .

لماذا ظهر الروح في شبه ألسنة نارية؟

وأما كونها نارية فأنا أطلب في ذلك احدى خصلتين، إما أن يكون ذلك من أجل الطهارة لأن القول عندنا قد عرف ناراً مطهرة بحسب ما يعرف ذلك من يريده من مواضع كثيرة .

وإما من أجل الجوهر، لأن إلهنا نار ونار مهلكة للفساد، وإن كنت أنت تتسخط من حيث يضيق عليك أن تكون في الجوهر مساوياً، وأما أن الألسن كانت منقسمات فلذلك كان لاختلاف المواهب، وأما إنها كانت جالسة(مستقرة) فلأجل الملوكية والاستقرار في القديسين، لأن لله كرسياً هو الكاروبيم، فأما نزولها في العلية، فأن لم يظن في التجاوز عن الواجب، فذلك لاستعلاء القابلين وارتفاعهم عن الأرضيين، لأن ههنا علاليّ مكتوفة بمياه إلهية بها يسبح الله، ومع ذلك فيسوع نفسه في علية شارك في السر الذين كملوا في الرفيعات، ليتبين هذا أنه في بعض المعاني ينبغي أن يتنازل الله إلينا بحسب ما عرفت أنه كان في القديم بموسى مصنوعاً .

ومن معنى آخر سبيلنا نحن أن نرتفع إليه ثم يصير هكذا الاتصال بين الله وبين البشريين بامتزاج الرتبتين، وأما إذا ثبت كل واحد منهما فيما يخصه، أحدهما في شرفه والآخر في ذلته، فالجود حينئذٍ ممسك عن المخالطة في النوال والتفضل في البشر، فلا وصول للمشاركة فيه وقد حصل في البين هوة عظيمة لا سبيل إلى عبورها ولا تكون مانعة للغنيّ وحده عن أحضان إبراهيم المأثورة، بل للطبيعة الكائنة الزائلة عن غير الكائنة التي هى الثابتة، وهذا الروح فأنذر به الأنبياء بحسب ما قيل:"رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ" (إش ٦١ : ١)، "وَيَحِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَةِ رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ" (إش ١١ : ٢)، وروح علم أفعم بصلائيل رئيس صناع قبه الزمان (خر ٣٦ : ٢)، وداود فاعتضد واهتدى بروح صالح متقدم (مز ٥١ : ١٠)، وقال :" رُوحُ الرَّبِّ تَكَلَّمَ بِي وَكَلِمَتُهُ عَلَى لِسَانِي" (٢ صم ٢٣ : ٢)، وهذا الروح فوعد به في الأول على لسان يوئيل في قوله "«وَيَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ فَيَتَنَبَّأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَيَحْلُمُ شُيُوخُكُمْ أَحْلاَماً وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى " (يوئيل ٢ : ٢٨)، وما ذكره فيما بعد ووعد به أيضاً يسوع المسيح بعد ذلك لما مُجِّدَ ومَجَّدَ أي مَجَّدَ الآب ومَجَّدَهُ الآب وأما الميعاد فعمر جزيل وهو أن يدوم الدهر ويثبت مع المستحقين له الآن على مر الأوقات أو في الآخرة مع من يستأهله هناك إذا ما نحن حفظناه في سيرتنا كاملاً ولم نطرحه بمقدار خطايانا، هذا الروح خلق الخليقة والقيامة مع الابن، ليحقق ذلك عندي قوله " بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَبِنَسَمَةِ فَمِهِ كُلُّ جُنُودِهَا " (مز ٣٣ : ٦) وقوله "رُوحُ اللَّهِ صَنَعَنِي وَنَسَمَةُ الْقَدِيرِ أَحْيَتْنِي " (أي ٣٣ : ٤) وفى موضع آخر "تُرْسِلُ رُوحَكَ فَتُخْلَقُ. وَتُجَدِّدُ وَجْهَ الْأَرْضِ " (مز ١٠٤ : ٣٠) وهو الذي يصنع الميلاد الثاني الذي هو روحانيّ وليحقق ذلك عند قوله أنه لا يمكن أحد يرى ملكوت السموات ولا يصل إليها إذ لم يولد من فوق بالروح ولم يتطهر من الميلاد الأول الذي هو سر من أسرار الليل بخلقة نهارية مضيئة يختلقها كل أحد من ذاته(يو ٣ : ٥) .

الروح القدس هو روح الحكمة

هذا الروح حكيم جداً، يحب البشر شديداً، فإن أخذ راعياً جعله طارداً للأرواح النجسة، بألحانةِ دافعاً، وأشهره على إسرائيل ملكاً .

وإن أخذ راعي معزِ معلم ثور جعله نبياً، فأذكر في ذلك داود وعاموس، وإن أخذ غلاماً ذكياً، جعله فوق سنه على الشيوخ قاضياً، ويشهد بذلك دانيآل الذي غلب الأسد في الجب .

وإن وجد صيادين صادهم للمسيح، يتصيدون العالم بصغر كلامهم، وجد لي في هذا بطرس وأندراوس وابني الرعد اللذين أرعدا الروحانيات .

وإن كانوا مكسة (عشارين) فهو يربح منهم التلمذة ويصنعهم تجاراً يسافرون بالأرواح، والقابل ذلك متى (الرسول) الذي كان بالأمس جابياً وصار اليوم بشيراً .

وإن كانوا مضطهدين ملتهبين حال غيرتهم جعل منهم بولس بدلاً من شاول وصار مقدارهم في حسن العبادة بمقدار ما أدركوه في الأول من الشر .

الروح القدس هو روح الوداعة

وهذا الروح فهو روح دعه إلا أنه يحتد على الخطاة، فسبيلنا أن نباشره وديعاً لا غضوباً باعترافنا بما هو أهله وبفوزنا من مشيئته ولا نؤثر أن نراه ساخطاً سخطا لا غفران له .

وهذا الروح فهو الذي جعلني اليوم نذيراً لكم جريا، فأن لم ينلني شيء من المكروه فله المنة، وأن نالني فالمنة له أيضاً، كذلك ففي الأول من هذين الإشفاق على مبغضينا، وفى الثاني أن يقدسنا، ويكون هذا ثواب خدمتنا في بشارته أن نتوفى بدمائنا .

[التكلم بألسنة أي أنهم تكلموا بلغات مختلفة وليس أنهم تكلموا بلغة واحدة والذين سمعوها سمعوها بلغتهم، ففي هذا تكون المعجزة في أذان السامعين وليس في ألسنة الرسل]

وأما كلامهم بألسنة غريبة ليست ألسن آبائهم، فأن ذلك لعجب عظيم نطق به من لم يكن تعلمه، والآية فهي للكفار وليست للمؤمنين، لتكون خصماً لمن لا أمانة له، وقد كتب في ذلك " فِي النَّامُوس: «إِنِّي بِذَوِي أَلْسِنَةٍ أُخْرَى وَبِشِفَاهٍ أُخْرَى سَأُكَلِّمُ هَذَا الشَّعْبَ وَلاَ هَكَذَا يَسْمَعُونَ لِي يَقُولُ الرَّبُّ». (١كو ١٤ : ٢١) .

وأما في القول عنهم أنهم سمعوا، فامسك ههنا قليلاً واشكل وانظر كيف تميز القول، فأن في اللفظة شكل بيانه في الوقوف على اللفظة، هل سمع كل واحد كلاماً بلغته، فأن الصوت كان في انطلاقه واحداً، ثم سمع أصواتاً كثيرة من حيث انفصاله في طش الهوى، فإن زدت كلاماً بياناً قلت، كان الصوت صار أصواتاً، أو سبيلنا أن نقول سمعوا، ونقف ثم نقول أنهم كانوا يتكلمون بلغاتهم، ونضيف اللغات إلى ما يتلو حتى يكون كلامهم بلغات السامعين التي هى غريبة عند الناطقين، فهذا هو رأيي لأن العجيبة إذا ما كان الأول، تكون من السامعين أكثر منها من الناطقين، وأما كونها هكذا على المعنى الثاني، فهو من الناطقين الذين نُسبوا إلى السكر عندما صنعوا هذه العجيبة بالروح في النغم، إلاّ أن بسبب النغم في القديم قد كان ممدوحاً عندما ثَنَّى (كرر) الصراخ الذي كان اتفاق نغمتهم من الرداءة صادراً وإلى الكفر مؤدياً بحسب ما يجتريء في هذا الوقت أقوام، إلاّ أن اتفاق رأي أولئك القدماء لما انحل باختلاف لغاتهم انحل مع ذلك مرامهم، وأما العجيبة التي كانت الآن في انقسام هذه الألسن، فهى أشد عجباً، وبحسب ذلك وصفها ونعتها أولاً لأنها نغمة انصبت من روح واحد إلى جماعة، ثم اجتمعت إلى نظام واحد، وصار الفرق في المواهب محتاجاً إلى موهبة أخرى في تمييز الأفضل، وإلاّ فكلها لن تخلو من شيء ممدوح، وهذا الانقسام أيضاً جيد وهو الذي ذكره داود في قوله"أَهْلِكْ يَا رَبُّ فَرِّقْ أَلْسِنَتَهُمْ لِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ ظُلْماً وَخِصَاماً فِي الْمَدِينَةِ "(مز ٥٥ : ٩)، لماذا لأنهم أحبوا كلام التفرق كله ولساناً مغتالاً كان عدله، إنما كانت الألسن التي ههنا ظاهرة وهى التي بنير اللاهوت وهذا من الكلام ولينته إلى ههنا مقداره .

إلاّ أن الألسن لما كان خطابها لسكان أورشليم من أتقياء اليهود، من الفرس، وأهل خراسان، والمصريين، والإفريقيين، والأبطسين، والأعراب، وأهل الجزيرة، وذوي ابناء القبادوقيين، ومن كان من كل أمه تحت السماء، قد اجتمع هناك من اليهود بحسب ما يفهمه الإنسان، فمن الواجب أن ننظر من كان هؤلاء ومن أي شيء اجتمعوا، لأن النقلة إلى مصر وإلى بابل قد كانتا محدودتين ثم انحلت بالعودة، وأما نقلتهم وتشتيتهم من قبل الروم فلم يكن ذلك بعد، بل قد كان عتيدا أن يكون، عقوبة على ما جسروا عليه في صلب المخلص، وقد بقي الآن أن نتوهم أن ذلك كان من سبي انتيخوس الذي لم يكن شديد القدمة من هذه الأوقات، فأن كان أحد لا يقبل هذا الشرح، وكان فيه فضل في البحث من حيث الاحتجاج بأن هذا السبي لم يكن عتيداً ولم يبسط في جميع المسكونة وطلب هذا الإنسان ما هو أقنع مما ذكرناه، فقد يجوز أن يرى ما هو أبين من هذا، أن هذه الأمة قد جلت دفعات وسباها جماعة بحسب ما ذكره عزرا فقد عاد عدة من القبائل وتأخر آخرون، فلما تفرقوا إلى أمم شتى جاز أن يكون قد حضر جماعة منهم في ذلك الوقت فوصلوا إلى هذه العجيبة وقد فحص عن هذا المحبون للعلم فحصاً لعله لا ينسب إلى زيادة على ما لا يحتاج إليه ومهما أحضره غيرنا لهذا اليوم، فيكون لنا مشاركاً فيما أحضرناه الآن، وقد آن لنا أن نشرح هذا الجمع إذ كان فيما قلناه كفاية .

وأما الموسم فلم نشرحه أبداً، بل سبيلنا أن نعيد دائماً، أما الآن فأعياد بعضها جسمانية، وأما بعد قليل فكلها روحانية، بحيث تعرف أصول الأشياء معرفة جليلة بينة بالكلمة نفسها التي هى إلهنا وربنا يسوع المسيح الذي هو العيد الصادق والفرح لأهل الخلاص ومعه المجد والكرامة للآب مع الروح القدس الآن وإلى الأدهار آمين .

يَا ذَاكِرِي الرَّبِّ لاَ تَسْكُتُوا وَلاَ تَدَعُوهُ يَسْكُتُ حَتَّى يُثَبِّتَ وَيَجْعَلَ أُورُشَلِيمَ تَسْبِيحَةً فِي الأَرْضِ

(إش٦٢:٦و٧)

الميمر الحادي عشر

ميمر قاله في اللاهوت

ميمر قاله في اللاهوت

الميمر الحادي عشر
ميمر قاله في اللاهوت

إذ كنا قد تكلمنا سابقاً عن صفات اللاهوتِ، وبينا كيف ينبغي أن تكون صورته، ولمن سبيله أن يتفلسف، وفى أي وقت وبأى مقدار .

وذكرنا أن تفلسفه ينبغي أن يكون مع قوم أطهار، حتى يدرك النور بنور، ويكون ذلك مع قوم ذوي همة، حتى لا يقع القول في بلدة غير مثمرة فيكون غير مثمر .

وأما الوقت فيكون إذا حصل لنا في دواخلنا سكون ولا نتأثر بالحركات الخارجية، ولا تضيق أنفاسنا كما تتقطع أنفاس المصابين بمرض الصدر .

وأما المقدار فيكون بقدر مانفهم وبقدر ما يفهمنا السامعون .

وإذا كان ذلك هكذا وقد فلحنا لنفوسنا فلاحة إلهية حتى لا نزرع على شوك، ومهدنا وجه الأرض وارتسمنا بالكتاب ورسمنا، فهاتِ نتقدم إلى الكلام في اللاهوت ونجعل قولنا في الآب والابن والروح القدس بمسرة الآب، وإسهام الابن في العمل معنا وإيحاء الروح القدس إلينا، لا بل قل حتى ينيرنا الضياء النابع من الإله الواحد الذي ينقسم وإن كان واحداً، ويبقى واحداً، وإن انقسم، وهذا هو العجب .

وهذا هو الذي أمر به الله أن أصعد على الجبل وأدخل في الغمام، فلما صعدت إلى الجبل بنشاط، أو قلت ما هو أصدق من هذا، لما أردت الصعود وجدت أني أصعد برغبة ومعاناة، أما برغبة فلموضع الرجاء، وأما المعاناة فلموضع الضعف .

من كان مثل هرون يصعد معى ويقف بالقرب، وإن كان سبيله أن يكون خارج الغمام فيصبر على ذلك .

وإن كان مثل ناداب أو أبيهو أو واحد من المشيخة، فليصعد الواحد من هؤلاء، لكن فليقف في البعد بمقدار محله من الطهارة .

أما إن كان من الكثيرين الذين لا يستحقون مثل هذا العلو والنظر، وإن كان غير طاهر بالكلية، فلا يتقدم، لأن الاحتراس لا يدعوه إلى ذلك .

وإن كان متطهر طهارة في وقت فليقف أسفل ويسمع الصوت والبوق من الأصوات الساذجة في حسن العبادة (أي التعليم الأوليّ عن الإيمان)، وينظر إلى الجبل مدخناً، والبرق حوله يجمع بذلك وعيداً وعجباً على من لا يقدر يصعد .

وإن كان هناك أحد من الوحوش شريراً غير مستأنس، ولا يقبل من سائر الوجوه الكلام النظريّ، والكلام في اللاهوت، فلا يستترن في الشعراء بخبث ومكر، ليخطف كلمة ما أو رأياً ما ويبتلع الكلمات الصحيحة لمسخها وتحويرها بالكذب والتذييف، بل يقف بالبعد الشديد، وينتزع عن الجبل وإلاّ رجم بالجندل، وهشم وهلك هلاكاً رديئاً لأنه رديء، وذاك أن كلام الحق الرصين جنادل (حجارة من صوان) على المتوحشين .

فإن كان هذا نمراً فليثبت في بلقته، وإن كان أسداً خطافاً يريد ويطلب غذاء يجعله من نفوسنا، أو ألفاظاً، وإن كان خنزيراً يدوس اللآليء الحسنة النيرة من الحق، وإن كان ذئباً ماكراً وبارعاً في مراوغاته، أو ثعلباً في نفس خبيثة يكيفها حسب الحاجة والبيئة والظروف، ويغتذي بالجثث المنتنة ومن الكروم، أو ضبعاً من الضباع المفترسة اللحم الآدميّ والجيف، فأن الكلمة ترى أن ننفصل عن هذه الأنواع، ولنكتب الوصايا المقدسة على ألواح جديدة حتى يكون الناموس بسيطاً يفهمه الذين في أسفل الجبل وليكون سرياً للذين بلغوا إلى القمة.

فماذا الذي يلحقني ياخلاني وجوارى الذين يتعشقون الحق مع لحقي هذا، لأنني عدوت وقدرت أنني أدرك الله وطلعت على الجبل وشققت الغمام وحصلت في داخله متوارياً عن الهيوليّ والهيوليات، ثم عدت إلى ذاتي بحسب الإمكان، فلما نظرت إلى أواخر الله بشدة بعدما استترت بصخرة، وكانت هذه الصخرة الإله الكلمة المتجسد من أجلنا، ثم اطلعت قليلاً، فلم أصل إلى الطبيعة الأولى العديمة الفساد، المعروفة على ما أقول عند الثالوث، ولا ما كان منها قائماً داخل الستر الأول مستتراً بالكاروبيم،

بل وصلت إلى الطبيعة الأخيرة الواصلة إلينا، وهذه فهي معنى علمي بالعظمة التي في الخليقة، وما قد أبرزته تلك القوة فتدبره وتسوسه، وهذه العظمة فيسميها داود جلاله الذي ينكشف على المخلوقات التي خلقها ويسوسها .

معرفتنا بالله محدودة

إننا نعرف من الله ظاهره، أو بالأحرى علاماته، وهى مثل ظل الشمس، والضوء على الماء التي تبصر الشمس بها الأبصار الضعيفة الضئيلة، إذ كان النظر إلى الشمس بعينها غير ممكن، لأنها تخطف الأبصار وتزيغها بقوة ضوءها وصفوها، وهكذا سبيلك أن تتكلم في اللاهوت .

وإن كنت مثل موسى إله فرعون، وإن وصلت إلى السماء الثالثة مثل بولس، وسمعت كلاماً لا يلفظ به، وإن زدت على هذين وكنت من ذوي الوقوف مع الملائكة ورؤساء الملائكة في ترتيبها أو خرقت السماء كلها وما فوق السماء وزدت وتعاليت على طبيعتنا تعالياً شديداً إلى أن تقرب من الله، فأنك ستبعد من إدراك الله الكامل بمقدار ما يتعالى هو عن تركيبنا الذليل ومزاجنا الأرضيّ .

وعلى كل حال فينبغي أن يكون ابتدأنا هكذا مما قاله بعض فلاسفة اليونان، أن الله معرفته صعبة، والترجمة عنه لا يمكن، إلاّ أنني أظن أن هذا القول غير متقن، لأن ذكره أن المعرفة به صعبة، ربما دل على أنه قد عرف شيئاً ثم هرب من التبكيت، بقوله أن الترجمة عنه لا يمكن، إلاّ أنني أقول: أن اللفظ به والترجمة عنه غير ممكنة، وأما معرفته فأشد امتناعاً، وذاك أن المعرفة بشيء ربما ترجم عنها كلام، وإن كان بغير مبالغة فربما كان خفياً عند من ليست أذانه مفسودة بالكلية، ولا هو بليد في فكره .

وأما أن يحتوي الفكر على شيء هذه صورته، فهذا بلا شك غير ممكن ولا متيسر البتة، ليس عند أولي الترف والصلف وحدهم، بل وعند من كان عالياً ولله محباً جداً، وبالجملة فهذا غير ممكن البتة لجميع الطبيعة المكونة، ومن قد استحوذ عليه هذا الظلام والجسم الغليظ، فلا يصل إلى

معرفة الحق، فلست أدري إن كان ذلك لا يصل إليه، ولا الطبائع العقيلة التي فوق، التي تقربها من الله، واستنارتها بالنور كله، ربما انفسح لها شيء، وإن لم يكن من كل الوجوه فهي أزيد منا في الحلية والتمام، فيكون بعضها يزيد على بعض أو ينقص من طريق القياس إلى مراتبها، وهذا إذاً فليثبت ههنا .

وأما حالنا نحن فليست سلامة الله وحدها تزيد عندنا على كل عقل وفكر وإدراك، ولا ما هو معد للصديقين في الميعاد، مما لا تبصره عين ولا تسمع به أذن ولا يخطر ببال، بل عن قليل ولا معرفة البشرية المستقصاه، فاستيقن أنك حينئذٍ إنما تصل ومن هذه أيضاً إلى ظلها وحده، وبحسب ما نسمعه من قول النبيّ أني أبصر السموات عمل أصابعك والقمر والنجوم أنت أسستها" (مز ٨ : ٣) ذلك وفقاً للنظام الثابت الذي يوجهها ويقودها، وإذا كنا لا نراها الآن فسنراها وندركها فيما بعدُ .

ولا شك أن الكائن قبل هذه العوالم وفوقها، هو غير مدرك وغير محدود لأنها منه أتت، ولو كان وجد قبله أحد، فمن هو ذاك؟.

إن كرازتنا ليست فارغة وإيماننا ليس باطلاً، ولسنا نعتقد هذا الاعتقاد، وها أنا أوضح الأشياء بتواضع، ولكن حتى لا يجعل التواضع سبيلاً للإلحاد والدس على العقائد، وحتى لا تتعالى يا هذا على حسابنا وتقول أن موقفنا موقف جهل بالنسبة إلى الله، فالفرق كبير بين الاعتراف بالموجود والإقرار بالتقصير عن معرفته.

أما أن الله، وأن العلة الصانعة والحافظة للكل موجودة، فالنظر يعلم ذلك، وناموس الطبيعة .

أما النظر فإذا نظر المبصرات ورآها حسنة الثبات، سائرة وكأنها لا تتحرك وهى متحركات مندفعات .

وأما الناموس الطبيعيّ فأنه يقود الفكر بأن يتفكر في هذه الأشياء المبصرة المرتبة إلى معرفة عظمة رئيسها ومبدعها، فيفكر هل كان هذا الكل يتقوم ويتركب ولا يكون له رب، أنه لا يمكن أحد أن يبصر عوداً(قيثارة) مركباً محكماً، ويرى حسن ترتيبه ونظامه، ويسمع نغمته، ولا يتصور أن له صانع، وأن هناك من يعزف عليه، فيصعد إليه بفكره وإن كان لا يعرفه بنظره، وكذلك بيان العلة الصانعة المحركة الحافظة للمصنوعات عندنا، وإن كان فكرنا لا يحويها .

ومن لا يصبو إلى هذا المقدار طوعاً، فأنه عقوق جداً لا محافظة فيه، ولا مراعاة، وهو غير تابع للبراهين الطبيعية .

نعم ليس إلهاً ما تخيله خيالنا، وما تشكل في خاطرنا، وما حاكه فكرنا، لو صح أن إنساناً وصل إلى غاية الحكمة، من أهل أن يملك مثل هذه الموهبة العظيمة؟ من فتح فم العقل وأدخل الروح بحيث تمكن من إدراك الله بالروح الذي يبحث ويعرف أعماق الله، هذا لا يحتاج إلى أي نمو وتقدم مادام فيه الصلاح الفائق العلو الذي يسرع إليه الفكر وتسرع إليه الحياة بكمالها .

فماذا تتوهم اللاهوت، شيء عالٍ تفكر فيه في وقت من الأوقات؟ إذ كنت واثقاً بالطرق المنطقية، فإلى أي شيء رفعك القول ودفعك يا فيلسوف، قادراً على الكلام في اللاهوت ومفتخراً فيما لا تصل إلى تقديره فأي الشيئين اللاهوت، هل هو جسم، وإن كان كذلك فكيف يكون غير محدود ولا نهاية له، وغير ملموس وغير منظور، ألعل هذه الصفات صفات مادية؟ يالفساد هذا الرأي ليست هذه طبيعة ما هو مادي، ألعل الله مادة بغير هذه الصفات؟ أن هذا القول مردود وثقيل، ويعني أن الألوهة لا تملك أكثر مما نملك، ألا يهون عندنا الأمر الإلهيّ إذا كنا نستطيع أن نصفه؟ .

كيف لا يجوز الانحلال على المركب من عناصر مادية ؟ لأن التركيب يسبب التضاد، والتضاد يسبب الانحلال، والانحلال هو أمر غريب من الله كلياً، وغريب من الطبيعة الأولية، لا تباعد في الله ولا تضاد وبالتالي لا تركيب، لذلك لا جسد لله حتى لا يكون هناك تركيب، وهكذا يصل العقل إلى هذه النقطة متدرجاً من الأعلى إلى الأدنى .

إذا كان من الممكن أن يدرك الإنسان الله، أو كان إدراك الله ممكناً، فكيف تصرح الآيات بأن الله بالكل ويملأ الكل كما قال:" لِأَنَّ لِي الْمَسْكُونَةَ وَمِلْأَهَا" (مز ٥٠ : ١٢) وروح الرب ملأ المسكونة(الحكمة١: ٧)، لأنه إما أن يزول الكل ليتحرك الله في الفضاء، في الفراغ وهكذا يهان الرب مادام يتخذ جسداً، ويفقد كل ما خلق، وإما أن يدخل كجسد في الأجساد، الشيء غير الممكن، وإما أن يتمازج ويكون بين الأشياء الأخرى كالسوائل التي تتمازج، في مثل هذه الحالة الجسد ذاته يقسِّم وينقسم عن الأشياء الأخرى، الأمر الذي هو أكثر من عجب، وصبيانيّ أكثر من نظرية

أبيقور عن الذرات، وهكذا فأن نظرية الأجساد تسقط كلياً أمامنا إذ لا جسد لها وتفقد وجودها .

وإذا ادعينا أن الله غير ماديّ، أو كما اعتقد البعض، عنصر خامس يدور دائرياً، فلن نختلف الآن حول هذا الموضوع حتى لوكان الله شيئاً هيولياً أو جسداً خامساً، أو إذا أرادوا أن يقولوا أنه غير جسديّ، في نظريتهم عن الفساد الذاتيّ وإعادة الجبلة، فإذا أعطوا له هذه الصفة فما هى علاقته مع الأشياء التي تتحرك وتدور إذا كان الخالق يتحرك ويدور معها كما تتحرك المخلوقات؟ ولكن نتسائل أيضاً من هو الذي يحركه ومن يحرك الكون، ومن بكون ذاك ومن يحركه ؟ وهكذا دواليك بلا نهاية ...

كيف يمكن أن يكون خارج المكان كلياً إذا كان يدور؟ وإن ذكروا أنه شيء آخر غير الجسم الخامس فماذا يكون، هل ملائكياً ومن أين للملائكة أجسام، وإن كان ذلك فما هى، وكم مقدار ما يزيد الله على الملائكة والملاك خادمه .

وإن كان جسماً آخر أعلا من هذه، فقد دخل علينا جمع من الأجسام لا يعد، وحصل عمق من الهذيان لا يمكن وقوفه في مكان .

فالله إذاً من ههنا ليس جسماً، وحتى هذا التعبير لا يمكن أن يمثل أو يصور جوهر الله وكذلك التعابير غير المولود، لا بداية له، غير المتغير، غير فاسد وكل ما يقال عن الله أو ما يتعلق بالله، في الواقع ما هو الشيء الإيجابيّ لمعرفة الطبيعة الإلهية أو أقنوم الله الذي تقدمه لنا هذه الصفات " لا بدء له غير متغير غير محدود" إلخ.. حتى ذاك الذي يملك عقلاً إلهياً والمتقدم في النظر والبصيرة والراسخ في العلم، حتى ذاك يعجز عن احتواء معرفة ماهية الله مهما يتفلسف ويبحث وينقب، وكما أنه عندما نريد أن نعرض كائناً ما، لا يكفي أن نقول أن له جسداً وأنه يلد، ونحدد محيطه، بل يجب أن نحضر الكائن ذاته،لأن الإنسان والثور والحصان وغيرهم لها أجساد تولد وتفنى، وهكذا من يبحث جانبياً طبيعة الكائن لن يقف عند هذا الحد فقط بإيراد ما ليس هو بل ماهو، ومثل هذا مثل من يسأل، كم تساوي خمسة في أثنين فيقول أن ذلك ليس اثنين ولا ثلاثة ولا أربعة ولا خمسة ولا عشرين ولا ثلاثين ولا شيء إذا جمعت القول مما تحويه العشرة ولا تحويه عشرات الأعداد، وفي جملة هذا كله لا يقول أن الذي يسأل عنه عشرة ولا يثبت لعقل السائل على ما طلبه، فأن إبانة الشيء

والدلالة عليه هو أسهل وأقرب من الدلالة عليه من نفي ما ليس هو، وهذا فبين عند كل أحد .

وبما أن اللاهوت ليس جسماً فسبيلنا أن نبحث عن شيء آخر

أيوجد اللاهوت في مكان ما، أم أنه غير موجود؟ إذا كان حقيقة غير موجود في مكان ما، فلا بد لفضول الباحثين أن يسأل عن إمكانية وجوده، لأن الغير موجود لا يوجد في مكان، وإذا كانت هذه الأشياء التي لا توجد في مكان ما غير موجودة، وإذا كان موجوداً في مكان ما، فلابد مادام يوجد، أنه يوجد إما في الكون وإما فوق الكون، لكن إذا كان موجوداً في الكون فوجوده يكون إما في قسم من الكون، أو في كل الكون، فإذا كان موجوداً في قسم واحد فسيوصف بصورة مصغرة، أي من خلال هذا القسم، أما إذا كان موجوداً في كل مكان فسيوصف بصورة أكبر لأن الحاوي أكبر من المحتوى، إذا كان الكون ينحصر في الكون فلن يكون هناك أي مكان إلا وقد وصف، هذا إذا كانت الألوهة وسط الكون فأين كان الله قبل أن يخلق الكون ؟ هذا السؤال يوقع في حيرة عظيمة، وإذا كان موجوداً فوق الكون، ترى ألا يوجد شيء يفصله عن الكون ؟ وأين هو ماهو فوق الكون ؟ وكيف يفهم الكون الأعلى والكون الأدنى مادام لا يوجد حد ليفصلهما ويميز بينهما، أم أنه يجب أن يكون هناك متوسط حاجز ينتهي به الكون وفوق الكون ؟ أيمكن أن يكون هذا المكان غير المكان الذي نتهرب منه منذ أول حديثنا ؟ لا يمكننا قط أن نقول أن الألوهة موصوفة ومفهومة بالفكر لأن الإدراك هو نوع من الوصف .

فلما لي إذاً قلت هذا، وعساني قد خرجت فيه عن حد البحث الذي يحتمله أسماع الكثيرين، نعم وعن رسم الأقوال المقولة في هذا الوقت، وهذا الرسم فقد ترك البسيط والجزل من القول، وأدخل علينا اللغزيّ المعوج، حتى تعرف الشجرة من ثمرتها، أعني بذلك الظلمة التي تبدع هذه الآراء في ظلام المقولات .

ولا ذكرت أنا ما ذكرته حتى تتوهم فيَّ أني قد أتيت بمعجزة، وظهرت زائداً في الحكمة، وشبكت رباطات، وحللت مضبوطات، وهذه

العجيبة الكبرى هى من خاصية دانيآل النبيّ، ولكني ذكرته لأدل على ما دعاني القول في الأول إليه .

إن اللاهوت لا يمكن لفكر بشريّ أن يصل إليه، ولا يتخيله بكليته بمقدار ما، وذلك ليس هو من شح لأن البخل بعيد من الطبيعة الإلهية، إذ كانت الصالحة وحدها الربانية، العديمة العوارض كلها، ولا سيما على شيء هو أكرم وأشَفُّ من خلائقها كلها، وأي شيء من الكلام يتقدم على ذوي النطق، لأن خلقته نفسها بعينها إنما صارت وتمت من الزيادة في جودها وكرمها ولم يأت منها أيضاً من معنى ليزيد في كرامة ذاتها ومجد تمامها، حتى يدصل لها التكرمة والإعظام، من عدم الوصول إليها، وهذا فهو شيء لا محالة من معنى الحيل السوء، وشيطانية لا تليق، ولا بإنسان مقتصد في الصلاح، يرى في نفسه شيئاً مستقيماً، فضلاً عن الله عز وجل، حتى يحصل له التقدم من امتناعه عن آخرين، وإن كان ذلك لأسباب أخرى، فلعل من يقرب من الله، وقد كشف عن أحكامه التي لا تدرك، وأبصرها ونظرها، فقد عرف ذلك، إن كان يوجد قوم هذا مقدارهم في الفضيلة، وقد أمكنهم أن يمشوا على ماء البحر، كما جاء في القول، وأما المقدار الذي أدركناه نحن، وميزنا فيه بأقدار صغار، ما يصعب الوصول إليه، فلعل ذلك يكون، حتى لا يتوجه من القنية، أن سهل إطراحها، لأن الذي يقتنى بتعب، يجب أن يكون الشح عليه شديداً فينضبط، وأما ما كان اقتنى بسهولة فيدحض سريعاً، كأنه يمكن فيما بعد أن يوصل إليه، فيحصل الامتناع من قرب الوصول إلى الإحسان، إحساناً هكذا، عند من له عقل .

ومن الجهة الثانية حتى لا يلحقنا ما لحق الكوكب (الشيطان) الذي هبط عن سعة الضوء كله، لما رفع رأسه قدام الرب الممسك الكل، فهوى من الترفع هوة أشقى من كل سقطة، وربما كان ذلك أيضاً ليبقى شيء يكون مكافأة، يريد بها من تعب التعب الشديد في عيش بهيّ، عاش به مع المتطهرين ههنا، الصائرين في الضبابة إلى المعشوق، فلهذا صار فيما بيننا وبين الله غمام الجسمانية متوسطاً، كما كانت السحابة في القديم، بين المصريين والعبرانيين .

وهذا فعسى أن تلك الآية التي تقول " جعل الظلمة ستره حوله مظلته ضباب المياه و ظلام الغمام (مز ١٨ : ١١)، يقصد بالظلمة هزالة الجسد التي من خلالها يمكننا أن نرى شيئاً فشيئاً، فليتفلسف الذين يريدون

أن يتفلسفوا حول هذه الحقيقة، وليسيروا في مسار فكرهم قدر ما يستطيعون، فنحن المقيدون بهذه الأرض الذين لبسنا هذا الجسد السميك نعرض مضمون ما قاله إرمياء النبيّ، كما أن المرء لا يستطيع أن يتجاوز ظله مهما يسرع، وأن يرى الأشياء المنظورة دون مساهمة الهواء والنور، كذلك لا تستطيع الأجساد أن تدنو من المعقولات بدون الخواص الجسدية، حتى ولو تمكن العقل أن ينفرد كلياً بذاته ويحاول أن يلامس الأمور غير المنظورة وكل ما هو من طبيعته، وستدرك ذلك مما يأتيك برهانه.

ألا تعلم أن من أسماء الطبيعة الأولى هواء، ونار، وضوء، ومحبة، وحكمة، وعدل، وعقل، وكلمة، وما شاكل ذلك، كيف ستدرك الهواء بدون خواصه التحرك والانتشار، كيف ستدرك النار بدون المادة المحرقة وارتفاعها إلى فوق، وبدون شكلها ولونها، كيف تدرك النور مفصولاً عن الهواء ومستقلاً عن نبعه الذي يولد منه ويأخذ شعاعه، كيف تدرك العقل دون حامله، كيف ستدرك الكلمة، وهل هى غير ذاك الشيء الذي يستريح في داخلنا، أو يطوف خارجنا، أتريد أن أقول أن الكلمة إذا كانت غير ذلك تنحل، وما قولك بالحكمة وكيف نفهمها، وهل هى غير إمكانية البحث في الأمور الإلهية والبشرية .

العدل والمحبة

وما قولك في العدالة والمحبة، هل هما سوى فضيلتين صالحتين الأولى ضد الظلم والثانية ضد البغضاء، وهاتان الفضيلتان تعظمان أو تصغران، وامتلاكهما أو فقدانهما متوقف على مسلكنا، لا بل إنهما لنا كلصباغ بالنسبة للأجساد، أيجب أن نبتعد عن الأجساد ونرى الألوهة، هذا شيء محدود ويعطينا فكرة وصورة بسيطة، بأي آلة سينظر المرء الله من خلال الجسد، يتعب عقلنا بالابتعاد عن الجسديات بحيث يبحث بضعفه أموراً تفوق قواه، لأن كل طبيعة عقلية تشتاق إلى الله الخالق والمصدر الأول، إلاّ أنها تعجز عن إدراك ذلك للأسباب التي ذكرت، يظهر أن الشوق يتعبها لذلك تقشعر وتنكفيء على ذاتها، وتراعي المنظورات، فإما أن تُؤلّه واحدة منها بسبب جهلها وإما أن تعرف الله من خلال جمال الأشياء وتناسقها.

عَبَدَ قوم الشمس، وآخرون القمر وغيرهم عدة من الكواكب، وآخرون السماء نفسها مع الكواكب، وسلموا إليها تدبير الكل بحسب كيفية الحركة وكميتها، وقوم غير هؤلاء فألّهوا العناصر، الأرض والماء والهواء والنار لموضع الحاجة إليها، وأنه غير ممكن ثبات معاش البشر إلا بها، وقوم آخرون عَبَدَ كل واحد منهم ما لحق من المبصرات مما أعجبه جمالها، واعتقدوا أن هذه الأشياء كلها آلهة، وقد يوجد من أصلح دُمَى وتماثيل من كان منهم مضماً إلى الرخاوة والجنة والميل في الأجسام فجعلها آلهة وكرم بها وبتذاكيرها من انصرف عنه .

ثم جاء بعد هؤلاء قوم آخرون، فكرموا من لا يخصهم بمثل هذه الكرامة، وهم لعمري أبعد من أولئك جهلاً بالعلة الأولى، إلا أنهم اتبعوا ما سلم إليهم من هذا التكريم، ويصورونه أنه ضروريّ واجب، ثم ثبتت هذه العادة، فأوصلها طول الزمان إلى أن يتوهم فيها أنها ناموس، فجاء على ما أظنه قوم يقربون إلى المقدرة، آخرون مدحوا القوة، وآخرون شغفوا بالجمال فجعلوا من أكرموه في طول الزمان إلهاً واتخذوا خرافة ما يعينهم على الخديعة .

وأما من كان منهم شديد الميل إلى الفساد، فجعلوا عوارض الفساد آلهة، وكرموها بأسماء الآلهة، مثل الغضب، والقتل، والفسق، والسكر، أو غير ذلك مما يقرب منه ولست أعرفه، وجدوا من ذلك اعتذارا عن خطاياهم غير جميل ولا واجب، فبعضهم جعلوا آلهتهم تحت الأرض، والأخَر جعلوها فوق الأرض، ومنهم من أصعدوه إلى السماء، فياله من ميراث مضحك، ثم أعطوا لكل شيء اختلقوه أسماء آلهة، أو جنة نسبوها إليهم، سلطان الضلال وانطلاقه في الاختيار، ونصبوا أوثاناً، كان التناهي بها خديعة، بدماء وقتال، وفى بعض الأوقات بأعمال شديدة القباحة والشناعة، وجنون وقتل ناس، توهموا بذلك كرامة ما اعتقدوه، نعم وقد بلغ أمرهم إلى مشيئة نفوسهم، ببعوض وذوات أربع ودبابات وأجناس .

وما كان أشنع من ذلك وأقوى، في أن يضحك عليه، أخذوا تكرمة الله وقدموها لهذه الأشياء، فحصل من ذلك أنه لا تستطيع التمييز في أي الشيئين ينبغي أن يكون التهاون، هل يتهاون بالساجدين لها أكثر من التهاون بما يسجدون له، ولعمري أنه ينبغي أن يكون الاحتقار والإطرح، للذين يعتقدونها أكثر منها، لأنهم طبيعة ناطقة، وقد قبلوا من الله نعمة،

فقدموا الأردأ كأنه الأفضل، وهذا فهو من حيل الخبيث، فيتسلق بالخير على الشر، وهذه الطريقة فهي موجودة كثيراً في صناعة رداوته، لأنه لما رأى شوقهم تائها في التماس إله، اختلس القوة إلى ذاته وسرق ارتياحهم، وأخذهم أخذ الأعمى الذي يطلب الهداية إلى طريق، فهوَّر قوماً منهم في مكان، وغيرهم في آخر، ومزقهم وشتتهم، وانتهى بهم طراً إلى حفرة واحدة، وهوة موت وهلاك، وهؤلاء فهذه حالهم .

فأما نحن فأن منطقنا يقودنا لنطلب الله فلا نقبل أن يكون العالم بدون سيد يحكمه، إن عقلنا يبحث ويفتش في المنظورات، ويلامس الأمور الحسية الأولية، فلا يقف عندها لأنه لا يليق بالعقل أن يعطي السيادة على المسكونة لمن هم متساوون في الحواس وأنه يتخذها سبيلاً يقودنا إلى من هم فوق المحسوسات ومن هم مصدر وجودها، من الذي نَظَّمَ الكائنات السماوية والأرضية وكل ما يتحرك في الهواء، ويعيش في الماء، وكل ما كان قبلها، أي السماء والأرض والماء والهواء، من الذي جمعها وفصلها كيف تتجاذب وتفترق، إني أعجب بمن قال وإن يكن من غير أهل الإيمان (أفلاطون)، من يوجه الحركة التي لا تنتهي ولا يمنع حركتها شيء، أليس خالق الجميع هو الذي يزرع العقل فينا ويوجه كل شيء في الحياة، لكن من هو هذا الخالق، أليس هو مكونها ومعطيها الحياة، لا يمكننا أن ننسب هذه القوة إلى الصدفة، ولو قبلنا أن الصدفة خلقتها ترى من الذي يمسكها وينظمها، وهكذا فأن العقل المغروس فينا، وهو الناموس الأول فينا والسيد المشترك بين كل البشر، هو الذي يرفعنا من المنظورات إلى الله، فلنعد إلى بداية حديثنا .

طبيعة اللّه وجوهره لا يستطيع أحد أن يراه

لم يكتشف أحد قط ولن يكتشف ماهى طبيعة الله وما هو جوهره، ومن يرغب فليفتش ولينقب وليبحث ويدلنا على من تمكن أن يحقق ذلك، ولكن متى سنجده، إن الإنسان يجد الله عندما يتحد بالله الذي جاء منه، آنئذٍ ستصعد الصورة إلى الرسم الأول الذي تحاول أن تجده، وأعتقد أن الآية التي تقول بأننا سنعرف الله جيداً وعلى قدر ما يكشف لنا هو، هى فلسفتنا العليا، ما نعرفه الآن نقطة صغيرة تصل إلينا كانعكاس صغير لنور عظيم،

إذا قال الكتاب المقدس أن أحداً عرف الله فأنه يعني أنه عرف قليلاً، وهذا القليل يكفي لأن يجعله أكثر إشراقاً من كل إنسان آخر لم يحصل على هذا الإشراق، وهذا التفوق اعتبر كمالاً لأنه قيس لا على الحقيقة بل على التقريب.

فعلى هذا المعنى قيل أن أنوش أمِلَ أن يدعو الرب، فكانت فضيلته الأمل، وهذا فلم تكن معرفة بل كان دعوة .

وأما أخنوخ فنقل إلاّ أنه ما أبان بعد إن كان تمكن من معرفة طبيعة الله، أو إن كان يستمكن فيما بعد (تك ٥: ٢٤) .

وأما نوح فالجيد منه أنه كان مرضياً، وهو الذي أوتمن على خلاص العالم كله من المياه، وخلف للعالم زرعاً في جزء صغير هرب فيه من الطوفان (تك ٦: ١٣، ٧: ١٩).

وأما إبراهيم رئيس الآباء الكبير، فحصل له البر من الأمانة (تك١٥: ٦، رو٤: ٣)، وضحى ولده ضحية غريبة، كانت رسماً للذبيحة العظمى (تك٢٢: ٢)، وأبصر الله، إلاّ أنه ما أبصره كلاهوت، وإنما أضافه كالإنسان (تك١٥: ٦ - ٨)، ومدح من معنى كرامة حصلت له بمقدار ما وصل إليه .

وأما يعقوب فرأى سلماً مرفوعاً وعليه تصعد ملائكة (تك ٢٨: ١٢)، وصب زيتاً على النُصب بوجه رمزيّ (تك٢٨: ١٨)، لعله ليتبين لنا عن الحجر المسيح الذي دهن من أجلنا، وأعطى لموضع ما أسماه بيت الله(تك٢٨: ١٧) تكريماً لمن ظهر له، وصارع الله كما يصارع إنساناً (تك ٣٢: ٢٥ـ٣٠)، وما هى هذه المصارعة من الله مع إنسان، اللهم إلا أن تكون مقايسة الفضيلة البشرية إلى عظمة الله، وحصل من المصارعة علامة حملها في جسمه، تدل على هزيمة الطبيعة المكونة، وأخذ تغيير اسمه مكافأة على حسن عبادته، وسمي إسرائيل عوضاً عن يعقوب، وهذا الاسم هو الكبير المكرم، وأما ذاك الشيء الآخر فليس هو ولا غيره ممن كان أفضل منه إلى اليوم، ومن الاثنتي عشرة قبيلة التي كانت منه، وكان هو أباهم بأنه عرف طبيعة الله أو شاهده مشاهدة تامة .

وأما إيليا النبيّ فلا الزوبعة ولا النار ولا زلزال كما سمع في الخبر بل هواء خفيف لطيف(١مل ١٩ : ١١)، هو الذي دله على حضور الله وليس طبيعته، ومن كان هذا إيليا هو الذي اختطفته مركبة من نار إلى

السماء(٢مل ٢ : ١١)، دلت على ما زاد الصديق فيه على غيره من البشر.

وأما منوح القاضي في القديم، وبطرس التلميذ في الأخير، فكيف لا تعجب منهما، وأن أحدهما ما احتمل المنظر الذي تراءَى له الله فيه، فقال قد هلكنا يا امرأة إذ رأينا الله (قض ١٣ : ٢٢) من معنى أن رؤية الله لا تحتمله البشر، فكيف تحتمل طبيعته الإلهية، أما الآخر فقد شاهد المسيح ولم يدعه يقترب من سفينته، ولهذا كان يطلب إليه أن يتباعد (مت ١٦: ١٧)، هذا مع أن بطرس كان أشدهم حرارة للاعتراف بالمسيح، فلذلك أعطي الطوبى وأوتمن على الوديعة العظمى (مت ١٦: ١٩) .

وماذا عساك تقول في إشعياء وحزقيال اللذين اطلعا على العظائم وفي غيرهما من الأنبياء، أما إشعياء فلأنه رأى رب الصباؤوت جالساً على مجد العرش، والسارافيم ذوات الأجنحة الستة دائرة به تسبحه، وهو يتوارى عنها، ورأى نفسه وقد طهرت بجمرة من المذبح وتهيأت للنبوة (إش٦: ١).

وأما حزقيال فلأنه رأى الشاروبيم بأنها لله مركبة، وذكر الكرسيّ الذي فوقها والجلد فوق ذلك، والمتخيل في الجلد وأنه كانت هناك كل أصوات وثبات وأعمال، وهذا فأن كان رؤية ما نهارية يستحق النظر إليه القديسون، وإن كان رؤية صادقة غير كاذبة، وإن كان حدثاً هو بمثابة اتصال بالمستأنف كالحاضر، وإن كان شيئاً آخر من أنواع النبوة لا يصل إليه القول، فليس عندي ما أقول فيه، ولكنه يعرف ذلك إله الأنبياء ومن قد أتاه من هناك قوة العمل في ذلك، إلاّ أنه لا هؤلاء الذين تقدم فيهم القول، ولا غيرهم ممن كان بصورتهم، وقف في مجلس الله، وفي موقف حقيقته على حد قول الكتاب، أنهم لم يروا طبيعة الله ولا فسروها .

أما بولس فلو كان أعطي له أن يكشف عما اشتملت عليه السماء الثالثة والتقرب أو الصعود أو الاختطاف إلى هنالك ربما كان لنا اطلاع أوسع على ما يتعلق بالله على أن يكون ذلك هو السبب الخفيّ لهذا الاختطاف ولكن بما أنها أمور تفوق الوصف كان علينا نحن أيضاً أن نقدرها في صمت ولنستمع هذا المقدار من بولس الذي يقول أن الذي نعرفه إنما هو جزء من أجزاء، وكذلك الذي نتنبأ به فهو أيضاً جزء من أجزاء النبوة (١كو١٣ : ٩)، وهذا ما كان يعترف به من لم يكن عامياً في المعرفة، الذي كان يوعد ببرهان المسيح المتكلم فيه (٢كو١٣ : ٣)

المناضل القويّ عن الحق والمعلم فيه، الذي وضح أن المعرفة الأرضية ليست غير الرؤيا والمنامات والألغاز والإشارات إذ هى واقفة عند أشباح ضئيلة من الحق(١كو١٣ : ١٢) .

ولئن بدوت في نظر البعض غير مالك من الفضول والتطفل ما يحملني على تقصي هذه المسائل فلأنها قد تكون مما ذكره الكلمة نفسه عندما تكلم على الأمور التي لا يطاق الآن حملها(يو١٦: ١٢) وسيأتي يوم يطاق فيه حملها وتكشف، تلك الأمور التي أشار إليها يوحنا سابق الكلمة، وصوت الحقيقة العظيم، وأعلن أن العالم نفسه ههنا لا يستطيع أن يسعها (يو٢١: ٢٥) .

وهكذا يصعب في كل حقيقة وفي كل خطاب أن يقع الإنسان على براهين وأن يبلغ المشاهدة، إننا كمن يريد أن يقوم بعمل كبير بوسائل صغيرة، عندما نعمل على اقتناص معرفة الحقيقة بالحكمة البشرية، وعندما نواجه المعقولات بالمحسوسات أو بغير الحواس فنحصل منها في دوران وتيه فلا نقدر أن نلامس بعقل عرى أشياء عرية، بل نتقدم إلى الحقيقة، ونرسم العقل بالإدراكات.

وأما الكلام في الله، فبحسب ما هو أتم الأشياء، فبهذا المقدار إدراكه يزيد في الصعوبة، والمراودات فيه كثيرة وحلها صعب، فكل عائق، وإن هزيلاً وضئيلاً، يوقف مسيرة النقاش، ويشله ويحول دون انطلاقه، كما يفعل الشد المفاجيء لأعنة الخيل المندفعة، عندما ترتد وتستدير في عنف الصدمة المفاجئة .

كذلك سليمان الذي تحكم، فضلاً أكثر من كل من كان قبله، وأخذ السعة في قلبه موهبة من الله تزيد على الرمل، كلما أغرق في سبر الأعماق عراه الدوار ورأى في خاتمة مطافه كم تباعدت الحكمة عنه .

بولس الرسول كان يروم معرفة أحكام اللّه وليس طبيعته

فأما بولس فكان يروم الوصول، لا أقول إلى طبيعة الله، لأن هذا قد كان عرفه أنه بالكلية غير ممكن، بل كان يروم أن يصل إلى معرفة

أحكام الله، فإذا كان لا يجد مخرجاً ولا موضعاً يقف فيه عن الصعود، ولم يقف فضول تفكيره عند حد معلوم، إذ كان يرى أبداً شيئاً ما مفلتاً منه، فيالها من عجيبة أتشبه به وأنا في ذكرها، ويلحقني نظير ما لحقه، فكان يحضر القول ويتممه بالعجب، فيسمي ذلك ثروة الله المنعمة، ويدعوه غنى الله وعمقه، ويعترف بأن أحكام الله لا تدرك، وعن قليل فيوافق داود فيما لفظ به، فيسمي أحكام الله لجة كبيرة في مواضع كثيرة(مز ٣٦ : ٦) لا يوصل إلى قاعدتها، ولا يتمكن الحس من عدد مقدارها .

حكمة الله في طبيعة البشر

وفي موضع آخر كان يقول، أن معرفته قد اشتد التعجب منها من ذاته، ومن تركيبه في نفسه ذاتها، فوثب عليه أكثر من قوته، فلا يمكنه التشبيت بها، كأنه يقول أنه ينبغي أن أهمل الأشياء الباقية، وأنظر إلى ذاتي وإلى كافة الطبيعة البشرية وجبلتها، حتى يتبين لي ما هى الفطرة والخلطة فينا، وما هى الحركة، وكيف امتزج بالمائت غير المائت، وكيف أنا الأرضيّ متصعدٌ علواً، وكيف يحمل للنفس وتعطى حياة وتنال من الألم، وكيف العقل ثابتاً فينا محصوراً وغير محصور، وكيف يتطرق على الكل بسرعة الاندفاع والأندفاق، وكيف ينال بالنطق وينتقل وينادي بالهوى ويدخل مع الأشياء، وكيف يشاركنا الحس وينقبض من الحواس، وقبل هذا ما جبلتنا الأولى، وما هو خلقنا، وقوامنا في معنى الطبيعة، وما هو التصوير والتمام الأخير، وما هى شهوة الغذاء وتصرفه، ومن الذي أورد إلى المعين الأول وطرائق الحياة، على حال كأنها من ذاتها، وكيف يتغذى الجسم بالطعام والنفس بالكلام، وما هو جذب الطبيعة والمناسبة التي فيما بين الوالدين والأولاد حتى يجري ذلك المقة (المحبة) والمودة وكيف الصورة قائمة بذاتها ومنفصله بتماثيلها، وكيف هذا مقدار الموجودات وخواصها، فلا يوصل إلى معرفتها، وكيف هذا الحيوان بعينه مائت وغير مائت بالنقلة ومخلوقاً بالولادة، وكيف ينصرف شيء ويدخل بدله غيره مثل مجرى النهر الذي يواصل جريه في غير توقف .

حكمة الله في الأعضاء

وأنه لمن الممكن أيضاً الإفاضة في حديث الفلسفة والتطرق إلى الأعضاء وأجزاء الجسم وتناغم تركيبها، وتوافق بعضها والبعض الآخر، وما يجتمع فيها من فائدة وجمال مجتمعة أو متفرقة، كريمة أو أقل كرامة، متحدة أو منقسمة، حاوية أو محوية، وذلك كله وفاقاً بناموس الطبيعة ومنطقها .

حكمة الله في الأصوات

وهناك مادة غنية للكلام في موضوعي الأصوات والأسماع كيف تعبر الأصوات الأجهزة الصوتية، وكيف تتلقاها الأسماع وكيف تجري الصلة فيما بينها بواسطة الذبذبات والتموجات في الهواء المتوسط بينها .

وهناك أشياء كثيرة يمكن الكلام عليها في شأن النظر الذي يتصل بالمرئيات اتصالاً لا يمكن التعبير عنه، وهذا الاتصال يجري بإمرة الإرادة، مرافقاً في تحريكها، ومماشياً للعقل في الحالة التي يكون فيها، إذ أن اتصال العقل بالمعقولات والنظر بالمنظورات يجري في سرعة لا يختلف فيها الواحد عن الآخر.

وهنالك أمور كثيرة يمكن التحدث عنها في شأن الحواس الأخرى التي هى أشبه بمواطن تقبل الأشياء الخارجية في غير تنظر للعقل، وهنالك النوم وما يجلب من راحة، وتخيلات الأحلام، والذاكرة والتذكر، والعقل والتعقل، والغضب والرغبة، وبموجز القول، كل ما يقوم به وعليه هذا العالم المصغر الذي هو الإنسان .

حكمة الله في الحيوانات

هل تريد أن أعدد لك ذكر الفصول فيما بين الأشياء الأخرى وبيننا، وفيما بين بعضها وبين بعض، في طبائعها وتكويناتها ونشوءها

وبلدانها وأخلاقها وسيرها، كيف بعضها يكون قطعانا وبعضها منفرداً، وبعضها يطعم العشب وبعضها ينهش اللحم، وبعضها ما غضبه شديد وبعضها ما هو وديع، ومنها ما يحب الناس ويساكنهم ومنها ما يطلب الحرية ولا يستأنس، ومنها ما يقرب من النطق والتعليم ومنها ما يزيد في البهيمية ولا يتعلم بالكلية، ومنها ما مشاعره كثيرة ومنها قليلة، ومنها مالا يتحرك ولا ينتقل وما هو زائد في السرعة، وما هو زائد في العظم والجمال أو ضد ذلك، ومنها ما هو صغير ومنها قبيح الخلقة وما فيه الحالان، ومنها ما هو شديد القوة وضعيفها، ومنها ما يقاوم ويناحر ومنها ما فيه وجل ودقة حيل، ومنها ما ليس يمكنه أن يحفظ ذاته، وفيها ما يحب العمل وله تدبر، وفيها بطال بالكلية ومالا يتقدم اهتمام البتة .

وقبل هذا كيف فيها ما يدب وفيها ما يكون قائماً، ومنها ما يحب موضعه وآخر يعيش في موضعين، وفيها ما يحب الزينة ومالا يتزين، وما يتزاوج وما لا يتزاوج، وما لا فيه عفة وما فيه شبق، وما يكثر ولده وما ينقص، وما يطول عمره وما يقصر فإن الكلام فينا يكل إذا رام أن يأتي بشرح ذلك جزءاً جزءاً .

حكمة الله في الطبيعة

وانظر إلى الطبيعة السابحة التي تسبح في المياه وكأنها تطير على الطبيعة الرطبة وتستخرج هناك الهواء الذي يخصها وتموت ههنا في هوائنا كما نموت نحن في المياه، وتأمل أخلاقها وأغراضها ومخالطتها ونسلها وعظمها وجمالها وما تحت المواضع منها وما يتوه دونها واجتماعها وتفردها مما كاد يقارن فيه الأرضيات، وتجد لها أيضاً مشاركات وانفصالات ومقاومات في صورها وأسمائها .

حكمة الله في الطيور

وانظر إلى قطعان الطيور وتنوعها في أشكالها وألوانها، وما لا يتكلم منها وما ينغم ومن أين جاءتها أصول التلحين وعمن أخذتها، ومن

أعطى البلبل أوتار تلحينه على الأغصان، وصفيره إذا تحرك مع حركة الشمس في أوساط النهار، ولحن وطن صوته على الغياض وترافق بأصواتها عابر السبيل .

من يساعد التم على نسج تمتمته عندما يبسط جناحيه للريح ويجعل صفيره نغماً من الأنغام ، وإني لا أغفل ذكر الأصوات التي يبعثها الضغط وكل ما تصطنعه الحذاقة على غير مجرى الحقيقة .

ومن أين للطائر الخرسانيّ المتجبر الذي هو الطاؤوس أن يكون هكذا محباً للزينة والمباهاة، حتى يحسن بحسنه إذا رأى إنساناً قد دنا منه أو ربما زاف الإناث فرفع عنقه ونشر ريشه وأصلحه، داره، فبيّن ما هناك من الذهبية والكوكبية، وشهر جماله للعشاق، متثبتاً في مشيه، والكتاب الإلهيّ أيضاً فيدعو إلى العجب، من حكمة النساء في النسيج وصناعة الفنون، وذلك فهو الحيوان الناطق زائد في الحكمة، ومتطرق إلي السموات، وأنت تتعجب من الفهم الطبيعي، في هذا الكائن الناطق .

انظر لي بإعجاب في الذكاء الطبيعيّ عند العجماوات وقدم لي عن ذلك بياناً، كيف أعشاش الطيور في صخور، وتشجر وشقوق، قد أحكمت بإتقان وحسن موافقة، لما يسكنها ويتربى فيها، ومن أين للنحل والعنكبوت محبة العمل، وإتقان الصنعة، حتى يصير للنحل تشبيك الشمع وتثنيته بثقاب مسدسة مركبة، تقوتها سترة تتوسط وتتركب، وتتقابل على خطوط مستقيمة، والعجب أن ذلك في قرص حالك الظلام، وبأعمال بعيدة عن الأنظار .

حكمة الله في العنكبوت

أما العنكبوت فتمد غزلاً رقيقاً كأنه مصنوعاً، فتجعل له عمداً، وتنسج عليه نسجاً كثير التشبيك والفنون، وتأسسها على أساسات، وابتدأت لا تظهر فتجعل له مسكناً كريماً ، ومصيدة تصيد فيها ما ضعف فتقتات من ذلك وتتمتع، وأي اقليدس (هو أبو علم الهندسة) كان له مثل فلسفته في خطوط ليست موجودة، وتعب في إقامة البراهين. وأي بلاميدس (هو أحد ملوك الإغريق الذين اشتركوا في حرب طروادة، اشتهر بتنظيم حركة الجيش، كما اشتهر بلعب الشطرنج) لهذه المخططات الحربية والخطط

الفنية، وهي على ما يقال طريقة الكراكيّ في التحرك المنظم والطيران المنوع، وأي فيدياس وروكسداس وبوليغنوتسي وبارسيوس واغلا فونتس (هؤلاء نحاتون ورسامون وفنانون من القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد) ممن يعرف الإبداع في رسم الجمال ونحته، وأي رقص تناسقيّ في كنوسيوس أحياه ذيذالس (شخص أسطوريّ قيل أنه يبعث الحركة في التماثيل فتبدو كأنها حية) لغانية شابة (هى اريادني بنت مينوس ملك كريت، وقد أقام لها ذيذالس مرقصاً في مدينة كنوسيوس)، وبلغ فيه من الروعة كل مبلغ، أو لافورنش كريت الضيق المدخل، والمستعصي الملاوي الدهليزية- على حد قول الشعراء- والملتف على ذاته التفافاً برع الفن في ابتداعه والإكثار منه، وإني لأعرض عن الكلام على مخازن النمل وخازنيها، وعلى مخزونها من المؤونة الكافية لشتى أحوالها، وعلى ما تورده لنا الأحاديث عن تجولها وعن قوادها، وعن النظام الدقيق الذي تجري عليه أعمالها .

حكمة الله في النباتات

فأن كان الكلام عندك في هذا ممكنا، وكنت قد وقفت على المعرفة بهذه الأشياء، فانظر إلى أنواع النبات التي تصل إتقان الصنعة فيها إلى الأوراق فتجمع اللذة منها للبصر والمنفعة من الأثمار، وانظر للفواكه وغزارتها ولا سيما من الجودة في الضروريّ منها، وانظر إلى هواء عروقها وطعومها وما بها وأزهارها وروائحها، ليس ما في لذيذها وحده، بل وفيما يستعمل منها للمداواة والصحة، وما في ألوانها من المحاسن والكيفيات .

حكمة الله في الأحجار

وانظر إلى جمال الأحجار ونورها، إذا كانت الطبيعة قدمت لك كلاً من ذلك، كما يصنع في وليمة حفلة، ما كان من هذه ضرورياً، وما كان

متعة، حتى يحصل لك من ذلك إذا ما أخلصت الرؤية ترى الله في صنائعه ويبعث فيك فقرك مزيداً من الفطنة والتيقظ .

حكمة الله في المياه

جُل طول الأرض وعرضها التي هي والدة الكل، واعرف جداول البحار كيف هي مرتبطة بعضها ببعض، وكيف ترتبط الكل بالأرض، واعرف حسن الغابات والغياض والأنهار والعيون، ما كان منها غزيراً ودائم التدفق، ليس ما كان بارداً وحده ولا ما كان مشروباً من المياه وما يجري فوق الأرض، بل وما كان تحتها يجري في ثقاب ثم يندفع بريح شديدة وينعصر فيحمى من شدة دفع الهواء والمقاومة، فإذا اجتاز قليلاً قليلاً في تلك الأماكن انحرق فيما بعد فقام لنا بالعوض من الحمامات بالحمات التي وهبت لنا من ههنا في مواضع كثيرة من الأرض متضادة، تصير إلى مداواة قد جاءت من ذاتها بلا ثمن، فقل كيف، ومن أين هذه الأشياء التي هي بنسيج عظيم، بلا صنعة ممدوحة، من سياسة بعضها إلى بعض، أكثر من امتداح كل واحد منها، إذا نظر فيه على انفراد .

حكمة الله في الأرض

فكيف تثبت الأرض متركبة جالسة لا تميل، وعلى ماذا هي راكبة، وأي شيء يدعمها، وماذا يدعى ذلك الشيء، فأن الكلام ليس هو موضعاً يقف عنده، غير الوقوف عند الإرادة الإلهية، وكيف من الأرض ما يصعد إلي ذرى جبال شاهقة، ومنها ما ينبسط ويجلس في بقاع منخفضة، وهذا فعلى صور كثيرة الأنواع والفنون فتنتقل في استحالتها قليلاً قليلاً، فهي تقوم بسعة بما يحتاج إليه منها، وتفيد السرور بفنونها، فمنها مسكون، ومنها غير مسكون، لما قطعها من زيادة الجمال، ومنها قد انفصل إلى غاية أخرى، فكل هذه دليل على عظمة الله في صنعته .

حكمة الله في البحار

فأما البحر فلو لم يكن لي أن أتعجب من زاخره، لتعجبت من أبنيته وساحته، وكيف هو مطلق، وقائم، وداخل حدوده ثابت، وإذا لم أتعجب من سكونه، فأتعجب لا محالة من عظمه، وإذا كانت الحالتان موجودتين في الطريقتين، فأني أمدح قوته، وأي شيء جمعه وربطه، كيف يرتفع ثم يقف، ويزيد كأنه احتشم الأرض التي تجاوره، وكيف يقبل الأنهار كلها، وهو ثابت على حاله، مع غزارة الكثرة، وما لا أعلم ماذا أقول فيه، وكيف الرمل حد لعنصر هذا مقداره، والطبيعيون الحكماء في الباطل، هل عندهم ما يقولونه، إذا قاسوا مثل هذه الأمور بما لهم من آراء، فليذكروا كيف يكيلون البحر بالفنجان، ويقدرون مثل هذه الأشياء بأوهامهم .

إلاّ أنني أنا أقول من الكتاب المقدس قولاً موجباً أتفلسف فيه، يكون مقنع وأصدق من الأقوال الطويلة، وهو أن الله "رسم حداً على وجه المياه عند اتصال النور بالظلمة" (أي ٢٦ : ١٠) هذا هو المغلاق الذي يكبل عنصر المياه، وكيف يُحمل الملاح البريّ على خشب ضئيل بهواء قليل (بالمراكب)، فهذا إذا رأيته أما تعجب منه ويذهل فكرك، حتى يكون بر وبحر قد ارتبط بجوانح دعت لتعب فيأتي الإنسان مثل هذه الأشياء، التي بينها هذا التفاوت في الطبيعة، ويجتمع إلى شيء واحد .

تحَرَّ أيها الإنسان واكشف المعنيين، الأول الذي منه هذه الينابيع، إن كان البحث عن ذلك يمكنك، وأنت قادر عليه، وإن كانت تتيسر لك معرفة، من فجر الأنهار، وبسط البقاع، وشق الجبال، وسلم إلى هذه الأشياء مسلكاً، لا يمتنع ولا يعتاق، وكيف العجب من أضداد، فلا البحر يطفو ولا الأنهار تقف، وما هو الغذاء الذي تحمله الأنهار وفيما تنوعه، بحيث يروي بعض النباتات عن طريق أوراقه، والبعض الآخر عن طريق جذوره، هذا وكم في الكلام على "مباهج الله" من بهجة !.

حكمة الله في الهواء

هيا بنا الآن دع الأرض وما يتعلق بها وطر في الهواء بأجنحة النفس لكي يواصل هذا الخطاب مسيرته في اطراد من هنا سأصعد بك إلى الأمور العلوية إلى السماء نفسها وإلى ما فوق السماء ، ثم بعد ذلك يكل القول عن التقدم، إلاّ أنه سيتقدم على كل حال، بقدر الإمكان .

فمن الذي نشر الهواء، وبسط مثل هذه الثروة الجزيلة، التي لم تُقَسْ بالمراتب ولا بالأحوال والتي لم تضبط بحدود ولم توزع وفاقاً للأعمار بل كان شأنها شأن المن في التوزيع فينال كل منها كفاف حاجته في مساواة الحدود والأنصبة، والهواء مركبة الجماعة الطائرة وموطن الرياح وقسطاس الفصول ومتنفس الأحياء أو بالحريّ عامل اللحمة بين النفس والجسد، فيه تتكون الأجسام وبواسطته يجري الكلام، وفيه ينتشر النور وتظهر المنورات، كما يظهر به شكل الأشياء الخارجيّ وينتقل إلى الأنظار .

حكمة الله في الثلج

وانظر لي فيما بعد هذا، إني لست أقدر أعطي الهواء المقدرة كلها التي يحبونها في نطاق سلطانه، فيما يتوهم فيه أنه من ذات الهواء، فأيما هي خزائن الرياح .

وأيما هي كنوز الثلج، ومن الذي يولد قلاع الندى، كما قيل في الكتاب (أي٣٨ : ٢٨)، ومن أي بطن يخرج الجليد، ومن الذي يربط الماء في السحب، والذي يغلق تارة الغمام على العنصر المائع خاضعاً لكلمته، فما أعظمه من عجب، أن تنضبط طبيعة سائلة بكلمة، ومنه ما يهطل ويصب على وجه الأرض كلها، ويزرع الزرع في أوقاته بمساواة في الكرامة، ولا يترك كل الطبيعة الرطبة حرة بطاقة لا تنضبط، لأن التطهير الذي كان في أيام نوح فيه مقنع، وليس هو ناسياً وصيته، إذ هو أصدق الصادقين، ولا يضبط هذه الطبيعة الرطبة بالكلية، حتى يحتاج إلى مثل إيليا

يحل عنا اليبس، فأنه أن أطبق السماء فيقول من يفتحها، وأن فتح مطابقيها فمن يزيحها، ومن الذي يحتمل الحالين من الغيث، إذا لم يثبت على قصد ومقدار مقدر، وإذا لم يكن ذلك بتقديره من ذاته، وموازينه التي بها يرتب الكل .

حكمة الله في البرق والرعد

وماذا تقوله لي فلسفتك في البروق والرعود يا هذا، الذي يرعد الأرض ولا يرى، أن يستنير بشرارات صغيرة من الحق، إنما بخارات من الأرض ترد إليها العلة، وتجعلها صانعة للغيوم، وأي تكاثف من الهواء، وأيما عصر أو تصاعد من الغيوم الثخيفة، فيكون عندك العصير مولداً للبرق، والصدع مولداً للرعد، وأيما هواء ينحصر ثم لا يجد له مخرجاً، فيبرق عند العصر ويرعد عند الصدع، فأن كنت قد عبرت في الهواء وفيما حول الهواء بفكرك، فالمس مع السماء والسمائيات، ولتكن الأمانة الفائدة لنا أكثر من القول، إن كنت عرفت الضعف فيما قرب، وإن كنت علمت قولاً في أن تعرف ما يفوت القول، حتى لا يكون بالكلية أرضياً، ولا دائراً حول الأرضيات، وجاهلاً بهذا الشيء بعينه الذي هو الجهل .

حكمة الله في الكواكب

ومن أدار السماء ورتب الكواكب، وقبل هذه فم السماء والكواكب، إن كان يمكنك أن تقول يا متكلماً في الآثار العلوية، الجاهل بما بين رجليك، الذي لا يقدر أن يقدر نفسه، وهو شديد البحث عما فوق طبيعته، وقد شخصه شخوصاً لا حد له، فليمكن أن تدرك الدائرات، والأدوار، والاتصالات، والانفصلات، والمطالع، والمشارق، والدرج، والدقائق، وكل ما تعظم فيه صناعتك هذه العجيبة، إلا أن هذا ليس هو بعد إدراك الموجودات، وإنما هو رصد حركة ما بترتب، وتثبتت بالرياضة الزائدة، وتجمع المرصود إلي شيء واحد من أشباه كثيرة، ثم جمع الرصد ذلك إلى قول وقياس، فسماه علماً كالعوارض العارضة للقمر، كان ابتداء

المعرفة بها من البصر، ثم صارت بعد ذلك عند الكثيرين معروفة، وأنت فأن كنت عالماً بهذه الأشياء جداً، وتطلب أن تعجب منك بواجب، فاذكر علة الترتيب والحركة، ومن أين الشمس تنير على المسكونة كلها، وهى عند الأبصار كلها كرئيس خورس تخفي غيرها من الكواكب بنورها، أكثر مما تخفي البعض من تلك بعضا، والبرهان على ذلك أن في تلك ما يعادل بعضه بعضاً في النور، وأما هذه فتزيد عليها في الضياء، حتى ولا إذا كانت طالعة معها تركتها أن تعرف، فهي كالعروس حسناً، ومثل الجبار سرعة وعظماً، وأني لا أحتمل أن آتي بتعظيم لها من موضع آخر إلا مما يخصني، فهذا مقدار بهاء في القوة أن تكون من أقطار أخرى فتدرك أقطار أخرى بحرارتها، ولا يفوت شيئاً الحس بها بل تملأ النظر ضوءاً والطبيعة الجسمانية حرارة، فهى تسخن ولا تحرق وبلطافة حسن الامتزاج وترتيب الحركة وأنها تحضر مع كل شيء وتحدق بكل شيء سواء وذاك فما مقداره عندك .

إن تأملت أن الشمس في المحسوسات هذه مقدارها، فما هو الله في المعقولات، كما قال بعض الغرباء (في مقارنة بينها وبين الله)، لأنها تنير البصر كما ينير ذلك العقل، وهى أفضل ما في المبصرات، أما ذلك فأفضل ما في المعقولات، ولكن ما الذي حركها في الأول، وما هو الذي يحركها دائما ويديرها، وهى ثابتة بالقول لا تتحرك، وهى بالحقيقة لا تعتفِ عنا، ولا تكل بخمل المعبس، وتحيي الطبيعة، وغير ذلك مما يستبحث فيه عند الشعراء بواجب، وهى لا تقف أبداً عند حركاتها، ولا عن إحسانها، وكيف تصنع النهار إذا كانت فوق الأرض، والليل إذا صارت تحتها .

أو فلا أدري ما أقول، إذا نظرت إلى الشمس، وما هى الزيادة ههنا، والنقصان والاستواء من غير استواء، إذا قلت شيئاً معجزاً، وكيف هى صانعة الأوقات، وقاسمة إذ تقدم الأوقات بحسن ترتيب وتتصرف، ويشابك بعضها بعضاً مشابكة الضيف، ثم ينصرف بعض عن البعض، الواحد من ذلك بناموس المحبة، والآخر بناموس حسن الترتيب، فيمتزج رويداً رويداً ومهلاً مهلاً وتشرق بالمقارنة، ومثل ذلك في الليل والنهار حتى لا يعم بمباشرة الحق .

ولكن فلتتصرف عندنا الشمس، وعرفني أنت إن كنت عرفت طبيعة القمر، وأعراضه، ومقادير نوره، وسيره، وكيف القدرة للشمس

بالنهار، والتقدم للقمر بالليل، فالليل يعطي للوحوش انكشافاً، والشمس تنهض الإنسان إلى العمل، أما عند ارتفاعها، وأما عند انخفاضها، فحسب الزيادة في نفعها .

وهل عرفت أيضاً رباط الثريا أو شد الجبار، كما عرفت الذي يعد كثرة النجوم، ويدعو كل واحد باسمه (مز ١٤٧ : ٤) ويفرق فيما بين مجد كل واحد ونظامه وحركته، حتى أثق بك في تشبيك أحوالنا وعقالها بالنجوم، وإقامة الخليقة وأعطيتيكها سلاحاً على الخالق، فما تقول ترى أن يقف الكلام ههنا عند الهيوليّ والمبصرات أم لا، لأن القول قد جعل خباء موسى، رسماً لكل العالم الذي هو مركب من المبصرات وغير المبصرات، فلنا نحن أن نحرق الستر الأول ونتجاوز الحس، ونطلع إلى القدس على الطبيعة العقلية السمائية، ولكن ما لنا أن نباشرها بغير جسم، وإن كانت هى من غير جسم وقد سميت أو كونت ناراً أو روحاً، وقد قيل أنه يصنع ملائكته أرواحاً وخدامهُ لهيب نار(عب ١ : ٧) اللهم أن لم يكن يصنع ههنا إنما يراد به أن يحفظها على الأصل الذي عليه كونت فأنها قد تدعى ناراً وروحاً .

- ✠ أما الروح فلأنها طبيعة عقلية .
- ✠ وأما النار فلموضع التطهير .

الملائكة أو الطغمات السمائية

لأنني قد عرفت اسماً للجوهر الأول هذه صورتها، ولكن فليكن جملة ذلك عندنا، إنها ليست جسماً أو قريباً من ذلك، ألا ترى كيف نذهل ويغمى علينا هذا الكلام، وأن ليس لنا مكان نتقدم إليه ما خلا هذا المقدار، وهو مقدار معرفتنا بأن هناك ملائكة ما، ورؤساء ملائكة، وكراسيّ، وسيادات، ورئاسات، وسلاطين، وضيآت، وارتفاعات، وقوات عقليات، أو عقولاً هى طبائع نقية لا دنس فيها، لا تتحرك إلى ما كان شراً، أو فهى عسرة التحرك إلى ذلك، لأنها طائفة بالعلة الأولى، وإلاّ فكيف يسبحها أحد بغير هذا وهى تستنير نوراً نقياً، أو يستقصي الواحد من الآخر على طريقة أخرى بحسب التشبيه إلى طبيعته ورتبته، وهى تتصور وترتسم بالجودة بهذا المقدار حتى يصير منها أنوار، أو منها من يمكنه أن ينير غيره

بتضـيح الأول وتوزيعـه، وهـي خـدم الإرادة الإلـهية، قـادرة بقـوة طبيعـية ومكتسـبة، تسير علـى كـل شـيء، وتحضـر الأشـياء كلهـا فـي كـل موضـع باستعداد الانبسـاط للخدمـة، والخفة في الطبيعة، ويتخذ كل واحد منها جزءاً من المسكونة، ومكاناً ما مرسوماً له بحسب ما عرفه من رتب هذه الأشياء وحدودها، فهي تجمـع الكل إلـى شـيء واحـد ومعرفة واحدة لخـالق الكل، وهي مسبحة للعظمة الإلهية، وناظرة إلى المجد الأزليّ بأزلية، ليس ليتمجد الله، لأن لا شـيء يمكن أن يزاد الملأ المنعم واهب الخيرات، الأشياء الباقية حتى لا يفتر الإحسان، ولا الطبائع الأولى التي هي بعد الله، وهذا فأن كان سبح بحسب الاستحقاق فالمنة للثالوث اللاهوت الواحد في ثلاثة، فإن كان ذلك ناقصاً عن المأثور فللقول ومن ههنا الظفر لأن اجتهاده إنما كان في أن نبين أن طبيعة التواني أفضل من العقل لا أن الطبيعة الأولى وحدها أفضل منه فإني أتوقف عن أن أقول أن الطبيعة الأولى وحدها لها أن تكون فوق كل شيء تم الميمر في اللاهوت ولله المنة .

طوبى لنا يا سرائيل لأن ما يرضي عند الله معروف لدينا

(باروك٤: ٤)

القديس أوغسطينوس

إن تعلمت أن تصلي من أجل أعدائك فإنك على طريق الرب تسير.

الميمر الثاني عشر

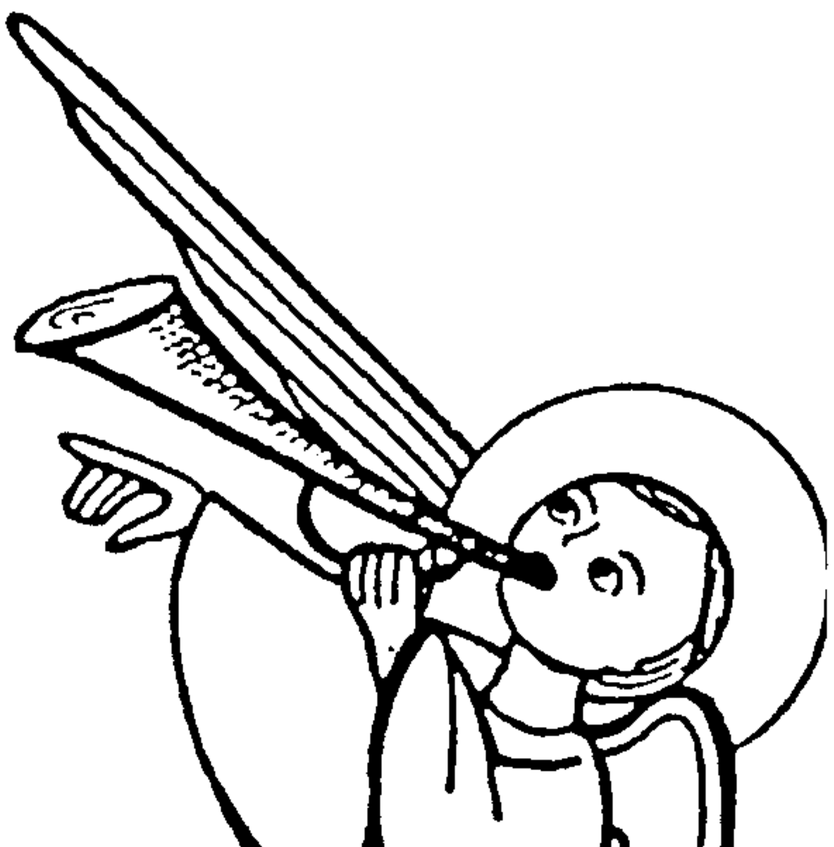

ميمر قاله في الميمر الأول مما تكلف بنقله الابروطسستا إبراهيم

ابن يوحنا الأنطاكي

الميمر الثاني عشر
ميمر قاله في الميمر الأول
مما تكلف بنقله الابروطسستا
إبراهيم ابن يوحنا الأنطاكيّ

أما ما عسى أن يقول قائل، إذا ما دام التهيوء والإسراع إلى الأقوال نفسها، والمخاطرة في المسارعة إلى كل الأشياء، ولاسيما إلى الكلام في الله، فهو هذا، ولكن إذا ما كانت الملامة ليستِ شيئاً تكثر، بل تسهل وقد يتمكن منها كل من أثر، وكان إشهار الواحد رأي نفسه، هو الذي يليق بالرجل الدين اللبيب، فهاتِ نأتي واثقين بالروح القدس المهان عند أولئك القوم، المسجود له من قبلنا، فنذكر ما هو اعتقادنا في اللاهوت، ونقدم ذلك كولد حسيب قد جاء في وقته، فنقدمه صبياً بارزاً، على أنَّا لم نكن من قبل عن مثل هذا صامتين، إذ كنا في هذا وحده فتى كاكبار النفوس، إلاّ أنا في هذا الوقت نريد في المجاهدة بالحق، حتى لا يكون محكوماً علينا من حيث التوقف، بأنا غير مؤثرين، وكل قول لعمري فهو ينقسم إلى قسمين:

- ✠ أحدهما الذي يثبت ما نعتقده .
- ✠ والآخر الذي ينقض مخالفته .

فسبيلنا نحن أيضاً أن نقدم إيضاح ما يخصنا، ثم نروم بعد هذا نقض ما يعتقده أضدادنا، ونحرص بحسب الطاقة أن نأتي بالحالين على ما يمكن من الاختصار، ليسهل جميع ما يقال على معنى القول الذي تخيل أولئك أن يجعلوه مدخلاً، يخدعون به الساذجين أو الركيكين، ونطلب نحن بهذا ألاّ يتبدد المعنى بطول الكلام، كما لا ينصم في كيزان، بل ينسحب في بقعة وينحل .

فالاعتقادات الأولى في الله ثلاثة .

- ✠ أحدها عدم الرئاسة
- ✠ والآخر كثرة الرئاسة .
- ✠ والثالث توحيدها بالاثنين .

من هذه الآراء هما اللذان لعب بهما أولاد الحنفاء، وهما أهل أن يلعب بهما، لأن مالا رئاسة له لا يترتب ولا ينتظم، وما كثرت رئاسته اختلفت واتصلت فيه المقاومات، ثم يعود هذا إلى عدم الرئاسة وعدم النظام، لأن هذين كليهما إلى شيء واحد يصيران من عدم الترتيب وذلك فيؤول إلى الانحلال إذا كان عدم الرئاسة ندب لا محالة إلى الانحلال .

توحيد الذات وتثليث الصفات

وأما نحن فالمكرم عندنا التوحيد، ولكن التوحيد عندنا ليس هو الذي نحصره في شخص واحد، وقد يكون لعمري واحداً يخالف ذاته ويقاومها، إلاّ أن توحيدنا نحن هو الذي يقومه اتفاق الكرامة في الطبيعة ومناسبة الهوى في الهمة، والذات بعينها في الحركة والانصباب من الواحد من الجملة التي منه إلى الواحد، ومثل هذا فغير ممكن في الطبيعة المكونة والذي نعتقده نحن، إن خالف في عدد فهو في الجوهر غير منقسم، فمن ههنا لما تحرك الواحد إلى زوج، ثبت ووقف عنه الثالوث وهو الآب والابن والروح القدس عندنا، فالواحد والد وباعث إلا أن ذاك بغير ألم ولا زمان ولا جسم، والاثنان الآخران فأحدهما مولود، والآخر مبرز (منبثق)، ولست أعلم كيف ينبغي أن يدعيا بعد أن ينتزع ما نقول عن سائر المبصرات، لأن لا نجسر أن نقول أن هذا زيادة اندفاق من الجود، كما يجري أن يذكر مثله بعض المتفلسفين في الحنفاء، لأنه مثل ذلك بكأس فاضت، وكان قوله هذا عندما تفلسف في علة ذكرها أولى وعلة ثانية، ونحن فنحدد من مثل هذا لئلا يدخل ههنا ولادة كرهية، أو شيئاً كمثل فضلة طبيعية لا تنضبط، وهذا فما أبعده من ملائمة الأوهام في اللاهوت، فمن ههنا رأينا المقام داخل حدودنا، ونأتي بعدم ولادة وولادة وانبعاث، بحسب ما ذكره الله الكلمة في بعض المواضع، فإن قال قائل متى كان هذا، قلنا له

هذا فوق متى، وإن جاز أن يقال، فيمكنا في القول وقلنا لما كان الآب، فإن قيل لنا ومتى كان الآب، قلنا لم يكن متى لم يكن الآب وكذلك الابن والروح.

ثم سلني أنت فإني سوف أجيبك، أن الابن ولد عندما لم يولد الآب، وكذلك انبعث الروح ما لم ينبعث الابن، ولكن المولود ولد بغير زمان، ولادة تفوق النطق، إذ كان لا يمكننا أن نبين ما قد فات الزمان ونحن هاربون من إيضاح زمان، لأن حينما وقبلما وبعدما ومن الابتداء كل هذا لا يتعرى من الزمان، ولو زدنا كل زيادة في جهد، ولكن الشيء الممتد مع الأزليين هو الذي نسميه دهراً، لا ينقسم بحركة ولا يتجزأ ولا يعد تنقله من الشمس وذلك فهو الزمان .

فإن سألتني لم نسبت المشاركة للذي لا ابتداء له للتي لا ابتداء لها إذ كانت تساويه في الأزلية، قلت لك من هناك، وإن لم تكن بعده، لأن الذي لا ابتداء له، فهو لا محالة أزليّ، وليس هو لا محالة عديماً للابتداء، ما دام معبرنا إلى أن هو الابتداء، فليس هذه إذا عديمة الابتداء، من حيث العلة، لأن ذلك هو الابتداء والعلة، ومن البين أن العلة ليست لا محالة أقدم مما هى عليه، ولا الشمس أيضاً أقدم من الضوء، وإن كانت علته، ومع هذا قول يقال عن هذا الشيء من العلة أنها لا ابتداء لها، من حيث الزمان، فأن كنت أنت تفزع الساذجين لأن ما الزمان فليس هو ما تحت الزمان، وكيف الولادة ليست أليمة، لأنها ليست جسمانية، وذلك أن الجسدانية إذا كانت أليمة، فأن غير الجسمانية ليست بأليمة البتة .

وأنا فأسألك قائلاً كيف إله من غير خلقة، لأن المخلوق ليس بإله، حتى لا يأتي من ههنا ألم، إذ كنت تتوهم كل شيء جسمانياً، ومثال ذلك الزمان، الهوى، التصور، الهمة، الأمل، الحزن، الغضب، الخيرية، الاستقالة، وهذه الأشياء كلها وأكثر منها، فقد تعرض في الخليقة بحسب ما هو بين عند كل أحد، وأني لأعجب كيف لا تجسر على ذكر مباضعة وزمان حمل وعطب من سقط، كأنه عندك أنه لا يمكن أن يكون هناك ولادة إن لم يكن هكذا، ثم بعد ولادة حيوان بريّ، وما بي تدخل تحت واحدة من هذه الولادات الولادة الإلهية، التي لا توصف، أو تبطل الابن من هذا المعنى الظريف، وكيف لا يفهم هذا، إنما اختلفت ولادته من حيث الجسد فقد يجب أن ينفرد أيضاً من حيث الروحانية ولادته، وإلاّ فأين عرفت أنت فيما عندك بكراً ولدت إلهاً، بل من انيته غير متساوية فولادته متخالفة، فمن

هو إذاً أب لا ابتداء له، هو الذي لم يبتدئ بالوجود أن يكون موجوداً، والذي وجوده كان له بدءاً وهو الذي له بدء أن يكون أباً، إلاّ أن الآب عندك ابنٌ، ليس هو أباً فيما بعد إذ لم يبتدئ، وهو آب بالحقيقة، لأنه ليس ابناً، وكمثل ذلك الابن بالحقيقة، لأنه ليس أباً، وأما حالنا في ما هذا معناه، فليست حقيقية، لأن المعنيين قد يتفقان للواحد من كليهما، وليس أحدهما أفضل والآخر أنقص، لأننا منهما جميعاً، ولسنا من واحد فقط، حتى تنقسم مهلاً إلى ناس، وربما لم تصر ولا إلى ناس، وكأنا لم نؤثر، ثم نترك ونترك حتى لا يبقى لنا إلاّ النسبة وحدها، خلوه من الفعل .

الابن ولد بغير ابتداء

أن القائل قد يقول، ما معنى قولكم ولد وولد ما خلا أن يدخل ابتداء في الولادة؟ فما عندك أن لم تقل ولا هذا، بل أنه كان منذ الابتداء مولوداً، حتى تتخلص من خزيك في المقاومة، وخصائمك المحبة للزمان، فهل يلزمنا ومن ههنا نحكم ونقول أنا قد بهرجنا شيئاً من الكتاب والحقائق، أو معروفاً عند كل أحد، أنه ربما كان يقال في زمان ما، لاسيما في الكتاب الإلهيّ، ما كونه قد كان بخلاف المقال، ليس في الزمان الماضي وحده، بل وفي الحاضر والمستأنف، مثل قول النبيّ لماذا سخرت الأمم(مز ٢ : ١) ولم تكن بعد سخرت، وقوله أنهم سيعبرون في نهر رجلاً، ومعناه أنهم قد عبروا، وقد يطول تعديد كل النعم التي قد ذكرت، على هذا المعنى في الكتاب، إلاّ أن ذوي الحرص قد حفظوا ذلك وعرفوه، أنه هو هكذا .

هل الآب آب باختياره أم بغير اختياره؟

ومثل ذلك لهم ما هو صعب المماحكة، شديد القحة، إذ يقولون هل الآب آب باختياره أم بغير اختياره؟ ثم يشدون هذا كأنه تعليق تعليقات قوية، بل غصبه جداً، لأن إن قيل لهم بغير اختياره، قالوا قد غصب على ذاته، ومن هو الذي غصبه؟ وكيف يكون المغصوب إلهاً؟

وإن قيل لهم باختياره، قالوا فالابن إذاً ابن إرادة، فكيف يكون من الآب؟

فهم من ههنا يختلقون، الإرادة والدة جديدة عوضاً من الآب، إلاّ أن هذا وحده منهم مأثور، أن يكونوا قد أبعدوه عن الألم، والتجئوا إلى الاختيار والإرادة، إذ كان الاختيار ليس بألم، وسبيلنا أن نعرف ما هو القوي بائناً منهم، إلاّ أنه الأجود أن يتشابكوا مشابكة في الأول بلا حكمهم، وذلك أن يقال للقائل وأنت يا قائل ما تريد، هل من أبيك كنت بإرادته، أم بغير إرادته، فإن كنت منه وهو غير مريد، فقد اغتصب قسراً، ومن الذي غصبه؟ لأنك لن تقول أن الطبيعة غصبته، لأن الطبيعة فيها العفاف والعفة، وإن كنت من مريد، فقد هلك عليك أبوك من حروف حقيقة، وقد حصلت ولد إرادة، ولست ولد أب .

وأنا بعد هذا فانتقل إلى الله والخلائق، فأقدم مسألتك إلى حكمتك وأقول.

هل الله جل وعز باختياره يرى كل شيء أم ألزم ذلك، فإن كان ألزم فقد يجب أن نسأل وههنا عن الغصب والغاصب، فإن فعل ذلك باختياره، فقد عدمت الخلائق أن تكون خلقة الله، وقبلها فقد عدمت ذلك أنت، الباحث عن مثل هذه القياسات، المتحكم تحكماً على نفسه، لأنه لابد أن تتوسط هذا إرادة حاجزة، إلاّ أني أظن أن **الإرادة غير المريد، والولادة غير الوالد، والقائل غير القول**، إن لم نكن سكارى، فالواحد من الاثنين كأنه المتحرك، والآخر كأنه الحركة، فليس المراد أيضاً منسوباً إلى الإرادة، إذ كان هذا ليس تابعاً لذاك لا محاوله، ولا المولود إلى الولادة، ولا المسموع أيضاً هو السمع، بل المراد من المريد، والولادة من الوالد، والقول من القائل، والذي يقال في الله تبارك فهو فوق ذلك كله، إذ كان ولادته إنما هو إيثاره أن يلد وليس هناك متوسط، ولو قبلنا ذلك قبولاً ما، ولكن الولادة فوق من الإرادة، فهل تؤثر أن أذاعت في باب الآب أيضاً، فإن الجسارة على مثل هذا إنما هى منك .

فاعلمني هل الآب إله بإرادته أم بغير إرادته، وكيف تتخلص ههنا من رشاقتك أن ذلك بإرادته، فمتى ابتدأ أن يريد، لأنه لا يجوز أن يكون أراد قبل أن يكون، ولا يوجد شيء يكون قد تقدمه، أو يكون بعضه مريداً وبعضه مراداً ، على تبعض على هذا المعنى ويجري على هذه

المقدمة التي قدمتها، وكيف يكون هذا بارزاً من إرادة، وإن كان ما اختار ذلك، فما الذي غصبته على أن يكون موجوداً، وكيف يكون إلهاً إن كان قد عصب، لا سيما ليس في شيء آخر بل في أن يكون إلهاً .

كيف ولد المولود؟

ومن قولهم : وكيف ولد المولود؟

فنعيد عليهم فعرفونا أنتم، كيف خلق إذ كان عندكم مخلوقاً؟

وهذا لعمري فشبيه بذاك في الحيرة، وعساك أن تقول باختياره ومقاله، إلا أنك لا تأتِ على الكل بهذا القول، لأنك قد تسأل فكيف كان الاختيار والمقال قوة فعل، والذي يعوزك ههنا أن تقول: إن ذاك كان بخلاف كونه في البشرية، ولكن في قولك كيف ولد، أن الولادة لو كانت شيئاً تدركه أنت، لما كانت جليلة عظيمة، إذ كان لا يمكنك أن تعرف ولادتك أنت كيف كانت، وإن كنت قد عرفت منها اليسير، وما تستحي من ذكره، ثم بعد ذلك تتوهم أنك قد عرفت الكل، ولكن قد يطول تعبك أولاً، إلى أن تعرف أصول التركيب والقصور والظهور، ورباط النفس مع الجسم، والعقل مع النفس، والنطق مع العقل، ثم الحركة والنشوء ، وتمثيل الغذاء، والحسن، والذكر والتذكر، وأشياء أخرى منها تركبت، وأي شيء من ذلك يخص النفس والجسم معاً، وأيها ينفصل من الواحد ويخص الآخر، وما منها يتأخر تمامه، وما يتقدم أصوله وكلماته مع الولادة، فعرفني هذه الأشياء وميزها، ثم ولا تتمكن فيما بعد أن تعرف ولادة الله، إذ كان لا يخلو ذلك من خطر .

لأنك وإذا عرفت ولادتك أنت، فليس من اللازم أن تعرف ولادة ربك، وإذا كنت لا تعرف ولادتك أنت، فكيف تعرف ولادة الله .

فأن بمقدار ما يبعد الله جل وعز عن أن يتصوره أحد، كذلك ولادته العليا، يبعد إدراكها عليك أكثر من إدراك ولادتك البشرية، وإن كان لما خُفِي عليك أن تدركها، صار عندك أنه ما ولد، فقد أن لك من ههنا أشياء أخرى كثيرة، تدفعها بالكلية لأنك ما أدركتها، وقبلها فالله جل وعز بعينه، لأنه لا يمكنك أن تدعى أنك قد عرفت ما هو، ولو كنت أجسر الناس

على الفضول وأقواهم نفساً فيما هذه سبيله، ولكن أبعد عنك الانصبابات والتقسيمات والتقطيعات، وأن يخطر ببالك مثل ما يلائم جسماً في طبيعة لا جسم لها، ثم حينئذٍ فلعله يخطر لك ما هو أهل أن يذكر في ميلاد إلهيّ، واهٍ من قولك كيف ولد، وأنا أكرر ذكر قولك هذا، وهو صعب عليَّ .

لأن ميلاد الإله ينبغي أن يكرم بالصمت، وكثير لك أن تعلم أنه ولد فقط، وأما كيف فلسنا نطلق ولا للملائكة فضلاً عنك أنت أن تفهمه، وإن أثرت أنت أن أذكر كيف ذلك، قلت أنه ولد كما علم الآب الذي ولده، والابن المولود، وأما الأكثر من هذا فهو مستور بغمام نثرت غشاوة بصرك .

ثم تسأل بعد هذا هل الآب ولد (ابن) موجود أم غير موجود، فيالها من هذيانات إذ كان مثل هذا إنما يجوز أن يقال فيّ وفيك، إذ كنا في القديم شيئاً ما، كمثل ما قيل "أن لاوي كان في صلب إبراهيم" (عب ٧ : ١٠)، ثم صرنا بعد هذا أشياء أُخَر، أي صرنا على معنى ما، من موجود وغير موجود، بضد الهيوليّ القديمة، التي كونت من عدم وغير موجودات، وإن كان قوم آخرون قد اختلفوا لها أنها غير مكونة، وأما ههنا فالولادة ملازمة الآتية، والذي هو من الابتداء، وإلاّ فأين تضع مسألتك هذه، القائمة على حرف حرف حرفين، وما هو الشيء الذي تقدم الابتداء، ويكون قبله، حتى يضع هناك أن الابن كان فيه أم لم يكن، فانَّا حيثما وضعناه انحل علينا من الوجهين، قولنا أنه من الابتداء، اللهم إلاّ أن يكون الآب يلزمه أن يكون موجوداً ومن عدم، أو يكون وجوده وجودين، أحدهما متقدم والآخر متأخر، أو يلحقه مثل ما لحق الابن أن يكون من غير موجودات، على حسب اللعب الذي يأتي من مسائلك وأبنيتك التي بنيتها على الرمل، فلا تثبت ولا تقيم من الريح .

وأما أنا فلست أقبل ولا واحد من الوجهين، بل أقول أن المحال في السؤال، وليس أن في الجواب حيرة، ولا قلة نفوذ وعدم اطراد، فإن كان عندك أنه من اللازم أن تصدق إحدى المقدمتين، في سائر الأشياء، على طريقة مقدماتك المنطقية، فاقبل مني مسألة صغيرة .

هل الزمان في زمان، أم ليس في زمان، فإن كان عندك في زمان، فعرفني أيما هو ذلك وأي شيء غير هذا الزمان، وإن لم يكن الزمان في زمان، فأي معنى لهذه الحكمة الزائدة، في إدخال زمان عديماً لزمان .

وأما قولك أني كاذب، فسلم إليَّ مقابله أن تكون صادقاً فقط، أم كاذباً، إذ كنا نسلم الحالين، ولا يجوز لأن الضرورة داعية إلى أن يكون صادقاً إن كذب، أو كاذباً إن صدق، فإن كان قد عرض ههنا ضدان، أي عجب هو أن يعرض هناك الوجهان أن يكونا كاذبين، وحينئذ تصير هذا المعنى حكمتك سهواً .

و بقي شيء واحد تحله لي من رموزك وأمثالك، هل حضرت نفسك لما ولدت، وأنت أيضاً والآن حاضر ولم تكن ولا واحد من الآتين، فإن كنت حضرت وأنت الآن حاضر، فعرفنا من أنت، ومن الذي حضرته، وكيف أنت واحد وقد صرت اثنين، أي حاضراً ومحضوراً، وإن لم تكن ولا واحد من الاثنين، أي ما حضرت ولا حضرت، فكيف انفصلت عن ذاتك، أي لم تحضر ولم تحضر، وصرت كالغائب عن نفسك، ولكن الاستقصاء عن واحد إن كان حضر ذاته أو لم يحضر مما لا يقتضيه الأدب، إذ كان ذلك إنما يبحث عنه في أقوام آخرين، لا في واحد عن نفسه، وإذا كان ذلك كذلك، فاعلم أن الاستقصاء عن مولود منذ الابتداء، إن كان أو لم يكن قبل ولادته، أشد بعداً مما يقتضيه الأدب بكثير، وهذا الكلام إنما يقال عما يقسمه الزمان، إلاّ أن القائل منهم قد يقول، أن غير المولود والمولود لا يكونان أبداً ذاتاً واحدة، وهذا القول في إخراجه الابن من اللاهوت أو الآب، فما الذي ينبغي أن يقال فيه، لأن فقد الولادة إن كانت جوهر الله، فأن الولادة ليست جوهراً، أو إن كان هذا فليس ذاك، يعني إن كان المولود جوهراً فغير المولود ليس جوهراً، ومن يخالف في ذلك، فاخترنا هذا من الكفرين أيهما أثرت، إذ كان حرصك لا بد له من الكفر .

ثم بعد ذلك فعرفني كيف تقول، أن غير مولود والمولود ليس هما شيئاً واحداً، فإن كان على أن غير المخلوق والمخلوق ليس هما شيئاً واحداً، قبلت منك ذلك، لأن الذي لا ابتداء له والمخلوق ليس هما شيئاً بالطبع واحداً، وإن كان قولك هذا عن الوالد والمولود، فليس هذا صواباً، لأن الضرورة داعية إلى ذات واحدة، إذ كانت طبيعة الوالد والمولود لا تزال واحدة، وآنية الوالد والمولود آنية واحدة، ومع هذا فاكشف لي كيف تقل غير المولود والمولود إن كنت تعني بذلك الولادة نفسها، وحال عدم الولادة، ولعمري أن هذين ليس هما شيئاً واحداً، وإن كان الكلام عن واحد هذا أم ذاك، فكيف يكونان شيئاً واحداً، لأن غير الحكمة والحكمة في ذاتها

ليس شيئاً واحداً، ولكنهما من حيث وجودهما في الإنسان يعدان واحداً، إذا كان ذلك لا يفصل جوهراً، بل ينفصل هو دون الجوهر، اللهم إلاّ أن قولنا غير مائت، وغير ذي شر، وغير متغير، كل واحد من هذه لله جوهراً، فيصير لله عز وجل جواهر كثيرة، وليس واحداً، أو يكون مركباً من هذه، إذ كان لا يجوز أن يكون غير مركب، إن كان من هذه وهي جواهر، إلاّ أنهم يقولون إن الأمر ليس كذلك، إذ كانت هذه الأشياء لآخرين، وأما الذي يخص الله وحده، فذلك هو جوهر، إلاّ أنني أعلم أنهم لن يطلقوا أن يكون غير المولود وغير المكوَّن لله وحده، إذ كانت الهيوليّ عندهم غير مكونة، ويدخلون معه أيضاً الصور، إنها غير مكوَّنة، وأما ظلمة المنانية فنطرحها عنا بعيداً .

إلاّ أنّا نقول فليكن ما ذكرتموه لله وحده كما تريدون، فما قولكم في آدم، ألا تعلمون أنه وحده خلقه الله، وأنا أعلم أنك ستقول لي أجل جداً، فهل هو وحده إنسان، فتقول لا البتة، وبعد هذا فما الذي عندك، هل الخليقة هي البشرية، لأن المكون إنسان، فكذلك ولا غير المولود هو وحده إله، فأن كان ذلك الآب وحده، ولكن اقبل أن يكون المولود أيضاً إلهاً، إذ كان من إله، وإن كنت شديد المحبة لعدم الولادة، وعلى كل حال فكيف تقول أن جوهر الله يأتي ليس من إيجاب ما هو، بل من سلب ما ليس هو، لأن قولك غير مولود، إنما يدل على أنه لم يكن مولوداً، وليس يدل على ما هي طبيعته، وإلاّ فما هو ذلك الذي هو غير المولود، فما هو جوهر الله، فأن في طغيانك ما تسأل عن ذلك، إذ كنت شديد الاستقصاء عن ولادته، وأما نحن فقد يكثر عندنا أن نعرف ذلك فيما بعد، إذا ما انحلت الظلمة والغلظ، بحسب ما أتى في ميعاد الذي لا يأتي منه أفك أبداً، وذلك فسبيل من يظهر له أن يرجوه ويفهمه، وأما الآن فهذا مقدار ما يتجرأ على ذكره، أنه كان كبيراً الآب، ألا يكون من غيره، فليس بدون ذلك الابن، أن يكون من مثل هذا الآب، لأن مجد الذي هو العلة، وليس هو من علة أخرى، قد يشاركه فيه، الذي أتى ممن لم يأتِ من علة أخرى، ومع ذلك فهاهنا اسم الولادة، وهو أمر جليل عن من لم يكن سحب في الأرضيات والهيولانيات فكره بالكلية، إلاّ أنه قد يعيد علينا القائل، هل الآب والابن شيء واحد في الجوهر، وإن كان الآب غير مولود، فإن الابن أيضاً يكون غير مولود .

ولكن ما أجود هذا القول إن كان عدم الولادة لله جواهراً حتى يتولد من هذا خلطة عجيبة يصير منها اسم مركب يكون مولوداً عديم ولادة، وإن كانت الفصول في هذه الأشياء محمولة على الجوهر، فلما لك تتوهم أنه قد حصل لك من ههنا حجة قوية، وتكون أنت على هذا المثال أباً لأبيك حتى لا تنقص عنه في شيء، لأنك وأبوك من معنى الجوهر شيء واحد بعينه، أو فبين هو أن الخاصة إذا كانت باقية على حالها غير متحركة، كان سبيلنا أن ندّشف عن جوهر الله أي شيء هو، إن جاز لنا أن نفحص عن ذلك .

وأنت فقد تعرف ومن ههنا أيضاً، أن الله وعدم الولادة ليس شيئاً واحداً، لأنهما لو كانا شيئاً واحداً، وكان الله إلهاً لأقوام، فقد كان سبيل أولئك الأقوام كما لهم الله إلهاً، أن يكون لهم وعدم الولادة أيضاً، أو متى لم يكن عدم الولادة لأقوام، لا يكون لهم أيضاً ولا إله، لأن الأشياء التي من سائر الوجوه واحدة، كلما يقال على الواحد منها، فقد قيل على الآخر، ولكن عدم الولادة لم يكن لأحد إلهاً، وإلاّ فلمن، والله فإله لأقوام، بل هو للكل إله، فكيف يكون على هذا القياس الله وعدم الولادة شيئاً واحداً، لأن الولادة وعدم الولادة يتقابلان كمثل ما يقابل الملكه والعدم، فمن اللازم أن يؤتى بجواهر تقابل بعضها بعضاً، وهذا مما لم يُسَلم، أو فلما كانت الملكات أقدم من العدم، وكان العدم يبطل الملكات، فمن ههنا لا يكون جوهر الابن أقدم من جوهر الآب فقط، بل ويكون من قبل الآب، مبطلاً على ما توجه هذه الأصول التي أصلتها فأيُّ كلام لهم بعد هذا عندهم أنه لا يتخلص منه .

وعساهم أن يلتجئوا أخيراً إليه، قولهم أنه إن كان الآب ما كف بعد عن أن يلد فالولادة إذاً غير تامة، ولابد له أن يكون فيما بعد، وإن كان قد كف، فقد ابتدأ لا محالة .

ولكن الجسمانيون لا بد لهم على ما أرَى من الجسمانيات، وأما أنا فأن كانت ولادته أزلية أو غير أزلية، فلست بعد أقول إلى أن انظر نظراً مستقصياً في قول الكتاب، أنه يلدني من قبل الروابي (أم٨ : ٢٥)، وعلى كل حالٍ فلست أعرف الضرورية الداعية إلى هذا القول : أن يكون عندهم أن الذي سوف يكف فقد ابتدأ، وأن الذي ما ابتدأ فلن يكف فيما بعد، وماذا عساهم أن يثبتوا في باب النفس أو في باب طبيعة الملائكة، ألا نعلم أن رأيهم يؤدي إلى أن يقولوا : إن كانت ابتدأت فستنتهي، وإن لم يكن لها نهاية

فما ابتدأت، ولكنها قد ابتدأت ولن تنتهي، فليس يمكنهم إذاً أن يحققوا أن كل ما ينتهي فقد ابتدأ لا محالة .

وأما رأينا نحن، فحسب ما هو في الحصان والثور والإنسان، وكل شيء مما تحت نوع واحد فهو رأي واحد، وكل ما نال من حد شيء فالحد قد يجب بالحقيقة أن يقال عليه، وما لم ينل فهو مالا يقال، وأما أن يقال باستعارة، وكذلك قولنا في الله تبارك جوهر واحد، وطبيعة وتسمية واحدة، وإن كانت الأسماء ربما تقسمت بحسب الأوهام، وكل، ما قيل على التحقيق فهو إله وكل ما كان بالطبع فالقول عليه والتسمية صادقة، إذ كان الصدق عندنا لا يأتي من الأسماء، بل من الأحوال نفسها، وهؤلاء القوم فكأنهم قد جزعوا من أن يتحرك عليهم كل شيء ونتبع الحق، فهم يعرفون بالابن أنه إله إذا لاذوا بالأقوال والشهادات، إلاّ أنهم يعودون فيقولون أن ذلك من معنى الاتفاق في الاسم، وأنه مشارك في الاسم وحده، فإذ أعدنا عليهم وقلنا لهم، أفترون أن الابن ليس إلهاً بالحقيقة، كما أن الحيوان المصور ليس حيواناً حقيقياً، وأنه كيف يكون إلها أن لم يكن إلهاً بالحقيقة، قالوا ما المانع من أن يكون أشياء مشاركة في الاسم، ويقال عنها الشيئان بالحقيقة، ويوردون علينا الكلب البريّ والكلب البحريّ، أنهما متشاركان في الاسم، ويقال عليهما ذلك قولاً حقيقياً، فأنه قد يكون في المتفقه أسماؤها نوع هذه صورته، يستعمل التسمية وينالها بالسواء، إلاّ أنه منفرد في الطبع، إلاّ أنك يا فاضل إنما تضع هناك طبيعتين تحت اسم واحد، ليست إحداهما أفضل من الأخرى، ولا الواحدة متقدمة والأخرى متأخرة، ولا الواحدة زائدة والأخرى ناقصة، فيما يقال عليهما، ولا اختلط بهما ما أتا هما بهذه الضرورة، ولا أحدهما يزيد على الآخر، والآخر ينقص عن صاحبه في الكلبية، أعني البحريّ أن ينقص عن البريّ في اسم الكلب، ولا البريّ يزيد على البحريّ في ذلك، وكيف يكون ذلك وعلى أية صورة .

ولكن المشاركة في الاسم قد تكون فيما حالهُ متفقة وفيما حالهُ مختلفة، وأما ههنا فأنت تقرن بالله الكرامة، وأنه فوق كل جوهر وطبيعة، وذلك فهو الله وحده، وكأنه طبيعة اللاهوت، ثم تعطي هذا للآب وحده وتقدمه، والابن تحطه وتعطيه أن يكون ثانياً في الكرامة والسجود، وإن كنت باللفظ تعطيه الشبه وحده، وتقطع عليه اللاهوتية بالفعل وتنتقل بخبث من مشاركة في اسم، يؤدي إلى المساواة في الحال إلى أخرى لا ترتبط

المساواة، كمثل ما يقال عن الإنسان المصور الحيّ، أن الواحد أكثر من الآخر إنساناً، فأن ذلك أكثر بعداً من الكلاب، التي مثّلوا بها القرب من اللاهوت، ولكن سبيلك أما تعطي كليهما مثل المشاركة في الاسم ومشاركة في الطبائع، وإن كنت تخالف فيما بينهما، وإلاّ فقد هدمت كلابك، كل التي وجدتها مثالاً بعدم المساواة، وأما للمتفِقه بالمشاركة في الاسم، إن لم يكن لما قسمته مشاركة في الكرامة، لأنك إنما لجأت إلى مشاركة الاسم، لا لتظهر ذلك مساوياً في الكرامة، بل مخالفاً فيها، ولكن كيف كان أو يكون أحد على غير هذه الصورة مخالفاً ذاته، ولله معانداً .

إلاّ أنهم عند قولنا أن الآب أكبر بالعلة من الابن، اخذوا مقدمة العلة فجعلوها للطبع، ثم يخرجون للنتيجة إلى أنها بالطبع، أي أن الآب أكبر إذاً بالطبع، فلست أعلم هل يتهاونون بنفوسهم، أم بمن القول معه، لأن ليس كل ما قيل على الشيء قولاً ساذجاً، فقد يقال أيضاً وعلى حامله، بل إنما قد يقال ذلك الشيء ما جاني دون غيره من الأشياء، وإلاّ فما أنا أن أجعل المقدمة بأن الآب أكبر بالطبع، ثم أظنها أحدين ما كان بالطبع فليس هو لا محالة أكبر ولا أباً، فأجعل النتيجة من ههنا أن الأكبر أيضاً فليس لها لا محالة أكثر، أو أن الآب أيضاً ليس آباً، وإن رأيت فليكن هكذا الآب جوهراً والجوهر فليس لا محالة الله، واخرج أنت بهذه بغير هذه النتيجة أن الله ليس إلهاً، ولكنني أظن هذا إنما يجاز فيه القياس في بعض المواضع، بحسب ما جرت به عادة الذين هم في هذا المعنى ماهرين، وذاك أنهم إذا سلمنا بالطبع الطبيعة العلة، جعلوا هم الأكبر للطبع، وأتوا في ذلك بما هذا معناه، أنّا متى قلنا أن فلاناً إنسان ميت قولاً ساذجاً، أتوا هم بأن قولنا هذا في الإنسان الكليّ على الإطلاق .

ومع هذا فكيف يتجاوز لهم عن هذا القول الآخر العجيب، وليس هو بدون ما تقدم ذكره، وهو أنهم يسألون هل الآب اسم جوهر أم اسم فعل، كأنهم يريدون أن يقيدونا من الوجهين، فإن قلنا أنه اسم جوهر زعموا أنا قد وافقناهم على أن جوهر الابن غير جوهر الآب، لأن جوهر الله واحد، وهذا الجوهر فقد سبق الآب عندهم بأخذه، وإن قلنا اسم فعل زعموا أنا قد اعترفنا أنه خلقة وليس والداً، لأن حينما حصل الفاعل حصل هناك لا محالة المفعول، ويقولون بعد هذا أنه لمن العجب أن يكون صانع ومصنوع شيئاً واحداً، ولقد كانت هذه القسمة تعجبني جداً لو كان لابد من إحدى

الخصلتين ولم يكن الأصدق أن نترك الخصلتين معاً، وتكون الثالثة أوجب وهى أن هذا الاسم يعني الأبوة والبنوة، ليس هو يا حكيماً اسم جوهر ولا اسم فعل، بل اسم ننسبه فيما بين الآب إلى الابن أو الابن إلى الآب، لأنه بحسب ما الأسماء عندنا دالة على الخاص القريب، كذلك الدلالة هناك إنما هى على مشاركة المولود للوالد في الطبيعة، ولكن فليكن من أجلكم الآب جوهراً، فأنه سيدخل الابن معه ولا ينفيه، بحسب الآراء العامة وقوة التسمية، وإلاّ فليكن الابن إن رأيتم اسم فعل، فأنكم لن تتمكنوا منا ولا من هذا الوجه، وذلك أن يكون هذا الفاعل إنما فعل المساواة في الجوهر، والآن فكان الرأي متى حاد عن مثل هذا الفعل رأياً فاسداً، فلا نرى كيف نتخلص من عقالاتكم، إذا ما رمتم المكابرة وسوء المناظرة، ولكن سبيلنا أن نبصر قوتك، أيضاً من الكتب الإلهية، أن أثرت أن تقنعنا منها، لأنا نحن إنما وقفنا على لاهوت الابن ونذيعها من نغمات كثيرة عالية، وذلك من ذكر الإله ذكر الكلمة، والذي في الابتداء، والذي مع الابتداء، والابتداء نفسه، وأن في الابتداء كان الكلمة عند الله، وأن الكلمة كان الله (يو١ : ١)، وأن معك الابتداء، وأن الذي دعاه ابتداء ورئاسة من الأحقاب الغابرة كان، ومن ذكر الوحيد، فأن الابن الوحيد الذي لم يزل في حضن الآب هو خبَّر(يو١ : ١٨) وأنه الطريق والحق والحياة(يو ١٤ : ٦) والضوء(يو ٨ : ١٢) ومن قوله أنا هو الطريق والحق والحياة وأني ضوء العالم والحكمة والقوة إذ قيل أن المسيح قوة الله وحكمة الله(١كو١ : ٢٤) وشعاعه ومثاله (٢كو ٤ : ٤وكو١ : ١٥) وصورته وخاتمه عندما قال أنه الذي لم يزل شعاعاً من المجد ومثالاً لأقنومه وصورة لجوده، وأن الله الآب ختمه (يو٦ : ٢٧) الرب الملك الأزليّ ضابط الكل، وأن الرب أمطر ناراً من عند الرب (تك ١٩ : ٢٤) وأن قضيب ملكك قضيب استقامة، والذي لم يزل، والذي كان، والذي يحيي، وضابط الكل، فهذا كله إنما قيل عن الابن قولاً بيناً .

وما كانت أيضاً هذه قوته ومعناه فأن هذه الأقوال ليست مكتسبة، ولا تجددت للابن، ولا للروح، ولا أيضاً للآب، لأن التمام ههنا ليس هو من زيادة، ولا كان حين لم يكن للآب كلمة، ولا حين لم يكن آباً، ولا كان غير حقيقية، ولا كان بغير حكمة، ولا بغير قوة، ولا كان خلواً من حياة، أو نور، أو خير .

ولكنك أنت عدد لي لفظات عقوقك، وهى إلهي والهكم، والأكبر، وخلق، وصنع، وقدس، وإن رأيت فأضف العبد، والطائع، وأعطى، وتعلم، وأنَّ، وأمر وأرسل، وأنه لا يقدر يعمل شيئاً من نفسه، ولا يقول، ولا يحكم، ولا يهب ولا يؤثر، ومع هذا فقلة المعرفة، والخضوع، والصلاة، والسؤال، والتزيد، والتمام، وزد أيضاً ما هو أخفض من هذا، وهو الهجوع، الجوع، الإعياء، ذرف الدموع، الزلة، الأحجام، وعساك أن تعبر الصليب والموت، وأما القيامة والصعود فعندي أنك تلقيهما، لأن في هذا أيضاً قد توجد أشياء ربما بدرت منا، وأنت فلك أن تلفظ جنوناً كثيرة لما تريد أن تؤلفه للإله المبهرج عندك، المشارك في الاسم وحده، وما كان يصعب على أن آتي على ذلك كله، وأقودك إلى حسن العبادة، وأنفي عنك التعثر بالكتاب، لو كنت تزل زللاً ما بالحقيقة، ولم تكن تغالط عامداً، وتتأهب للسوء قصداً، إلاّ أني أتيك برأس واحد وأقول لك، ما كان من الألفاظ العالية فانسبه إلى اللاهوت، والطبيعة التي تعلو على آلام الجسم، وما كان منخفضاً فانسبه إلى المركبة، وإلى الذي انصب من جهتك وتجسد، ولا بأس أن قبل أيضاً وتأنس، ثم تعال لتتعلم أنت أن تعلو عن جسمانية آرائك، وانسحابها مع التراب، ولحسن أن ترتفع مع اللاهوت، ولا تكون باقياً مع المبصرات، بل متعالٍ مع المعقولات، وتعرف ما هو الكلام في الطبيعة وما هو الكلام في التدبير، يعني تدبير الجسد، لأن هذا المتهاون به الآن عندك، قد كان وهو فوق منك، والذي هو الآن إنسان، قد كان ولم يكن مركباً، والذي كان فهو باقٍ، والذي لم يكن فقد أخذ في البدء، كان بغير علة، وأية علة كانت لله قد تكون، إلاّ أنه صار فيما بعد لعلة، والعلة فهي لتخلص أنت المفتري الشتوم الذي للسبب، لعلة فكرك في اللاهوت، إنما هو لأجل ما اتخذ من غلظك، بتوسط عقل خالط به جسماً، وصار إنساناً إلهاً في الأرض، لأنه خالط لإله وصار واحداً، من غلب الأفضل إلا يقص .

لعمري وقد ولد إلاّ أنه كان مولوداً، ولد من امرأة، ولكنها كانت بكراً، وأحد هذين فبشريّ والآخر إلهيّ، وهو من ههنا بغير أب، ومن هناك بغير والدة، وهذا كله فمن اللاهوت .

وحبل به، ولكنه عرف عند نبيّ، وهو أيضاً محمول، فتقدم وتنبأ، لموضع الكلمة التي من أجلها كان .

وعصب لعمري بقماط، ولكنه انتزح من الأكفان وحل عقالها لما قام .

ووضع أيضاً في مهد ولكنه مجد من قبل الملائكة .

وأنذر به كوكب، وسجد له المجوس .

فكيف تتصوغ أنت بالجسمانيات، ولا تنظر إلى العقليات، وقد هرب به إلى مصر، ولكنه هرب ما كان للمصريين .

ولم يكن له صورة ولا جمال عند اليهود، إلاّ أنه كان عند داود جميلاً أكثر من أولاد البشر، ولكنه أبرق على الطور وصار أضوء من الشمس، وأنذر في ذلك بما يسلكون .

وانغطس في التعمد كإنسان، ولكنه حل الخطايا كالإله، ومع ذلك فليقدس المياه .

وجرب كإنسان، ولكن غَلَبَ كالإله، وأمر بالجرأة والجسارة، إلاّ أنه غلب العالم .

وجاع، إلاّ أنه أشبع ألوفاً، وهو أيضاً الخبز المحيي السماويّ .

وعطش، ولكنه سقى من كان ظمآن، وقال "من كان عطشان فليفد على ويروى" (يو ٧ : ٣٧) ومع ذلك فقد وعد المؤمنين أن ينبعوا معيناً " تجري من بطنه أنهار ماء حيّ" (يو ٧ : ٣٨) .

وتعب أيضاً إلاّ أنه راحة لكل من يعيا ويتعب، وثقل في بعض الأوقات من الوسن، ولكنه قد خف وتعالى على لجة الماء، وزجر الرياح، ونشل بطرس لما انغطس .

وأدّى أيضاً إتاوة أعني الجزية ولكنه من فم سمكة، وملك على من كان جابيه .

وادّعي عليه أنه سامريّ، وقد يجن إلاّ أنه خلّص الهاوي من أورشليم الساقط فيما بين الخراب .

وعرفه أيضاً الجن، وطرد الجن، وعرف زمرة الأرواح النجسة، ورأى رئيس الشياطين كالبرق من السماء ساقطاً، ورجم، إلاّ أنه ما تمكن منه .

وصلى إلاّ أنه يسمع الصلاة، ودمع إلاّ أنه يسكّن المدامع .

وسأل عن لعازر أين وضع كإنسان، ولكنه أقام لعازر لأنه إله .

وبيع أيضاً رخيصاً بثلاثين من الفضة، إلاّ أنه اشترى العالم بكثير من الثمن إذ كان ذلك دمه المهراق .

وسيق كالخروف، لكنه هو راعي إسرائيل، حينئذٍ والآن فراعى المسكونة، وكان كالحمل بغير صوت، إلا أنه كلمة، وقد خبَّر عنه صوت صارخ في البرية (يو ١ : ٢٣) .

وقد نُهكَ وكُلِمَ ولكنه يداوي كل مرض ويأسو كل رخاوة ونهك .

ورُفِعَ على الصليب وضُيِّقَ عليه، إلاّ أنه هو الذي يرد عود الحياة، وقد خلّص المصلوب الذي كان معه، وجلل بالظلام المبصر من العالم .

وسُقي خلاً ومرارة، و من كان هذا، ذاك الذي حول الماء إلى خمر، هادم المذاقة المرة الذي هو كان حلاوة ومنية .

وأسلم نفسه ولكن له سلطان أن يأخذها أيضاً، إلاّ أنه يحيى وقد هدم الموت بموت، ودُفن ولكنه قام، وانحدر إلى الجحيم إلاّ أنه أصعد النفوس، وطلع إلى السموات، وسيأتي يدين الأحياء والأموات .

وتبحث عن هذه الأقوال فأن كان يقفك (قد تكون يقذفك) في الضلال فذاك ينشلك من الضلال، فهذه جملة من أولى الرموز وليس ذلك طوعاً منا، لأنه لا يلتذ المؤمنون بكثرة الكلام والمقاومات، لأنه إذ كان يكفي معاند واحد، إلاّ أن الضرورة دعت إلى ذلك، بسبب من يهفو ويزل، لأن الأدوية بسبب الأدواء، ليصح مع القوم أنهم ليسوا حكماء في كل شيء، ولا يكونوا ممن لا ينهزم في الفضول، وما يحط البشارة، وذاك فيكون إذاً ما بارزنا بقوة الكلام وتركنا الإيمان، وما يوثق به من الروح، ورمنا أن نحل ما نطالبه بالمطالبات، ثم ينهزم بعد ذلك الكلام من عظم الأمور، وسينهزم لا محالة عندما نبذر من آلة ضعيفة مثل أفكارنا، وبعد ذلك فماذا يكون من ضعف كلامنا، يصير داعية إلى استضعاف الشر، ويصير التهجم في القول انحطاط من الصليب على رأى بولس، لأن الأمانة في تمام قولنا .

والذي يبين العقد ويحل المشتبكات، الذي يطلع على أفكارنا، أن يحل اعوجاج آراء صعبه، هو الذي نسأله أن ينقل هؤلاء ويجعلهم مؤمنين، عوضاً من متصنعين في القول، ومسيحيين بدل ما قد سموا به، فهذا الذي نرغب فيه .

ونطلب إليكم أن تصطلحوا مع الله من أجل المسيح ولا تطفئوا الروح، بل يصطلحكم المسيح، والروح يشرق عليكم ولو بآخرة، وإن كانت المغالبة الأقوى في نفوسكم، فنحن يخلّص نفوسنا الثالوث، ونسأل أن نتخلص من قِبَلِهِ، ونكون ثابتين على الإخلاص فيه، وألاّ نغتر إلى حين الظهور التام من محبوباتنا، بربنا يسوع المسيح الذي له المجد مع الآب الذي لا ابتداء له والروح القدس، الآن وأبداً إلى دهر الداهرين آمين، آمين، آمين .

الذى يقراء الكتب بسطحية دون تفهم للمعانى العظيمة يتقسى قلبه

(ماراسحق)

الميمر الثالث عشر

ميمر قاله فى الابن أيضاً مما تكلف بنقله

الأبروطسستا إبراهيم ابن يوحنا الأنطاكىّ

الميمر الثالث عشر
ميمر قاله في الابن أيضاً
مما تكلف بنقله الأبروطسستا
إبراهيم ابن يوحنا الأنطاكيّ

إذ كنا قد هددنا لك (فندنا لك) بقوة الروح التردیدات والمشابكات التي من القياسات، وكذلك ما كان من مقاومات ومناصبات آتية من الكتب الإلهية، التي تدعيها حزبة الكُتّاب الذين يسرقون معنى المكتوبات، ويجذبون كثيرين إلى ذاتهم، ويقلقون طريق الحق، وقد حللناها حلاً مختصراً، مجموعاً ليس بأخفى عن ذوي الموالاة، بحسب ما أقنع به نفسي، ونسبنا ما كان من النعم العالية التي هى بالله لائقة إلى اللاهوت، ورددنا ما كان منها منخفضاً بشرياً، إلى آدم الجديد، الذي صار آدم من جهتنا، وإلهاً متألماً، قصد بألمه الخطية وتتبعها، إلاّ أننا لم نستقص الشرح، لأن القول قد كان كذباً، وأنت فطالب مثل حل ذلك باختصار، حتى لا تنقاد بمقال الإقناع، فنحن نجيبك إلى هذا، ونجعل ما نقوله رؤوساً نجمعها أعداداً يسهل حفظها .

✠ فالواحد ما يحتج به المعاندون، وهو الذي يسارعون إليه جداً، ما جاء في الكتاب القائل للّه آلرَّبُّ قَنَانِي آوَلَ طَرِيقِهِ مِن قَبلِ أعمَالِهِ مُنذُ القِدَمِ للّه (أم ٨ : ٢٢) .

وهذا فكيف سبيلنا أن نتلقاهم فيه، من حيث لا نذم سليمان، ولا نجحد ما تقدم له من أجل زلته الأخيرة، فنقول : هذا القول ليس هو لتلك الحكمة التي تشبه العلم، ولا الكلمة الصانعة التي بها تقوَّمت الأشياء كلها، لأن من شأن الكتاب أن يشخص أشياء كثيرة، ويحاكي فيها ذوي النفوس، وإن لم يكن لها نفس، من ذلك قوله إن البحر قال كيتاً وكيتاً، وأن العمق قال

ليس فيّ، وأن السموات تخبر بمجد الله، وأن الحربة تأمر بكذا وكذا، وأن الجبال والروابي نسأل عن السبب في تنقلها، وجملة ما هذه سبيله .

فلسنا نرده إلى تلك الكلمة الخالقة كما ذكرنا، وأن قوماً آخرين ممن كان قبلنا قد رأوا ذلك، وجعلوه من أقوى الأشياء عندهم، ولكن فليكن هذا القول عن المخلص الذي هو الكلمة الصادقة، إلاّ أنه ينبغي أن نتعاون قليلاً على البحث، وننظر أي شيء من الموجودات وجد عن غير علة، فنقول اللاهوت، لأنه لا يمكن أحد أن يقول أن الله محدث عن علة، وإلاّ فكان ذلك أقدم من الله، وأما العلة في البشرية التي احتملها جل وعز من أجلنا، فهي لا محالة إيثار خلاصنا، وإلاّ فما يكون غير هذا، ولكن إذا كنا نجد ههنا وجداناً بيننا، أنه خلقني وأنه ولدني، فالقول في هذا ساذج، وذلك أن مهما كان موجوداً مع العلة فسبيلنا أن نرده إلى البشرية، ومهما كان بسيطاً لا نجد له علة، فبحسب اللاهوت فقوله خلقني فهو مردود إلى العلة، إذ كان نسق القول هكذا، خلقي ابتداء لسبله، من أجل أعماله، وأعمال يديه فهى الحق والحكم، اللذان من أجلهما مُسِحَ باللاهوت، إذ كانت هذه هى مسحة البشرية .

وأما قوله ولدني، فهو خلق من علة، وإلاّ فبين ههنا شيئاً متصلاً، كما اتصل هناك، ومن ينكر أن يقول في الحكمة أنها خلقت من الميلاد الأرضيّ، وأنها ولادة من الميلاد الأول الذي لا يُدرَك، ويفوق هذا في الامتناع، وقد يتبع هذا أنه دُعي عبداً، وخادماً، وأنه أحسن الخدمة لكثيرين، وأن كثيراً له أن يُدعَى لله ولداً، ولعمري أنه خدم الجسد، والولادة، والآلام الذي لنا، من أجل عتقنا، وتنازل إلى جميع الأشياء التي بها خلصنا، بعدما استرقتنا الخطية، وماذا يكون أعظم من هذا لذلة بشريّ البشر، بل بالله، وأن يصير إلهاً من المخالطة، وأن يكون هذا إشراق الشرق من العلو، أن يصير المولود مقدساً يدعى للعليّ ولداً، ويهب له الاسم الذي هو فوق كل اسم، فما هو؟ ما خلا أن يكون الإله، وأن تجثو كل ركبة للذي انحط من أجلنا، وخلط صورة إلهية بصورة عبدية، وأن يعرف بيت إسرائيل كله، أن الله جعله رباً ومسيحاً، وتم ذلك بفعل المولود، ورضي الوالد .

✠ وأما الثاني فهو أكبر الأشياء عندهم التي لا ترام، وذلك فهو القول للهالَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللَّهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ لله (أع ٣ : ٢١)، **للهلأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَمْلِكَ**

حَتَّى يَضَعَ جَمِيعَ الأَعْدَاءِ تَحْتَ قَدَمَيْهِ... وَمَتَى أُخْضِعَ لَهُ الكُلُّ فَحِينَئِذٍ الابْنُ نَفْسُهُ أَيْضاً سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الكُلَّ كَيْ يَكُونَ اللهُ الكُلَّ فِي الكُلِّ لله (١كو ١٥ : ٢٥و٢٨) .

أن يكون مجلسه على اليمين إلى أن يستولي على أعدائه، وبعد هذا فم يكون، هل يكف عن الملك ويُقْصَى من السموات؟ ومن الذي يكفه؟ ولأي سبب؟

أنك لمفسر جسور لا يستولي عليك مُلك هذا، على أنك تسمع بأن ليس لملكه غاية، ولكن يلحقك هذا لأنك تعرف أن "إلى" في هذا الموضع لا يقاسمها ههنا زمان مستأنف يقفها، بل هى لفظة تؤدي إلى مدى مذكور، ثم لا تمتنع أن تتجاوز ذلك، وإلاّ فكيف تفهم إذاً قوله " وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الأَيَّام إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ" (مت٢٨ : ٢٠)، فهل بعد ذلك لا يكون معهم؟ وما السبب في ذلك؟ ومع ذلك فيأتيك الحل أيضاً، من أجل أنك لا تقسم المعاني، وقد يقال عنه تبارك أنه يملك على ضرب واحد، من أنه ضابط الكل، فيملكنا إن شئنا أم أبينا، وعلى ضرب آخر أنه يصنع الخضوع في الطاعة، ويجعلنا تحت ملكه، من حيث قد دخلنا طائعين، وأجبنا أن "إلي" أن يملكنا، وتلك المملكة التي تفهم من هناك فليس لها غاية .

وأما المملكة الثانية فغايتها أن نأخذ ما تحت يده، من حيث يكون قد تخلصنا، وأما بعد هذا فما الحاجة إلى فعل الطاعة، واصطناعها في قوم قد أطاعوا، وحصل الديان بعد هذا، فإنما يدين الأرض، ويفرق فيما بين المخلص والهالك، ويقوم الله بعد هذا أيضاً في وسط الآلهة، وهم المخلصون، يميز ويوزع كل كرامة ومنزل يستحقه، واحد بعد واحد، وهذا فأضف إليه الطاعة التي تجعل الابن أن يطيعها لأبيه، ثم نقول هل عندك أنه الآن غير طائع، محتاج بعد هذا أن نطيع الله بالكلية وهو إله، وتقول في ذلك قولاً يضاهي القول في داعر ومخالف لله، ولكن انظر هكذا فكما قد سُمِّي من أجلي لعنة، وهو الذي يحل لعنتي، وسمي خطية، وهو الذي يرفع خطية العالم، وصار آدم جديداً من أجل العتيق، وكذلك أخذ نشوزي وانتزاعي عن الطاعة وسماه لنفسه، إذ كان الرأس لكل الجسد، فما دمت أنا غير طائع، وكنت ناشزاً مقاوماً بجحودي لله واتباعي الأعراض، فقد يقال أن المسيح من حيث كونه على معاني غير طائع، فإذاً ما الطاعة كل شيء، وسيعطيه بالمعرفة، والنقلة عن هذه الحال، فحينئذٍ يكون هو قد تمم الطاعة،

وقدمني أنا خالصاً، فهذه هى طاعة المسيح على رأيي أنا، أي تمام الإرادة الأبوية، والابن فقد يؤدي إلى طاعة الآب، والآب يؤدي إلى طاعة الابن، أحدهما من حيث هو فاعل الطاعة، والآخر من حيث هو راضٍ بها، وهذا فقد قلناه فيما قبل، فيقف صانع الطاعة من قد أطاع قدام الله، فهو في هذه المعاني يتسمى بما يخصني وما هو شأني .

✠ والثالث: إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي (مز٢٢ : ١)

وقد يلوح لي أنه يشاكل هذا قوله "إِلَهِي! إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي بَعِيداً عَنْ خَلَاصِي عَنْ كَلَامِ زَفِيرِي؟ " (مز٢٢ : ١)، وهو بالحقيقة ما ترك من قبل الآب، ولا من قبل لاهوته، وإن كان ذلك فقد يراه قوم، كأنها قد جزعت من الألم، فانقبضت عن المتألم، ولكن من الزمه في الأول أن يولد الولادة الأرضية، وأن يرتفع على الصليب، ولكنه يحاكي حالنا في ذاته، إذ كنا نحن المتروكين والمقصيين في الأول، ثم اتخذنا وخلصنا بالألم الذي تألم، كما قد نسب إلى ذاته جهلنا وذللنا، فيما ذكر في آخر المزمور، لأن المزمور الحادي والعشرون (بحسب الترجمة السبعينية) قد تبين أنه إلى المسيح منسوب، وقد تبع هذا الرأي تعلمه الطاعة مما قد تألم، والصراخ، والدموع، والقبول منه، والتوقي، وذلك كله فيبتدع وينظم نظاماً عجيباً من أجلنا، ومن حيث هو كلمة فلم يكن طائعاً ولا مخالفاً، إذ كان مثل هذا إنما يقال عن التواني والتباع فالواحد يقال عن أولى الموالاة، والآخر فيقال عن أهل العقوبة، ولما كانت صورته صورة عبد، تنازل للعبيد مشاركيه في العبودية، وتصور بصورة غريبة وأخذني بجملة مع جميع ما يخصني في ذاته، ليفني الرديء كما تفعل النار بالشمع، والشمس ببخار الأرض، وأصل أنا إلى ما اختص به من جهته من أجل المخالطة، فلهذا يكرم الطاعة بالفعل، ويمارسها من ألمه، لأن الاعتقاد وحده لا يشتمل على الكفاف، كما أن النية أيضاً، ومنا نحن لا تكفي إن لم نباشر الفعل، لأن العمل هو البرهان على الاعتقاد، ومع هذا فلا بأس أن تتوهم وهذا أن عسى أن يكون يجرب طاعتنا، ويقدر كل شيء بآلامه، بصناعه حذق من حنان على البشر، ليكون لنا معرفة بحالنا من أحواله، وكم هو الذي نطالب به وكميته، يسامح فيه من حيث يحسب الضعف مع التألم، وذاك أن الضوء إذا كان قد طرد من أجل شرنا له، لما ظهر في الظلمة، أعني عمرنا هذا، وكان طرده من الظلمة الأخرى، الآتية من الشرير، المتوالي التجريب، فكيف يكون حال

الظلمة، ومقدار اضطهادها وهى ضعيفة، وإذا كان هو قد فاتها بالكلية، فليس بمنكر أن ندرك نحن مقدراً ما، فالوصول إلى طرد ذلك، أكثر من الوصول إلى إدراكنا نحن، عند من يقيس القياس الصحيح .

وقد ذكرت ما أضيفه إلى ما تقدم ذكره، وهو قوله "لأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجَرَّباً يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجَرَّبِينَ " (عب ٢ : ١٨)، إذ كان هذا القول يدل على المعنى الذي ذكرناه، دلالة بينه، وذلك قوله أن الله يصير في وقت الحشر والترتيب الأشياء كلها في الكل، وليس ذلك عن الآب، من معني أن الآب ينعكس وينحل إليه، كمثل مصباح يقدح في وقت من نار عظيمة، ثم يعود إليها ويجتمع منها، فلا يدخلن على هذا القول أصحاب سابليوس، بل يكون الإله كله كذلك، إذا لم نكن نحن أيضاً أشياء كثيرة، كما نحن في هذا الوقت بالحركات والآلام، وليس فينا شيء بالكلية، وإن كان فينا شيء له، فيكون يسيراً، بل نكون يومئذٍ كلنا متألهين، متسعين لله كله ووحده، فهذا هو التمام الذي ننتخبه، وقد يدل على ذلك بولس بعينه خاصة، لأن جميع ما يقوله في الله ههنا قولاً بغير تحديد، فهو في موضع آخر يبينه ويحده للمسيح، في أي موضع من قوله، عندما قال بحيث "لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلا يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلا حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ " (غل ٣ : ٢٨) .

✠ والرابع فقوله: ' إِلَهِي وَإِلَهُكُمْ' (يو٢٠ : ١٧) .

فأنه لو كان يقال الأكبر، ولم يكن يقال أن هناك مساوياً، لعله قد كان يكون لهم شيء من هذا المعنى، وأما إذا كنا نجد المعنيين كليهما وجدانا بيننا، فما يقول القتال وماذا يكون لهم فيه قوة، وكيف يجتمع ويتوافق ما لا موافقة فيه، لأنه إذا كان شيء واحد بشيء واحد أكبر ومساوياً بالسوء، كان ذلك غير ممكن، اللهم إلا أن يلوح أن الأكبر إنما هو أكبر بالعلة، وأما المساوي فيكون بالطبيعة، وهذا فقد نعترف به نحن من أمانة وطاعة شديدة، ولعل أحداً يناضل قولنا هذا فيقول، هل يأتي صغر على من هو من علة غير معلولة، وقد يصل إلى مجد من لا ابتداء له، المولود من الذي لا ابتداء له، ومع ذلك فها هنا الولادة، وهى أمر هذا مقداره في الكرامة عند من له عقل .

وأما إن قيل أن الآب أكبر من الابن من حيث بشرية الابن المفهومة، فذلك حق، إلا أنه ليس بكثير، وأي عجب هو أن يكون الله أكبر

من إنسان، وهذا القول فليكن مقولاً من جهتنا للذين يتفخمون بالأكبر، وقد يقال أن الآب إله، إلاّ أنه ليس إلهاً للابن الإله، بل للمبصرات المنظور إليه، وإلاّ فكيف يكون إله الآلة بالحقيقة، كمثل ما هو آب وليس هو آباً للمنظور إليه، بل للكلمة، لأنه كان مضعفاً فمن الأشياء ما هو بالحقيقة مقول على الشيئين، ومنها ما ليس هو بالحقيقة، بل يضاد ما نحن عليه .

فهو إله لنا بالحقيقة، وهو أيضاً آب لنا، ولكن ليس بالحقيقة، وهذا هو الشيء الذي تأتي منه الضلالة على الهراطقة، أعني ازدواج الأسماء واتفاقها واختلافها بسب المخالطة، والدليل على ذلك أن الطبائع إذا انفصلت بالوهم، انفصلت الأسماء أيضاً معها، واسمع مقال بولس عندما قال: " إِلَهُ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَبُو الْمَجْدِ "(أف ١ : ١٧)، فهو إله المسيح وهو أبو المجد، فإن كان الشيئان واحدٌ، فأن ذلك ليس بالطبيعة، بل بالاجتماع، وما عسى أن يكون شيء أدل من هذا .

✠ فأما الخامس، فلنقل أنه أخذه حياة، أو حكماً، أو ميراث الأمم، أو سلطاناً على ذي جسد، أو مجد، أو تلاميذ، أو غير ذلك مما يقال، فهذا كله للبشرية، وأن سلمت هذا أيضاً الآلام فلا بأس، لأنك لم تسلمه إليه كأنه مكتسب، بل لأنه موجود معه منذ الابتداء، وهو مسلم إليه من حيث الطبيعة لا من حيث المِنَّة .

✠ والسادس، فليكن أن الابن لم يصنع شيئاً من ذاته، أن لم ينظر إلى الآب وقد صنعه(يوه ٥ : ١٩) .

وهذا فصورته ألاّ تكون المقدرة وغير مقدرة فيه مقولة على طريقة واحدة، لأن هذا مما له معاني شتى، فمنه ما يقال على نقصان من القوة، وما يقال في وقت دون وقت، وما يقال على معنى الإضافة، كما يقال أن طفلاً لا يقدر أن يصارع، وأن جرو كلب لا يمكنه أن يبصر، ولا يجاهد مع كذا وكذا، إلاّ أن الصبيّ قد يجوز أن يصارع بعد زمان، وجرو الكلب فيبصر فيما بعد، ويجاهد في القتال شيء دون شيء .

ومن ذلك ما يقال على الأمر الأكبر، مثل ما قيل أن مدينة لا تقدر أن تستتر إذا ما كانت على جبل موضوعة، وربما استترت مدينة ما، إذا ما كان هناك شيء أكبر منها يسترها .

ومن الأشياء ما لا يحسن، مثل ما قيل أن أصدقاء الخدر(العريس) لا يقدرون أن يصوموا مادام العريس حاضراً، هل عني به العريس المنظور إليه بالجسد، لأن وقت حضوره ليس وقت شقاء، بل وقت مسرة، أم عنى به أنه الكلمة المعقولة، وما الداعي للمطهرين بالكلمة إلى الصوم بالجسد .

ومن الأشياء في هذه المعاني ما يقال أنه غير ممكن، لأنه غير مأثور، كما قيل أنه لم يستطع أن يصنع هناك آيات من أجل قلة إيمان المتقبلين(مر ٦ : ٥)، وذلك أنه يحتاج في الأشفية إلى شيئين وهما :

أمانة الذين يشفون و قدرة الشافي، فإذا أعوز الشيء الواحد من الاثنين لم يكن التمام، ولست أعلم إن كان ينبغي أن يضاف هذا إلى ما لا يحسن، لأن شفاء من يدخل عليه الضرر من قلة الأمانة مما لا يحسن أيضاً، ولا الحجة ظاهرة فيه، وإلى هذا القول نرد ما ذكر عن العالم، أنه لم يقدر ألا يشناكم، وكيف تقدرون تتكلمون بخير وأنتم أشرار، وكيف يكون شيء من غير ممكن إلاّ أنه غير مأثور، وفى المقولات شيء هذا صورته، أنه في الطبيعة غير ممكن إلاّ أنه ممكن عند الله إذا ما أراد (مر ١٠ : ٢٧).

بحسب ما قيل أنه لا يمكن الإنسان الواحد أن يولد مرتين(يو ٣ : ٤)، وأن ثقب إبره لا يدخل فيها جمل (لو ١٨ : ٢٥)، وما المانع مما هذه سبيله إذا ما أراده الله، وههنا من دون هذه الأشياء كلها لا يمكن بالكلية ولا يجوز، وهو الذي بحثنا الآن عنه .

مثال ذلك قولنا أنه لا يمكن أن يكون الله شريراً، ولا يجوز ألاّ يكون موجوداً، لأن هذا لو قيل لكان دليلاً على ضعف من الله لا على قدرته، وإذا ما قيل أن غير الموجود موجود، وما قيل أن اثنين في اثنين أربعة، وأربعة عشر، فذلك غير ممكن، ولا متسع أن يعمل الابن ما لا يعمله الآب، وذلك أن كل ما للآب فهو للابن، وبعكس ذلك وكلما للابن هو للآب، وليس شيء يختص به لأن الكل مشترك، والآنية فهي أيضاً مشتركة، وفى الكرامة متساوية، وإن كانت للابن من الآب .

وعلى هذا المعنى يقال أني أنا أحيا من أجل الآب، ليس لأن الحياة محصورة له من هناك، بل لأنه من هناك موجود بلا زمان ولا علة، فيبصر الآب يصنع على طريقة ما، فيصنع هو أيضاً كذلك، فهل ذلك كمثل الذين يزوقون الصور ويكتبون الكتب، لأنه ليس لهم أن يصيبوا حقيقة

الشيء من طريقة أخرى، إن لم يبصروا الذين يمثلون منه، فيهتدون إلى الصورة، وكيف تكون الحكمة تحتاج إلى معلم، وكيف لا يصنع شيئاً أن لم يعلم، وكيف يصنع الآب إلاّ كما صنع، هل قدم عالماً اخر بدل الحاضر، ويصنع مستأنفاً آخر فيبصر إليه الابن ويكون قد صنع واحداً ثم تصنيع آخر فيصير على هذا الحساب أربعة عوالم، اثنان منها صنعمها الآب واثنان الابن، فيا لهذه من بهيمية، فهو ينقيّ الآن وينظف البرص، ويخلص من الشياطين والأمراض، ويحيي الأموات، ويمشي على البحر، ويصنع الأشياء الأخرى التي ابتدعها، فمتى أبصر الآب قبل ذلك قد صنعها، وفى من قدمها، ولكن الآب يقدم رسوماً يمثلها فيتممها الكلمة، لا من الخدمة، ولا لأن لا علم عندها، بل بطريقة علم واقتدار سيد، وإن أردنا أن نقول ما هو أخص من هذا، قلنا باقتدار أبويّ، فهكذا قيل ما يصنعه الآب أن الابن أيضاً يصنعه، كذلك ليس من حيث البشرية في المكونات، بل من حيث المشاركة في السلطان، وعلى هذا المعنى قيل «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ» (يو ٥ : ١٧)، وليس هذا وحده بل وسياسة ما صنع وحفظه بحسب ما دل عليه ما قيل "الصَّانِعُ مَلاَئِكَتَهُ رِيَاحاً وَخُدَّامَهُ نَاراً مُلْتَهِبَةً " (مز ١٠٤ : ٤)، "بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَبِنَسَمَةِ فَمِهِ كُلُّ جُنُودِهَا" (مز ٣٣ : ٦) لأن الجميع مرة واحدة كونت فثبتت، وكذلك أن الرعد يقوى وأن الريح يخلق وهذه الأشياء فخلق حدها وأصلها دفعة واحدة ثم اتصل إلى الآن فعلها .

✠ لنذكر السابع، "لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني." (يو٦ : ٣٨) .

فلو لم يقل أن نزوله من ذاته، لقلنا أن القول قيل من قبل الإنسان المعقول فيه أنه المخلص، وما يريده ذاك فليس يضاد الله، إذ كان قدنا له كله، بل القول عنا نحن، لأن الإرادة البشرية ليست لا محالة تابعة الإلهية، بل مخالفة في كثير من الأشياء ومقاومة، لأن ذلك أيضاً هكذا رأينا فيه، أعني قوله «يَا أَبَا الآبُ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لا مَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ». (مر ١٤ : ٣٦)، يجب أن تكون القوة لها، إلاّ أنه يجب إن كان ذلك ممكناً أم غير ممكن، فليس يشبه أن يكون ذلك يجهله الابن، ولا يجب أن تكون إرادته تدخل عليها إرادة، ولكن لما كان القول ممن اتخذ الجسد، وهو الذي نزل ولم يكن للمتخذ، وجب أن تكون ملاقاتنا هذا القول، أنه ليس للابن إرادة تخصه دون إرادة أبيه ولكن القول

عن شيء كأنه غير موجود، فيكون المجتمع منه هذا، ليس حتى أعمل إرادتي، وإرادتي فليست منفصلة عن إرادتك، بل هى مشتركة لي ولك، وكما أن لاهوتنا واحد كذلك أيضاً اختيارنا واحد، فكثير مما يقال عن المشترك ليس قولاً موجباً بل قول سلب بحسب ما قيل " لأَنَّهُ لَيْسَ بِكَيْلٍ يُعْطِي اللَّهُ الرُّوحَ " (يو ٣ : ٣٤)، ولعمري أنه ما يعطي مكيالاً، لأنه إله لا يكيل لإله، ومثل قوله ليس خطيتي ولا سيئتي، فالقول ههنا ليس هو عن خطيئة موجودة بل عن غير موجودة .

والقول أيضاً الذي يذكر أن ذلك ليس لبرنا الذي صنعناه(تي ٣ : ٥)، وذلك ليس يدل على بر صنعوه، وبيان ذلك أيضاً فهو موجود فيما بعد، والمعنى في إرادة الآب أن يخلص كل من آمن بالابن، ويصل إلى النشور الأخير أي التثبيت، فهل هذه الإرادة للآب وليست للابن، فيحصل من ههنا أنه بشر به وأومن به وهو كاره، ومن يقبل هذا القول .

والقول المسموع بأنه ليس للابن بل للآب، فهذا معنا لأن المشترك كيف يختص به واحد دون الآخر، وكيف يكون لواحد وحده، هذا ما لست أتبينه، وأن أحلت الفكر فيه، وقد أظن أيضاً وأن غيري لا يراه، وإذا استقر رأيك في باب الإرادة هكذا، فقد استقر على الصواب والاستقامة، وبحسب ما يوجبه جداً حسن العبادة بحسب رأيي ورأي كل ذي رأي حسن .

✠ ولهم أيضاً شيء آخر وهو الثامن، مما رتبناه في قوله' وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ' (يو ١٧ : ٣) .

ويضاف إلى ذلك القول الذي قيل " لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ " (مت ١٩ : ١٧، مر ١٠ : ١٨، لو١٨ : ١٩)، وهذا فقد تبين أن حله سهل، لأنك إن وضعت الحقيقيّ وحده إنما قيل في باب الآ ب فأين تضع الحقيقة بذاتها، وذاك إنما قيل الحكيم وحده، والذي له عدم الموت وحده، وساكن النور الذي لا يدنى منه، وملك الأدهار، والذي لا يفسد، ولا يرى، والإله الحكيم وحده(١تي١ : ١٧)، إن رأيت فيه هذا الرأي انصرف لك الابن وصار إلى موت قد حكم به عليه أو ظلمه أو ألاّ يكون حكيماً أو ملكاً ولا مستوراً عن النظر ولا إلهاً بالكلية وهذا هو الأقصى فيما يقال،

وكيف لا يضع مع هذه الخيرية التي مخصوصة بالله وحده، إلاّ أنني أرَى في قوله " يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإله الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ " (يو ١٧ : ٣)، أنه قيل تبطيلاً للآلهة الذين يقال أنهم آلهة وليسوا البتة آلهة، ولو لم يكن هذا هكذا، لما كان قال ويسوع المسيح الذي أرسلته، إن كان القول اختص بالآب في الإله الحقيقيّ، ولم ذلك قد قيل في الاشتراك في اللاهوت، وأما ليس صالحاً فهو مجاوبة للناموسيّ المجرب الذي شهد بالخير للإنسان والخير الذي في الغاية فهو لله وحده (مت ١٩: ١٧)، وإن سمي به الإنسان كما قيل "اَلإِنْسَانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّلاحَ وَالإِنْسَانُ الشِّرِّيرُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الشِّرِّيرِ يُخْرِجُ الشَّرَّ "(مت١٢ : ٣٥)،وقول الله لشاول "فَقَالَ لَهُ صَمُوئِيلُ: «يُمَزِّقُ الرَّبُّ مَمْلَكَةَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ الْيَوْمَ وَيُعْطِيهَا لِصَاحِبِكَ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ "(١صم ١٥ : ٢٨) عنَّى بذلك داود، فكذلك القول الذي يقول "أَحْسِنْ يَا رَبُّ إِلَى الصَّالِحِينَ وَإِلَى الْمُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ" (مز١٢٥ : ٤)، وكذلك غير هذا مما يقال على الأشياء المحمودة فينا، إذا ما وصل إلينا اندفاق من الخير الأول على المعنى الثاني، فإن كان أقنعناكم بهذا القول فهو الأفضل، وإن كانت الأخرى فما يقول القائلون في مواضع آخر، أن الابن وحده هو الذي ذكر أنه إله، على الأصول التي أصلها في أي كلام في ذلك، حيث يقول "لِيَعْلَمُوا مِنْ مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَمِنْ مَغْرِبِهَا أَنْ لَيْسَ غَيْرِي. أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ "(إش٤٥ : ٦)، وبعد قليل فيقول بعد هذا ظهر على الأرض، وتقلب فيما بين الناس(باروك ٣ : ٣٨)، وأما أن يكون هذا القول ليس هو في الآب، بل في الابن مقولاً تبين فالزيادة تبين ذلك، وهذا هو خاطبنا بجسم وصار مع أهل الأرض ولكن أن أغلب الاحتجاج بأنه قيل في الآب ولم يكن في المظنونين آلهة، فقد ضاع علينا الآب فيما تعصبنا به على الابن، وأي شيء يكون أشقى من هذه العلة، أو أشد خسراناً .

✠ وههنا تاسع يقولونه، وهو القول بأنه حيّ دائم التضرع من أجلنا (عب ٧ : ٢٥) .

وما أحسن هذا وأقواه في السر والحنان على البشر، لأن التضرع ليس هو كالذي جرت به عادة الكثيرين في طلب الانتصار، لأن هذا فيه مذلة، وإنما هو النجوى من أجلنا من حيث الوساطة، بحسب ما قيل أن الروح أيضاً يفعل مثل ذلك(رو٨ : ٢٦و ٢٧)، فإله واحد كما جاء في القول، والواسطة واحد وهو يسوع المسيح الإنسان، متوسط بين الله والبشر

فهو يشفع وإلى الآن مثل إنسان في خلاصي، لأنه وإلى الآن مع الجسم الذي اتخذه، إلى أن يجعلني إلها بقوة تأنسه، وإن لم يكن من حيث الجسد أعني بذلك الآلام البشرية، التي شاركنا فيها دون الخطيئة .

وكذلك أيضاً قلنا يسوع معزياً ومتوسلاً، ليس من حيث تقلبه قدام الآب، وانكبابه انكباب العبيد، فاصرف هذا عنك من توهم العبودية التي لا تليق بالروح، فليس من شأن الآب أن يطلب هذا، ولا من مذهب الابن أن يلحقه أيضاً ذاك، ولا يجب أن يخطر هذا ببال في الله، ولكنه الآلام التي تألمها مثل إنسان يقنعنا أن تصير من حيث الموعظة بأنه كلمة، هذا هو معنى التعزية والتوسل .

✠ ولهم أيضاً عاشراً، وهو أن أحداً لا يعرف اليوم الأخير ولا الساعة، وأن الابن أيضاً لا يعلم ذلك إلاّ الآب (مت ٢٤ : ٣٦ ، مر ١٣ : ٣٢) .

على أن الحكمة لا تجهل شيئاً من الموجودات، ولا يستتر عنها، وهي صانعة الأدهار، وهو المتمم وناقل ما صنعه إلى الأفضل، وهذا فهو غاية المكونات الذي يعرف أحوال الله كما يعرف روح الإنسان ما فيه، فأي شيء أتم من هذه المعرفة، وكيف يعرف ما قبل الساعة على الاستقصاء، أعني ما يكون في الوقت الأخير نفسه، وبجهل الساعة بعينها، هذا شيء يشبه اللغز والمثل، وهو كمثل ما يقول الواحد أنه يعرف ما قدام الحائط، وأما الحائط بعينه فلا يعرفه، وإنما يعرف آخر النهار معرفة حسنة، وأما أول النهار فلا يعرفه، وها هنا فمعرفة الشيء الواحد ضرورة تدعو إلى معرفةَ الآخر، اللهم إلاّ أن يكون يعرف معرفة الإله ويجهل جهل إنسان، إذا ما أفرد الواحد الظاهر للبصر من المفهوم بالعقل، وذكر الابن وتسميته تسمية مطلقة، غير مفيدة بذكر ابن، فالآن فهو الذي يعطينا هذا الوهم، أن نتوهم الجهل أنه البشرية، بحسب ما يدعو إليه حسن العبادة، وليس هو اللاهوت، فأن كان في هذا القول كفاية، وقفنا ههنا ولم نطلب أكثر من هذا، وإن لم يكن طلبنا الثاني، وهو بحسب ما نرد كل شيء من معرفة الكبائر إلى العلة، كذلك نفعل وههنا إكراماً للوالد، وقد يلوح لي أن هذا ما قرأ قائله المعنى الآخر، الذي ذكر فيه بعض محبي القول مناسباً مختصراً، وهو أن الابن لم يعرف اليوم والساعة على طريقة أخرى تخالف معرفة الآب، فيكون المجتمع من هذا القول أن الآب يعرف، كذلك يعرف الابن، فتبين أن هذا لا يعرفه ولا يدركه غير الطبيعة الأولى، وقد بقي حال

دخوله تحت الأمر، وحفظ الوصايا، وعمله بما يرضيه، أن نذكر في ذلك ما عندنا، وفى التمام أيضاً وفى الارتفاع، وتعلمه الطاعة مما لحقه، وفى تقدمه على الكهنة، وفى تقريبه وتسليمه، وطلبته إلى القادر أن يخلصه من الموت، وفى الدالة، وفى الفطر، وفى الصلاة، وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، اللهم إلاّ أن يكون معروفاً عند كل أحد، أن الأسماء هذا تجري هذا المجرى، إنما هى دالة على ذلك الذي ألم، وليست داله على الطبيعة التي لا تتقلب، وهى أعلا من كل ألم، أما كلام المخالفين فهذا بمقدار أصل أصل، وأن يكون، ونذكره لذوي البحث الشديد في الزيادة والتحرير، وقد ينبغي أن يزاد على ما قيل، ما هو تبع هذا الكلام، وذاك ألاّ يتجاوز أسماء الابن، ولا ننظر فيها وهى كثيرة وموضوعة في المعاني كثيرة، بل ننظر في كل واحد من التسميات، ونبحث عن معناها ونبين السر في الأسماء، ويجب علينا أن نبتدئ من هنا فنقول:

إن اللاهوت لا تبينه تسمية بياناً حقيقياً، وهذا فبين من القياس وحده، بل ومن حكماء العبرانيين المبالغين العتق، بحسب ما أعطونا أن نتوهمه فيهم، لأن الذين ما ارضخوا أن يكرموا اللاهوت بأشخاص تخصه، ولا أجابوا أن يصوره ولا يكتبوا شيئاً مما بعد الله وأحواله، من حيث لا ينبغي أن يشاركنا اللاهوت في أحوالنا، ولا نصل إلى مثل هذا معناه، فمتى كانوا يجيبون إلى أن يدلوا على الطبيعة المطلقة المبصرة، بلفظة مخصوصة محلولة غير مفيدة، لأنه ما قدر أحد منذ قط أن يسلب الهواء كله بأنفاسه، وجوهر الله بالكلية ما أمكن عقلٌ أن يسعه، ولا احتوت عليه لفظة، ولكننا نتمسك بخيالات وأشباح، ونجمع خيالاً ضعيفاً ضئيلاً إلى خيال، فيصير المتكلم في اللاهوت، الفاضل عندنا، ليس الذي وجد الكل، إذ كان الرباط لا يقبل الكل، بل الذي يكون قد تخيل أكثر من غيره، وقد جمع شبحاً للحق، وظلماً يزيد على سواه، فربما سمينا من ههنا، ولكن بحسب ما تصل إليه مقدرتنا، نقول أن الموجود والإله هما اسمان للجوهر، تزيد على غيرها زيادة ما، ولاسيما الموجود، ليس لأنه لما أوحى إلى موسى على الطور، وطلب منه كيف يدعى فسمى بها ذاته، فقال هو أن الموجود أرسلني إلى الشعب، وأمرني أن أقول (خر٣: ١٤)، ولكننا نحن نجد هذا الاسم أخص وأولى، وأما الإله، فإن قلنا أنه مشتق من اسم الجزء في اللغة اليونانية، ومن اسم الاسخان بحسب رأى المتبحرين في هذه الأشياء، كان ذلك من

أجل دوام الحركة، وافناء الأخلاق الرديئة، ومن ههنا قيل أن الله نارٌ مفنية (تث ٤ : ٢٤) ومع هذا فذلك من المضاف وليس هو اسماً مطلقاً .

وكذلك الرب فهو أيضاً من أسماء الله التي لا تقال، لأنه جاء بالقول في قوله أنا الرب إلهك وهذا هو اسمي (إش ٤٢ : ٨)، والرب فهو اسم له ونحن فنطلب طبيعة تدل على آنية في الذات لا ترتبط بشيء آخر، وأما الموجود فهو على الحقيقة يختص بالله، وهو الوجود والدوام كله، وليس ذلك لأحد قبله ولا بعده، لأنه ما كان ولا يكون إلاّ عائداً ما، ولا يقطعه قاطع، وأما غير هذا من الأسماء، فبعضه يدل على السلطان، دلالة بينة وبعضه يدل على السياسة ودلالته عليه دلالة مضعفة، أحدهما يدل على ما فوق الجسم، والأخرى على ما في الجسم، مثل ضابط الكل، وملك المجد، أو الأدهار، أو القوات، المحبوب، أو ملك الملوك، أو رب الصباؤوت - الذي هو الجيوش أو القوات - أو ملك السادة، فهذا كله من أسماء السلطان .

وأما إله الخلاص، أو الانتصار، أو السلامة، أو العدل، أو إله إبراهيم و يعقوب وكل إسرائيل الروحانيّ الناظر إلى الله، فهذا كله من أسماء السياسة **<u>لأننا نرجع إلى ثلاثة أشياء في سياستنا</u>** .

- ✠ أحدهما الجزع من العقاب .
- ✠ والآخر رجاء الخلاص والمجد .
- ✠ والآخر أحكام الفضائل .

فأما اسم الانتصار من ذلك فهو يقودنا إلى الخوف .

وأما مقه (محبة) الخلاص فيثبتنا على الرجاء .

وأما الرغبة في الفضائل فتحدونا علىالتعب في أحكامها، ليكون من يجعل الله في ذهنه، ويحصل له قنية شيء مما ذكرناه، يسمو إلى التمام، والاختصاص بالفضائل .

وأما ما هو مشترك للثالوث، فهذه أسماؤه، والخاص بالذي لا ابتداء له، يخصه اسم الآب، ويخص المولود بغير ابتداء اسم الابن، والبارز والمنبعث من غير ولادة فيخص الروح القدس، ولكن سبيلنا إلى أن نصوا إلى أسماء الابن، وهى التي قصدها القول .

فأظنه يدعى ابناً لأنه والآب شيء واحد بالجوهر، وليس ذلك وحده، بل ولأنه من هناك .

✠ ويدعى وحيداً، ليس لأنه واحد على انفراد، بل ولأنه على مذهب واحد ليس مثل الأجسام .

✠ ويسمى كلمة لأن نسبته إلى الآب مثل نسبة الكلمة إلى العقل، ليس من أجل عدم الألم في الولادة فقط، بل ومن جهة الاتصال والتحييز .

وربما قال أحد أن ذلك مثل الحد مع المحدود، لأن لوغس في اللغة اليونانية ربما دل على الحد، لأن الذي قد فهم الابن، هو الذي قد رآه وقد فهم الآب أيضاً، والبرهان المختصر السهل على طبيعة الآب فهو الابن، ويقال له ولادة لأن كل ولادة من الوالد كلمة صادرة منه، وإن قال أحد أن ذاك موجود في الموجودات لم يحد عن الصواب، وماذا فيها لم يكن قد يثبت بكلمة .

✠ ودعي أيضاً حكمة لأنه معرفة للأمور الإلهية والبشرية، إذ كان لا يمكن أن يجهل الصانع أمور ما ابتدعه بحكمته .

✠ وقد يدعى قوة، لأنه الحافظ المكونات الذي يعطيها ويمدها بقوة تنضم بها وتتمكن .

✠ وأما تسميته حقاً، فلأنه واحد بالطبع غير مكثر، وذلك أن الحق شيء متوحد، والكذب فأشياء كثيرة تجمع من حيث اتفق، ولأنه أيضاً خاتم الآب يفي ومثال الاثنين ولا زيغ فيه .

✠ وأما دعوته صورة، فلأنه مساوي في الجوهر، ولأن هذا من هناك، وليس الآب من هذا، فهذه هى طبيعة الصورة، وهو احتواء ومحاكاة لأصل مبتدأ هو إليه منسوب، ولكنه ههنا تزيد على الرسوم التي جرى الرسم أن يحتذى ويتمثل، لأن تلك هى هناك أصول لرسوم لا تتحرك من موضعها، وأن خرجت إلى التماثيل، وأما ههنا فهى صورة حية قد تصورت من حيّ، وهى غير متغيرة أكثر من غيرها، أو أكثر من صورة شيث المأخوذ من آدم، وكل مولود ممن ولده، وهذا لعمري فهو شأن طبيعة البسيط، التي لا يشوبها أن تشابه في شيء وتنافر في آخر، بل تكون كلها

رسماً لكلية ما تصورت عليه، وهى الشيء بعينه فضلاً عن أن يكون شبهه، ويدعى أيضاً ضوءاً، لأنه بهاء النفوس التي قد تطهرت قولا وفعلاً، لأن الجهل والخطية إذا كانتا ظلمة كانت المعرفة والعيش الإلهيّ لا محالة ضوءاً .

✠ ويدعى أيضاً حياة لأنه نور وقوام لكل طبيعة ناطقة، وهو جوهريتها وبه تحيا وتتحرك، ونحن موجودون على حسب قوة النفحة المضعفة والتنفس، لأن من هناك ننتفح كلنا بروح القدس إذا كنا لذلك متسعين، ويكون وصولنا إلى ذلك بمقدار ما نفتح أفواه أفكارنا .

✠ ويدعى عدلاً لأنه المقسم والموزع بحسب الاستحقاق، وهو المميز بالعدل فيما بين من تحت الناموس ومن تحت النعمة، وفيما بين النفس والجسم، حتى يكون منا ما هو مرؤس وما يرأس، وما له الولاية حتى يقوى الأفضل على الأردأ، ويتقدم على ما يعلوه .

✠ ويدعى أيضاً تقديساً كمثل طهارة، حتى يجد الطاهر سعه في الطهارة .

✠ ويسمى أيضاً فدية، لأنه الذي عتقنا بعد ما كنا من قبل الخطيئة معتقلين، وهو الذي أعطى نفسه فدية لنا، يطهر بها العالم .

✠ ويدعى أيضاً قيامة، لأنه من ههنا نقلنا، ويعيدنا إلى الحياة، بعد ما كان المذاق قد أماتنا، فهذه الأشياء كلها مشتركة فيما بين من هو فوقنا، وبين من صار من أجلنا .

وأما الأشياء الأخرى المعتزلة عن هذه، فهي لنا وتخص ما اتحد من ههنا، فمنها:

✠ اسم الإنسان ليس لتسعه الأجسام بجسمانيته فقط، إذ كان لم يمكن على طريقة أخرى أن تسع طبيعة بشرية ولا تدرك، بل وليقدس الإنسان بذاته، ويصير خميرة لعجنة كلها، ويوحد بذاته ذاك الذي أدركه الحكم، فيجعل الحكم عليه بالكلية، فلذلك صار بالأشياء كلها التي صرناها نحن سوى الخطية، أي صار جسماً ونفساً وعقلاً وغير ذلك من الأشياء التي يمكن بها الموت، وصار المشترك من هذه أي إنسان إلهاً، منظور إليه من أجل المعقول .

✠ وصار بن بشر من أجل آدم، ومن أجل البكر التي منها صار، فكان من آدم لأنه المقدم في أبوة البشر، و صار من الأم بناموس

وغير ناموس الولادة، وصار مسيحاً من أجل اللاهوت، إذ كانت هى المسحة للبشرية، ولم يكن مسحه بفعل منفصل، بحسب ما كان في غيره من المسيحيين، بل كان من حضوره متصلاً لم ينفصل عن الماسح، وصار الفعل لهذه المسحة أن يدعى الماسح إنساناً ويجعل الممسوح إلهاً .

✠ وسمى طريقاً، لأنه بذاته تقدمنا .

✠ وسمى باباً، لأنه هو الذي يدخل بنا .

✠ وسمي راعياً لأنه يسكنا في مرتع الرياض، ويغذينا بماء الراحة والنياح، ويهدينا من ههنا، ويقاتل الوحوش عنا، ويرد الضال، ويسترد الهالك، ويعصب المتهشم، ويحفظ القوىّ، ويجمع إلى المراعي الذي هناك، بأقوال صناعة الحذق في الرعاية .

✠ وسمى خروفاً لأنه ذبح، وسمى حملاً لأنه الحامل .

✠ ودعى رئيس الكهنة، لأنه المقدم .

✠ وسمى ملشيصاداق، لأنه لم يكن له في المعنى الذي يعلونا ويزيد فيه علينا، وهو بغير أب من ناحيتنا، ولا جنس له من الناحية المتعالية، لأنه قد قيل وجيله من الذي يخبر عنه(أع ٨ : ٣٣، إش٥٣: ٨) .

✠ ودعي ملك ساليم، لأنه هو السلامة والسلم، ولأنه ملك العدل، الذي يأخذ أعشار البطاركة، إذا ما صالوا وفتكوا بالقوات الخبيثة، فقد حصلت عندك أسماء الابن، فتبحرها واسلك عليها، فما كان منها عالياً فانسبه إلى اللاهوت، وما كان جسمانياً فانسبه إلى التغاضي والمسامحة، بل انسب الكل إلى اللاهوت لتصير إلهاً، قد صعد من الأرض لعله المنحدر من العلو بسببنا، في هذا كله وقبله كله، فاحفظ لي في ذلك، ولا تزل في الأسماء العالية، ولا في الأسماء المنخفضة، "يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسِ وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ "(عب ١٣ : ٨)، آمين .

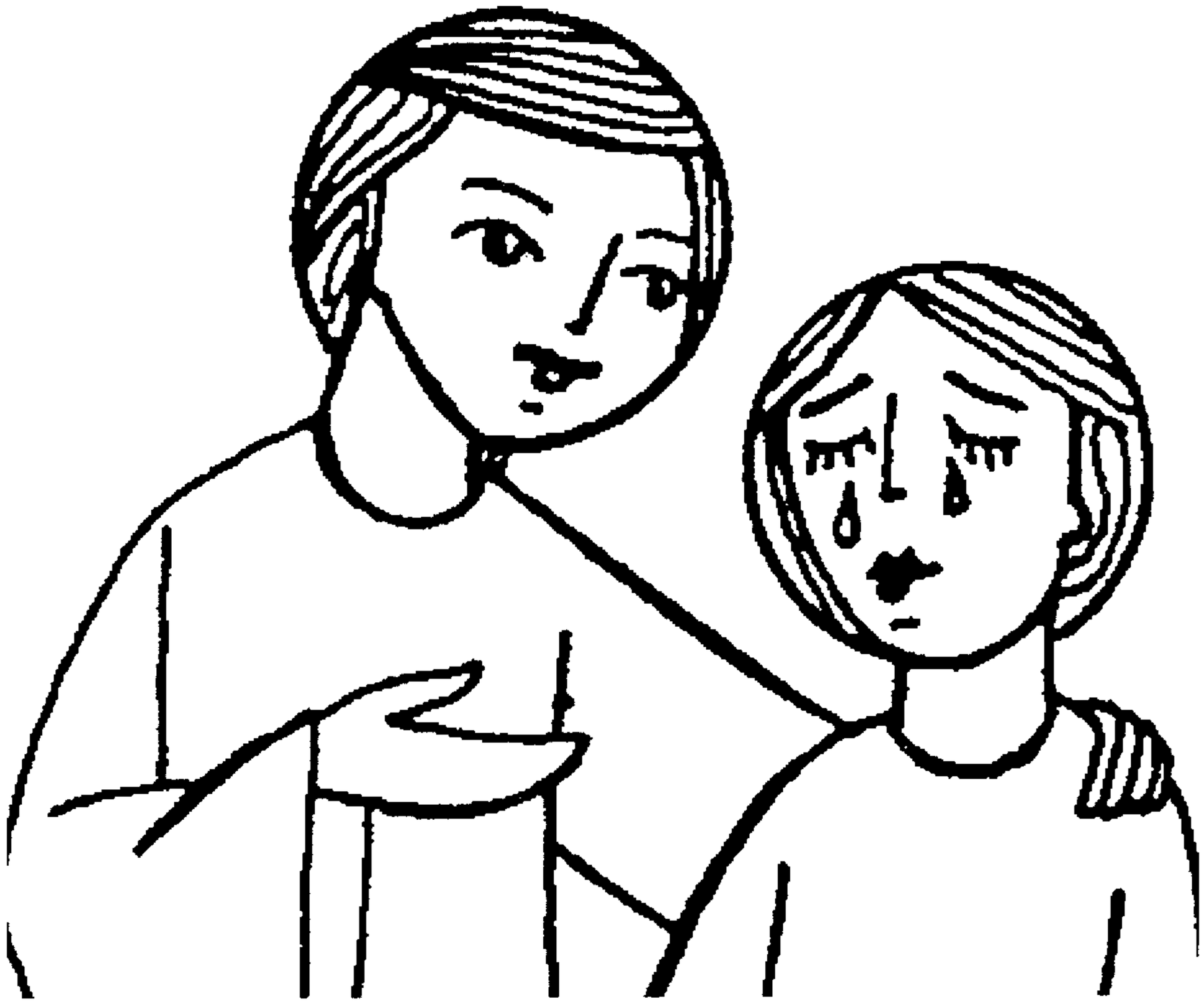

الله لنا إله خلاص
وعند الرب السيد
للموت مخارج (مز ٦٨ : ٢٠)

الميمر الرابع عشر

في الروح القدس

في الروح القدس

المجد المسجود له

المجد المسجود له

الميمر الرابع عشر
في الروح القدس
المجد المسجود له

أما الكلام في الابن فهذه هى صورته، وهكذا قد فات الذين يرجمون عابراً في وسطهم، لأن الكلمة لا تُرجم، بل هى تَرجم إذا أرادت، وتقلع الوحوش التي هى الكلام، الذي يروم التصعد في الجبل على غير ما ينبغي .

ولكن ربما يقولون لنا، فما قولنا في الروح، ومن أين تدخل علينا إلهاً غريباً غير مكتوب، وهذا فيقول المعترضون في باب الابن، وقد يوجد في الطرق والأنهار، ما ينفرخ بعضه من بعض ثم يجتمع، ومثل ذلك قد يعرض ههنا في غزارة الكفر فيكون قوم يختلفون في شيء، ويتوافقون في آخر، فيحصل من ألاَّ يمكن المعرفة القوية النقية بالموافق من المخالفات .

أما الكلام في الروح ففيه بعض الصعوبة، ليس لأن الناس قد بالغوا في الكلام في الابن، فيعاندون الروح بحرارة، وذلك أنه لابد لهم لا محالة من النفاق، وإلاَّ فلا يكون عيشهم عيشاً، ولكن لأننا نحن قد وعكناه بكثرة المسائل والمطالبات، فقد لحقنا ما يلحق من يتضحر بالغذاء، فهو إذا تكره شيئاً من الطعام، يتكره معه غيره، وكذلك نحن لكل قول، كمثل أولئك المتكرهين الطعام متصعبون، ولكن يعطينا الروح قوة فيجري القول ويتمجد الله، أما البحث والتقسيم باستقصائكم ذكر الروح، وكما ذكر القدوس في الكتاب الإلهيّ، وكما عرف وفهم بشهادات توافق النظر، وكما ذكر كلاهما مجتمعين على طريقة مفردة أعني الروح القدس، فنحن نترك الكلام

فيه لقوم آخرين قد تفلسفوا في ذلك لنا ولنفوسهم، وكذلك تفلسفنا أيضاً ونحن لهم .

فأما الآن فنحن نقصد ما يتلو هذا القول، ولكن سبيل الذين يقدرون أنا ندخل عليهم إلهاً غريباً منهم، جاء من الروح القدس، ويصعب عليهم ذلك، ويقاتلون عن الكتاب قتالاً شديداً، أن يعلموا أنهم قد خافوا هناك خوفاً، بحيث لا خوف ولا جزع، ويعرفوا معرفة بينة أن إظهارهم العصبية للكتاب، إنما هو لباس وسربال الكفر، بحسب ما نبين بعد قليل، إذا ما بكتنا مقاوماتهم بحسب الطاقة، وأما نحن فهذا مقدار ثقتنا بلاهوت الروح الذي نعتقده .

إننا من ههنا نبتديء بالكلام في الإلهية، ونجعل الألفاظ في ذلك مطابقة للثالوث، وإن كان يظن قوم أن ذلك جسارة، وذلك :

✠ إنه لم يزال الضوء الصادق الذي ينير كل إنسان إلى العالم قادماً، وهو الآب .

✠ ولم يزل الضوء الصادق الذي ينير كل إنسان إلى العالم قادماً، أعني الابن .

✠ ولم يزل الضوء الصادق الذي ينير كل إنسان إلى العالم قادماً، وهو المعزي الآخر .

فأن كان ههنا لم يزل، ولم يزل، ولم يزل، فأن الذي كان ولم يزل واحداً .

وإن كان هناك ضوء وضوء وضوء، فالضوء واحد وإله واحد، وهذا فهو الذي خاله داود فيما تخيل أولاً وقال : أنّا سنبصر بنورك نوراً(مز ٣٦ : ٩) .

ونحن الآن قد أبصرنا فننادي بضوء أدركناه وهو الابن، من ضوء هو الآب، بضوء هو الروح، فيكون ذلك اعترافاً بالثالوث، مختصراً الأفضلية فيه، والجاحد فليجحد، ومخالف الناموس فليخالف، فأن الذي فهمناه نحن هو الذي نعلنه ونكرز به، ونصعد على جبل شاهق ونصرخ، إذا كان لا يسمع منا من أسفل، ونرفع الروح ولا نجزع، وإن نحن خفنا فأنّا إذا ما صمتنا لم نكن متأدبين، وإن كان حين لم يكن الآب، فقد يكون حين لم يكن الابن، وإن كان حين لم يكن الابن، فهناك حين لم يكن الروح القدس، وإن كان واحداً من الابتداء فقد كان الثلاثة، وإن أنت حططت واحداً إلى

أسفل، فأنا أتجرأ وأقول لك ألاّ تضع ولا الاثنين الآخرين فوق، وإلاّ فأية فائدة في لاهوت غير تام، وأي لاهوت يكون مبعضاً وكيف يكون مبعضاً، ذاك يكون إذا ما نقص عن التمام، وكيف ينقص، إذا لم يكن هناك القدس، وكيف يكون له شيء والقدس لا يكون له، ذاك إذا كان هناك قدس آخر غيره، وأي قدس يفهم غير ذلك، سبيل المتكلم في هذا أن يذكر ذاك ويبينه، وأما إن كان كل ذلك شيئاً واحداً، فكيف لم يكن من الابتداء، كأنه قد كان الأفضل عندهم لله أن يكون غير تام، ويكون خلواً من روح، وإن لم يكن كان من الابتداء، فقد حصل معي، وإن كان قليلاً قبلي، وقد صرت أنا لا انفصل عن الله إلاّ بزمان ما، وإن كان مرتباً معي فكيف يجعلني إلهاً، وكيف يصلني باللاهوت، ولكن سبيلي أخذ القول يعود عودة قليلاً، إلى ما قيل وأتفلسف فيه، فأنّا قد كنا أخذنا في باب الثالوث قديماً والروح، والزنادقة لا يرون بالكلية أنه موجود، ولا يعتقدون أيضاً بالملائكة ولا القيامة، ولست أعلم كيف أهملوا ودحضوا ما فيه من الشهادات مذكورة في العتيقة .

وأما اليونانية فالمبالغون منهم في ذكر اللاهوت، الذين يزيدون على غيرهم في القرب منا، قد تخيلوه على رأى، إلاّ أنهم يخالفوننا في التسمية، ودعوه عقل الكل، والعقل البرانيّ، وما شاكل ذلك .

وأما الحكماء عندنا نحن فمنهم من قال أنه فعل، ومنهم من قال أنه خلقة، ومنهم من قال أنه إله، ومنهم من لم يعرف شيئاً من ذلك احتشاماً، على قولهم من الكتاب، وأنه لم يأتِ فيه شيء من ذلك مبيناً، فهم من ههنا لا يكرمونه ولا يهينونه، وقد ثبتوا في هذا على حالٍ وسطٍ، بل على حال شقية جداً، والذين اعتقدوا أنه إله، فمنهم من وقف على الفكر وحده في حسن العبادة، ومنهم من جسر فشهرها بالشفاه .

وقد سمعت قوماً يزيدون في الحكمة، فيكيلون اللاهوت، ويعترفون مثلنا بأن المفهومات ثلاثة، إلاّ أن بعضها ينفصل من بعض، فمنها ما لا يحد لا بجوهر ولا بقوة، ومنها ما يحد بقوة ولا يحد بجوهر، ومنها محصور في المعنيين، يشبهون في ذلك لمن يقول، الخالق يسمونه معه معيناً آخر وخادماً، ويقدرون أن الترتيب والتفصيل في الأسماء تابع الأمر في الأحوال، ونحن فليس لنا كلام مع الذين يعتقدون أنه غير

موجود، ولا مع الذين يهذون في اليونانية، ولا كان لنا أن ندهن في القول بذهن الخطاة .

وأما الأخرى فهكذا نخاطبهم، وذاك أنه ينبغي أن نضع الروح القدس، إما مع الأشياء القائمة بذاتها، وإما مع الأشياء الموجودة في غيرها، والواحد من هذين فالمعتفون من هذه الأشياء يدعونه جوهراً، والآخر فيدعونه عرضاً، فأن كان الروح القدس من معنى العرض فهو فعل الله، وإلاّ فماذا يكون غير ذلك، ولم يكن سواه، وهذا فقد يفوت لعمري التركيب على معنى، وإن كان فعلاً فهو منفعل بفعل، ومع انفعاله فكيف يتحرك ويسكن معاً، إذ كانت هذه صورة الانفعال، إلاّ أنه كيف يفعل ويقول كذا وكذا، ويميز ويقيم ويغضب، وغير ذلك مما للتحرك بيناً، وليس هو للحركة، وإن كان جوهراً ما، فلن يعتقد فيه شيء من المحمول على الجوهر مثل الخلقة فهو إله، وليس ههنا شيء يتوسط فيما بين هذين، أي يكون ينال من أحدهما، أو يكون من كليهما مركباً، ولن نفهم ذلك ونعتقده ولا الذين يختلقون عثراتك، ولكنه إن كان خلقه، فكيف نؤمن به، أو نتمم به، لان الأمانة بشيء والأمانة في معناه ليست شيئاً واحداً، لأن أحد هذين الشيئين مخصوص باللاهوت، والآخر فمخصوص بكل شيء، وإن كان إلهاً فليس مخلوقاً ولا مصنوعاً، ولا مشاركاً في عبودية الأشياء بالكلية من الأسماء المتحفظة، والكلام ههنا فهو كلامك، وسبيل مقاليعك أن تقلع، وقياساتك أن تثبتك، أو فلابد من أن يكون لا محالة إما غير مولود، وإما مولود، فأن كان غير مولود، فقد أدخلت اثنين لا ابتداء لهما، وإن كان مولوداً فاقسم قسمه أخرى، إما أن يكون من الآب، وإما من الابن، فأن كان من الآب فقد صار ههنا ولدان أخوان، واختلق أنت أن رأيت توأمين، أو واحداً أكبر وآخر أصغر، إن كنت تحب الأجسام محبة شديدة، وإن كان مولوداً من الابن، فقد حال إله آخر ابن ابن، وماذا يكون أعجز من هذا، هذا قول الحكماء في اصطناع الشر، الذين لا يريدون أن يكتبوا الأشياء الصالحة، وأنا فلو رأيت أن هذه القسمة ضرورية، لقبلت الأشياء بأعيانها، ولم أفرق من أسمائها، لأنه ليس الآن الابن يقال له ابناً، بنسبة زائدة في العلو لموضع أنه لا يمكننا أن نتبين على طريقة أخرى من هو الله، وتساويه في الجوهر إلاّ هكذا، وحيث ههنا بضرورة، أن نتوهم في السمائيات السفلية، وما يختص منها، فرأينا أن من الواجب علينا، أن نرد مثل ذلك إلى

اللاهوت، أو لعلك أنت تتوهم لنا إلهاً ذكراً، على هذا القول، لأن الله يسمى آبا، وتتوهم اللاهوت انثى، من حيث تسمياتك هذه، وتقول في الروح أنه لا هذا ولا ذاك، لأنه لا يلد، وإن حصل لك وهذا اللعب أيضاً أن يكون إلهاً يباضع عندك بإرادته، على معنى الهذيانات القديمة والخرافات، فيتولد منه ابن، فقد دخل علينا من ههنا إله ذكر وأنثى، على مثل آراء مرقيان وأوليطان، اللذين اعتقدا الأزهار الجديدة، وإذا كنا لا نقبل قسمتك الأولى، التي ذكرت فيها أنه ليس شيء بين غير المولود والمولود، فقد انصرف عنك الآب، مع هذه القسمة اللطيفة، الإخوة وبنو الأولاد، كمثل رباط ميلادك الصفر، إذا انحلت منه العقدة الأولى، انحل جميعه، فاصرف من ههنا الإخوة وبني الأولاد من الكلام في اللاهوت، ولكن عرفني أين تضع المنبعث، وقد حصل وسط القسمة التي أتيت بها، وكان الذي ذكره أكبر منك كلاماً في اللاهوت وهو المخلص، اللهم إلاّ أن يمكنك أن تخرج هذه اللفظة من الأناجيل من أجل وصيتك الثالثة، والمخلص قد قال روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي (يو١٥ : ٢٦)، انبعاثه من هناك ليس مخلوقاً، ومن حيث إنه غير مولود فليس هو ابناً، وإذ هو فيما بين غير مولود وبين مولود فهو إله، وإذا كان ذلك هكذا فقد فات شِبَاك قياسك، وأبان أنه إله أقوى من تقسيماتك .

فأن قلتَ أي شيء هو الانبعاث، قلتُ قلْ لي أنت أي شيء هو عدو الولادة من الآب، حينئذٍ أنا أتفلسف لك في مولد الابن وانبعاث الروح، ثم نذهل جميعاً إذا ما اطلعنا في سر الله، ومن نحن وما بين أقدامنا، لسنا على الوصول إليه قادرين، فضلاً عن رمل البحر، وقطر الغيث، وعدد أيام، وكيف نسلك في أعماق الله، ونقوم بحجة عن طبيعة تفوق القول والنطق .

ولكن يقول القائل، فما الذي يمنع عن أن يكون ابنا، فأن كان لا ينقصه شيء، فهو إذاً ابن، ونحن فلا نقول أنه ينقص شيء إذا كان إلهاً غير ناقص، ولكن حال التبيين، أو تشبه الواحد إلى الآخر فيها اختلاف، جعل الأسماء مختلفة، ولا الابن ينقصه شيء في أن يكون آباً، لأن البنوة ليست نقصاً، ولكن ليس هو من هذا المعنى آباً، وإلاّ فقد ينقص أيضاً الآب أن يكون ابناً، والابن فليس هو آباً ولكن هذه الأشياء ليست تأتي من حيث نقص، ولا من حيث انخفاض في الجوهر، ولكن من حيث لم يكن الواحد

مولوداً، والآخر مولوداً، ثم المنبعث، فجاء من ههنا تسمية الواحد آباً، والآخر ابناً، والآخر هو الذي يدعى به روحاً قدساً، لتتخلص الثلاثة أقانيم من عدو الامتزاج، في طبيعة واحدة، ورتبة اللاهوت، فالابن ليس آباً، لأن الآب واحد، ولكنه هو ما هو الآب، ولا الروح أيضاً ابناً، لأنه من الله، لأن الوحيد واحد، ولكن هو ما هو الابن، والثلاثة فواحد باللاهوت، والواحد ثلاثة بالخواص، حتى لا يكون الواحد على رأي سابليوس، ولا الثلاثة على معنى قسمتك الرديئة، فهذا الروح إله أجل، فهل هو مساوي في الجوهر إن كان إلهاً، نعم إن كان إلهاً .

فيقول القائل أعطني من شيء واحد، أن يكون بعضه ابناً، وبعضه غير ابن، ثم يكون الجميع بعد لك مساوياً في الجوهر، حتى أقبل إلهاً وإلهاً .

فأعيد عليه أعطني أنت إلهاً آخر، وطبيعة إله، حتى أعطيك ثالوثاً بأسمائه وأحواله، وإن كانت الطبيعة العليا واحدة، وإلهاً واحداً، فمن أين آتيك من غيرها بتشبيه، وإن كنت تطلب هذا بين الأرض ومما يحتويك أنت فأن ذلك لشنيع، وليس قبيحاً وحده بل ضلالة بينه، إذا ما قلت تشبيه من السفل للعلو، ومن الطبيعة السائلة بالطبائع التي لا تتجزأ، وما قاله إشعياء النبيّ في الطلب الحيّ مع الأموات، ولكني سأروم من أجلك من ههنا، أن آتي بمعونة ما لهذا ليقول، أترك فيها الأشياء وإن كان عندي أشياء كثيرة أقولها من أخبار الحيوان بعضها معروف عندنا وبعضها عند القليلين مما ذكر في تكوينات الحيوان مما صنعته الطبيعة .

لأنه قد يقال أنه لم يولد حيوانات بعينها، من حيونات بعينها فقط ولا من الغير غير، بل ومن الغير أشياء بعينها أيضاً غير، فأن كان هذا القول عند أحد موثوقاً به، وكان هنا طريقة أخرى من الولادة، في شيء يفنى من ذاته ويولد، فها هنا أيضاً ما يخرج على طريقة ما عن ذاته، وينتقل من حيوان إلى حيوان، وتنتقل خلقته من قوة الطبيعة، وما حببت به من الكرامة، فها هنا شيء من شيء واحد، بعضه غير مولود وبعضه مولود، إلاّ أنه يتساوى في الجوهر، وهما شبه مما نحن فيه، فأذكر شيئاً واحداً مما عندنا، وهو عند كل أحد معروف، ثم أنتقل إلى غيره من القول .

خبرّني مَن كان آدم ؟ فانك تقول لي خليقة من الله، ومَن كانت حواء؟ قطعة من الخلقة، ومن كان شيئاً، ألا تعلم أنه كان مولوداً من اثنين،

فهل عندك الخلقة والشقة والولادة شيء واحد ههنا كيف، فهذه أشياء متساوية في الجوهر، وأي شيء كيف لا قد حصل إذاً الاعتراف، بأن أشياء تختلف خلقتها قد يمكن أن تكون من جوهر واحد، وأنا أقول هذا بيّن، حيث لا أجلب على اللاهوت خلقة، ولا قطعاً، ولا شيئاً مما يدخل على الأجسام، فلا ينبغي على واحد من الذين يعاندون القول، بأني إذا ما نظرت فيما هذا سبيله، كان الذي يحصل منه مثل ما يحصل من الخيال، إذ كان لا يمكن شيء من هذه التشبيهات أن تصل إلى كل الحق وصولاً يغني، وقد يقول القائل، فهذه الأشياء ليست في الواحد منها بعض مولود وبعض يكون شيئاً آخر، فأجيبه فعندك كان حواء وشيث، ألا تعلم أنهما من آدم، وإلاّ فمن غيره، وهل كلاهما مولودان، لا البتة، وإلاّ فما تقول، أقول أن الواحد فسخ والآخر ولد، إلاّ أن كليهما شيء واحد، إذ كان لا يخالف أحد في أنهما إنسانان، فكف إذاً عن المعاندة في باب الروح، بأنه إما مولود لا محالة، وإما لا يكون مساوياً في الجوهر ولا إلهاً، إذ حصل لك من البشريات إمكان رأينا في هذا، أما أنا فأني أظن أن في هذا كفاية، أن لم تكن قد تعلمت الاحتجاج والمعاندة في الأشياء البينة .

إلاّ أن القائل يقول، فمن سجد للروح من القدماء أو الحدث؟ ومن صلى؟ وأين كتب بأنه يجب أن يسجد له أو يصلي؟ ومن أين أخذت هذا؟

أما السبب التام في هذا، فنحن نقوم فيما بعد إذا ما تكلمنا في الأشياء التي ليست مكتوبة، وأما الآن فقد يكفينا هذا المقدار من القول، وهو هذا الروح هو الذي به نسجد وبه نصلي، والقول الآخر "اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا " (يو٤ : ٢٤)، وفي موضع آخر "وَكَذَلِكَ الرُّوحُ أَيْضاً يُعِينُ ضَعَفَاتِنَا لأَنَّنَا لَسْنَا نَعْلَمُ مَا نُصَلِّي لأَجْلِهِ كَمَا يَنْبَغِي. وَلَكِنَّ الرُّوحَ نَفْسَهُ يَشْفَعُ فِينَا بِأَنَّاتٍ لا يُنْطَقُ بِهَا " (رو ٨ : ٢٦)، وسأسجد للروح، وأسجد للعقل أي بالعقل والروح، وأما السجود للروح فهو الصلاة، فيلوح لي أنه ليس شيئاً آخر، ما خلا أن يكون هو يقدم الصلاة لذاته والسجود، وهذا فمن الذي لا يمدحه من الإلهيين، الذين يعرفون معرفة حسنه، أن السجود للواحد سجود للثلاثة، المتساوية في الرتبة واللاهوت، فلست أحذر من ههنا أن أقول، بأن كل شيء صار بالابن، من حيث إن الروح القدس واحد من الكل، وإذا قيل كل ما كان، فليس يقال الكل على الإطلاق، إذ كان الآب لا يدخل في ذلك، ولا ما لم يكن مكوناً، فبين أنه قد

كان، ثم سلم إلى الابن واعدده مع المخلوقات، وأما إلى أن ذلك فليس لك معونة من الكلمة الجامعة المحدقة في الكفر، فإن كان صار قبل المسيح لا محالة، فلست ولا أنا أجحد، وإذا لا يكون فقد يكون، فكيف هو واحد من الكل، أو بالمسيح، فاكفف عن كرامة رديئة تكرم بها الآب، وتنقصه فيها التنقيص بابن وحيد، إذ كانت الكرامة الرديئة تسليم أكرم الأشياء الذي هو الابن، إلى أن يكون مخلوقاً فيبعد من ههنا أن يكون ابناً، ومثل ذلك الفعل بالابن، إذ كانت كرامته تقصد الإضرار بالروح، لأن الخالق لمن يساويه في العبودية ليس بخالق، بل هو ممجد مع الذي يساويه في الكرامة، فلا تضعن مع ذاتك شيئاً من الثالوث، فيسقط من الثالوث، ولا تقطعن الطبيعة الواحدة التي هى بالسواء مكرمة، في شيء من الأشياء البتة فأنك مما هدمت من الثلاثة، فقد هدمت الكل، بل قد انهدمت أنت وانحططت عن الكل، فأنه لمن أفضل الأشياء أن يصل الإنسان إلى تحيل ضئيل في الاتحاد، من أن يجسر على كفر كليّ، والآن فكلا منا صائر إلى رأس الأشياء بعينه، وقد يضيق عليَّ أن تأتي مطالبة قد ماتت من قديم، وتركت بالأمانة، فتتجدد الساعة، ولكن قد يجب على كل حال أن نثبت ضرورة للذين يهذأون بالقول، ولا نسلم نفوسنا إليهم مأسورين خالين فارغين، ولنا كلام يوافق الروح، ويناضل عنه، وذلك في قول القائل، إن كان الروح إلهاً، والابن إلهاً، والآب إلهاً، فكيف لا يكونون ثلاثة آلهة، وكيف لا يكون الممجد ممجداً بكثرة الرئاسة، وهذا فمن يقوله الكاملون في الكفر والذين دونهم، أعني بذلك الذين يوالون الابن موالاة ما، ولكن حجتي للفريقين مشتركة، وأما كلامي لهؤلاء وحدهم فخاص وهذه صورته .

ماذا تقولون لنا، وقد اعتقدتم فينا أن آلهتنا ثلاثة، يا من يكرمون الابن، وإن كنتم قد ابتعدتم من الروح، ألا تعلمون أنكم أنتم ذوو إلهين، وأنكم إن جحدتم السجود للوحيد، وقد حصلتم مع الأضداد حصولاً بيناً، فلما لنا أن نتحنن بعد هذا عليكم، فأنكم لستم قد متم من سائر الوجوه، فأن كنتم تكرمون الابن، وإلى هذا تنتهون من حال الخلاص، فنحن نسألكم أيضاً أية حجة لكم في الإلهين، إن كان هذا يذم منكم، فأن كان هناك قول فهم فأجيبوا، وأعطوا طريقاً للمجاوبة، ولنا فأن حجتكم التي تدفعون بها عن نفوسكم، مما تنسبون إليه من إلهين، فها لنا كفاية في دفع ثالوثية الآلهة عن

نفوسنا، فتحصل هكذا الغلبة، وقد استعملناكم فيها وأنتم الخصم، وماذا يكون أشد بأساً من هذا، أما جهادنا المشترك مع الفريقين، فما هو، وما حجتنا فيه.

الله عندنا واحد، لأن اللاهوت واحد، وكل واحد منه يرتفع إلى الوحدة، وإن كانت الأمانة مثلثة، لأن ليس الواحد أزيد في اللاهوت، ولا الآخر أنقص، ولا هناك أقدم ولا متأخر، ولا ينفصل برأي، ولا ينقسم بقوة، ولا شيء آخر مما يوجد ههنا في المنقسمات، ولكن لاهوت غير منقسم، وأن كان في منقسمين، إذا وجب أن يختصر القول، كما يكون في ثلاثة شموس، تقفو بعضها بعضاً اجتماع ضوء واحد، فإذا ما نظرنا إلى اللاهوت، والعلة الأولى، والوحدة في الرئاسة، كان الذي تخيل لنا شيئاً واحداً، وإذا ما نظرت إلى الأشياء التي فيها اللاهوت، وما هو من العلة الأولى بغير زمان، وهو من هناك موجود بتساوي في المجد، كان ما نسجد له ثلاثة، فيقولون أن اليونانية قوم كاملون، يعتقدون في فلسفتهم أن اللاهوت واحد، وعندنا نحن أيضاً أن البشرية كلها جنس واحد، ولكن الآلهة عندهم كثيرة ليست واحدة وكذلك الناس ولكن الشركة هناك الوحدة وحدها، إنما هى بالوهم مفهومة، أما على التفصيل فقد ينفصل الواحد من الآخر، انفصالاً بعيداً في الزمان والأعراض والقوة، وأما نحن فلسنا مركبين فقط، بل بيننا مباينة في الواحد إلى الآخر، وفي الواحد إلى ذاته، حتى إننا لا نثبت يوماً واحداً على حال واحدة نقية، فضلاً عن أن نثبت على ذلك في جميع أعمارنا، بل نحن نسأل دائماً وننتقل في حال أجسامنا ونفوسنا، ولست أعلم أن كان أيضاً ولا الملائكة، ولا الطبيعة كلها المتعالية، بعد الثالوث وإن كانوا البسيطين وفى الخير مرتضين، للقرب من الخير الأقصى .

وأما الآلهة التي تعبدها اليونانيون، والجنة التي يقولون بها، فليس يحتاجون فيها منا إلى مناظرين، بل هم مأخذون من المتكلمين في اللاهوت عندهم، وما أشد انصبابهم في الآلام، وثباتهم في المخالفة، وتميلهم من الشرور والتنقل، ليس في مخالفة بعضهم بعض فقط، بل وفى مخالفتهم العلل الأولى .

فمنهم مَّن سمّوه بحوراً محيطة وينتياس وفانيطس، ولهم إله، ولهم إله أقصى، يبغض أولاده ويبلغهم من أجل محبة الرئاسة، ويفعل ذلك من شرهه، ليكون أبا لكل الرجال .

وآلهة قد أكلوا وقذفوا شقوة، فأن كانت هذه ألغازاً ولها معاني بحسب ما يدعون، إيثاراً للخلاص من شناعة القول، فماذا يقولون في المشهور من قولهم، أن الكل قد انقسم ثلاثة أقسام، وأن كل واحد يشرف على شيء من الموجودات دون غيره، وينقسمون في الهيوليّ من كل شيء، وفى مراتبهم بعينها .

وأما نحن فليست حالنا هذه، ولا هذه حصة يعقوب، كما قال صاحبي المتكلم في اللاهوت، بل الوحدة والجودة في كل شيء، من حال الواحد منهم مع الآخر، وليست بدون حال الواحد مع ذاته، في ذات الجوهر والقوة، وهذا القول في الاتحاد، بمقدار ما وصلنا إلى إدراكه فيهم، فأن كان هذا القول قوياً، فلله المنة في النظر، وإن لم يكن، فسبيلنا نطلب أقوى منه، وأما أقوالك أنت، فلست أعلم إن كانت قول هزل أم جد، فيما تطلب به أن تنقض علينا الاتحاد، لأنك تقول ما الحجة في عدد المناسبة في الجوهر، يعني بعدد شيء مع شيء، جر العدد إلى واحد، وما ليس هو متساوياً في الجوهر، فليس يعد الواحد منه مع الآخر، ولا تفلتوا أنتم على هذا القول من التبعة، في اعتقادات ثلاثة آلهة، وأما نحن فلا خطر علينا من ههنا، إذ كنا نعترف بمساوين في الجوهر، لقد خلصت نفسك يا هذا من عنا وتعب بلفظة واحدة، وقد غلبت الغلبة الرديئة، وعملت في هذا عمل الذين يخنقون نفوسهم خوفاً من الموت، لأنك أردت ألاّ تتعب في المناضلة عن التوحيد، فأنكرت اللاهوت جملة، وسلمت إلى الأعداء ما يطلبونه، وأما أنا فأن دعت الحال إلى تعب متى صبرت عليه، لم أسلم شيئاً أسجد له، إلاّ أنني ههنا لا أرى ما هو العناء والتعب، لأنك تقول أن الأشياء المتساوية في الجوهر يعد بعضها مع بعض، وأما ما ليس هذه حاله، فالدلالة عليه بالواحدة، فعرفني من أين لك هذا، وعمن من أولى الرأي وأهل الخرافات أخذت ذلك، ألا تعلم أن كل عدد إنما يبني عن كمية ما يعد، لا عن طبيعة الأشياء .

وأما أنا فقد وصلت حالي من طول الزمان، أو من قلة العلم، إلى أن أسمّي ثلاثة ما كان عدده كذلك، وإن كانت طبيعة منفصلة، وأعِدُّ واحداً وواحداً وواحداً على طريقة أخرى، كل ما كان مقدار أحاده، وإن كان متفقا في الجوهر، ولا أنظر إلى الأشياء بأعيانها أكثر من نظري إلى كميتها التي يأتي عليها العدد، وأنت فإذا كنت تتعلق بالكتاب، وإن كنت محارباً للشيء الذي جاء فيه الكتاب، فخذ لي البراهين من وجه آخر، وهو ما قيل في

الأمثال "ثَلاثَةٌ هِيَ حَسَنَةُ التَّخَطِّي وَأَرْبَعَةٌ مَشْيُهَا مُسْتَحْسَنٌ (أم٣٠ : ٢٩) أن ثلاثة تسلك سلوكاً حسناً وهى الأسد جبار الوحوش وضامر الشاكلة و التيس، والرابع فملك يخصب على أمه، هذا إذا لا أذكر الروابيع المعددة هناك، وهى منفصلة بالطبيعة، وموسى فقد ذكر كاروبيم اتنين معدودين بالوحدة، ولم يبينهما في اللفظة، فكيف كانت تلك ثلاثة بحسب صناعتك، تنحرف وتنفصل بعضها عن بعض بالطبائع، وقد سميت ثلاثة، وهذه متفقة في الطبيعة، وقد عادت إلى الواحدة في العدد، وإن قلتُ الله ومأموناً ربين، وعدتُ في عددهما إلى الواحد، فأحدهما شديد البعد عن الآخر، لعله يضحك علىّ شديداً في جمع العدد ههنا .

إلاّ أن ذلك القائل يقول، أن تلك الأشياء يقال فيها أن بعضها يُعَدّ مع بعض، وهى جوهر واحد، إذا كانت الأسماء يلفظ بها لفظاً موفقاً، مثل قولنا ثلاثة أناس، وثلاثة آلهة، ليس ما قيل فيه تلك ثلاثة وثلاثة، كذا وكذا، وإلاّ فمن أين لنا هذه المجازاة، هذا لعمري قول من يجعل له ناموساً على الأسماء، إلاّ أنه ليس قولاً صادقاً، وإلاّ فبطرس وبولس ويوحنا سبيلهم ألاّ يكونون عندي على هذا المعنى، لا ثلاثة، ولا متفقين في الجوهر، ما دام لا يمكن أن يقال عنهم ثلاثة بولسيين، وثلاثة بطرسيين، ويقال في يوحنا مثل ذلك، لأن الذي خشيته أنت من الأسماء الجنسية، به نطالبك نحن في النوعية، بحسب ما اختلفت، وإلاّ كنت ظالماً، إذا لا تسلم مثل ما أخذت، وماذا قال يوحنا، ألا تعلم أنه قال في رسائله الجامعة "وَالَّذِينَ يَشْهَدُونَ فِي الأَرْضِ هُمْ ثَلاثَةٌ: الرُّوحُ، وَالْمَاءُ، وَالدَّمُ. وَالثَّلاثَةُ هُمْ فِي الْوَاحِدِ (١يو ٥ : ٨) فهل هو عندك يهذي أم لا، لأنه جسر على عَدِّ ما ليس متساوياً في الجوهر، وذاك فهو الذي تسلمته أنت إلى المساويين في الجوهر، ومن ذا الذي يقول أن هذه من جوهر واحد، والثاني لأنه أتَى بما لا يوافق، ولكنه قد ثلثه تقديماً مذكراً، ثم أتبع ثلاثاً جمعاً، غير مذكر ولا مؤنث، وحاد في ذلك عن حدود نحوك ونواميسك، لأنه لا فرق عند من يقدم ثلاثة بالتذكير، ثم يأتي بعد ذلك بواحد وواحد غير مذكر، قال واحد وواحد وواحد بالتذكير، ثم لا يقول ثلاثة بالتذكير، وهذا هو التذكير، وهذا هو الذي لا ترضى أنت أن يقال عندك في اللاهوت، وما عندك في السرطان الحيوان، والإله الذي يسمى بذلك، والكوكب، وماذا عندك في الكلب البريّ والمائيّ والسنائيّ، ألا تعلم أنه يجوز أن يقال فيهما ثلاثة سراطين، وثلاثة كلاب لا

محالة، فهل عندك من هذا أنها متساوية في الجوهر، من يقول هذا ممن له عقل، ألا ترى الآن كيف سقطت حجتك في جمع العدد، وبكتت بهذه الأشياء، إن كانت المتساوية في الجوهر لا تعد بعضاً مع بعض البتة، وتعد غير المتساوية، وكأن إعلان الأسماء في المعنيين على حال واحدة، فما هو الأكثر الذي حصل لك مما أصلته، وقد أرَى شيئاً آخر، وربما كان غير خارج من هذا الكلام، الواحد والواحد، ألا تعلم أنهما إذا تركبا صارا اثنين، والاثنان أفلا تعلم أنهما ينفصلان وينحلان إلى واحد وواحد، لعمري فأن كان عندك المتساوية في الجوهر تتركب، والمختلفة في الجوهر تنفصل، أفلا تعلم أنه يعرض من هذا أن تكون الأشياء بأعيانها متفقة في الجوهر ومختلفة، وذلك فشيء أضحك منه، ومن تقديمك الأعداد ومن تأخيرها، الذين بهما تفتخر، كأن الأشياء بأعيانها موضوعة في ترتيب الأسماء، فإن كان هذا هكذا، فما المانع على هذا القول، إذا كانت الأشياء بأعيانها تتقدم في الكتاب، وتتأخر بالعدد، لموضع الاتفاق في الجوهر، من أن تكون الأشياء بنفوسها أكرم من غيرها، وأهون بالسواء، هذا الكلام بعينه عندي في لفظة الله، ولفظة الرب، وفى المتقدمات في الوضع، عندما يقول الذي منه وبه وفيه، وهى ألفاظ تتحذلق أنت بها علينا في اللاهوت، فتعطي الواحدة للآب، والأخرى للابن، والأخرى للروح القدس، وما عسى كنت فعلت لو ثبت كل ما دفع إلى كل واحد ثباتاً مترضياً، إذا ما كنت عند ترتيب الكل وانتظامه مع الكل، بحسب ما يظهر للشديدي الحرص، قد أدخلت بعد هذا التساوي في المَحل والطبيعية، وقد يقنع هذا لمن لا يكون شديد المكابرة، ولكن إذا كان صعباً عليك بعدما وثبت دفعة واحدة على الروح أن تحجم عن التمادي، ولا تكون مثل المتهورة من الخنازير في المكابرة إلى آخر شيء، والاندفاع إلى السيف، إلى أن تأخذ الضربة كلها مداخلة، فهاتِ ننظر أي كلمة قد بقيّ لك فيما بعد، لأنك قد تتردد علينا دفعات ما ليس في الكتاب .

وأما أن الروح ليس غريباً ولا دخيلاً، بل معروفاً عند القدماء والحدث ومكشوفاً، فقد بان ذلك لجماعة من الناظرين في هذا الباب، ممن ينظر في الكتب الإلهية بلا تكاسل ولا قهرمة، بل ينظر فيها بعد أحذق الكتاب، والاطّلاع على المخزون في دواخلها من الجمال، الذي أهلوا أن يبصروه، وأناروا بنور المعرفة، وسنعرف أيضاً ونحن على المجاز بمقدار

ما يمكن، مما لا يظن بنا فيه أنا قد زدنا في المعنى، والمباهاة في بنية أس (جوهر) لا يخصنا .

فأن كان السبب في كفرك وتجديفك أن الروح لن يكتب إلهاً ببيان، ولم تنكر تسميته كمثل الآب في الأول، والابن فيما بعده، فدعاك ذلك إلى الزيادة في عياء اللسان، والبعد من العبادة، فنحن نحل لك هذه المضرة التي أتت عليك بشيء يسير نبينه في الأسماء والأصول، ولا سيما مما جرت به العادة في الكتاب .

فإنه في الأشياء ما ليس موجوداً، إلا أنه قد يقال، وفيها ما هو موجود ولا يقال، وفيها ما ليس موجوداً أو مقولاً، وفيها ما يجمع الأمرين أن يكون موجوداً ومقولاً، وأنت تطلب مني البراهين على ذلك، وأنا فمستعد للقيام بها .

قد ذُكر في الكتاب أن الله يهجع، ويسهد، ويغضب، ويمشي، وإن كان عرشه كاروبيم نقياً، على أنه متى صارت لله هذه الأعراض، ومتى سمعت أن الله جسم، وهذا فشيء ليس هو إلا أنه اختلق، وسميناه نحن كذلك بحسب ما تصل إليه طاقتنا، وشبهنا أحوال الله بأحولنا، وذلك:

✠ إننا جئنا إلى توقف الله عنا، كأنه تراخى في بابنا، للأسباب التي هو بها أعرف، وسمينا ذلك هجوعاً، لأن هجوعنا نحن هذه حاله، إذا كان سكوتنا عن الفعل والعمل .

✠ وأما إحسانه إلينا بواحدة، فالحال التي ينتقل منها إلى إحسانه، سميناها سهاداً، لأن الانحلال من الهجوع هو السهاد والأرق، كمثل الإشراف على الانحراف .

✠ وأما العقاب فجعلناه الغضب، لأن العقاب عندنا من السخط يأتي .

✠ وأما فعله مرة شيئاً وتارة آخر فسميناه مشياً، لأن النقلة من شيء إلى شيء هى المشي عندنا .

✠ وأما الاستراحة إلى القوات المقدسة، والشيء الذي كأنه الاتساع لها، فسميناه جلوساً، وتعريشاً في عرش، وهذا فهو من أحوالنا نحن، لأن اللاهوت لا يسكن إلى شيء مثل سكونه للقديسين .

✠ وأما الحركة السريعة فسميناها طيراناً .

✠ والاطلاع والإشراف فدعوناهما وجها .

✠ والعطاء والقبول فسميناهما يداً، وتسمية أخرى حصلت لقوات الله، صورت لنا الأسماء من الجسمانيات عندنا .

وأنت فمن أين أخذت عدم الولادة وتمسكت به، ومن أين لك معه عدم الابتداء، وهما المغافل التي تلتحي إليها، ومن أين عدم الموت عندنا نحن، فإما أن تبين ذلك بالاسم، وإما أن تجحده جميعاً، لأنه غير مكتوب، أو تزوره، فقدمت الآن من مقدماتك وانهدمت لك الأسماء، والسور التي كنت تعول عليها، أو فقد نبين أن هذا من النتائج، ومن قوله أنا الأول وأنا فيما بعد " أنِّي أنَا هُوَ. قَبْلِي لَمْ يُصَوَّرْ إِلَهٌ وَبَعْدِي لَا يَكُونُ " (إش٤٣ : ١٠) وهذا فهو شيء لا بداية له ولا نهاية، فإذا أخذت شيئاً لن تكون قبله، ولا أقدم منه، فذلك هو السبب في تسميتك إياه الذي لا ابتداء له، والذي ما هو مولود، وأما عدم الوقوف عن الآنية والوجود، فأنتج التسمية بأنه لا يموت ولا يهلك، فهذا هو الروح الأول، وهذه هى حاله .

فما هى الآن الأشياء التي ليست موجودة فلا يقال، ذكر اللاهوت بأنه شرير، والكرة أنها مربع، والماضي أنه حاضر، وأن الإنسان غير مركب، فمن الذي عرفت أن الأمر وصل به في البلاهة والتفقه، إلى أن يجسر فيتهم شيئاً من هذه الأشياء، وتصير على أنه موجود .

فقد بقي الآن أن نبين ما هو الموجود المقول معاً، فذلك الله، الإنسان، الملك، الدينونة، البطلان، فأما غير هذا من القياسات فهو تبديل الأمانة وتبطيل الشر، وإذا ما كانت هذه الفصول في الأسماء والأشياء بعينها، فكيف تخدم أنت وتتعبد للكتاب هذا التعبد الشديد، فتصير موافقا للحكمة اليهودية، وتتبع الحروف وتترك الأشياء نفوسها .

فأن كنت إذا ما سألتني عن خمسة في اثنين، أو عن سبعة في اثنين، جمعت من الواحد عشرة ومن الآخر أربعة عشر، أو من الحيوان الناطق الميت الإنسان، هل كنت عندك بصورة من يهذي، فكيف إذا ما قلت ما تقوله أنت، والأقوال فليست لقائلها أكثر مما هى لمن يلزم القائل أن يقولها، وكذلك ههنا ما كنت بالذي ينظر إلى ما يقال، أكثر من النظر إلى ما يفهم من القول، وكذلك أيضاً لو وجدت مهما كان، مما لا يقال ولا يفهم من الكتاب، فهما بيناً لما كنت أهرب من إعلانه خوفاً منك، لتلبك الأسماء، وهذا هو مقدار موقفنا مع الذين عهدهم وموالاتهم منصفاً، وأما أنت فليس يجوز لك أن تقول ولا هذا، إذا ما كنت تجحد أسماء الابن، وهى هكذا

واضحة، لأن من البين أنك ما كنت تحتشمها، ولو فقهتها أشد بيانا وأكثر كثرة، وأنا فسأبين السبب في هذا المقدار من الاستبتار، وأرفع لكم القول قليلاً وإن كنتم حكماء، وذاك أنه قد جاء منذ الدهر نقلتان في السير بينتان، يدعيان وصيتين، وجاءت زلازل على الأرض، لعظم الحال وانتشار ذكرها، فإحدى هاتين النقلتين.

✠ النقلة من الأوثان إلى الناموس .

✠ والأخرى النقلة من الناموس إلى البشارة .

وقد نبشر بزلزال ثالث، وهو النقلة من ههنا إلى ما هناك، والحصول فيما لا يتحرك ولا يزلزل، وهكذا بعينه لحق الوصيتين، وماذا هذا؟ هو لم يتحرك وينتقل بواحدة، ولا عند الحركة إلاّ وله من المرام، ولم ذلك؟ لأن المعرفة ضرورية، لئلا يلزم بذاك، بل يقنع، لأن المكروه عليه لا ثبات له، والدليل على ذلك ما يضبط بشدة من المجاري، أو من النبات، وأما ما كان طواعياً فهو أثبت وأحرز، والواحد من هذين الشيئين، فهو منسوب إلى الذي يلزم به، والآخر فمنسوب إلينا، الواحد مردود إلى التراخي والمقاربة من الله، والآخر فراجع إلى سلطان الاغتصاب، فما رأى من الواجب أن يحسن إلينا ونحن كارهون، بل يوصل المعروف إلينا ونحن طائعون، فمن ههنا اقتضب شيئاً من مذاهب الآباء على طريقة الأدب، وصناعة الطب، وأطلق شيئاً يسيراً، وتراخى فيه مما يؤدي إلى اللذة، كما تفعل الأطباء بالمرضى، لتقبل الرقية، إذا ما جاءت ووردت على الاختيار بصناعة وحذق، لأن ما قد أكرم بعادة وزمان طويل، فليست تسهل النقلة عنه، ومن أي معنى قولي هذا، إن هذه الصناعة في الأول أزالت الأوثان، وأطلقت الذبائح، ولم تمنع من الختانة، وبعد ذلك لما قبلوا الاقتضاب دفعة واحدة، سمحوا بالمصفوح عنه، أعني عن قوم سمحوا بالذبائح، وقوم سمحوا بالختانة، وصاروا يهوداً بعدما كانوا أمميين، وصاروا نصارى بعدما كانوا من الأمم، وسرفوا بالنقل من شيء إلى شيء درجوا بها للإنجيل، وليحقق ذلك عندك بولس، إذا قدّم من الختانة والتطهير، إلى القول الذي قاله، "وَأَمَّا أَنَا أَيُّهَا الإِخْوَةُ فَإِنْ كُنْتُ بَعْدُ أَكْرِزُ بِالْخِتَانِ فَلِمَاذَا أُضْطَهَدُ بَعْدُ؟ " (غل ٥ : ١١)، فذلك الأول كان من السياسة، وهذا من التمام .

وقد أرَى في الكلام في اللاهوت ما أشبهه بهذا، ولكن من معنى التضاد، لأن النقلة كانت من هناك من النقص، والتمام ههنا فكان من الزيادة.

ولعمري أن الأمر هكذا، لأن العتيقة كرزت بالآب كرزاً ظاهراً، وبالابن أخفى من ذلك، وأظهرت الجديدة الابن، وبينت لاهوت الروح، واشتهرت الآن سيرة الروح، لأنه أظهر لنا دلالته ظهوراً بيناً، وذلك أنه لم يكن من الاحتراز قبل أن يعترف بلاهوت الآب، أن يعلن المناداة بالابن، ولا من قبل لاهوت الابن أن يحمل الروح القدس علاوة، وأن كان القول جسارة،لئلا ينتقل علينا مثل غذاء يزيد على القوة، ولا نكشف النظر المعلول قدام نور الشمس، يكون في ذلك خطر، على ما تصل إليه القوة، وفى الزيادات التي جاءت، جزء بعد جزء ما، قال داود، أنه يصعد من مجد إلى مجد، فقطع شيء بعد شيء، ينير ضوء الثالوث للبهيين، فلهذه العلة ظهر الروح بحسب ظني للتلاميذ، جزء بعد جزء، وقدرت بمقدار قوة قابليها، وكان ظهور الروح في ابتداء البشارة، وعند الألم، وبعد الصعود، وتمم القوات، ونفخ وظهر في ألسنة نار، واشتهر من يسوع قليلاً قليلاً، بحسب ما يقف عليه .

وأنت إذا ما شارفت الأمر بشدة الاهتمام، فقال :" وَأنَا أطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّياً آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إلى الأبَدِ" (يو ١٤ : ١٦)،" وَأمَّا الْمُعَزِي الرُّوحُ الْقُدُسُ الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ" (يو ١٤: ٢٦) فلئلا يتوهم فيه أنه مخالف لله، وأنه يأتي بالقول كأنه من سلطان آخر، فبعد ذلك قال أنه يرسله ولكن باسمي، وترك القول أني أسأل، وحفظ يرسل، ثم قال أرسل، فبين محل ذاته، ثم قال يأتي سلطان الروح، فها أنت ترى الإنارات تنير على تدريج، ولا ترتيب الكلام في اللاهوت الذي حفظه أولى بنا، حتى لا يظهر بواحدة، ولا يستر إلى الغاية، لأن أحد هذين الضربين لا صناعة فيه، والآخر فبعيد من الله، والآخر فيقدر أن يصدع الغرباء، والآخر فيبعد الأولياء، وهاهنا شيء لعله قد جاء على ذهن قوم آخرين، وأنا فأظنه ثمرة لفكري، وسبيلي أن أزيده، على ما قد قيل، وذاك أنه قد كان هناك عند المخلص أشياء، قيل إن التلاميذ لا يقدرون على حملها، وإن كانوا قد امتلئوا من علوم كثيرة، ولكنها سترت عنهم، عسى للأسباب التي ذكرناها، ثم قيل أنهم سيعلمونها

من قبل الروح إذا ما قدم، فشيء واحد أظنه، المعرفة بلاهوت الروح إذا ما أعلنت فيما بعد، وصارت حينئذٍ كالشيء الذي قد أدرك، واتسعت المعرفة عند عودة المخلص، فلا يشك فيها بعد هذه العجيبة، وماذا كان يكون أكبر وأعلى بكرم الله، من ضمان ذلك وتعليم الروح، وهكذا هو رأيي في هذه الأشياء، وكذلك فيكون وأتمنى أيضاً أن يكون كذلك، عند كل من كان لي صديقاً، أن يعتقد في الآب أنه إله، وفى الابن أنه إله، وفى الروح القدس أنه إله، ثلاث خواص ولاهوت واحد، لا ينفصل في مجد ولا جوهر ولا ملك، كما قال بعض المتألهين، مذ مدة مديدة، وتفلسف فيما قال، ألا ترى كوكب الصبح شارقاً كما قال الكتاب، ولا مجد البهاء الذي هناك، كل من لا يرى هكذا، أو ينقلب مع زمان، ويصير آخر في وقت آخر، ويكون رأيه في الكبائر رأياً دنياً رثاً، فإن كان الروح لا يجب أن يسجد له، فكيف يجعلني أنا إلهاً من الصبغة، وإن كان مسجوداً له، فكيف لا يكون مكرماً، وكيف ليس هو إلهاً وهناك، فالواحد متعلق بالآخر، وهى ضفيرة مذهبة على الحقيقة مخلصة، فعودة الولادة لنا من الروح، ومن عودة الولادة تأتي الجبلة الثانية، ومن الجبلة الثانية، تحصل لنا المعرفة بمحل الذي جبلنا، وهذا فيقوله من يأتي بشيء ليس في الكتاب .

وبعد هذا فستأتيك الجموع من الشهادات، فيتبين من ذلك أن لاهوت الروح موجود في الكتاب، عند من لا يكون بليداً جداً، وغريباً من الروح، فانظر هكذا يولد المسيح، والروح يتقدم، ويصطبغ فيشهد، ويجرب فيصعد، ويصطنع قوات فيقف ويتبع، ويصعد فيخلف، وما هو الذي لا يقدر عليه مما يقدر عليه الإله، وما هو الذي لا يسمى به مما يسمى به الإله، غير عدم الولادة والولادة، لأن الخواص ينبغي أن تكون باقية للآب والابن، حتى يأتي امتزاج على اللاهوت، الذي يسوق كل شيء إلى الترتيب وحسن الرتبة .

وأنا فأقشعر إذا تأملت غزارة الأدعية، وما يتقح به على الأسماء، الذين يعاندون الروح، فالروح يسمى روح الله، وروح المسيح، وروح الرب، والرب بعينه، وروح النبوة، والصدق، والحرية، وروح الحكمة، والفهم، والرأي، والقوة، والمعرفة، وحسن العبادة، وروح الخوف من الله، لأن الروح صانع هذه الأشياء كلها، وهو يملأ كل شيء بالجوهر، ويضبط كل شيء، ويتم العالم من حيث الجوهر، والعالم لا يتسع له لموضع

قوتـه، وهـو الخـير المسـتقيم الرئاسـيّ بالطـبع لا بالوضـع، المقدّس الـذي لا يُقدَّس، المقدر الذي لا يقدر، الذي ينيل غيره ولا ينال هو من غيره، المنعم الـذي يمـلأ غيره وهو فـلا يمتلـيء من غيره، الحاوي الذي لا يحوى، الذي يـورث، ويمجد، ويعد بالمشـاركة، ويـتهدد بـه، وهـو أناة الله، ونار لأنه إله، وذلك في ظني لإظهار المساواة في الجوهر، وهو الروح الذي صنع، فيعيد الخلق بالمعمودية والنشور، والروح الذي يعرف كل شيء، ويعلم، ويهب حيث يريد بالمقدار الذي يريد، يرشد، ويتكلم، ويرسل، ويجدد، ويحتد، ويجرب، ويكشف، وينير، ويحيى، بل هو الضوء بعينه، والحياة بعينها، يصلح الهياكل كإلهٍ، ويتمم، ويتقدم الصبغة ويطلب بعدها، ويفعل كل ما يفعلـه إلـه، وينقسـم إلـى السـنة نـار، ويـوزع المواهـب، ويجعـل الرسـل، والأنبياء، والمبشرين، والرعاة، والمعلمين، وهو على كثير الأجزاء بيّن واضح، لا يمنع، لا يتدنس، يقدر على ما يقدر عليه، البالغ في الحكمة سواء وهو كثير التفنن في الأفعال، يبين كل شيء ويوضحه، وسلطانه من ذاته لا يتغير، وهو ذو كل قوة، يشرق على كل شيء، ويعبر بكل شيء من الأرواح العقلية الطاهرة اللطيفة، التي أقدرها قوات الملائكة، بحسب ما هو كذلك في الأنبياء والرسل بحال متشابهة، وليس في مواضع بعينها بل هو موزع على قوم وقوم في أماكن وأماكن، وبمثل هذا يستدل على الذي لا يجدف به، ولا ينحصر على رأي مَن يقول هذا، ويعلم به، ومع ذاك فهو معزٍ آخر، لأنه إله آخر مع آلهه يُسميه بذلك العارفون، بأن التجديف عليه هو وحده من الأشياء التي لا تغفر، وهم الذين شهّروا حنانيا وسفيرة شهرة بينة، لأنهما كذبا روح القدس، كذبا إلهاً، ولم يكذبا إنساناً، فما ظنك في هؤلاء آية الحالين كانت عندهم في الروح، أن يكرزوه إلهاً، أم غير ذلك، فإنك لسريع يا هذا ومستعجل وبعيد من الروح، إذا كنت تشك في هذا، وتحتاج فيه إلى معلم، فهذه جملة من الأدعية هذا مقدارها، وهكذا هى متنفسة .

وأما غير هذا من الشهادات للألفاظ، مما ينبغي أن تقدم إليك، فما كان يقال منه منخفضاً مثل : يعطي، ويرسل، ويوزع، ومثل الموهبة، والهبة، والنفخة، والميعاد، والشفاعة، وما كان يجرى هذا المجرى، مما لا أقصد شرحه، فسبيله أن ترتفع إلى العلة، ليبين الذي منه، ولا يقبل ثلاثة رئاسات منقسمات، تدل على جمع آلهة، فأن الجمع على رأى سابيليوس،

والتفريق على رأي أريوس، شيء يتساوى في الكفر، لأن الواحد يجمع الأشخاص، والآخر يفصل الطبائع، فأني أنا قد نظرت في ذاتي بالبحث الشديد من العقل، وقومت القول من كل ناحية، وطلبت مثالاً ما لشيء هذا مقداره، فما أمكنني أن أجد ما، سبيلي أن استعمله من الأشياء السفلية، أمثّل به الطبيعة الإلهية، فإذا ما وجدت تشبيهاً صغيراً فاتني الأكبر، وتركني أسفل مع المثال، ومع ذلك فقد خطر ببالي، عين ومعين ونهر، وقد خطر ذلك أيضاً قوم آخرين، ألعل يكون الآب في معنى، والابن في آخر، والروح القدس في آخر، بينهم وبين هذه مناسبة، لأن هذه لا تنفصل بزمان، ولا ينفرخ الواحد من الآخر في الاتصال، وإن كان قد يتوهم أن هناك انفصالاً ما في الخواص الثلاث إلاّ أنني فرقت أولاً من قبول شيء ما في اللاهوت، لا وقوف له .

وثانياً لا يتدخل في هذا التشبيه وحده على العدد، لان العين والمعين والنهر شيء واحد بالعدد، وإن كانت قد تشكلت بأشكال مختلفة، ثم تذكرت الشمس والشعاع والنور .

ولكن ههنا أيضاً جزعان .

✠ الأول، في أن تتخيل تركيب ما في الطبيعة التي ليست مركبة، بحسب حال الشمس وأحوال ما في الشمس .

✠ والجزع الثاني، من أن الجوهر الآب وحده لا يترك للباقي قواماً، بل نجعل ذلك قوام الله موجودة فيه، لا تقوم بذاتها، لأن الشعاع والضوء ليس هما شمساً أخرى، من انصباب ما من الشمس وكيفيات جوهرية، ومع ذلك فإلاّ أن أعطي الوجود وغير الوجود لله، أن يكون في هذه بحسب ما يأتي من المثال، وهذا فأشنع مما تقدم به القول .

وقد سمعت من بعض الناس قولاً مثّل به، هذه صورته، أعني به لمعاً ما، من الشمس ترف على حائط، واختلج من حركة ما، أخذ الشعاع ذلك اللمع، فأوصله بالحائط، ثم تعلق في الصلد، وتمسك هناك، وصار اختلاجاً عجيباً معجزاً، لا يثب ويقفز بالحركة المتصلة، فذاك اللمع ليس هو واحد أشد مما هو كثير، ولا هو بالأكثر من واحد، بسرعة الاجتماع والانفصال، فقبل ما يضبطه البصر ينفصل عنه، إلاّ أنه لا يمكنني قبول هذا أيضاً وأخذه، لأن السبب المحرك ههنا معروف، والله عز وجل، فليس هناك ما تقدمه، فيكون ذلك قد حركه، لأنه علة كل شيء، وليس له علة قد

تقدمته وأخرى، لأن هناك تلك الأوهام بعينها في تركيب وانصباب لا يقف، وطبيعة لا تثبت، وليس ينبغي أن نتوهم في اللاهوت شيئاً من ذلك بالكلية، فلم أجد شيئاً يثبت فكري على المثالات، إذا نظرت إلى المنحل منها، اللهم إلاّ أن يأخذ الواحد شيئاً واحداً من الصورة بحسن قبول ويطرح الباقي .

وآخر شيء رأيت أن الأقوى والأفضل، ترك المثالات بسلام، وإطراح ألفي والظل، لما فيه من الخديعة، والبعد من الحقيقة، وأن أتمسك أنا بالوهم الحسن في الأمانة، وأثبت على كلمات يسيرة، وأستعمل الروح هادياً، وآخذ النور الذي قبلته من ههنا، وأحفظه إلى الآخر، مثل الشريك والمسافر الذي اختص به، وأقطع هذا الدهر وأتجاوزه وأقنع الباقين بحسب طاقتي، أن يسجدوا للآب والابن والروح القدس، اللاهوت والقوة الواحدة، لأن به يليق كل مجد وكرامة وعز إلى دهر الأدهار، آمين، آمين، آمين .

الصلاة

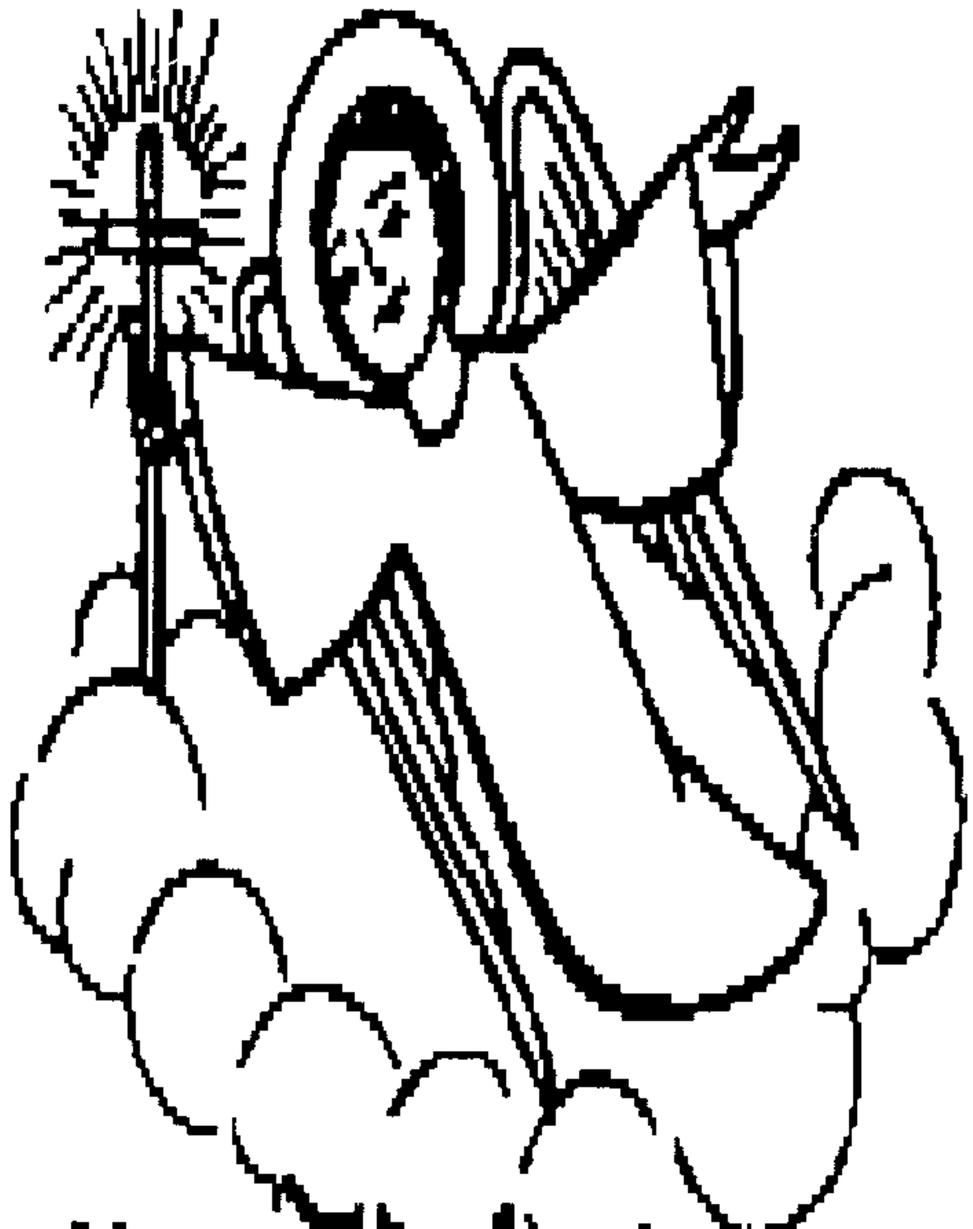

هي الوقود المستمر

لالتهاب القلب بالحب الالهي

الميمر الخامس عشر

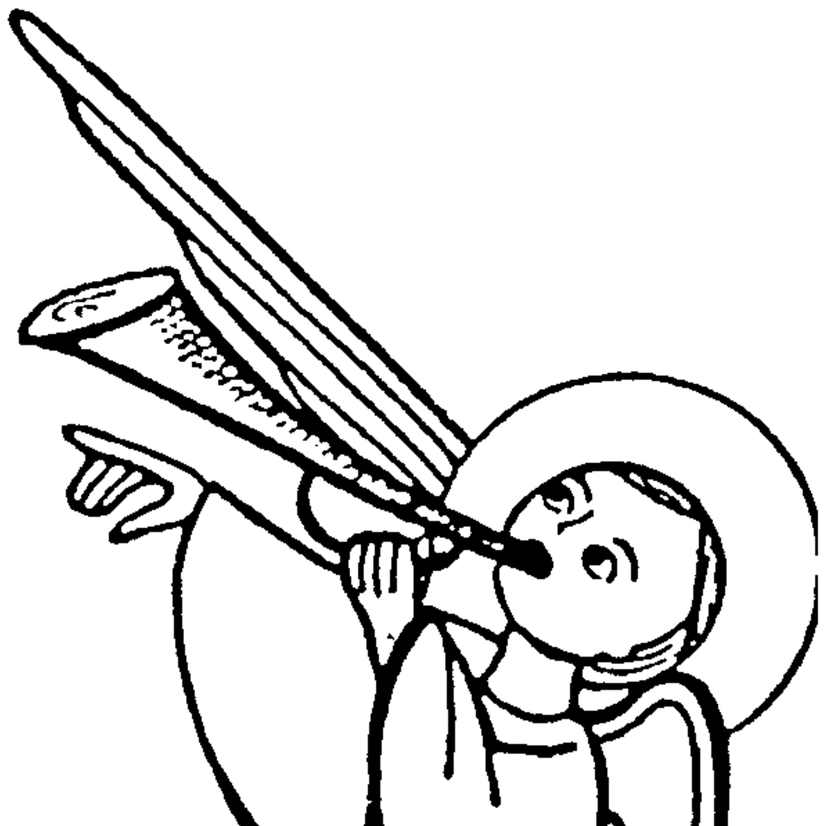

ميمر قيل في حسن الترتيب في المفاوضات

الميمر الخامس عشر
ميمر قيل في حسن الترتيب في المفاوضات

إذ كنتم اجتمعتم بنشاط، وكان المحفل كثير الملأ والناس، ومن أجل هذا فالوقت وقت قويّ للعمل، فهاتِ فلنعطكم الفائدة، ومتى كانت ناقصة عن النشاط العام، فلن تكون ناقصة عن قوتنا نحن، والذي نأتيه إنما يكون بقدر واقتصاد واختصار ما تقتدر عليه الطاقة، أفضل من ترك الكل، ومن لا يقدر على مثل هذه الأشياء، فليس هو تحت حكم، وإنما الحكم على من لا يريد، هل كان ذلك من الأشياء الإلهية، هل كان في البشرية، وأنا فراع قليل حقير، وما قدرت بعد على رضى غيري من الرعاة، ولست أقصد هذا من القول، ولا أعلم أهل ذلك باختيار من أجل الكلمة المستقيمة، أم من صغر نفس ومباراة، وفى مثل هذا قال السليح الإلهيّ، لست أعلم الله يعلم (٢كو ١٢ : ٣)، " فَعَمَلُ كُلِّ وَاحِدٍ سَيَصِيرُ ظَاهِراً لأَنَّ الْيَوْمَ سَيُبَيِّنُهُ. لأَنَّهُ بِنَارٍ يُسْتَعْلَنُ وَسَتَمْتَحِنُ النَّارُ عَمَلَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا هُوَ "(١كو ٣ : ١٣)، إلا أنني على كل حال من ههنا أروم كشف الموهبة، حتى لا أسترها، ولا أترك المصباح تحت المكيال، ولا أدفن البذرة، على ما قد سمعته منكم دفعات، وقد غيرتم بَطَآتي وصعب عليكم صمتي، ولكني أودبكم بأقوال الحق، وأولفكم للروح، فمن أين أبتديء بإصلاحكم يا إخوة، وبأي كلام أكرم المجاهدين، الذين لهم هذا المحفل، وماذا يكون الأول أو الأكبر من قولي، وما الذي أطنب فيه مما يصلح نفوسكم، وما يوافق هذا الوقت، وقد يعرف ذلك هكذا، ما أحمل من مقالنا السلم، وأنا أريد والأنفع، وما الأقبح والأضر، الانشقاق، فإذا كنت قد سألت عن هذا وأجبت، فأنا أسأل مسألة ثانية .

ما هو الذي نقض السلامة، وما هو الذي أورد الانشقاق، لنقطع العلل كما يعمل في الأمراض، ونسد ينابيع الآلام أو نيبِّسها، فنقطع مع ذلك المجاري الجارية من هناك وغايتها، فإنه لن يمكن أن يعرف حال الغاية معرفة جيدة، إلاّ من قد نظر في الأول من الابتداء نظراً مستقيماً .

فهل ترون أن تقولوا أنتم السبب، وتعرفونا إياه، أو تطلقون لي إذ كنت الطبيب أعرفكم ذلك وأتلافاه، لأنني مستعد للقول أن أردتم، وأشد استعداد من ذلك السماع إذا قلتم، ولكن أعلم أنكم ستطلقوننا بحسب اعتقادكم أنا أطباء في هذه الأشياء، ولعلنا غير دنيئين، ولا عديمين علماً بمداواة النفوس، هل كان رأيكم في هذا صحيحاً أم مفسوداً، ولا تعجبوا إن قلت قولاً معجزاً، فأنه معجز إلاّ أنه صادق، بحسب ما أقول أنا، وستطابقوني أنتم في القول، إذا توقفتم لمعرفة الغاية، ولم يلحقكم ما أشكوه، فتثبوا متسابقين إلى القول بالجرأة .

ولعمري أن السبب في هذا اضطراب طبائع حارة كبار، وليست هذه الطبائع نارية وكباراً على الإطلاق، لأن ما سبيلنا أن نذم الحرارة بالكلية، إذ كان من دونها لا يمكن أن نتمهر في ديانة ولا فضيلة، ولكن هذه الطبائع جزله مع بهيمة وقلة معرفة، والشر الذي يتولد منها هو التهجم، إذ كان التهور والتهجم من أولاد الجهل، وقلة المعرفة، والطبائع الضعيفة، لعمري فهى بطيئة متأخرة عن الفضيلة، والنقيصة لا تميل إلى حدتهما ميلاً كبيراً، كما تكون حركات الحذرين، وأما الطبائع الجزلة، فإذا كان معها قياس يؤدبها ويمهدها، فذلك قنية كبيرة تؤدي إلى الفضيلة، وأما إذا ما أعوزتها المعرفة والقياس، فذلك يساوي النقيصة، لأن الحصان سبيله أن يكون له نفس وجزالة إذا كان عتيداً أن تصير غالباً، هل في قتال أم في هيجان ومجاراة، وأن يكون فيه شيء من الخير، إذ لا يؤدبه لجام، ويتعلم الهدوء برياضة شديدة، وهذا على الأمر الكبر فهو الذي فصل الأعضاء، وفرق وخالف فيما بين الملوك وبين الكهنة، وأقام بعضهم على بعض، ثم على شعوبهم، وخالف فيما بين الشعب وذاته، وفيما بينه وبين الكهنة، وخالف فيما بين الوالدين والأولاد، والأولاد والوالدين، والرجال مع النساء، والنساء مع الرجال، وأورد هذه الأسماء في المولاة، فصيّر قوماً عبيداً وقوماً موالي، ثم خالف فيما بينهم وبين المعلمين والتلاميذ، والشيوخ والأحداث، فأهان ناموس الحياة، وما أعظم معونته على الفضيلة، وأدخل

الاستبداد بالرأي، وصارت قبيلتنا في ذاتها غير قبيلة، وهذا الشيء فهو الذي كان يعيّر به إسرائيل في القديم، فلم يقتنع بفصل إسرائيل إلى يهوذا وإسرائيل، وتصيّرهما اثنين من أمة واحدة، فجعلها قطعاً من هذا الصغير، بل أفصل المنازل منزلاً، والأرواح الضرورية، حتى إنه قسم الواحد وفرق فيما بين ذاته وذاته، ووصل هذا إلى المسكونة كلها، وإلى كل جنس من أجناس البشر، التي وصل إليها الكلمة الإلهية، وآل الأمر في كثرة الرئاسة إلى عدم الرئاسة، وتشتت عظامنا ووصلت الجحيم، ولما ظفرنا بالأعداء البرانيين، أوجبنا على نفوسنا أن يهدم الواحد منا صاحبه، مثل المجانين الذين يمسون لحومهم وما يخشون، وصار سرورنا بالشر أكثر مما يسر قوم آخرون بسلامتهم، واعتقدنا المصائب ربحاً، وقدرنا أن بتقدم الانتفاص عبادة لله، وانقسمنا واحترقنا في أنفسنا احتراقاً غير ممدوح بل مذموماً، وفى حريق لا يطهر بل يهلك، لأن ليس هو القول القاطع، ولا سكين المسيح، التي تفرز المؤمنين من الكفار، ولا هى النار التي تطرح وتشتعل وتفني المادة وتأكلها، أعني بذلك الأمانة وغليان الروح، بل ضد ذلك وهى النار التي تفنى بها من الأول وتنقطع، وهذا الشيء الذي جعل الكنيسة أجزاء، أو فرقها ليس إلى واحد مثل بولس، أو كيفا، أو أبلوا، أو فلان الذي غرس، أو فلان الذي سقى، بل هذا قد أظهر بولسين جماعة، وكذلك أبوليين وكيفاسين واعتضنا من النسبة إلى اسم المسيح الكبير الجديد، بالانتساب إلى هؤلاء الذين ندعى منهم .

ويا ليته كان هذا وحده، بل جعل لنا مسيحين كثيرين، بدل واحد، أقشعر إذا ذكرتهم، وهم المولود والمخلوق، والذي ابتدأ من مريم العائد إلى حيث قدم، والإنسان الذي ماله عقل، والموجود والمتخيل، وكذلك في الروح المتساوي في الكرامة، وغير المخلوق، والخليقة، والانفعال، والاسم المعزي، هذا وقد كان الواجب علينا أن نعرف لها واحداً، آباً غير مولود، لا ابتداء له، وابناً واحداً مولوداً من الآب، وروحاً واحداً من الله وجوده، قد خص الآب بعدم الولادة، والابن بالولادة، والروح بالانبعاث، وأما في غير ذلك، فالشمل مجتمع في اتفاق الطبع، والقدس، والمجد، والكرامة، فهذه جملة ما ينبغي أن نعرفه، وما أن نعترف به، ثم نقف عند هذا ولا نتجلوزه، ونرمى الهذيان كله، والكلام الفارغ النجس، إلى من تفرغ لذلك، فما الذي

حرّك هذا كله، الحرارة بلا قياس، والعلم الذي لا ينضبط، وسفينة الأمانة التي لا مدبر لها .

فإذا ما عرفنا هذا أيها الإخوة، فما سبيلنا أن نكون بطيئين عن الخير، بل نغلي بالروح ولا نرقد قليلاً قليلاً إلى الموت، حتى لا يطرح علينا العدو البذور الرديئة ونحن هاجعون، فأن البطء رفيق الرقاد، ولا نكون شديدي الحرارة مع بهيمة، ومحاباة الواحد ذاته، حتى لا نخرج عن الواجب، ونسقط خارجاً من الطريق الملكية، ونكون لابد لنا لا محالة، من خطأ واحد في الحاجة، إما إلى وجز بسبب التراخي، وإما أن نهور بسبب الحرارة، بل يجب علينا أن نأخذ من هذين المعنين ما كان في كل واحد من المنفعة، فنأخذ من التراخي الدعة، ومن الحرارة الغيرة، ونتحايد ما كان فيها من مضرة وهى الكسل المتولد من التراخي، والتهور الناشيء من الحرارة، فلا نكون من المعوز بغير ثمر، ومن الفاضل قريبين من العطف، فأن الفائدة معدومة بالسواء من تباطيء لا عمل فيه، وفى حرارة غير متأدبة، والتباطؤ لا يدنى من الجودة، والحرارة فتزيد وتتجاوز المقدار، فتجعل لليمين يميناً يزيد عليها، وذلك فلما عرفه سليمان معرفة يقين قال : لا تَمِلْ يميناً ولا شمالاً حتى لا تهبط من الضدين إلى شر يتساوى وهو الخطيئة (أم ٤ : ٢٧)، هذا وقد أحمد ما كان يمينا وقال : أن الله يعرف طريق التيمن ثم يصرف عن اليمين التي تبين في الظاهر يميناً وليست بالحقيقة يميناً، وهذا فقد نظر إليه في موضع آخر، فقال :" لَا تَكُنْ بَارّاً كَثِيراً وَلَا تَكُنْ حَكِيماً بِزِيَادَةٍ. لِمَاذَا تَخْرِبُ نَفْسَكَ؟ لَا تَكُنْ شِرِّيراً كَثِيراً وَلَا تَكُنْ جَاهِلاً. لِمَاذَا تَمُوتُ فِي غَيْرِ وَقْتِكَ؟ حَسَنٌ أَنْ تَتَمَسَّكَ بِهَذَا وَأَيْضاً أَنْ لَا تَرْخِيَ يَدَكَ عَنْ ذَاكَ لِأَنَّ مُتَّقِيَ اللَّهِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا كِلَيْهِمَا"(جا٧ : ١٦- ١٨).

فأن العارض الذي يعرض في العدل والحكمة شيء واحد، وهو الحرارة في العمل والقول، فتخرج هذه الحرارة وتبعد من الشيء الجيد، والفضيلة فتسقط من الزيادة، إذ كانت هذه الحرارة تفسد فساداً متساوياً في النقص والزيادة، وقد تشبه تلك الزيادة في المسطرة، والنقصان فلا يكون أحدٌ حكيماً أكثر مما ينبغي، ولا يكون أشد ناموسا من الناس، ولا أضوأ من الضوء، ولا أسوى (مستقيماً أكثر) من المسطرة، ولا أعلا من الوصية، وكيف لنا هذا، إذا عرفنا العالم، ومدحنا ناموس الطبيعة، وابتغينا القياس، ولم نهن حسن الترتيب .

فانظروا إلى السماء علواً وإلى الأرض انخفاضاً، وتأملوا كيف انتظم هذا الكل، ومن أين، ومن أي شيء كان قبل هذه الرتبة، وأي شيء هو الاسم الآن لهذا الكل، فأن الكل بالترتيب تزين، والذي زينّه فهو كلمة، وقد كان يمكن أن يتقوم هذا الكل في وقت واحد بديهاً، إذ كان كله واحداً، لأن الذي أعطى أنية لما لم يكن موجوداً وأعطى المكونات صوراً وأشكالاً، ما كان يغرب عليه ولا يضعف عن إظهار الكل في الواحد وترتيبه معاً، إلاّ أنه أتى في الأول بشيء وتأخر، وعد ثانياً وثالثاً، وفيما بعد حتى يدخل مع المخلوقات ترتيب في وقت واحد، فالترتيب قوّم الكل، والترتيب ضم وجمع السمائيات والأرضيات، والترتيب في المعقولات، والترتيب في المحسوسات، والترتيب في الملائكة، والترتيب في الكواكب، في حركاتها وأعظامها، واتصال بعضها ببعض، وبهائها، فمجد الشمس غير مجد القمر، ومجد القمرغير مجد الكواكب، والكوكب قد يخالف الكوكب في المجد، والترتيب في الأوقات والانقلابات، إذا قدمت وانصرفت ومهدت الاعتياض بالوسائط فيما بينها، وترتيب في مقادير النهار والليل، ومداهما، وترتيب في العناصر التي منها كانت الأجسام، وترتيب مد السماء وبسط الهواء، بسط الأرض أو ركبها، وصب الطبيعة الرطبة وجمعها، وأطلق الرياح، ولم يطلقها، وربط الماء في السحاب ولم يضبطه، بل زرعه على وجه كافة الأرض، بحسن ترتيب وموافقة .

وهذه الأشياء لم يفعلها لمدة قريبة، ولا لوقت واحد، بل منذ الابتداء إلى الغاية، هى لازمة طريقة واحدة، قاصدة نحوها، سالكة فيها، ثابتة متحركة، فالثبات بالكلمة والحد الذي فيها، والحركة بالانصباب، والسيلان الذي فيها، كما قال النبىّ :" لِأَنَّهُ أَمَرَ فَخُلِقَتْ وَثَبَّتَهَا إِلَى الدَّهْرِ وَالْأَبَدِ وَضَعَ لَهَا حَدّاً فَلَنْ تَتَعَدَّاهُ " (مز ١٤٨ : ٥و٦)، فهذا لثباتها، وأما القول إلى ذاتي، يقال ومهما كان أو سيكون فهذا لسيلانها، وما دام الترتيب فالكل زين والجمال لا يتزعزع، وأما عدم الترتيب وعدم الرتبة فقله في الهواء الصواعق، وفى الأرض الزلازل، وفى البحر الغرق، وفي المدن والمنازل الحروب، وفي الأجسام الأمراض، وفى النفوس تجدد الخطايا، فهذه كلها ليست من أفعال الترتيب، ولا من أعمال السلام، بل من الاضطراب وقلة النظام .

وأما الفساد المذكور والمنتظر، فما سبيلنا يا إخوة نتوهمه إلا زيادة في عدم النظام، لأن النظام يربط وعدم النظام يحل، إذا رأى الخالق الرابط، أن يحل هذا الكل وينقله، ليقف أمام من ربطه، والترتيب فرسم للحيوانات كلها للكون، والغذاء والمواضع والبلدان التي توافق كل شيء منها، فما رأى أحد قط دلفينا يحرث، ولا ثوراً يغطس في الماء، ولا شمس بالليل تنقص وتمتلىء، ولا قمر بالنهار يزيد ضوءه، وقد قال النبيّ "الْجِبَالُ الْعَالِيَةُ لِلْوُعُولِ. الصُّخُورُ مَلْجَأٌ لِلْوِبَارِ. صَنَعَ الْقَمَرَ لِلْمَوَاقِيتِ. الشَّمْسُ تَعْرِفُ مَغْرِبَهَا. تَجْعَلُ ظُلْمَةً فَيَصِيرُ لَيْلٌ. فِيهِ يَدِبُّ كُلُّ حَيَوَانِ الْوَعْرِ. الْأَشْبَالُ تُزَمْجِرُ لِتَخْطَفَ وَلِتَلْتَمِسَ مِنَ اللهِ طَعَامَهَا. تُشْرِقُ الشَّمْسُ فَتَجْتَمِعُ وَفِي مَآوِيهَا تَرْبِضُ. الْإِنْسَانُ يَخْرُجُ إِلَى عَمَلِهِ وَإِلَى شُغْلِهِ إِلَى الْمَسَاءِ. مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلَّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلآنَةٌ الْأَرْضُ مِنْ غِنَاكَ " (مز ١٠٤ : ١٨ - ٢٤).

وإذا أردت الأكثر والأخص من هذه الأشياء، قلت أن الترتيب أحد مزاجين من ناطق وذوي غير نطق، فجعل الإنسان حيواناً ناطقاً، وربط التراب مع العقل رباطاً سرياً، لا يمكن الكلام يشرحه، وربط العقل مع الروح، والمحيي، ولكيما نأتي بعجيبة عظمى في جبلته، أظهر خلاصاً وانتقاضاً في شيء واحد، فالواحد يدخل والآخر يخرج، كما يجري في جري الأنهار، واتجر للميت، وأفاد عدم الموت بالانحلال، فهذا الترتيب فرق فيما بيننا وبين البهائم، وأسكن المدن، ووضع الشرائع، وأكرم الفضيلة، وعاقب النقيصة، ووحد الصنائع، ونظم الازدواجات، وهذب العمر بمقه (بمحبة) المولود، وغرس محبة الله أكثر من الصبابة الجسمانية السفلى .

ولما لي أطيل في شرح كل شيء على انفراد، ولا أقول أن الترتيب والد كل الموجودات وحرزها، وما كان أحسن أن يأتي ههنا ما أتى في القول، لو أخذت الأشياء من عند الله صوتا، لكان الترتيب يقول أنه لما تجوهر هذا الكل، وتقوّم بالله، أنا كنت عنده متمكناً، عندما استعد عرشه، وركبه على الرياح، وعندما جعل غيومه في العلو شديدة، وعندما أسس الأرض، ووهب للكل قوة بروح فمه، ولكن الذي من أجله عبرنا هذه الأشياء، والذي قصد القول من الأول التوجه نحوه، فهو أن الترتيب في الكنائس، جعل بعضاً منها رعية، وبعضاً رعاة، وجعل ما هو مرؤوس،

وما يرأس، وما يكون رأساً، وما يكون أقداماً، وما يكون يداً وما يكون عيناً، أو غير ذلك من أعضاء الجسم، مما يؤدي جملته إلى النظام في الكل والموافقة، إما في تأخر قوم، وإما فيمن يتقدم، كما يكون في الأجسام أعضاء، ما ينفصل ولا ينقطع بعضها عن بعض، بل الذي جاء منها كله فهو جسم واحد، مركب من أشياء مختلفة، والفعل من الكل فليس هو شيئاً واحداً، وإن كانت الحاجة داعية إلى شيء واحد، من معنى الموائمة والموافقة، والمساواة في الكرامة، في أشياء غير متساوية، فالعين لا تمشي بل ترشد وتهدي، والرجل لا تبصر بل تنتقل وتنقل، واللسان فلن يقبل أصواتاً لأن هذه الخاصة للسمع، والسمع فلا ينطق لأن النطق للسان، والأنف فهو مشعر الروائح، والحنك فقد ذكر أيوب أنه يذوق الطعام، واليد فهي أداة للعطاء والأخذ، والعقل فهو الرئيس على الكل، ومنه مخرج الحس، وإليه عودته .

ومثل ذلك عندنا في جسم المسيح المشترك، إذ كان جماعتنا جسماً واحداً بالمسيح، وكل واحد منا على انفراد فهو للمسيح، وعضو من أعضاء الجماعة، فبعضنا يرأس ويتقدم، وبعضنا ينقاد ويهذب، والعمل في هذين ليس شيئاً واحداً، إذ كان ما هو مرؤوس وما يراس لا يتساويان، ولكن الجميع يصيرون في الانقياد إلى مسيح واحد يولف الجميع، وينظمهم الروح الواحد، والمرؤوسون أيضاً فكما بينهم من الفروق في التأديب والإتقان والإسنان، وكم مثل ذلك من الفروق، الرؤساء القائدين، وإذا سمعت ما يقوله بولس "وَأَرْوَاحُ الأَنْبِيَاءِ خَاضِعَةٌ لِلأَنْبِيَاءِ "(١كو١٤ : ٣٢)، فلا تشكك في ذلك فأنه قد قال أيضاً "فَوَضَعَ اللَّهُ أُنَاساً فِي الْكَنِيسَةِ: أَوَّلاً رُسُلاً ثَانِياً أَنْبِيَاءَ ثَالِثاً مُعَلِّمِينَ ثُمَّ قُوَاتٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ مَوَاهِبَ شِفَاءٍ أَعْوَاناً تَدَابِيرَ وَأَنْوَاعَ أَلْسِنَةٍ (١كو ١٢ : ٢٨)، فالأول من أجل الحق والثاني من أجل الغي، والثالث من أجل مقدار المنفعة والاستتاره، والروح فواحد والمواهب فليست متساوية، لأن أوعية الروح ليست تتساوى أيضاً "فَإِنَّهُ لِوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلاَمُ حِكْمَةٍ. وَلآخَرَ كَلاَمُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ إِيمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَلآخَرَ عَمَلُ قُوَاتٍ وَلآخَرَ نُبُوَّةٌ وَلآخَرَ تَمْيِيزُ الأَرْوَاحِ وَلآخَرَ أَنْوَاعُ أَلْسِنَةٍ وَلآخَرَ تَرْجَمَةُ أَلْسِنَةٍ. وَلَكِنَّ هَذِهِ كُلَّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ قَاسِماً لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُفْرَدِهِ كَمَا يَشَاءُ" (١كو ١٢ : ٨ - ١١) .

فيجب علينا يا إخوه أن نستحي من هذا الترتيب ونحتشمه ونحفظه، وليكن الواحد سمعاً، والآخر لساناً، والآخر يداً، والآخر فشيئا آخر، وليعلم الواحد وليتعلم الآخر، وليكن من يعمل الخير بيده حتى ينيل المحتاج والطالب، ومن الجماعة فواحد يرأس ويتقدم، والآخر فليكن خفه في الخدمة، والذي يعلّم فليكن بلطف، وليتكلم اثنان أو ثلاثة أو على انفراد، والذي يترجم فليكن واحداً، أو إذا انطلق اللسان الواحد فلينصرف الآخر، والذي يتعلم فيتوفر على الطاعة، والذي يعطي فليكن بيسر وبشاشة، والذي يخدم فليكن بنشاط ونية، فلا يكون جميعنا لساناً متهيباً، ولا كلنا أنبياء، ولا كلنا رسلاً، ولا يفسر الكل، فأن الكلام في الله عظيم، ولكن التطهر لله أعظم، لأن الحكمة لا تلج النفس الساعية بالمكر و لا تحل في الجسد المسترق للخطيئة (الحكمة ١ : ٤) ونحن فأنا أمرنا أن نزرع في العدل حتى نقطف ثمر حياة وننير بضوء المعرفة .

فبولس يرى لنا محبة الرب أن نعرف من قبل الرب، وأن نعرف أن نتعلم، وهذه الطريقة إلى المعرفة، فرآها أفضل من الأخرى، التي تأتي من النية والوهم، فتنفخ وتشمخ .

والتعليم لعمري هو كبير، ولكن التعلم هو أقل خطراً، فلما تجعل نفسك راعياً وأنت خروف، وكيف تصير رأساً وأنت قَدَمٌ، وتروم أن تقود جيشاً وأنت مرتب مع الجند، ولِمَا تطلب أرياح البحر وقد فسحت لك فلاحة الأرض بلا ملابسة الشدائد، وإن قل في ذلك ربحك فهو أحرز لك .

فإن كنت رجلاً كاملاً في المسيح، وقد ارتاضت حواسك، وقد أشرق نور علمك، فتكلم بكلمة الله التي يتكلم بها أهل التمام، وهى مستورة بالسر، وتكلم بذلك إذا أخذت وقتاً وأوتمنت، ولا تتمسك من نفسك بما لم تعطِه ولا أخذته، وإن كنت بعد صبياً وكان فكرك في الأرضيات متعلقاً، ولم تكن كنزاً ولا مقتدراً على التقدم إلى العليات، فكن واحداً من أهل كورنثوس واغتذِ بلبن، ولِمَالك وغذاء لا تمكن أعضاؤك أن تنقذه وتغتذي به لضعفها، فانطلق بما يكون الكلام فيه أفضل من الإمساك عنه، لأنك قد عرفت أن إلزام الشفتين بالترتيب ممدوح، فأحب الصمت بحيث يكون السكوت أفضل من الكلام، واجعل لك ما تتكلم فيه، وما تسمعه، وما تمدحه، وما تتمرمر منه وتدحضه، فأنكم يا إخوتي ما تعرفون جهادنا، وقد تحفزنا وتقدمنا وجلسنا متفخمين، ووضعنا هذه الشرائع على الجماعة منكم، ولعل

الجماعة أيضاً منا لا يعرفون ذلك، ولقد يستحق هذا أن يبكي منه، كيف يوزن عند الله ويميز الخاطر كله، والقول والعمل، ولا يميز هذا وحده عند الله، بل وعند الأكثر من الناس، الذين هم يتراخون ويتباطؤون في الحكم على أنفسهم، ويسارعون إلى كشف أحوال غيرهم، ويسهل عليهم أن يرخصوا لغيرنا في العظائم، أكثر مما يسامحوننا في الأحاقر، وإن كان جهلهم شديداً فقد يسابقون إلى الحكم علينا بكفر، أكثر من الحكم على نفوسهم، بالاقتصاد من الجهل .

فما تعرفون مقدار السكوت أنه موهبة من الله، وإلاّ يلزم المرء نفسه بالكلام في كل شيء، بل يكون سلطان على شيء يختاره، وعلى آخر يصدف عنه ويهرب منه، فيخزن لنفسه كلاماً وصمتاً، لأن كل مقال لين سريع إلى الحركة، وليست له حرية من أجل القول الآخر الذي يقاومه .

وأما الكلام في الله، فيزيد على ذلك بمقدار زيادة موضوعة، والغيرة فكثيرة، والخطر فشديد الصعوبة، وما الذي سبيلنا أن نخافه وما نجسر عليه، في الفهم والقول والسمع، إذ كان الخطر في هذه الثلاثة، لأن الفهم صعب، والتفسير فغير ممكن، والوصول إلى سمع طاهر أشد صعوبة، فالله هو النور، والنور الأقصى، والاندفاق الأيسر منة، والشعاع إذا وصل إلى أسفل فالكل ضوء، وإن ظهر زائداً في النور، ولكنك تراه يدوس منا ظلمة، بحسب ما قيل، "جعل الظلمة حوله مظلات مياها حاشكة و ظلام الغمام" (٢صم ٢٢ : ١٢)، إذ وضعها فيما بيننا وبينه كما وضع موسى الغطاء (البرقع) فيما بينه وبين تحجر إسرائيل، حتى لا تبصر طبيعة مظلمة الجمال المخزون، الذي قل من يستحقه بسهولة، ولا إذا وصلت إليه بسهولة، أمكن طرحه بسهولة، من معنى تسهل القنيه بل يكون النور لا بأس نورا يقوده إلى العلو بالشرف ويكون عقل قد تطهر يدنو من الطاهر فيظهر منه ما يظهر في الوقت، ويبقى ما يظهر فيما بعد، مكافأة على الفضيلة، وعلى الميل من ههنا إليه، الذي هو التشبه به، فقد قال "فَإِنَّنَا نَنْظُرُ الآنَ فِي مِرْآةٍ فِي لُغْزٍ لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهاً لِوَجْهٍ. الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ لَكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ" (١كو ١٣ : ١٢) ورأينا فأيما قدر لها، والميعاد فمقداره أشرف، وهو أن نعرف الله بمقدار ما عرفناه، هذا هو بولس المنادي بالحق العظيم، معلم الأمم بالأمانة، الذي تمم مدار البشارة

الطويل، الذي ما عاش لنفسه ولا لأحد سواه، بل للمسيح، الذي وصل إلى السماء الثالثة، ونظر إلى الفردوس، واشتاق إلى الانحلال من أجل التمام .

وموسى فإنما عرف موآخر الله بجهد، وكان ذلك بصخرة، وهذه الأشياء هى تلك، ومعناها معنى الصخرة وهذا، وكان ذلك بعد سؤاله فيه، ووصوله إليه، كان بميعاد ولكنه ما أبصر كلما اشتاق إليه، بل الذي فاته كان أكثر مما تخيل له، وذاك فكان موسى إله فرعون، الذي قاد مثل هذا الجيش في كثرته، وأظهر القوة الجزيل مقدارها من الآيات .

أما أنت فأيّ مَنْ من السماء أطعمت، وأيُّ ماءٍ من صخرة انبعت، وأيُّ بحرٍ بعصا شققت، وأيُّ شعبٍ عبّرت في مد قد يبس، وأيّ أعداء أغرقت، ومَن بعمود نار وغمام هديت، وأيّ عماليق بصلاة ومد يدين غلبت، وبصليب رسم قديم رسماً مستوراً، حتى يكون تأخرك عن إدراك الله بالكلية مصيبة عندك، ولهذه الحال تظن كل شيء وتصيح، وتتزل وتصعد في تخيلك، ولكن إذا قد ذكرت موسى، أفما عرفت من ههنا نظام الموهبة، وناموس الطقس والترتيب، ولكن إن كنت موسى فادخل في الغيم، وخاطب الله، واسمع صوتا، واقبل ناموساً، وأشهر ذلك الناموس، وإن كنت هرون فاصعد، ولكن قف خارج الغيم بالقرب، وإن كنت ثامار أو ألعازر أو ثالثا من موسى، أو واحداً من المشيخة السبعين، فابعد كثيراً وبين بموضع وقوفك أنك الثالث، وإن كنت واحداً من الشعب والجماعة، فأن الجبل ما يقبلك، وذاك فأن مسه وحش فبالحجارة يرجم، ولكن صر أسفل، واقتنع بسماع الصوت، بعد أن تكون قد تنظفت وتطهرت، كما رسم .

وأنا فإذا أردت أن أؤدبك بمثالات كثيرة، قلت لك مَن الذي كان يتمم أيادي الكهنة، فستقول موسى، ومَن الأول من التممين، فستقول هرون، وقبل هذه ومَن كان الأشياء كلها عند الله، ومَن كان العوض عند الشعب من النعمة، ومَن كان الذي يدخل إلى قدس القديسين غير واحد، وهل كان يدخل دائماً، لا ألبتة، بل مرة واحدة في السنة في الوقت الذي ينبغي، وهل كان يحمل القبة قوم آخرون غير اللاويين، وهؤلاء بحسب ما أمروا، فبعضهم كان يحمل الأشرف منها، وبعضهم ما دون ذلك، بحسب ما كان يستحقه قوم فقوم منهم، وإذا كان ينبغي أن تحرس القبة، فمن كان الذين يحرسونها، وكيف كان قوم منهم يحرسون منها جانباً، وقوم آخر، ولم يكن هناك شيء غير محدود، ولا كان غير مرتب، ولو كان من الأصاغر .

ونحن فلو وصلنا إلى مجد صغير، وربما لا نصل إليه إلاّ كيفما اتفق، ومتى درسنا ثلاث كلمات من الكتاب، وربما كانت أيضاً مقطعة وبغير فهم، فقد كان ذلك عند الجملة من الحكمة في يوم واحد، وكان ذلك حال البرج الذي فرَّق الألسن تفرقة واجبة، فللوقت قد رأينا أن نطعن على موسى، ونصير داثان وأبيرام، المجدفين الكافرين، الذي سبيلنا أن نهرب من استبدائهما برأيهما، حتى لا نشبههما في طغيانهما، فتدركنا الغاية التي أدركتهما .

فأن رأيت فأنا أبين لك ترساً آخر ممدوحاً، بما نذكره الآن من المواعظ لائقاً، وذلك قد نرى ما تلاميذ المسيح عليه من علو المنزلة، واستحقاقهم الاختيار، إلا أن الواحد منهم وحده دعي الصفا، وأوتمن على قواعد الكنيسة، والواحد فمحض من المودة ما زاد على غيره، حتى اضطجع على صدر يسوع، وصبر الباقون على تقدمه، ودعت الحاجة إلى صعود ثلاثة منهم إلى الطور، لينير صورته ويبين لاهوته، ويظهر ويكشف المستور بجسمه، فمن الذين صعدوا معه، لأن الجماعة منهم لم يبصروا الأعجوبة، فصعد بطرس ويعقوب ويوحنا، الذين كانوا قبل غيرهم معدودين، فلما حضر بعد ذلك الوقت، عند مجاهدته وانعزاله قليلاً قبل آلامه، احتيج إلى حضور قوم معه، فمن كان الذين حضروا، هؤلاء أيضاً بأعيانهم، وهذا مقدار الترتيب .

فبطرس يسأله عن شيء، وفيلبس عن آخر، ويهوذا يبحث عن غير هذا، وتوما يستعلم غيره، وآخر من التلاميذ يطلب شيئاً آخر، فهذا التقديم من المسيح، وهذه التنقية في الرتبة، وكل هؤلاء فلا يلتمسون شيئاً واحداً بعينه، ولا واحد يطلب الكل، بل كل واحد منهم على انفراد، وشيئاً بعد شيء، ولكنك ربما تقول أن ذلك، كان بحسب ما احتاج إليه كل واحد منهم، ولكن ذاك الشيء الآخر، فما يبين لك .

عندما أراد فيلبس أن يسأل عن شيء، فما جسر أن يسأل وحده حتى أخذ أندراوس، واحتاج بطرس أن يستعلم شيئاً، فأشار إلى يوحنا بأن يسأل عنه، فأين ههنا شيء من التهجم، والمحبة للرئاسة، وكيف كانوا يثبتون أنهم تلاميذ المسيح، الوديع المتواضع القلب، الذي صار عبداً من أجلنا معشر عبيده، وأعطى المجد كله في سائر الأشياء لأبيه، كي يعطينا رسماً لحسن الترتيب، والتنازل الذي قد أبعدنا الآن من تكريمه، بمقدار ما

صار الأحب عندي، ألاّ يكون أزيد الناس في الجسارة، إذ لا يظهر الترتيب في باب العظائم، والعظائم نفسها .

ألا تعلم أن التواضع لا يحكم له في صغار الأشياء، لأنه ربما كان ذلك على معنى الرياء، والتصوير الكاذب بالفضيلة، بمقدار امتحانه في سائر الأشياء .

والمتواضع عندي فليس هو الذي يتكلم قليلاً في نفسه، وهذا فيخاطب به أيضاً قليلين وفى دفعات قليلة، ولا الذي يسلم على الذليل بمذلة منه، بل الذي يتكلم على الله باقتصاد، ويكون قد عرف ما يقوله، وما سبيله أن يمسك عنه، وما يعترف بجهالة فيه، ويترك ذكره لمن أوتمن على القول فيه، ومن يرضى أن يكون غيره أشد منه في الروحانية، وقد جازه كثير في العلم، فأنه لقبيح أن يختار الواحد من اللباس والطعام لا العالي بل الدنيء منه، ويظهر المذلة في كلكل الركب، وينابيع الدموع، وفى الصوم، والسهر، والاضطجاع على التراب، والتعب الشديد، والكد العنيف، ولا يكون يعرف مقدار ضعفه، بل يصير مقتدراً على ذاته، ومتمرداً في الكلام في الله، ولا ينخفض لأحد، بل يرفع حاجبه على كل معلم، وذاك فحيث يكون التواضع، الحرز القويّ مع شرف المجد .

فما ترى أن أمسك عن ذكر الله، وهذا يأمرنا به، هذا قول قرعنا به واحد، ممن الحرارة فيه قوية، وقال :

في أي شيء سبيلنا أن نتكلم أكثر من الكلام في هذا الباب، وأين نضع ما قيل، أن أحمدك بفمي في كل وقت، وأنا أبارك الرب في كل حين، وأن حنجرتي تدرس الحق، وها أنا لست أمنع شفتي، وهذا فهو ما يقوله القائل بكلام محدود قد درسه .

فينبغي أن يعاد عليه بدعةٍ، لا بصعوبة في القول، إذا أراد به الذين يعلمون تفقهه في حسن الترتيب له، أأمر بالصمت يا حكيم، بل أأمر ألاّ تقف وقوف مخاصم، ولا أأمر أن تستر الحق، بل ألاّ تعلّم على طريقة تخالف الناموس .

وأنا أقول أني الأول، فيمن يمدح الحكمة، وشغله في الأقوال الإلهية، والذين يرون أن يتشاغلوا بذلك، ويا ليتني لا أقدم شيئاً آخر، قبل هذا الشغل، ولا أسمع من الحكمة نفسها، أني شقيّ كمن يهين الحكمة، ولا يكترث بالأدب، ولكن أهرب على كل حال من ترك الاقتصاد، وأعاف

السرف، وأرى أن أكون متباطئاً عما لا ينبغي، أكثر من أكون زائداً في المعنى، إذ كان لا يمكن الإنسان أن يحيد عن الاثنين، ويتعمد الاقتصاد، فالأوجب أن أكون زائداً في الجبن، أكثر مما أكون زائداً في الإقدام، وأنت فالذي تعمله قريب ممن إذا منعتك من الإسراف في الغذاء، وقلت أني قد منعتك بالكلية من الطعام، وإذا أرشدتك إلى النظر بعفاف، قلت أني قد مدحت العماء، فأن كان عندك قول فهم فأن القول قد قال أجب، فليس مانعاً، وإن لم، فليكن الرباط على الشفاه والأفواه، فما أوفق هذا للمهتمين والمتأهبين للتعلم، ولكن إن ساعدك وقت فعلّم، وإن لم فاربط اللسان، واخل السمع، وادرس في الإلهيات، ولكن اثبت داخل الحدود، والفظ بما يخص الروح، وإن كان ممكناً فلا تلفظ شيئاً آخر، واللفظ بذلك أكثر مما تتنفس .

فأن من أجود الأشياء وأقربها من الله، أن يتفرس الإنسان في ذكر الإلهيات، التي توصله إلى الله، ولكن اختر من ذلك ما أمرت به، لا تتقهر في البحث عن طبيعة الآب، ولجوهر الابن الوحيد، ومجد الروح وقوته، عن اللاهوت الواحد، والبهاء الواحد في ثلاثة، عن الطبيعة التي لا تنقسم، والاعتراف الذي هو رجاء المؤمنين، وتتمسك بما قد وافقك من الكلام، والقول فليكن لمن قد زاد في الحكمة، فحسبك أنت أن تكون له أساً وقاعدة، والبناء فليكن للحاذق، اقتنع بخبز يدعم قلبك، والأذود فاتركه للأغنياء، فإنه لن يلومك أحد من ذوي العقول، إن لم تتباهى في الطعام، وإنما يلومك إذا لم تقدم خبزاً ولم تسق ماء، إما تلميذ المسيح وإما غيره، إذا كنت على هذا قادراً .

والحكمة تأمرك قائلة، لا تكن سريعاً في الكلام، ولا تنافس غنياً، إذا كنت فقيراً، ولا تطلب أن تكون أحكم من الحكماء، فأن الحكمة أن تعرف نفسك، ولا تتجاوز إلى استعلاء، لئلا يلحقك ما لحق الأصوات إذا زادت في الصياح، فانقطعت فيما بعد، فأنه الأفضل أن يكون الواحد حكيماً، ينحط من أجل الدعة والخيرية، من أن يكون جاهلاً فيتطاول من التهور والسرعة، فسبيلها أن توصلك إلى الاعتراف وحده، متى ما طولبت به، وأما ما زاد على هذا فليزد فيه جبنك، والخطر هناك في التراخي والتوقف، وها هنا في الإقدام والإسراع، وأنه صعوبة عليك إذا لم تكن مقتدراً في كل الكلام، ولا يكون له التقدم في كل مقدمة مطالبة، ومتى ظهر قوم أخر أحكم منك وأشد تهوراً، فأن المنة في ذلك لله أن يعطيك الأشرف،

وترى أن يخلصك بالأشياء العامية القريبة، وهذا فعجيبة ليست في الكلام وحده، بل وفي الخليقة بعينها، إن كنت تأملت هذا في وقت، فليس التقدم في الخلائق لبعضها دون بعض، بل للكل والنعمة فمشتركة لجبلة واحدة، والأشياء التي تخلص في الأمانة، فليست للأقوياء بل للمختارين، وأي شيء أحسن من الهواء والنار، والماء والأرض، والأمطار والثمار، ما كان منها أنيساً، وما كان منها برياً، ومن السترة فيكن، واللباس الذي يستر، ونحن وهذه الأشياء، والجملة فنوالها مشترك، واشتراكها فكليّ عند قوم، وزايد وناقص عند الآخرين، ولن يكون أحد يبلغ به الاغتصاب إلى مثل هذا القدر، حتى يروم التمتع وحده بالنعمة المشتركة، تطلع الشمس بالسواء، وتمطر على الأغنياء والفقراء، أو تداول الليل والنهار فمشترك، وموهبة الصحة فمشتركة، وحد الحياة فمشترك، ومقدار الجسم والنعمة فمشتركة، وقوة الحواس فمشتركة، وربما كان الأكثر للفقير، من طريق أنه يشكر أكثر، ويلتذ بالأشياء الشاملة، أكثر مما يلتذ بها من قد غزرت عنده، فهذه كلها سابغة متساوية في الكرامة، وهي دلائل على عدل الله .

وأما الذهب والجواهر المأثورة الشفافة، وما كان من اللباس لينا، قد زاد المعنى في التفوق فيه، والمائدة الهائجة الملتهبة، والفضلات من القنية، فإنما هي جمال القليل من الناس، وهذا فقد أرَى أنا وفي الأمانة أنه مشترك، أعني الناموس والأنبياء والأقوال، وتعليم الوصايا، وتأديب التكميل، آلام المسيح، الخليقة الجديدة، والرسل والأناجيل، وتقسم بالروح والأمانة، والرجاء والمحبة لله، ومن الله، وليس مثل الموهبة التي وهبت لإسرائيل الكفور الجحود في المن، بل ذلك بمقدار ما يختاره كل أحد، ومن المشترك أيضاً الصعود والنور القليل ههنا، الغزير فيما يرجى، ومعرفة الآب والابن والروح القدس، التي هى أكبر، والاعتراف برجائنا الأول، فأي شيء أكبر من هذه، وأي شيء أعم .

وأما ما كان زائداً، فأن كان أكرم لقلة وجدانه، فأنه دون الأول، من طريق أن الضرورة ليست داعية، والتي لا يمكن لنصرانيّ أن يكون إلاّ بها، فهى أنفع من التي لا يصل إليها من الناس إلا أيسرهم، فبعض الناس يستأثر بالعلم، ويرتفع على الكثيرين، ويقاس فيما بين روحانيات مع روحانيات، ويكتب على فضائل قبله القول الذي يبني كل أحد مثلنا، والكلمة التي تبني كثيرين أو قليلين، عوضاً من كثيرين، أو بدلاً من الكل، ولا

يصبو إذا كان فقيراً إلى الخوض في الأعماق، فليصعد و يسترشد، وليحمله العقل أن أثر إلى السماء الثالثة مثل بولس، ولكن فليكن ذاك على ذاك وصناعة وعلم، حتى لا يهوى من التعالي، ولا يسقط ريشه من أجل علو الطيران، فأي جسد أو تخيل في صعود ممدوح، وأي هبوط مثل التشبك برفعة تؤدي إلى عدم المعرفة، بذلة الصعود البشريّ، فكم مقدار نقصه عن العلو الحقيقيّ، الذي يعلو الكل، وآخر فيكون عليلاً في فكره، وفقيراً في لسانه، لا يعرف ترديدات الأقوال، ولا كلام الحكماء وألغازهم، ولا مقاومة ترن ومسكه وطبعه، ولا تحليلات قياس جرنسيس، ولا تقعر صناعة أريسطوطاليس، ولا حسن لسان أفلاطون وأسحاره، وهم قوم دخلوا في الكنيسة دخولاً ردياً، مثل ضربات مصرية، فعند هذا من أين يخلص، وبأي كلام، لأن لا شيء أغنى من النعمة، وقد قال القول، ما يحتاج أن تصعد إلى السماء لتحدر المسيح من هناك، ولا تنزل إلى الهاوية لتصعده من بين الموات(رو١٠ : ٦ و ٧)، ولا تبحث عن الطبيعة الأولى، ولا السياسة الأخيرة، والكلمة بالقرب منك(رو١٠ : ٨)، وهذا الكنز والذخيرة ففي الفكر واللسان، الواحد إذا آمن، والآخر فإذا اعترف، فأي شيء أسرع من هذه الثروة وأوجز، وأي شيء أسهل من هذه الموهبة وأقرب، اعترف بيسوع المسيح وتيقن أنه قام من بين الأموات وتخلص، فأن الأمانة وحدها عدل، والاعتراف خلاص كامل، لاسيما إذا انضاف إلى المعرفة الدلائل والمجاهرة .

وأنت فأي شيء تطلب أعظم من الخلاص، هل المجد والبهاء الذي هناك، إلاّ أن الخلاص عندي أنا كثير إذا كفيت العذاب الذي هناك، وأنت فتسلك الطريق الوعرة، التي ما ذقت ولا سلكت، وأنا فأطلب المدق الذي خلص كثيرين، وما كان يكون شيء من أمانتنا يا إخوة، أظلم لو كانت تخلص الحكماء وحدهم، ولا أهل الفضول في الكلام والبراهين المنطقية، ولقد كان يحتاج من يطلبها ذهبا وفضة، وغير ذلك من الأشياء المكرمة في الأرض، التي يحرص عليها كثيرون، ومع ذلك فقد كانت الخيبوبة تتصل بها، إذ كان المحبوب عند الله وما يختص به، إنما هو العالي الواصل إلى القليل من الناس، وكان القريب الذي يقدر عليه الكثيرون مرذولاً عنده مدحوضاً، وهذا فما كاد يصيب ولا الدون من الناس، ولا يطلبون الكرامة التي تصل إليها المقدرة، بل يسرون بما عظم منها وتقدر وحده، فضلاً عن

الله الذي له أشياء كثيرة يعجب منها، ويُعرف فضله فيها، إلاّ أنه لا يخصه منها شيء، مثل ما يخصه الإحسان إلى كل أحد، فلا تطرحن ما جرت به العادة، ولا تتصيدن ما كان فرادى، حتى تكون بأشياء كثيرة غير معوزة، فأن النصيب إذا كان مع حرز وأن كان صغيراً، فهو أجل من كثير متهلهل متخلخل .

فليؤدبك سليمان بالمشورة في قوله أن المعسر إذا كان سالكاً مع البساطة، كان أفضل،" الْفَقِيرُ السَّالِكُ بِكَمَالِهِ خَيْرٌ مِنْ مُلْتَوِي الشَّفَتَيْنِ وَهُوَ جَاهِلٌ " (أم١٩ : ١)، وهذا , احد من أمثاله قد أتى فيه بحكمة، فأن الفقير في القول والمعرفة إذا دعم وأسند بالكلام البسيط وخلص به، كمن يخلص على طرف رقيق، كان أفضل من جاهل يعوج شفتيه، ويتفكك في كلامه، ويعول على برهان لا يعرفه، ويرفع صليب المسيح ويحطه، وهو شيء يفوق الكلام، والقوة في الأقوال، وضعف البرهان فيه، فليس هو من نقصان الحق .

فلماذا تطير إلى السماء، وأنت رجل، ولم تبن برجاً، وليس معك ما تتممه، ولم تروم كيل الماء بيدك، ومساحة السماء بشبرك، وكل الأرض بقبضتك، وهذه فهي عناصر كبار، يقدر على مساحتها وعددها خالقها وحده، واعرف نفسك أولاً، وتأمل ما في يديك من أنت، وكيف خلقت، كيف تركبت حتى تكون صورة الله، وقد ارتبطت بالأذون، ما الذي حركك، وأية حكمة هى التي تطببك، وأي شيء سر الطبيعة فيك، كيف يحويك مكان والعقل منك لا يحويه موضع، وكيف أنت ثابت في مكانك، وخاطرك يصل إلى كل مكان، كيف نظرك قصير ويتسير إلى بعيد، وهو مسكن وقرار لما قد ظهر له، ووصلت إليه قوته، وكيف شيء واحد بعينه يحرك ولا يتحرك، ويدبره الرأي، وأي شيء هو استقرار الحركة وسكونها، وما هو تقسم الحواس، وكيف يباشر العقل بها ما هو خارج منه، ويقبل ما يأتي من خارج، وكيف تتخذ الصور، وما هو حفظ المتخذ أو ذكره، وما هى استعادة ما قد مضى، أو تذكره، وكيف النطق يتولد من العقل، ويولد نطقاً آخر في العقل سواه، وكيف يتغير المعنى بكلام، وكيف يغتدي الجسم بالنفس، وكيف تشارك النفس الجسم في تألمه، وكيف يخمد الخوف، وتحل الحرارة، ويقبض الحزن، وتبسط اللذة، وتذيب الجسد، ويطير العجب، ويخفف الأمل، كيف يهيج الغضب، ويحمرُ الخجل بما يستمدانهِ من الدم، فيهيج

الغضب من غليانه، ويتمكن الخجل من انبساطه، وكيف تماثيل الآثار في الأجسام، وما هو تقدم الفكر، وكيف يلى ويأمر في كل شيء وينهى، ويسكن حركات العوارض، وكيف تنضبط النفس في الدم، وهو شيء لا جسم له، وكيف في الجميع هو انصراف النفس، فهذه الأشياء أو شيء منها.

فتأمل أيها الإنسان، ولا أقول لك بعد هذا اعرف الطبيعة، أو حركة السماء، أو تركيب الكواكب وترتيبها واختلاط العناصر، أو فروق الحيوان، ونقصان القوة السمائية وزيادتها، وكل الأشياء التي يتفوق عليها الكلمة الخالق، ولا أقول مع ذلك حدود العناية الأولى وسياستها، ثم بعد هذا فلست أقول لك اجسر، بل احذر الدنو إلى ما فوق هذا، وما يفوق قوتك، ولكن كل قول ينافس ويباري، فإنما هو رياضة ومقدمة في المشاجرة في الأشياء العالية، ولكن ينبغي بحسب ما تخيل الصبيان على الأوائل من الأخلاق، حتى يخلصوا من التعسر فيما بعد، كذلك نعمل في القول جزلاً، لئلا يكون الإنسان متهجماً في الصغار، ولا خالياً من أدب، لئلا يخالف الصواب، بالإدمان عند استعمال الكبائر، فأن الواحد إذا لا ينطق من أول مرة في الشر، وكان يبتعد منه إذا أشرف عليه، تيسر له ذلك، أكثر من تيسيره إذا رام قطعه، وأن يستعلي عليه بعد زيادته وتفاقمه، كما قد يسهل ادعام صخرة وضبطها من أول أمرها، أكثر ما يسهل ردها إذا انحدرت، ولكن أن كنت زايداً في النهم، ولم تقدر أن تضبط المرض، فادرس ما ذكرته لك وقف عنده، واصرف منافستك، ومباهاتك في الأشياء التي ليس فيها خطر، وإن كنت لا تقبل هذا، وكان لسانك لا يلتجم، وكان ينبغي عندك أن تبغى وتطغى لا محالة، ولا ترى أن تنخفض عن الأقوال الأولى .

إذا كان أولئك يعرفون للمعرفة مقداراً، وأردت أن تكون كبيراً أكثر مما ينبغي، فلا تدن أخاك، ولا تسمِّ خبثه كفراً، ولا تتصرف وقد حكمت عليه، أو يئست منه، وتهجمت في ذلك، وقد وعدت وضمنت التراخي واللين، ولكن ههنا كن متواضعاً، كل ما أمكن، وههنا أوثر أخاك وقدمه، ولا تقدمه فيما تضر به نفسك، بحيث تكون الدينونة والامتهان إبعاداً من المسيح، ومن الرجاء المنفرد، ولا تقطع من الزيران حنطة قد استترت، قديماً كانت حنطة أشرف منك، بل اصلح ذلك في بعض المواضع بدعة ورفق، كما لا يعمل عدو، ومن كان من الأطباء عاتيا قطاعاً، ولا كمن يعرف شيئاً واحداً، لا يزيد فيه شيء على الكى والقطع، وفى موضع آخر

فلم ضعفك، وتأمل ألا تكون رمداً، وبمقلتيك عارض آخر، فتبصر الشمس مظلمة، ولا يكون كل شيء يدور عندك، إذا كان بك غثيان، أو كنت سكراناً، فجهلك أنت تجعله لغيرك، وقد ينبغي أن تلتفت الآن كثيراً، وتصبر على ألم، قبل أن تحكم على آخر بكفر، فأن قطع الإنسان ليس هو مثل قطع نصبه، أو زهرة من الأزهار الوقتية، لأن الإنسان صورة الله، وأنت قائماً تخاطب صورته فتدان .

افهم يا أخي يا من تدان كما تدين، إن كنت تدين عبداً غريباً، غيرك يسوسه ويدبره، فهذا ميز أخاك كما تميز نفسك، لأنك بمثل هذا التقدير تقدر إذا حصلت في الدين، فلأجل ذلك لا تسرع أن تقطع ولا تنفِ عضواً، لأنك لا تعلم أن كان تبصر به شيئاً من الصحيح، بل عظه وأنذره وسله، فعندك مسطرة تقوم بها المداواة إذا كنت عبداً للمسيح الوديع، الرافق بالبر، الذي حمل أمراضنا، وإن خالفك في الأول فطول تأنيك، وفى الثاني فلا تيأس، فقد تبقى وقت للمداواة، وإن خالف في الثالث .

فكن اكاراً مترفقاً بالبشرية، اطلب من السيد ألا يقطع ولا يضرم التينة، التي لا تثمر ولا تنفع، بل يرد ويداوي ويطرح شيئاً من السرجين (السماد) وإصلاحاً من اعتراف وخزي يلحق من الاشتهار، وبطريقة هوان، فمن يعلم إن كانت تعود وتثمر وتطعم يسوع، عند عودته من بيت عنيا .

واصبر على رائحة كريهة من أخيك، أكانت موجودة أم مظنونة، يا من هو ممسوح بالطيب الروحانيّ، المركب بصناعة عطرية، حتى تتيله شيئاً من طيب أريحك، فليس الشر سم أفعى، حتى تكون عندما يلدغك قد طرحك في أوجاع أو خنقك، فيكون لك من ههنا عذر إذا هربت من الجنس أو قتلته، بل إن كنت قادراً فداو، وذاك إنما هو رائحة كريهة لا غير، فربما أبعدتها عطريتك أنت بغلبتها، لأن كنت من أجل من يشارك في العبودية، ويواخيك في الجنس، قد قبلت شيئاً مثل ما قبله بولس الغيور، عندما فكر وجسر وقال، أن يدخل إسرائيل إلى المسيح بدله، أن كان ذلك ممكناً لموضع تحننه (رو ٩ : ٣) ولعمري لقد كنت أنت قبلت ذلك سريعاً، وأنت تجد أخاك وربما كان ذلك من وهم وحده، فتهلك بالإقدام والجسارة، من لعلك قد ربحته بالصلاح والخيرية، وهو عضو من أعضائك، قد تألم من أجله المسيح، وقد قال بولس عندما جاء به في باب الطعام، أن كنت قوياً

وجسوراً بالقول وشهامة الدين، فابن أخاك لا تهدمه بطعامك، وقد أكرمه المسيح بالشركة في الألم "فَإِنْ كَانَ أَخُوكَ بِسَبَبِ طَعَامِكَ يُحْزَنُ فَلَسْتَ تَسْلُكُ بَعْدُ حَسَبَ الْمَحَبَّةِ. لا تُهْلِكْ بِطَعَامِكَ ذَلِكَ الَّذِي مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِهِ" (رو ١٤ : ١٥) وإن كان كلامه في شيء آخر، فأن القول في الوعظ قد يشبه في لنفع، وقد ينبغي أن يكون عندنا أيضاً ناموس، مثل ما كان حكماء اليهود في القديم، أن يطلقوا الأحداث بعضها، إذا كان جميعها لا يوافق النفوس الرطبة غير الوثيقة، فكذلك لا يطلق عندنا قو ل الأمانة لكل أحد، ولا في كل وقت، بل في وقت ما، ولقوم من الناس، أعني بذلك من لا يكون عليلاً بالكلية، وبطيئاً في الفكر، ولا مسرفاً في القدم جداً ومنافساً، وشدة الحرارة في الديانة يزيد على الواجب فيها، ويرتب هنا منهم من يكون إذا رتب في مكان لا يضر نفسه، ولا غيره، ويطلق الجرأة في الكلام، لمن كان مقتصداً في القول، ولطيفاً بالحقيقة وعفيفاً، وأما غير هؤلاء من الكثيرين، فيصرفون عن هذه الطريقة، وعن المرض المتمكن من محبة الكلام، ويردون إلى طريق أخرى، ونوع آخر من الفضيلة لا خطر فيه، بحيث يكون القليل ناقصاً من الضرر، والكثير زائداً في حسن العبادة، فلو كان مثل ما الرب واحد، والأمانة واحدة، والمعمودية واحدة، والإله رب الكل واحد، بكل معنى وبكل شيء، كذلك كانت الطريق إلى الخلاص واحدة، وهى التي تختص بالقول والعلم، وكان إذا زل واحد عن هذه الطريق زل عن الكل، وسقط عن الله وعن الرجاء الذي هناك، لما كان يكون أوفر خطراً، ولا أشد غلطاً، ممن يسير بهذه المشورة أو يقبلها، وأما إذا كان كما في البشريات، فصول السير والاختيارات، في كبار منها وصغار، وما يزيد بهاؤه وجفاؤه، وكذلك في الإلهيات، ليس الشيء الذي يخلص واحداً، ولا السبيل إلى الفضيلة واحدة بل عدة، ومنها ههنا صارت المنازل عند الله كثيرة، كما قد انذاع به القول، وحصل موضوعاً في السن الكل، والسبب في هذا أن الطرق التي تؤدي إلى ما هناك كثيرة، فيها ما يصير إلى عطب، وفيها ما يؤدي إلى نور، وفيها منخفضة، وفيها حريزة، فلما لنا نترك الحريزة، ونقصد هذه الخطرة، اللزجة المنزلقة، التي لست أعرف إلى أين تؤدي، والغذاء فليس النوع الواحد منه موافقاً لكل أحد، بل الواحد يوافقه شيء والآخر يصلح الآخر، على حد الفرق في الإنسان والأخلاق .

أما السيرة في العمر أو المذهب في القول، أن يكون لكل واحد الشيء الواحد منه أبدا موافقاً، فلست أقول هذا ولا أوافق قائليه، فأن صحتم إليَّ، وقبلتم الأحداث منكم والشيوخ، والرؤساء والمرؤوسين، والمنفردين والمختلطين، قد رأوا هذه المبهاة الزائدة، التي لا ينتفع بها، وخلوها بسلام، واقصدوا من العيش والسيرة والكلام، ما يقرّب إلى الله، ولا خطر فيه، لتصلوا من هناك إلى الحق والعلم الصادق، بربنا يسوع المسيح، الذي له المجد مع أبيه، والروح القدس، إلى أبد الأدهار آمين آمين آمين .

تم الإنتهاء من هذا المخطوط

في ٢٣/ كيهك / سنة ١٧١٩ ش ، الموافق ١ / ١ / ٢٠٠٣ م

ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر آمين

(مت ٢٨ : ٢٠)

الفهرست

الموضوع	الصفحة
• تقديم	٧
• مقدمة	٨
• حياة القديس إغريغوريوس النزينزيّ	١١
الميمر الأول إلى الليان وعظ، وفيه ذكر الميلاد المقدس ..	١٧
الثاني على الميلاد المقدس	٣١
الثالث على الغطاس المجيد	٤٥
الرابع يحض فيه على التعميد	٥٩
الخامس في محبة المساكين وهم المجذومون	٩٩
السادس في إغريغوريوس أسقف نيصص	١٢٩
السابع في عيد الفصح	١٣٥
الثامن في عيد الفصح أيضاً	١٣٩
التاسع في الأحد الجديد	١٦٣
العاشر في العنصرة	١٧٣
الحادي عشر في اللاهوت	١٨٧
الثاني عشر في الابن	٢١٥
الثالث عشر في الابن أيضاً	٢٣٣
الرابع عشر في الروح القدس	٢٥١
الخامس عشر في حسن التريث في المفاوضات	٢٧٣
الفهرست	٢٩٤

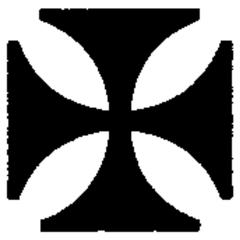

كتب صدرت
إعداد راهب من دير المحرق

١- تفسير سفر المزامير الجزء الاول
٢ - تفسير سفر المزامير الجزء الثانى
٣ - تفسير سفر المزامير الجزء الثالث
٤- الطهارة والبتولية
٥- الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي الجزء الأول
٦ - الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي الجزء الثاني
٧ - الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي الجزء الثالث
٨ - الموسوعة اللاهوتية الشهيرة بالحاوي الجزء الرابع
٩- اعترافات الآباء
١٠- ميامر القديس إغريغوريوس "الناطق بالإلهيات" جـ١
١١- ميامر القديس إغريغوريوس "الناطق بالإلهيات" جـ٢